

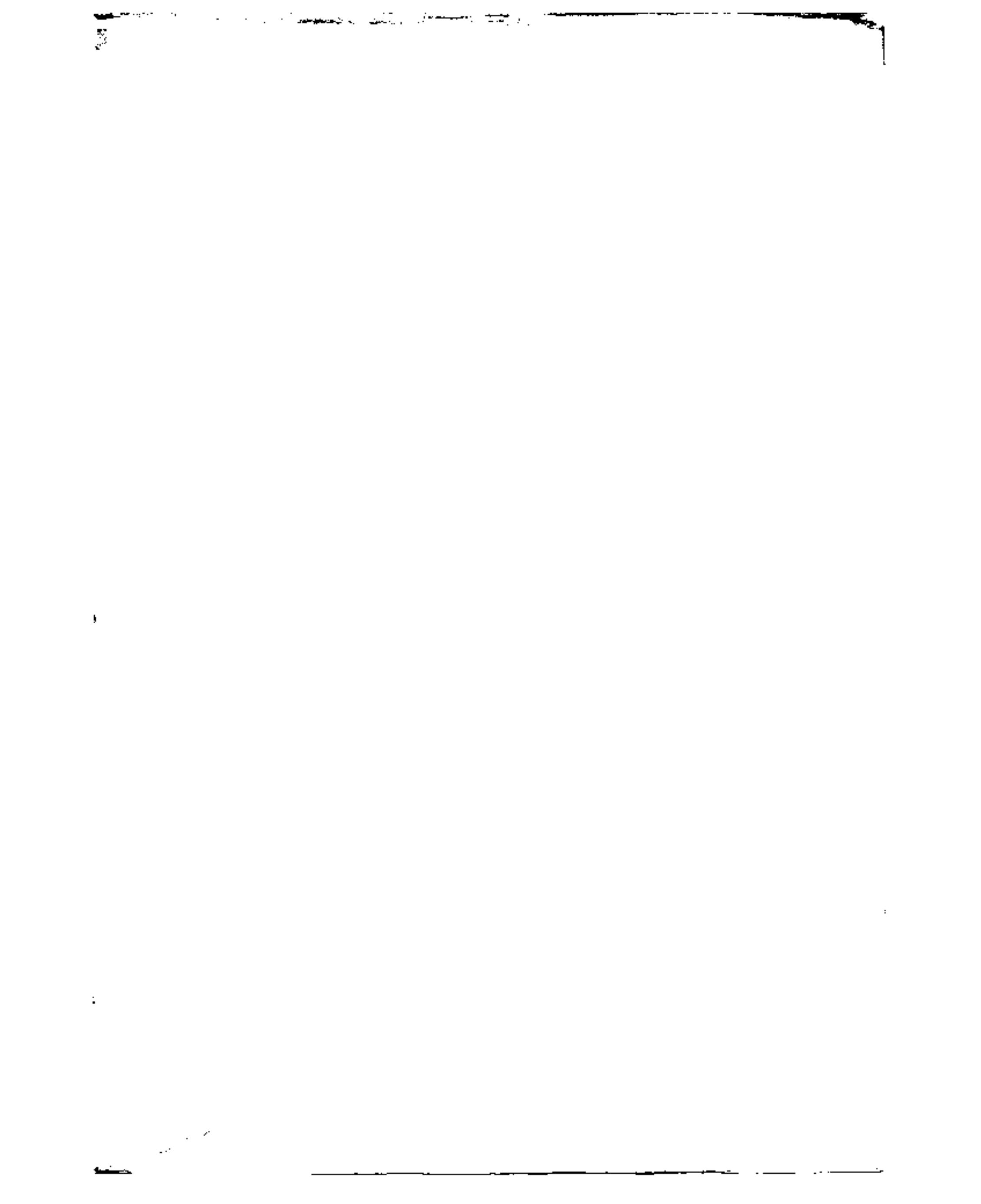
اللغة بين القومية والعالمية

تأليف

الدكتور ابراهيم أنيس



دار المعارف بمصر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

حين خطر إلى من ذي بضع سنوات أن أكتب في موضوع دور اللغة على المستوى القومي والمستوى العالمي ، راعى ذلك الخاطر ، وهالني أمره ، وكدت أنصرف عنه .

فقد تبين لي وعورة الطريق إلى مثل هذا البحث : وما قد يكتنفه من الحساسية لدى بعض الشعوب ، مع ما أخذت به نفسى من الحيدة والموضوعية في كل ما أكتب . إذ يتطلب الموضوع دراسات في السياسة الدولية وقوانينها ومعاهدها واتفاقياتها : وأخرى في النظم الاجتماعية وتطورها . وييتطلب كذلك جولات في تاريخ الأمم قديمه وحديثه . وغير ذلك من دراسات ليست من صميم تخصصي الذي يقتصر على اللغة وأصواتها ومرسياتها وصيغها وتراثها ودلائلها الفاظها .

ومع كل ما تقدم استخرت الله . وشرعت في البحث ووحدتني منه البدء غارقاً في خضم عشرات من المراجع الأجنبية : فلا أدرى بأيها آخذ : أو إليها أترك : وكلها تعرض عرضاً سريعاً في بعض فصولها الدور اللغة في المجتمع الإنساني .

ولعل من أهم ما حفزني إلىتناول هذا الموضوع الذي تتصارع حوله الآراء : أنى وجدت اللغويين العرب يقعنون ببحث اللغة من حيث كثتها وخصائصها وتطورها . بحثاً جذريراً متعمقاً لا يدع صغيرة ولا كبيرة من تلك المسائل اللغوية إلا عرضوا لها بالتفصيل والإسهاب . ثم تبيّن تلك الجهود مقصورة أو مخصوصة في مجال ضيق من المدارسين المتخصصين في اللغات بالكليات والمعاهد .

وتركوا دور اللغة في الشعوب والأمم لأصحاب الدراسات الأخرى ، السياسية منها والاجتماعية ، بل الجغرافية أيضاً . من أولئك الذين لدوا الموضوع لما خفيها في ثنياً كتبهم وبخوبهم ، اعتقاداً منهم في غالب الظن أن اللغة ، بوصفها ظاهرة اجتماعية ، أمر مأثور معروف يجري على كل لسان ، وليس له كل ذلك الأثر الذي نعتقد أنه يُعزى إلى اللغة وحدها .

في حين أن اللغويين الغربيين قد أسهموا في هذا المجال بجهود موفورة مشكورة ، وإن لم يكن لها صدى عملي كبير بين ساسة العالم حتى الآن . فأولئك الذين نادوا منذ نصف قرن بما أسموه حق تحرير المصير قد ضلوا الطريق في الاهتداء إلى الأساس المقيق في هذا الحق ، وبما هم عنه جنباً ، وعن جهل يملي أثره حيناً آخر . وتلمسو في تقرير مصائر الأمم أموراً طارئة أو وليدة المصادقة البحتة ، كالحدود الجغرافية مثلاً تلك التي لم تعد في العصر الحديث ذات بال في التخطيط للشعوب .

وغفل هؤلاء الساسة ، أو كادوا ، عن مدى الأثر العميق للغة في عقول الناس ونفوسهم ، وعن مدى استنساك الشعوب بلغاتهم . واستعدادهم للتضحية في سبيلها بالأنس والآرواح . وكانت لذلك تلك المشاكل التي لا تشهي بين شعوب الأرض ، والتي عرضنا لطرف منها في هذا الكتاب تحت عنوان (فتش عن اللغة) .

باء ، إذن : التخطيط للشعوب بالفشل الذريع في إثر الحروب وبمقتضى تلك المعاهدات الدولية ، لأن النوايا لم تكون صادقة مخلصة لدى أولئك الذين قاموا به ، وعملوا له . فقد غلبت عليهم الأثرة . وجنحوا إلى طموح دنيوي يتمثل في توسيع مجال النفوذ الاستعماري أو الاقتصادي على حساب بعض الشعوب الضعيفة المهيضة الحانق . فكانت بذلك تلك المأساة الدامغة التي يشهدها العالم بين الإنسان وأخيه الإنسان .

وأما أثر اللغة في الهوض بشعب ما ، فأمره أعظم وأخطر ، وإن لم يفطن إلى هذا بعض زعماء الشعوب وقادتها ، أو ربما فطنوا إليه في حالات . ثم

لم يولوه ما يستحق من عناء وتقدير ، لأن العمل له يتطلب جيلاً أو جيلين ولا يوفى ثماره خلال سني حياتهم ، مهما امتد أجل سلطانهم وحكمهم . ولذلك يرتكرون عادة كل جهودهم على النفع العاجل ليجني الشعب ثماره خلال فترة تاريخية وجизئية ، كمشروع عمراقي ، أو خطة تتحقق بعد خمس سنوات ، ونحو ذلك .

والإصلاح اللغوي هو أحد تلك الأهداف الآجلة التي لا يتوقع لها النجاح إلا مع التخطيط لأجيال قادمة ، ومع المتابعة والثابرة ، وبذل الجهد مهما شئت . أو استفحلاً أمرها على أبناء هذه اللغة .

وليست تم الوحدة السياسية ، وتستقيم النظم الاجتماعية في شعب من الشعوب إلا على أساس الوحدة اللغوية التي تصبح للشعب بثابة رباط سحرى يجذب أفراده بعضهم إلى بعض ، ويرشق الصلة بينهم ، فيفكرون في عقل واحد ، ويشتركون في مشاعر وأحاسيس موحدة ، ويتعاونون على ما فيه خيرهم جميعاً ، وما يكفل لهم الأمن والاستقرار والرخاء .

ولا تكون تلك الوحدة اللغوية إلا في لغة مشتركة للشعب ، تنتظم الناس كافية . ويتطلع كل منهم إلى إتقانها والسيطرة عليها . نطقاً وأداء . كما هو شأن في بعض الشعوب الحديثة الناهضة التي لكل منها لغة مشتركة تسود بها جنباً إلى جنب مع ما قد يكون لها من لهجات ، ولكنها تسمو على تلك اللهجات . فلا تشوها صبغة منها ، بل هي التي إذا تكلم بها المرء لا يكاد السامع يستشف من كلامه شيئاً عن بيته الخلية .

وتقنع بعض الشعوب بأن تكون لغتها المشتركة في صورة مكتوبة فحسب ، أو قد يهمل في بعضها الآخر أمر الكلام لتنازعه في بيئتها لهجات متباينة ، فلا يكون لدى الشعب ما يلم شتات أبنائه ، ويوجد بين صفوفهم . ولا يرجى للشعب مع مثل هذه الحال نهضة أو ازدهار .

فالعمل على نشأة اللغة المشتركة للشعب ، وتنميتها ، ونشرها في كل الأوساط والبيئات خير ضمان لكل قومية ، وتماسكها وقوتها .

وقد أصبحنا بعد معاناة اللغة سبعين طويلاً ، في معظم صورها ، وكل ظواهرها نؤمن إيماناً قوياً بأنها أصل الأساس في كل قومية ، وأن ما عدتها مما قد يسميه بعض الدارسين بقومات القومية ليس في الحقيقة إلا أموراً عارضة تختلف باختلاف الشعوب في كثير من الحالات . وينسب لها هؤلاء الدارسون أكثر من واقعها : مع حسن النية من جانب بعضهم ، أو التزييف والتضليل من جانب البعض الآخر .

وإذا كانت القومية في دلالتها المجردة هي تلك الرابطة الوثيقة التي تقوم بين جماعة من الناس ، وتحلب بعضهم إلى بعض ، وتوحد بين أفكارهم وأحساسهم ، وتشعرهم بكينائهم وتقيمهم عن غيرهم ، وتحفزهم إلى التعاون والتآزر على ما فيه خيرهم جميعاً ، فإن مثل هذه الحال قد تحققت فيها بدأت به الإنسانية مما يسمى بنظام الأسرة ، ثم تحققت في النظام القبلي ، ثم تحققت في القرية أو المدينة ، وأخيراً تحققت في الدولة الحديثة ، وسميت حينئذ بالقومية .

وتشتمل هذه الرابطة مع كل الأنظمة السابقة في اللغة أو الكلام الذي هو وسيلة التفاهم بين الناس . يعبر عن رغباتهم وعواطفهم وخلجات نفوسهم وما يدور بخلدتهم .

فاللغة هي القومية ، أو القومية هي اللغة ، بدأت في المجتمع الإنساني دائرة صغيرة في صورة الأسرة ، ثم اتسعت فشملت القبيلة ، ثم زاد اتساعها فضمت القرية أو المدينة . . . وهكذا حتى تكون منها في العصر الحديث ما يسمى باللغة المشتركة في شعب من الشعوب . فاتساع رقعة اللغة عملية حتمية يؤكدها لنا ما نشهده الآن من سعة انتشار بعض اللغات حتى تکاد تطيف بمعظم أنحاء العالم .

وليس ينقض من صحة هذا الرأي أو ينفيه ، تلك الأمثلة التاريخية التي فيها اندررت بعض اللغات ، أو فضلت إلى لهجات انعزل بعضها عن بعض ثم أصبحت لغات مستقلة ، بفعل ما يعرف بلعنة بابل .

فلم يعد في العصر الحديث مجال لانعزال الشعوب أو انطواها على نفسها ولا لانعزال بنيات الشعب الواحد بعضها عن بعض . ذلك لأن أوضاع ما يتسم به العصر الحديث شدة الاتصال وسرعته : وال الحاجة الملحة إليه . وتزداد هذه الحاجة إلحاحاً كلما مرت السنون ، بل كلما مرت الأيام . أى أن المستقبل لتوحد اللهجات في لغة مشتركة ، ولن يشهد العالم ثانية تفتت لغة مشتركة إلى لهجات محلية متباينة .

فعـ نـهـضـةـ الشـعـبـ ، وـأـنـحـذـهـ بـأـسـبـابـ المـدـيـةـ الـحـدـيـثـةـ ، وـدـوـنـ تـدـخـلـ منـ قـوـىـ اـسـتـعـمـارـيـةـ ، تـصـورـ حـتـمـيـةـ النـشـأـةـ لـلـغـةـ الـمـشـرـكـةـ الـىـ تـوـحـدـ بـيـنـ أـبـنـاءـ هـذـاـ الشـعـبـ فـيـ الـأـفـكـارـ وـالـعـواـطـفـ ، وـتـشـعـرـهـمـ بـكـيـانـهـمـ الـمـتـمـيزـ .

غير أن هذه التـيـجـةـ الـحـتـمـيـةـ قدـ تـسـغـرـقـ أـجيـالـاـ قـبـلـ تـحـقـقـهـاـ ؛ وـلـذـلـكـ كـانـ مـنـ وـاجـبـ الزـعـمـاءـ وـالـقـادـةـ الـعـمـلـ عـلـىـ الإـسـرـاعـ بـهـاـ ، وـالتـضـطـيـطـ الدـقـيقـ للـوـصـولـ إـلـيـهـ فـيـ زـمـنـ أـقـلـ ؛ وـتـلـكـ هـىـ أـجـلـ خـدـمـةـ يـعـكـنـ أـنـ يـقـدـمـهـاـ لـشـعـبـهـمـ . وـتـصـورـ كـلـمـكـ مـعـ دـعـمـ الـلـغـاتـ الـمـشـرـكـةـ فـيـ الـعـالـمـ اـزـدـيـادـاـ فـيـ سـعـةـ اـنـتـشـارـ بـعـضـهـاـ فـوقـ مـاـ لـهـاـ الـآنـ . وـإـنـدـثارـ مـعـظـمـ الـلـهـجـاتـ الـمـخـلـيـةـ وـالـلـغـاتـ الـمـغـمـوـرـةـ اـنـشـئـةـ اـشـأـنـ .

فـإـذـاـ شـاءـ الـقـدـرـ أـنـ يـقـنـعـ الـإـنـسـانـ بـفـكـرـةـ الـحـكـوـمـةـ الـعـالـمـيـةـ الـىـ تـسـوسـ النـاسـ جـمـيعـاـ ؛ فـلـنـ يـكـونـ ذـلـكـ إـلـاـ اـمـتدـادـاـ لـنـظـامـ الـدـوـلـةـ لـيـصـبـحـ نـظـامـ الـعـالـمـ ؛ كـمـاـ اـمـتدـ الـنـظـامـ الـقـبـلـيـ مـنـ قـبـلـ فـأـصـبـحـ نـظـامـ الـدـوـلـةـ الـحـدـيـثـةـ .

وـجـيـنـدـ يـتـحـقـقـ لـلـبـشـرـيـةـ ذـلـكـ الـحـلـمـ السـعـيدـ بـأـنـ تـصـبـحـ لـلـإـنـسـانـ لـغـةـ عـالـمـيـةـ ، أـوـ قـومـيـةـ إـنـسـانـيـةـ لـلـنـاسـ كـافـيـةـ وـفيـ جـمـيعـ بـقـاعـ الـأـرـضـ .

أـمـاـ بـعـدـ : فـقـدـ أـدـلـيـتـ بـدـلـوـيـ فـيـ الـدـلـاءـ ، وـأـسـهـمـتـ بـتـصـيـبـ فـيـ مـوـضـوـعـ دـوـرـ الـلـغـةـ فـيـ الـقـومـيـةـ وـالـعـالـمـيـةـ ؛ رـاجـيـاـ أـنـ أـكـوـنـ قـدـ بـصـرـتـ بـخـطـورـتـهـ وـعـظـمـ شـائـهـ . وـبـالـلـهـ التـوـفـيقـ .

إـبرـاهـيمـ أـنـبـيـسـ



الفصل الأول

اللغة

اللغة مع وضوح أمرها وجريانها على كل لسان ، وجد الدارسون في تعريفها تعريفاً دقيقاً بعض المشقة والعنق ، وانقسموا بهذا الصدد إلى فرق وطوائف ؛ ولعل خير تعريف للغة كما نألفها الآن ، ذلك الذي ارتضاه وبكله معظم الدارسين ، وهو أن يقال : (إن اللغة نظام عرف لرموز صوتية يستغلها الناس في الاتصال بعضهم ببعض) .

ويتضمن هذا التعريف مع إيجازه أموراً أربعة يتناولها الدارس في إفاضة وإسهاب ، ولكننا نؤثر هنا أن تعرض لها في رفق ، وأن نشير إلى مضمونها في إيجاز .

أولاً – النظام :

لللغة نظام تخضع له . وقواعد مقررة . فليست فوضى . ولنست تألف من أشياء لا رابط بينها . فلها نظام معين في توزيع أصواتها ، ونماذج محددة في بناء كلماتها وحملها . ولو لا هذا النظام لما تحقق لها هدف ، ولما استحقت أن تكون مجالاً لدراسة . وقد انتفع هذا النظام اللغوي حتى في أكثر اللغات بدائية وفي البيئات التي لم يتع لها أي نصيب من الحضارة . وظهر هذا جلياً لبعض الرؤاد المغامرين من اللغويين الذين قضوا شطرًا من حياتهم في بعض جهات أفريقيا ، وحاولوا تقييد القواعد لكلام الناس هناك ، فأذهلتهم تلك الدقة العجيبة في نظام كلامهم ، والتماثل بين أفرادهم في كيفية إصدار الأصوات ونحوين العبارات ، برغم أنهم لا يكادون يشعرون أو يدركون خصائص كلامهم ، وإنما يصدر كل هذا منهم في شكل آلى دون عمد أو قصد أو تأنيق ، وبرغم أن لغتهم لم تعرف التدوين أو الكتابة في أية صورة من صورها .

بع أن لكل لغة نظامها الخاص ، تبين للدارسين أن هناك وجوه شبه بين نظم اللغات في العالم ، مصدرها القطرة الإنسانية . فيحدثنا « چرسن » في خاتمة كتابه « موقف الجنس البشري ، والشعب ، والفرد من اللغة » (١) حديثاً ممتعاً فاخذه هنا بقدر ما يتسع المجال .

لما ظهر للمحدثين من اللغويين أن هناك عناصر مشتركة بين لغات البشر حاولوا تعليل هذه الظاهرة ، ففهم من كان يؤمن بوحدة النشأة الإنسانية ، وأن الناس جميعاً أبناء آدم وحواء ، ولا غرابة لهذا أن يكونوا قد بدعوا الحياة فوق الأرض وطمّن لهم لغة واحدة ، وأن وجوه الشبه التي تلحظها الآن بين اللغات ليست إلا انحداراً عن تلك الوحدة اللغوية في النشأة الأولى للإنسان . وأشهر أصحاب هذا الرأي في العصر الحديث العالم الإيطالي « ترومبتي Trombetti » .

وليس من الضروري في تعليل تلك العناصر المشتركة بين لغات البشر أن نقسم أنفسنا في مسائل شائكة تتصل بأصل الإنسان وأصل اللغات البشرية ؛ فتساءل هل نشأت الأجناس البشرية المختلفة نشأة مستقلة لكل جنس منها ، أو كانت موحدة النشأة فوق الأرض ؟ وهل كانت لغات البشر في البدء لغة واحدة أو عدة لغات ؟ فقد يعرضنا هنا إلى أمور عقائدية تعبدية . أو المصدى تصريح وردت في الكتاب المقدسة .

ولا داعي إلى أن نسلك مسلك بعض علماء الحضارات الإنسانية . - من المحدثين حين يقرر بعضهم أن الحضارات البشرية كما تألفها الآن نشأت نشأة موحدة في بيئه أصلية ، ثم شعبت أو انتشرت في بيئات متعددة . وكان بهذا حضارات متباينة : ولكن هذه الحضارات المتباينة قد استعار بعضها من بعض ، وقد يغضها بعضها . فإذا وجد هؤلاء العلماء في حضارة وسط أمريكا صورة الفيل ، وهو حيوان لا تعرفه هذه البيئة : وليس هناك ما يدل على أنه كان موجوداً بها ، قالوا إن صورة الفيل في حضارة وسط أمريكا ليست إلا مظهراً من مظاهر تقليد الحضارة الآسيوية . فوجوه الشبه بين الحضارات المختلفة

في العصر الحديث في رأيهم ، وليدة افتراضات الحضارات بعضها من بعض وتقليد بعضها البعض . ويرى فريق آخر من العلماء أن وجود الشبه التي نلحظها الآن بين الحضارات المختلفة إنما ترجع إلى الطبيعة البشرية . وتتأثر بهذا الرأي الأخير بعض اللغويين في تعليل العناصر المشتركة بين لغات البشر في العصر الحديث . وأشهر هؤلاء اللغويين العالم الألماني « شومارٹ Schauchart » إذ يقرر أن الاشتراك بين اللغات يرجع إلى مصدرين : أوطما وأوضجهما أن هناك فصائل لغوية ، تتسمى أفراد كل فصيلة من هذه الفصائل إلى أصل لغوي موحد ؛ افترضوه وحاولوا إعادة تكوين بعض عناصره . فالفصيلة الهندية – الأوروبية أصل قديم هو الذي أطلقوا عليه اللغة الهندية – الأوروبية الأم . تلك اللغة الموحدة التي كانت سائدة منذ نحو خمسة آلاف سنة . ومن هذه اللغة الأم تفرعت كل اللغات الهندية – الأوروبية . القديم منها والحديث : ولا غرابة إذن أن نلحظ وجود شبه بين هذه الفروع . وكذلك شأن مع اللغات السامية التي يفترض لها الباحثون أصلاً لغويًا واحداً يطلقون عليه اللغة السامية الأم .

ولكن وجود الشبه بين اللغات لا تقتصر على ما بين أفراد الفصيلة الواحدة . فهذا المصدر الثاني الذي ولد تشابها محدوداً بين لغات البشر جميعاً . ويمكن أن نعزوه إلى النطارة الإنسانية . ولا جرم إذن أن تشهد ذلك الشبه العجيب بين الناس في العالم . في طرق إصدار الأصوات اللغوية . والاعتماد على ما يسمى بجهاز النطق لدى كل منهم . ذلك الجهاز الذي استعمله الإنسان في تكيف الأصوات وجعلها على صور مختلفة . فهو يستغل الشفتين في أصوات . والسان مع فراغات الفم في أصوات أخرى . ثم الخلق ودوره في أصوات بعض اللغات : والحنجرة وما تقوم به في كل عمليات التصويب . بل حتى القصبة المخوائية : والرئتين . ومع أننا نلحظ في دراستنا للأصوات أن منها ما يصدر عن طريق هواء الشهيق تجد في الكثرة الغالبة من الأصوات الإنسانية ، أنها تصدر مع هواء الزفير الصاعد من الرئتين مارأيا بأجزاء هذا الجهاز النطقي حتى خارج الفم . ولكن تلك الأصوات التي تصاحب هواء الشهيق نادرة جداً ، ولا نكاد نراها

إلا في لغة مغمورة بدائية كلغة « المونتوت » في جنوب أفريقيا . أى أن الإنسان في العالم يستخدم طريقةً موحداً من الناحية الفسيولوجية في إصدار أصوات اللغة . ولا عبرة بالاختلاف حجم الشفاة ، أو أشكال الأنوف ، أو غير ذلك من النواحي التشريحية التي قد يقع الخلاف فيها بين الشعوب . فقد يرهق التجارب الحديثة أن الإنسان من حيث اللغة ولد بيته وحدها ، بحيث إذا ربي الطفل المصري مثلاً منذ ولادته في بيئة صينية ، أو بين زوج أفريقيا نشأ من حيث اللغة كأى فرد في هذه البيئة .

فإذا شئنا أن نسوق أمثلة محددة لتلك العناصر المشتركة بين لغات البشر وجدنا أن منها ما يتصل بالأصوات ، ومنها ما يتصل بالكلمات ، ومنها ما يتصل بالأجرمية أو التحو . فمن ملاحظات اللغويين في العصر الحديث ، تلك التي تكاد تطارد في كل اللغات :

- ١ - أن الحرف بين حركتين أى « صوتي لين » يميل إلى الجهر . فالباء في فعل مثل « عتب » قد يجعلها الناطق « دالا » . أيًّا كانت لغته .
- ٢ - وأن الكاف إذا ولها صوت لين أمامي أى حركة كالكسرة أو الفتحة المرققة مالت إلى أن تصبح « تُش » ثم « شينا » ^(١) .
- ٣ - وأن التير في أحد المقاطع قد يرتب عليه سقوط الحركة في المقطع غير لمثير من نفس الكلمة ، أو ضعف هذه الحركة . فنبر المقطع الأخير من الفعل « شرب » في نطق أهل المغرب هو الذي أسقط فتحة الشين ، وجعلهم ينطقون بها ساكنة أى « شُرب » .
- ٤ - كثيراً ما يؤثر التير في جهود الصوت المهموس . كذلك اللهجة التي تروي في كلمة « صقر » حين ينطق بها « زقر » . ومثل « آه » من « off » .
- ٥ - اشتراك الكلمات « ماما » ، « يابا » ، « دادا » في معظم اللغات ، وكذلك صلة بعض الأصوات بالدلالة مثل الكسرة « ز » التي تعبر في الكثير من

(١) انظر قانون الأصوات الحنكية من ١٢٢ من كتاب اللهجات العربية .

الحالات عن صغر الحجم وضيق الوقت ونحو ذلك .

٦ - الميل العام إلى تكرار الكلمات أو مقاطع منها ، وهو ما يُعرف في الدراسات العربية بالإتباع والمزاوجة .

٧ - فكرة الكِمْ في كل اللغات من مفرد وثنى وجمع ، وفكرة التذكير والتأثيث ، والمحب والحمد ، والماضي والحاضر والمستقبل ، والشَّكل والغائب والمخاطب ، وغير ذلك من وجوه شبه في نحو اللغة وأجر ومتها . فالكلمة في الكثرة الغالية من لغات البشر تختلف صورتها وسلوكها تبعاً لكل هذا . ولا سهل إلى تفسير مثل هذه الظاهرة إلا بالرجوع إلى الفطرة الإنسانية . تلك الظاهرة التي جعلت لغويًّا نابها مثل « ديلكروا » يقرر أن اللغات جميعاً في كل العالم كبساط واحد فوقه نقوش مختلفة .

ولكننا لا نستطيع برغم كل ما تقدم أن نقول إن مثل هذه الملاحظات يؤلف قانوناً ثابتاً كقانون الجاذبية مثلاً . ذلك لأن اللغة منذ نشأتها سلوك إنساني في مجتمع إنساني ، أي أن للإنسان دخال في نطورها وتغيرها ، ومثل قوانينها مثل كل القوانين الاجتماعية التي لا تعرف الاصطدام الشام ، وهذا مختلف عن القوانين الطبيعية .

ثانياً - عرقية اللغة :

في حديثنا هنا عن عرقية اللغة إن نحاول أن نقتصر بعاجل النشأة الأولى للغة الإنسانية ، فقد انصرف الآن معظم اللغويين عن مثل هذا البحث ، وأصبحوا يرون أنه أشبه بالبحث فيها وراء الطبيعة ، كذلك لن نعرض إلى ذلك الصراع الفكري الذي كان بين فلاسفة اليونان و Merchanti العرب حول اصطلاحية اللغة أو توصيفها ، فقد عالجنا كل هذا في تفصيل وإسهاب في مواضع أخرى من دراستنا^(١) .

(١) انظر الفصل الأول من كتاب دلالة الألفاظ للمؤلف ، والفصل الثاني من كتاب أسرار اللغة للمؤلف كذلك .

فليس يتسع المجال هنا إلا إلى تذكير يسير بما يجمع عليه اللغويون الآن من أن اللغة يحكمها العرف الاجتماعي لا المطلق العقلي ، هكذا تبدو لنا على كل حال في العصور الحديثة . ذلك لأننا حين نتساءل عن السر في ذلك النظام الخاص الذي تخضع له كل لغة لا نكاد نظفر بإيجابية مقنعة إلا حين نقول إن الأمر كله مرجعه إلى العرف والاصطلاح . فثلا لماذا اختصت دلالة الكلمة في كل لغة بجموعة معينة من الأصوات في ترتيب خاص ؟ بل لماذا اختصت الدلالة الواحدة وفي اللغة الواحدة في معظم الحالات بجموعة خاصة من هذه الأصوات ؟ في العربية مثلاً لماذا سميت الشجرة بالشجرة ، والوردة بالوردة ، والماء بالماء وهو ذلك ؟ لا نريد أن نسوق هنا مع أولئك الاشتقاءين الذين يخلو لهم أن يتسموا أسباباً مثل هذا ، كالذى كان من ابن دريد في كتابه الاشتقاء ، حين يزعم أن «قضاعة» من انقضاع الرجل أى بعده عن أهله : وأن إبليس من «الس» يعني تحير ، وغير ذلك مما نراه في كتبهم . فقد أصبح الآن من الأمور المقررة التي لا تتحمل جدلاً أو مناقشة أنه ليس هناك صلة ذاتية أو طبيعية بين الكلمة ومدلولها في أي لغة من اللغات .

كذلك حين نتساءل لماذا تتحدد كل لغة نظاماً خاصاً في ترتيب الكلمات من الجملة ، بل لماذا في اللغة الواحدة تتغير دلالة الجملة بتغير الترتيب بين الكلمات ؟ ولماذا يسلك الفعل مع الاسم المؤنث سلوكاً مختلفاً عن سلوكه مع المذكر ، ومع المفرد غير سلوكه مع الجمجم أو المثنى ؟ ولماذا عاملت بعض اللغات أسماء معينة على أنها مما يسمى بالمخايد أى ليست مذكورة ولا مؤنثة ؟ في حين أن لغات أخرى نظرت إليها على أنها مذكورة أو مؤنثة . بل إن الدلالة المحسوبة الواحدة قد تعامل ككلمتها في لغة معاملة المؤنث ، وفي أخرى معاملة المذكر ، فالشمس في اللغة العربية تعامل معاملة المؤنث ، وفي الفرنسية تعامل معاملة المذكر . ولماذا اختصت اللغة الأرمنية المختلفة من ماض وحاضر ومستقبل بصيغ وأساليب خاصة تختلف عن اللغات الأخرى ؟ لماذا ، لماذا ، ونظل

نتساءل لماذا دون أن نجد جواياً منطقياً عقلياً، ثم تقنع في آخر الأمر بالقول: إن كل ذلك مرجعه إلى العرف والاصطلاح ، ولا مشاحة في الاصطلاح .

ومع أنها أشرنا آنفأاً إلى أن هناك عناصر مشتركة بين كل اللغات لعلها ترجع إلى الفطرة الإنسانية ، فالذى لا شك فيه أن مسائل اللغة كما نشهد لها الآن لا يمكن أن تعزى إلا إلى العرف الاجتماعي ، وليس من الضروري هنا أن نفترض شيئاً كالذى افترضه «رسو» في نظرية العقد الاجتماعى ، أو أن نحاول ما حاوله «دى سوسير» من النظر إلى اللغة على أنها أمر مجرد يتنظم كل أفراد البيئة اللغوية ، وحين فرق بين اللغة والكلام^(١) يجعل الكلام العمل الفردى الواقعى الذى يقوم به المرء حين يشاء التعبير بما يجول في ذهنه .

ومع أن اللغة ككل سلوك اجتماعى يحكمها العرف ، يجب أن نفرق بين عرف وعرف ؛ فهناك عرف متصل بالحدور مر عليه زمن طويل قد يمحى بالقرون ، وآخر حدثت نسبياً لا يكاد يتجاوز عشرات من السنين . فليس العرف في الأفراح واللائم ، أو في المأكل والملبس والمشرب ، أو في الأعياد والمناسبات الاجتماعية كالعرف في اللغة ، من حيث تأصل الحدor وحرص الشعوب عليه . فالعرف اللغوى قد يكتسب مع الزمن ما يشبه القداسة . لا سيما بعد أن نزلت باللغة الإنسانية الكتب المقدسة ، وكتب بها روائع الأدب في العالم . ويعد كل شعب إلى الحفاظ على عادات لغته بكل الوسائل فيتخير من تاريجه فرة يعدّها المرحلة النهائية من تاريخ هذه اللغة ، ويستخدم مما ساد فيها من أساليب وتعابير نماذج يحرص على تقليدها وتشييّط قواعدها ، فيعتقد لهذا المخالط اللغوية ، ويصنف المعاجم والكتب . ويعمل على تدريسها أو تلقّيّها في معاهد العلم ، وكل ذلك لعله يبطئ بذلك التغير المحتمل في تاريخ كل لغة .

ومن يسير على المرء أن يدرك فكرة العرفية في كثير من المظاهر الاجتماعية ، فهو حين يخالف قوماً غير قومه ويجد لهم تقاليد وعادات تختلف تقاليد قومه

وعاداتهم في الطعام والشراب واللباس يدرك في سهولة ويسر أن الأمر مرجعه إلى العرف بين هؤلاء وهؤلاء ، وكذلك الشأن مع الأفراح واللأم والأعياد والمناسبات . ولكنه مع اللغة لا يكاد يتصور أن السلوك اللغوي مسألة عرف أيضاً إلا بعد دراسة في علم اللغة ، وتجارب لا تتوفر إلا لطائفة من الذين يعنون بهذه الدراسة ، لذلك كانت عرفية اللغة موضع ذلك الجدل الكبير بين القدماء من المفكرين . وليس بعجب لهذا أن نجد بعض القنماء من علماء العربية يربطون بين اللغة والوراثة والجنس ، ولا يتذمرون أن غير العربي جسماً يمكن أن يتقن العربية ، أو يسيطر عليها .

فلمرة قبل أن تناح له فرصة للدراسة اللغة يتتصور أنه ورث لغته عن أبويه كما ورث عنهما بعض الملامع والصفات البيولوجية . فالعربي مثلاً يتكلم العربية لأنه ولد لأبوين عربين ، والإنجليزي يتكلم الإنجليزية لأنه ولد لأبوين إنجليزيين وهكذا . فليس يدرك المرء العادي أن تعلم أي لغة ، بل وإتقانها ، عملية مكتسبة لا أثر للوراثة أو الجنس فيها . فإذا ربي طفل مصرى من أبوين مصرىن في بيئة صينية مثلاً نشأ من حيث اللغة كأبناء الصين .

ومرجع هذا التصور أو الوهم بين جمهور الناس هو أن عرفية اللغة تتطلب في إدراكها والاقتناع بحقائقها تفكيراً وبحثاً لا يتأتى عادة إلا للدارسين المتخصصين .

ومن هنا جاء تفوق العرف اللغوى على كل عرف آخر . فكثيراً ما تغير الشعوب من بعض عاداتها الاجتماعية خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً ، وقد يكمن هذا التغير عن عمد أو قصد ، ولكن من النادر أو قل من المستحيل أن يقع مثل هذا في لغتهم . فالتطورات اللغوية بطبيعة وتدرجية وتتحقق اللغة دون عمد أو قصد ، وتبقى اللغة معها محافظة على جوهرها وأصواتها ماشاء الله لها البقاء .

وقد حدثتنا التجارب التاريخية عن كثير من تلك الأحداث التي أسفرت عن تغير في عادة تتصل بنوع الطعام والشراب لدى شعب من الشعوب إثر اتصاله بشعب آخر واحتلاطه به . كما حدثتنا عن تلك الآثار المدمرة التي كانت

نتيجة المخروب والغزو ، وترتب عليها أن فقد الشعب المغزو في أكثر الحالات كل أو جل عاداته الاجتماعية ، دون صراع طويل أو مزير ، إلا حين يكون مع اللغة ، تلك التي تأصلت جذورها ، وأصبحت فناؤها يعني فناء الشعب المغزو واندثاره باندثار لغته . فقد تقرأ في تاريخ الشعوب عن تلك الحالات النادرة التي اندرت فيها لغة من اللغات بعد صراع مزير مع لغة أخرى خلال عدد من القرون تخرج اللغة الغازية بعدها متختنة بالجراح ، أو متأثرة بعض صفات اللغة المغزوة ، فإذا أسلمت اللغة المغزوة قيادها ، واستسلمت في نهاية الأمر لقدرها المحتوم ، قيل: حيث إن أصحابها هم الذين افترضوا أو اندرروا ، فلا تقوم لهم قائمة بعدها ، بل يفنون في غيرهم ، ويفقدون كيانهم المميز ، برغم أنهم قدموا يحفظون بعدها صفات بيولوجية أو تشريحية معينة .

وقد تظل اللغة المغزوة وبعد قرون من الفنر والسيطرة قابعة كامنة في أذهان أصحابها ، لا تكاد تنطلق بها الألسنة إلا في مجالات محدودة . ودون أن يكون لها نصيب يذكر من الحياة العامة . فكانما قد توارت أو انزوت أو كنت تتربص حتى تلك اللحظة التي فيها تُبعث من مرقدها . وتعود سيرتها الأولى . ومن هنا كانت أهمية اللغة في الحفاظ على كيان شعبها وتماسكه وعدم السماح له بالفداء في غيره من الشعوب .

ثالثاً - الأصوات :

أوضح مظاهر اللغة أو مقوماتها الأصوات : تلك التي تنظر فتتألف منها الكلمات ، ثم الجمل والعبارات . وقد أصبحت الآن أصوات اللغة محل دراسات مستفيضة وتجارب معملية كثيرة ، تولف فيها الكتب الضخمة ، ولا يتسع المجال هنا إلا لعرض موجز .

وقد أتخد الإنسان هذه الأصوات منذ آلاف من السنين بمثابة وسط تنتقل خلاله الأفكار والأحاسيس وكل ما يحول في الذهن . وهي وإن كانت في

أساسها ككل أصوات الطبيعة أي موجات تستقبل خلال الهواء عادة ، وتتلقيها الآذان ، غير أن الأصوات في النطق الإنساني ذات موجات مركبة أو معقدة ، منها الرئيسي ومنها الفرعى .

وليست هذه الأصوات التي تؤلف منها الكلمات والجمل إلا رموزاً أحلاها الإنسان بمحبته الخلاقة محل الخواطر والأفكار . ذلك لأن الرمزية هي العمل الأساسي في الفكر الإنساني ، فنستطيع عقولنا أن تحول كل تجربتنا في الحياة إلى رموز . وليس بين هذه التجارب ما لا يمكن للعقل أن يحوله إلى رموز ، وتلك هي إحدى الصفات التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان . وإذا أمكن للأنواع الراقية من الحيوان أن تدرك مدلول العلامات والإشارات ، فإن الرمزية إحدى خصائص الإنسان وحده ، وهي التي سمت بالإنسان فوق عالم الحيوان . بل إن قدرة الإنسان على استعمال الرمز هي التي جعلت منه سيداً لعالم الطبيعة . وشنان بين الرمز والعلامة ، فالرمز علامة تحمل مثل شيء آخر ، أي أنه عوض عن علامة أخرى مرادفة له . ولعل أهم ما يميز الرمز عن العلامة أنه غير مقيد بزمن ، في حين أن العلامة قد تشير إلى الماضي أو الحاضر أو المستقبل من الأحداث . فالأرض النبلة علامة على أن السماء أمطرت ، وقوس قزح علامة على أنها تمطر الآن في مكان تربب . ودكتنة السماء في الصباح علامة على احتمال سقوط النظر في أثناء اليوم . هذا إلى أن العلامة تقيد معلومات في صورة مباشرة ، فالعلامة الحمراء في إشارات المرور تفيد أنه على السائق الرقوف . فمثل هذه العلامات قد يدركها الحيوان الذكي بعد تدريب قليل ، ولكن لا سبيل إلى الرمزية في عالم الحيوان .

ومع أن هذه الأصوات ليست في حقيقة أمرها إلا رموزاً للأفكار والخواطر ، قد اكتسبت مع الزمن ما يشبه القدسية ، وأصبحت في بعض مجالات الأدب هدفاً يقصد لذاته ، ويستمتع به المرء سواء نطق بها أو استمع إليها . ولعل فيما نسميه بموسيقى الشعر خير شاهد على هذا .

وقد ارتبط الإنسان بهذه الأصوات ارتباطاً وثيقاً على مر العصور ، حتى

أصبح الآن غير قادر على التفكير أو التعبير عن خواطره إلا عن طريقها، مما جعل كثيراً من الفلاسفة يقررون أنه لا سبيل إلى التفكير بغير هذه الأصوات مماثلة في كلمات وجمل. فإذا قيل لنا إن الإنسان حيوان ناطق فعنده أنه قادر على التفكير لأنه قادر على النطق.

وبرغم أن الأصوات، مماثلة في الكلمات، رمز للأشياء والأفكار، فليس هناك صلة مباشرة أو طبيعية بين الكلمة وما تعبّر عنه إلا عن طريق الصورة الذهنية. ومع أن لكل كلمة دلالة ذهنية معينة في اللغات عدد من الكلمات تقتصر وظيفتها على الربط في الجمل والعبارات، كالحرف والأدوات التي لا تفيد معنى في ذاتها. وفي اللغات أيضاً بعض الكلمات التي تعبّر عن الدهشة أو المرح أو الألم، ولكنها فيحقيقة أمرها تعدّ مجرد أصوات عاطفية ليست ذات دلالات محددة.

ولكنا نلحظ أنه في الكثرة الغالبة من الكلمات كل لغة تعبّر بكل الكلمة عن شيء معين، وأنه لا صلة طبيعية أو مباشرة بين النطق ومدلوله. ولا ينفي ذلك الحقيقة أو ينفيها ما نراه في اللغات من عدد قليل من الكلمات التي تعد دلالاتها بمثابة صدى لأصواتها. كأسماء الأصوات العربية، مثل الصہيل للفرس والزفير للنار والخرير للماء ونحو هذا. فهذا النوع من الكلمات قليل العدد، ويختلف باختلاف اللغات في كثير من الأحيان. هذا إلى أن كثيراً من هذه الكلمات قد تطورت أصواتها أو تغيرت. ولم تُعد الصلة بين هذه الأصوات وما تعبّر عنه واضحة أو ملحوظة.

والأصوات اللغة جهاز في جسم الإنسان يطلق عليه من قبيل التجوز جهاز النطق. وحين تحاول تصوّره يتوجه الذهن فوراً إلى تلك المنطقة التي تبتعد من الخجولة إلى الشفتين، ولا تكاد تصوّر أن كل الجزء العلوي من الجسم يقوم بدور ما في عملية الكلام. فالحفرة الأولى للكلام تبعث من الحجاب الحاجز حين تنقبض عضلاته فتمتلئ الرئتان بالهواء، ثم تتبسط هذه العضلات

فيندفع الهواء إلى الخارج ، من الرئتين وشعابها إلى القصبة الهوائية ثم إلى الفم ،
ثم إلى خارج الفم .

وتشترك عضلات التجويف الصدرى إلى حد ما في حركة دفع الهواء إلى الخارج . وفي أثناء التنفس تتم عملية الزفير عادة أسرع من عملية الشهيق ، وإن كان الفرق بينهما في الأحوال العادية ضئيلاً جداً لا يكاد يتجاوز الحس . أما في أثناء الكلام فنلاحظ أن عملية الشهيق هي الأسرع ، فقد تصبح النسبة بين سرعة الزفير والشهيق في أثناء الكلام ١ : ١٠ ، بل قد تصبح في بعض حالات الانفعال ١ : ٣٠ ، أي أن المتكلم في مثل هذه الحالات يحاول أن يقول الكثير في زمن قليل ، ولا يكاد يتقطع أنفاسه .

وبين أعضاء النطق أربعة أعضاء قابلة للحركة هي : الوران الصوتين ، والحنك الرخو ، والسان ، والشفتان ، فالوران الصوتين يشبهان جبلين أو شفتين بينهما قد تسع المسافة فلا يهتزان أولاً يتذبذبان ، أما حين يقترب أحدهما من الآخر ويندفع الهواء من بينهما في قوة وعنف فتلحظ أنهما يتذذبان ذبذبات منتظمة . وتسمى الأصوات التي تصدر مع عدم ذبذبة الوران الصوتين بالأصوات المهموسة ، في حين أن التي تصحبها تلك الذبذبات تسمى بالمحجورة .

وجميع أصوات الذين أو ما يمكن سماعه بالحركات طويلاً وقصيراً هي أصوات مجحورة ، أما الأصوات الساكنة أو ما يسمى عادة بالحرروف فبعضها مجحور والبعض الآخر مهموس . فحين ننطق بما يسمى بـ ألف المد مثلاً نلاحظ اهتزازات الوران الصوتين ، وكذلك الشأن حين ننطق بحرف كالزاي . أما حين ننطق بالسين فلا نشعر بتلك الذبذبات الورانية^(١) .

وحركة الحنك الرخو هي التي تحدد ما إذا كان الصوت فموياً أو أنفياً ، فإذا نظر الناطق إلى المرأة في أثناء نطقه بـ ألف المد مثلاً ، لاحظ أن الحنك الرخو يصعد ومعه اللهأة فيسد مجرى الأنف ، فيتسرب هواء النفس كله من الفم .

(١) انظر «كتاب الأصوات اللغوية» للمؤلف .

وهذا هو ما يحدث مع كل الأصوات الفموية . ولذلك تقسم الأصوات اللغوية إلى فويرة وهي التي يتسرّب منها الهواء كله من الفم وحده ، وأنفية وهي التي يتسرّب منها الهواء من الأنف كالذون والمزم .

وقد يصاب الحنك الرخو بالالتهاب فلا يؤدي وظيفته بدقة ، وتشعر حينئذ أن بعض الأصوات التي مجرّها أصلاً الفم وحده قد تسرّب منها بعض الهواء من الأنف أيضاً . وهنا يمكن أن يسمى الصوت أنفيمياً ، أي مجرّه من الفم والأنف معاً . وليس من الحجم أن تكون هذه الظاهرة وليدة الالتهاب في الحنك الرخو ، فقد تكون في بعض الشعوب بمناثبة عادة نطقية ، كاليهود مثلاً ، والفرنسيين في بعض أصواتهم ، وبعض الأميركيين في حالات معينة من النطق .

أما الإنسان فربما يكون أوضاع أعضاء النطق وأفهمها ، وهو في الوقت نفسه أكثرها مرؤنة في حركاته . فلا غرابة أن تسمى اللغة في كثير من الشعوب باللسان ، بل هو الاستعمال القرآني الوحد في معنى اللغة . ويستطيع الناطق أن يحرك لسانه في كل الاتجاهات ، وذلك لما يتميز به اللسان من مرؤنة وليونة .

وحين قسم علماء اللغة الأصوات إلى أصوات لين وأصوات ساكنة أو كما تسمى أحياناً لدى بعض الدارسين بالأصوات الصادمة والأصوات الصامتة إنما نظروا إلى خاصية الأولى فوجدوا أن هواء النفاس في أثناء النطق بها لا يصادف في طريقة حوايل أو موائع ، أو بعبارة أخرى لا يقابل انغلاقاً كلياً ولا انغلاقاً جزئياً كما يحدث مع الأخرى . أي أن الأصوات الساكنة قد يحدث معها الانفجارية بسبب الانغلاق الكلي ، وقد يحدث معها الاحتكاكية بسبب الانغلاق البخري . فحين نقارن النطق بالسین والزین مثلاً ، مع النطق بالباء والدال ، نلحظ أن ظاهرة الاحتكاكية وهي التي سماها القدماء من علماء العربية بالرخاوة تكرر مع السین والزین ؛ في حين أن ظاهرة الانفجارية وهي التي تسمى عند علماء العربية بالشدّة تكرر مع الباء والدال . وحركة الشفتين تولد لنا ما يسمى بالأصوات الأسنانية الشفوية مثل القاء التي هي صوت يصدر عادة عن طريق التقاء الشفة السفلية بالأسنان العليا ،

كما تولد لنا الأصوات الشفوية المضمة كالباء والميم . وتقوم الشفتان مع هذا بدور ملحوظ في أثناء النطق بأصوات اللين المختلفة ، فهما معها إما منفرجتان ، أو مستويتان ، أو مستديرتان .

وعدد الأصوات التي يمكن تكوينها بوساطة أعضاء النطق لا حصر له من الناحية النظرية : غير أن الأذن الإنسانية لا تستطيع أن تميز إلا القليل منها ، ولا اختبار الصوت الساكن أو ما يسمى عادة بالمرف ، علينا أن نتبين أموراً ثلاثة :

- ١ - موقف الوترین الصوتين في أثناء النطق به .
- ٢ - المخرج أو نقطة التقاء العضوين المكونين للصوت .
- ٣ - كيفية التقاء ، وهل هو التقاء تام يحدث انغلاقاً كاملاً ، أو التقاء ناقص يحدث انغلاقاً جزئياً ، لتمييز الصوت الانفجاري من الاختجاجي .

خذ مثلاً الكاف الذي نجد أن هواء النفس معها ينحبس في الحبasa تماماً لحظة قصيرة جداً عن التقاء أقصى اللسان بالحنك الرخو التقاء حكمـاً أي انـغلـاقـاً كـامـلاً : ثم ينصل العضوان فجأة فـيـنـدـفعـ أـذـواـءـ وـيـحـدـثـ الشـجـارـاـ وـيـسـعـ ما يـسـعـ بالـكـافـ ، كذلك نلاحظ أن الوترين الصوتين في أثناء النطق بالكاف لا يتـبـيـدـيانـ . وهذا كله يقال عن الكاف إنـهـ صـوـتـ انـفـجـارـيـ مهمـوسـ مـخـرـجـهـ منـ أـقـصـىـ الـحـنـكـ .

ولكن الحس المرهف لعالم الأصوات يميز أشكالاً ثلاثة من الكاف يمكن أن يمثل لها بالكلمات الإنجليزية Keep ، Calm ، Cool ويسمى مجموع هذه الأشكال ثلاثة بالمصطلح الصوتي « فونيم » . فقد يتألف « الفونيم » من عدد من الأصوات التي ليس بينها اثنان يحل أحدهما محل الآخر في نفس البيئة أو الموضع . فهي فروع لشيء واحد أو متـنـوـعـاتـ مـوـقـعـةـ لـفـوـنـيـمـ الـوـاحـدـ . ويربط الفونيم في الحكم عليه أو تحديده بلغة معينة ، أي أنه ليس هناك ما يمكن أن يسمى بالفونيم العام أو العالمي . فلكل لغة فونيمـاـهاـ الخاصةـ بهاـ : وما يمكن

أن يعدّ فونياً مستقلاً في لغة من اللغات قد يكون فرعاً لفونيم في لغة أخرى؛ فالфонيم هو الوحدة النطقية الأساسية في لغة ما ، وأى انحراف صوتي في هذه الوحدة يترتب عليه تغيير في الدلالة أو الوظيفة لكلمة من الكلمات .

هذا نلاحظ فرقاً بين شعور الإنجليزي تجاه أنواع الكاف وشعور العربي نحو هذه الأنواع . فيهما نرى الإنجليزي لا يكاد يشعر بفرق بين الكاف في الكلمتين Keep ، Calm ، نجد أن العربي في لغته يتحذّل الكاف في الكلمة Galm فونياً مستقلاً هو الذي يسميه بالكاف ، ويرمز له برمز كتابي مستقل في الكتابة العربية .

ولمزيد من الإيضاح نضرب مثلاً بالفعلين العربين (صبر ، سير) اللذين يبدأان بصوتين مهابلين ولا فرق بينهما إلا في أن الأول مفخّم والثاني نظيره المرقق . ومع هذا ينظر إلى كلّ منهما في العربية على أنه فونيم مستقلّ ويرمز لكلّ منهما برمز مستقلّ ، فقد ترتب على التفخيم والمرقي احتلاف الدلالة بين الفعلين : وهذا اشتملت الأبجدية العربية على ما يسمى بالصاد ، وما يسمى بالسين . في حين أن الإنجليزي قد يفخّم في نطقه هذا الصوت في كلمة مثل Ask دون تغيير في رمزه الكتابي برغم أنه يسمع كالصاد العربية ، وأن الأميركي يكتفى برفق عادة هذا الصوت من نفس الكلمة وبنفس الرمز الكتابي برغم أنه يسمع في نطقه كالسين . وهكذا نرى أن اللغة الإنجليزية تعدّ الصاد والسين فرعين لفونيم واحد ، أما العربية فتعدّ كلاً منها فونياً مستقلاً . فكلّ لغة نظام أو بناءً فونيسيًّا خاصًّا يدرس فيها يسمى بالتشكيل الصوتي للغة Phonology ، وقد نشأ هذا البناء واستقر مع استعمال اللغة زمناً طويلاً . وليس هذا البناء مجموعة غير مترابطة من المذاجر ، بل هو نظام على درجة عالية من التكامل والترابط حتى لا فيها يسمى باللغة البدائية . في تلك اللغات البدائية التي لم تتع لها فرصة الكتابة والتدوين ولم توضع لها رموز كتابية قد نرى في بنائها مثلاً شيئاً يبعث على الدهشة من حيث المستويات الثلاثة : الأصوات والصيغ والمراكيب . أى أنه ليس هناك أى دليل على صحة ذلك الفرض الساذج الذي

يقال فيه إن البدائيين أقل قدرةً مما على تشكيل تماذج من الكلام دقيقة البيان .
ويعـ معـ هـذا فـلاـ بدـ لـنـاـ مـنـ الـاعـرـافـ أـنـ بـيـنـ الـلـغـاتـ مـاـ هـوـ أـكـثـرـ تـطـوـرـاـ مـنـ الـلـغـاتـ
الـأـخـرـىـ مـنـ حـيـثـ الـأـصـوـاتـ وـالـصـيـغـ وـالـراـكـبـ ،ـ أوـ أـنـ مـنـهـ مـاـ أـتـيـحـ لـهـ
فـرـصـ أـكـثـرـ مـنـ التـطـوـرـ فـيـ هـذـهـ النـوـاجـيـ ،ـ وـمـنـهـ مـاـ لـاـ يـرـازـ يـعـشـ مـرـحـلـةـ قـدـيـمةـ
مـنـ مـرـاحـلـ تـطـوـرـ الـلـغـةـ الإـسـانـيـةـ .ـ

وـتـغـيـرـ الصـوتـ مـنـ التـرـيقـ إـلـىـ التـفـخـيمـ ،ـ أـوـ مـنـ الـهـمـسـ إـلـىـ الـبـهـرـ ،ـ أـوـ
الـعـكـسـ فـيـ الـحـالـيـنـ ،ـ بـسـبـبـ عـاـمـلـ دـاـخـلـ فـيـ بـيـنـةـ الـكـلـمـةـ وـدـوـنـ تـغـيـرـ فـيـ دـلـالـهـ
أـوـ وـظـيـفـهـ ،ـ لـاـ يـصـحـ أـنـ يـغـيـرـ مـنـ الـبـيـانـ الـفـوـنيـ مـنـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ .ـ وـمـثـالـ الـحـالـةـ
الـأـوـلـىـ فـيـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ (ـيـسـاقـونـ ،ـ يـصـاقـونـ)ـ ،ـ وـمـثـالـ الـحـالـةـ الـثـانـيـةـ فـيـ الـإـنـجـلـيـزـيـةـ
Booksـ ،ـ Dogsـ .ـ وـكـانـ مـنـ الـواـجـبـ فـيـ الـكـتـابـةـ الـعـرـبـيـةـ أـنـ يـرـمزـ لـمـثـلـ (ـيـسـاقـونـ ،ـ
يـصـاقـونـ)ـ وـمـثـلـ (ـهـطـلـ ،ـ هـتـلـ)ـ يـرـمزـ كـتـابـيـ وـاحـدـ ،ـ فـالـصـوـقـانـ فـيـ كـلـ مـنـ
الـكـلـمـتـيـنـ فـوـقـ وـاحـدـ ،ـ إـذـ لـمـ يـرـتـبـ عـلـىـ التـفـخـيمـ وـالـتـرـيقـ تـغـيـرـ فـيـ الدـلـالـةـ .ـ

وـكـمـاـ تـخـلـفـ الـلـغـاتـ فـيـ الـبـيـانـ الـفـوـنيـ تـخـلـفـ أـيـضـاـ فـيـ النـظـامـ المـقـطـعـيـ :ـ
فـيـ الـيـابـانـيـةـ وـالـلـغـةـ السـواـحـيـلـيـةـ نـجـدـ أـنـ مـعـظـمـ الـمـقـاطـعـ مـفـتوـحةـ أـيـ يـسـئـيـ الـمـقـطـعـ بـصـوتـ
لـيـنـ أـوـ مـاـ يـسـمـىـ بـالـحـرـكـةـ طـوـيـلـةـ أـوـ قـصـيـرـةـ ،ـ فـيـ حـيـنـ أـنـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ تـؤـثـرـ
الـمـقـاطـعـ مـغـلـقـةـ أـيـ تـلـكـ الـتـيـ شـهـيـ بـصـوتـ سـاـكـنـ أـوـ مـاـ يـسـمـىـ بـالـحـرـفـ .ـ

نـكـنـىـ بـهـذـاـ عـرـضـ الـمـوجـزـ لـأـصـوـاتـ الـلـغـةـ مـنـ حـيـثـ النـاطـقـ بـهـ .ـ لـتـعرـضـ
لـمـوقـفـ السـامـعـ مـنـ هـذـهـ الـأـصـوـاتـ ،ـ إـذـ لـاـ تـمـ عـلـةـ الـاتـصالـ الـلغـويـ إـلـاـ بـيـنـ
طـرـفـيـنـ مـتـكـلـمـ وـسـامـعـ ،ـ أـوـ إـرـسـالـ وـاسـتـقبـالـ .ـ

وـالـذـيـدـيـاتـ الـتـيـ بـحـرـكـهاـ الصـوتـ الـإـسـانـيـ قـدـ تـعـبـرـ عـنـ الـحـدـيـثـ الدـاـخـلـيـ
الـنـاطـقـ ،ـ وـقـيـ هـذـهـ الـحـالـةـ تـكـوـنـ مـهـمـهـاـ مـقـصـورـةـ عـلـىـ بـحـرـكـةـ مـتـنـظـمـ فـكـرـ هـذـهـ النـاطـقـ
أـوـ تـجـربـتـهـ .ـ غـيـرـ أـنـ هـذـهـ الـذـيـدـيـاتـ فـيـ أـكـثـرـ الـحـالـاتـ الـأـخـرـىـ تـحـمـلـ رـسـالـةـ
إـلـىـ سـامـعـ مـاـ .ـ

فـذـيـدـيـاتـ الـوـتـرـيـنـ الصـوـتـيـنـ تـسـحرـكـ حـرـكـةـ مـنـظـمـةـ فـيـ مـوـجـةـ صـوـتـيـةـ .ـ وـتـتـقـلـلـ
هـذـهـ حـرـكـةـ إـلـىـ الـهـوـاءـ الـقـرـيبـ ،ـ وـتـظـلـ هـذـهـ حـرـكـةـ فـيـ اـنـتـهـاـ بـيـنـ جـزـئـاتـ

هذا الهواء متخذة شكل الموجة الضاغطة ومتشرة في جميع الجهات . ويبلغ متوسط سرعة الصوت في الهواء حوالي ١١٢٠ قدمًا في الثانية .

وكلما زاد عدد الذبذبات علت النغمة الموسيقية وارتفعت . ويتراوح عدد الذبذبات لدى أشهر المغنيين في العالم بين حوالي ٥٠ ذبذبة في الثانية ، ويكون صوته في هذه الحالة معوضه وقيمه أخفض مما يمكن أن يصل إليه ، إلى ٢٠٠٠ ذبذبة في الثانية ويكون صوته في هذه الحالة معوضه وقيمه أيضاً أعلى مما يمكن أن يصل إليه ؛ وصاحب السمع العادي يستطيع أن يسمع النغمات العالية خيراً من ساعته النغمات المنخفضة . فإذا زادت النغمة عن أقصى درجاتها في الارتفاع أو الانخفاض لا تكاد الأذن الإنسانية تدركها بوضوح .

و يستطيع الكلاب عادة ساع النغمات ذات الترددات العالية جداً ، ولذلك يستعين بها الشرطي في تتبع اللصوص عن طريق صفارات ذات نغمات عالية جداً تتجاوز الحد السمعي لهؤلاء اللصوص . ويقدر الحد السمعي للإنسان بنحو عشرين ألف ذبذبة في الثانية ، فإذا زادت الذبذبات أو الترددات على هذا خرج الصوت حيثما عن المجال السمعي للإنسان .

وأقوى أنواع الحيوان سعياً الوطواط إذ يستطيع ساع النغمة إلى عدد ذبذباتها في حدود ستين ألف ذبذبة في الثانية .

وإذا أمكن للمعنى أن يرتفع بنعمته إلى حدود ألفين ذبذبة في الثانية . وأن ينخفض بها إلى حدود خمسمائة ذبذبة في الثانية ؛ فإن الأمر مختلف في حالة الكلام . ذلك لأن الفرق بين ارتفاع النغمة والانخفاضها في أثناء الكلام قليل نسبياً . فالكلام يؤدي في نغمات متدرجة لا يبعد بعضها عن بعض بعضاً كبيراً ، في حين أن الغناء يؤدي في مراحل متباينة النغمات ؛ ومع فترات زمنية ملحوظة تستمر خلالها كل نغمة .

والنغمات التي تصدر عن الوتين الصوتيين تأخذ ألواناً متعددة في شكل يبعث على الدهشة ، فليس هناك شخصان يتحدا في نبرات الصوت تماماً . وذلك لذلك الصفات الخاصة التي يتميز بها صوت كل منا . ومع أن

بعض الأصوات قد تتشابه في نبراتها ، غير أن هذا التشابه لا يصل أبداً إلى حد المماثل التام .

وحين يتكلم المرء تصدر عنه سلاسل من الموجات الموجات الموائية التي تفرع طبلة الأذن لدى السامع . وقرع النبضيات لطبلة الأذن يترتب عليه تحريك العضلات في الأذن الوسطى حركات منتظمة كالتي في النبضيات ثم تنتقل هذه الحركات إلى الأذن الداخلية التي بها أعصاب السمع . وتحمل هذه الأعصاب ذلك الأثر السمعي إلى المخ لتفسيره .

وتؤكد لنا الدراسة الصوتية الحديثة أن بعض أصوات اللغة أوضح في السمع من البعض الآخر . وتبين من تجارب الدارسين أن صوت اللين في Vowel كلمة مثل Born يبعد أوضاع أصوات اللين ولا يعادله أو يقترب منه في الوضوح إلا ذلك الذي في الكلمة Barn .

وإذا شئنا ترتيب الأصوات الساكنة أو ما يسمى بـ «خروف ترتيباً تصاعدياً» من حيث الوضوح السمعي ظهر لنا أنها كما يلي :

- ١ - المهموسة الانفجارية مثل : ت . ك . ب .
 - ٢ - المهموسة الاحتكارية مثل : ش . س . ث . ف .
 - ٣ - المهموسة المزجية مثل : تُش .
 - ٤ - الم gio ورة الانفجارية مثل : ب . د . الجيم شهيرية .
 - ٥ - الم gio ورة الاحتكارية مثل : ف . ذ . ز . ح . (الجم الشامية) .
 - ٦ - الم gio ورة المزجية كالجيم الفصيحة .
 - ٧ - الأصوات الأنفية مثل : م . ن .
 - ٨ - الراء : اللام .
 - ٩ - أصوات اللين الضيق مثل : الضمة والمكسرة ومعهم نون و والياء .
 - ١٠ - وأخيراً أوضح الأصوات جميعاً هي أصوات ندين شدة كالفتحة المفخمة وألف المد .

في الحديث التليفوني وفي التسجيل الإذاعي لا يكاد المرء يميز الأصوات المهموسة اللافتة كالتاء والكاف ، ولكنه عن طريق السياق أو المعنى العام يفترض وجودها ، ويتم هذا الفرض دون شعور متعذر منه ، أى أنه يعرض قدراتها في الحقيقة بوجودها في خياله .

ولهذا يجدر بالمعنين ومؤلفي الأغاني أن يتحاشوا مثل هذه الأصوات في أغانيهم كلما أمكن ذلك ، فهى أصوات لا تكاد تصلح للغناء ، وهى في نفس الوقت معرضة للسقوط أو الاختفاء في التسجيل الصوتي .

رابعاً - المجتمع الإنساني :

وأخيراً وليس آخرأً المقوم الرابع للغة هو المجتمع الإنساني . وهو بالنسبة للغة كالتربيـة بالنسبة للازهـرة أو الحبـة . فالحبـة تـكمن فـيـها جـروـحـةـ الـحـيـاةـ وـلـكـنـهاـ لاـ تـبـتـ إـلـاـ فـيـ الـتـرـبـيـةـ . وـكـذـلـكـ الـلـغـةـ فـيـ الـإـنسـانـ ، إـذـ يـوـلدـ الـمـرـءـ مـسـتـعدـاـ لـلـنـطـقـ وـالـكـلامـ : وـلـدـيـهـ أـجـهـزـهـ وـأـعـضـاؤـهـ . وـلـكـنـهـ وـحـدـهـ مـنـعـلـاـ عـنـ النـاسـ لـاـ يـتـطـقـ وـلـاـ يـتـكـلـمـ وـلـاـ تـشـأـ نـهـ لـغـةـ . وـنـخـنـ نـلـمـسـ مـظـاهـرـ هـذـاـ الـاستـعـدـادـ الـفـطـرـيـ لـدـىـ الـإـنسـانـ فـيـ حـسـيـاجـ الـوـلـيدـ وـمـنـاغـاتـهـ . تـتـلـكـتـ هـيـ جـرـوـحـةـ الـلـغـةـ أـوـ الـقـدرـةـ عـلـىـ الـكـلامـ ، وـلـكـنـهاـ لـاـ تـنـمـوـ إـلـاـ حـينـ تـقـوـفـ نـفـرـ الـحـيـاةـ فـيـ مجـمـعـ . وـلـمـ يـكـنـ بـعـضـ الـفـلـاسـفـةـ وـالـمـفـكـرـيـنـ فـيـهـاـ مـضـىـ يـهـطـونـ إـلـىـ هـذـهـ الـحـقـيقـةـ . فـقـدـ تـصـورـ صـاحـبـ قـصـةـ حـىـ بـنـ يـقـطـانـ أـنـ الـمـرـءـ حـينـ يـعـزـلـ فـيـ جـزـيرـةـ غـيرـ آهـلـةـ بـالـسـكـانـ وـتـقـوـفـ لـهـ سـاحـاجـاتـ الـحـيـاةـ مـنـ مـأـكـلـ وـمـشـرـبـ وـكـسـاءـ . وـبـحـيثـ يـعـيـشـ فـيـ أـمـنـ مـنـ قـيـظـ الـطـبـيعـةـ أـوـ زـمـهـرـيـرـهـ ، وـمـنـ هـوـامـ الـأـرـضـ وـوـحـشـهـ ، يـكـنـ أـنـ يـحـيـاـ وـحـدـهـ وـأـنـ يـفـكـرـ وـحـدـهـ ، وـأـنـ تـنـمـوـ لـدـيـهـ تـلـكـ الـمـوـهـبـةـ الـعـقـلـيـةـ الـتـيـ يـوـلدـ كـلـ إـنـسـانـ مـعـدـاـ بـهـاـ وـمـسـتـعدـاـ لـهـ . فـإـذـاـ مـرـ بـمـرـحـلـةـ الـطـفـولـةـ وـأـصـبـحـ صـبـيـاـ ثـمـ فـيـ ثـمـ رـجـلـاـ نـمـتـ مـعـهـ تـلـكـ الـمـوـهـبـةـ الـعـقـلـيـةـ وـغـاـيـاـ تـفـكـيرـهـ ، وـاستـطـاعـ فـيـ تـهـاـيـةـ الشـوـطـ أـنـ يـصـلـ إـلـىـ رـبـهـ . وـأـنـ يـتـعـرـفـ عـلـىـ عـظـمـتـهـ وـقـدـرـتـهـ وـأـنـ يـعـدـهـ فـيـ هـذـهـ الـجـزـيرـةـ الـمـعـزـلـةـ .

ولـسـناـ لـتـصـورـ أـنـ يـمـ لـهـ كـلـ هـذـاـ دـوـنـ نـطـقـ أـوـ دـوـنـ كـلـامـ . ولـسـناـ هـذـاـ

تجنى على صاحب حي بن يقطان حين تفترض أنه كان يرى أن المرء وحده يستطيع أن يؤلف لنفسه لغة كالمى نالها بين الناس ، ذات أصوات وذات كلمات وذات تركيب .

ولكن اللغوى الحديث يأى الاعتراف بإمكان حدوث هذا أو ما يشبه ، وينظر إليه على أنه كتلك الحواطير التي كانت قد اعيب بعض الملوك في التاريخ القديم . فيروى لنا أن أحد الفراعنة « أبسمتىك » أراد البرهنة على أن اللغة المصرية القديمة هي لغة الإنسان الأول ، ومنها تفرعت اللغات الأخرى ، فعزل طفلاً أو طفلين زمناً ما ليتعرف على أول كلمة يُنطق بها ، ثم خاب ظن فرعون في هذه التجربة .

وقد حدث أن سمعتُ منذ سنوات عن قصة غلام عثر عليه في صحراء حلوان بين قطيع من الغزلان ، وأن دورية من رجال الأمن أخذت تطارده حتى أمسكت به . وقيل لنا حيث إن أنه كان يجري على رجليه مع الغزلان ، وأنه بعد أن أصبح بين يدي رجال الشرطة أخذ يصبح بأصوات غير مفهومة ، ويردد ما يشبه الكلام المطلوق . وتساءلنا يومئذ هل أمكن لذلك الغلام أن يكون لنفسه لغة أو كلاماً إنسانياً ؟ ولما زرته في أحد الملاجئ الاجتماعية بعد شهور من العثور عليه ظهرت أنه يتكلّم بكلمات متقطعة استمدّها ولا شك من حوله ، وكان يتعرّض في النطق بها ، ويُلْسِن في أصواتها كأنه طفل في سن الثانية من عمره . ولم يتم لدinya أي دليل على أن ما كان يصوت به حين عثر عليه كان كلاماً أو ما يشبه الكلام . وكل الذي تأكد لنا من هذه التجربة العجيبة أن الإنسان مستعد بفطرته للكلام ، ولكن هذا الاستعداد لا يظهر له أي أثر إلا في المجتمع الإنساني .

ومثل هذا يمكن أن يقال عن تلك القصص التي يقال فيها إن القردة أو الغزلان أو الذئاب قد قامت بتربيه طفل إنساني . وأنه شب بينها وشاركتها في طعامها وشرابها . غير أنها لا نعرف أحداً من كتاب هذه الروايات والقصص قد شرط به خياله فافتراض مثل هؤلاء الأطفال كلاماً إنسانياً .

بل حتى في الحاديين اللذين كانوا مثلاً للجدل والنقاش بين اللغويين في القرن التاسع عشر حين عثر في كل منها على طفلين يتكلمان كلاماً غير مفهوم لهما وزعم قوم أن الطفلين قد اخترعا لغة يتفاهمان بها ، فقد ثبت بعد الدراسة أن ما كان يتلفظ به الأطفال مستمد كله من لغة البيئة .

ويتلخص الحادث الأول في أن فتاة ولدت بمزرعة في « جرينلاند » ، وألها كانت تتكلم مع أخيها التوأم كلاماً غير مفهوم لهما . وقد شق ذلك على والدتها فقسمت على عزل الأخ عن أخيه ، مما أدى إلى وفاة الصبي وبقاء الفتاة وحدها تصر في عناد على التكلم بتلك اللغة المجهولة الغامضة . ولما شاع أمرها وبدأ العلماء يبحثون كلامها خيل إليهم في أول الأمر أن كلامها لا ينتمي إلى لغة (جرينلاند) بصلة ما . غير أن أحد العلماء قد استطاع فيها بعد أن يكشف الغطاء عما حاط كلماها من غموض ، وبرهن على أنه لا يعد وأن يكون مستمدًا من لغة « جرينلاند » في صورة ممسوحة أو مبتورة ، فلا يؤلف لغة مستقلة ولا ما يقرب من اللغة .

وأما الحادث الثاني فيرويه « جيرسن » قائلاً: إن طفلين نشأاً في « كوبنهاغن » توأمين أيضاً مع أم ذمها أرملة . وقد أهملتهما الأم بشكل شائن . فشبَا وحدهما منعزلين عن الناس زمناً ما . ثم كان أن مرضت تلك الأم وأدخلت المستشفى للعلاج تاركة الطفلين زمناً طويلاً في كتف عمدة لها صياء بكماء . ويقول « جيرسن » إنه زار الطفلين وتودد إليهما حتى استطاع أن يدون كلمات وعبارات كثيرة من تلك اللغة الغامضة التي كانوا يتفاهمان بها في طلاقة . ثم أجرى بمحنة على تلك الكلمات والعبارات فوجدها تتصل اتصالاً وثيقاً بلغة البيئة غير أنها ممسوحة مبتورة ، حذف منها بعض الأصوات وعارض عنها بأصوات أخرى : كما وجد أن بعض الكلمات مما يمكن أن يعد صدى لأصوات الطبيعة .

لا غرابة بعد الذي تقدم أن نرى اللغويين المحدثين يجمعون على أنه لا وجود للغة إلا في مجتمع إنساني .

أما ما نسمع عنه في بعض الأحيان من أن للحيوان لغة فليس في الحقيقة

إلا من قبيل التجوز . فلا تؤلف تلك الأصوات الفطرية المحدودة العدد والتي نسمعها من أذكي أنواع الحيوان وأرقاها ، لغة أو ما يشبه اللغة . فقد يستمع بعض الباحثين بالإصغاء لمواء المطر في ظروف مختلفة : ثم يخلدنا عن كيف يعبر المطر عن خوفه ، أو عن حنينه إلى أليفه ، أو عن طلبه الطعام والشراب ، أو عن فرجه بقاء صاحبه ، وغير ذلك من صياغ فطري محدود التنوع ، ومن الإسراف أن يقارن بلغة الإنسان في نظامها وسموها وتعقدها . بل قد يخلو لهؤلاء الباحثين أن يسجلوا لنا تسجيلا صوتيا فوق أسطوانات أو أشرطة تلك الأصوات الفطرية التي سمعها من الحيوان زاعماً أن للحيوان لغة كما للإنسان لغة ، وأنه لا فرق بين اللغتين إلا في الكتم .

يحب إذن أن ترقى بلغة الإنسان عن مثل هذا المستوى ، وأن تبحث صلة اللغة بالمجتمع الإنساني في ضوء ما فرّاه الآن في المجتمع الحديث ، لندرك إلى أي مدى تربط اللغة بالمجتمع الإنساني ، أو يتجمّم أن تكون مقصورة عليه .

فالأسرة هي الوحدة الأساسية للمجتمع الإنساني سواء كان مجتمعاً متقدماً أو بدائياً . وقد دلت تجاربنا الكثيرة على أن التكوين اللغوی لدى الطفل يتوقف عادة على ما ترسم به حياة الأسرة التي هو عضو فيها .

فالنشأة السليمة والتربيّة الطيبة تساهم في نمو لغة الطفل أكثر مما يمكن أن يساهم به التعليم المنظم في المدارس . فالصبي الذي يكثر استئعنه إلى حديث ثور نقاش حتى من أناس مختلفي الأعمار في محيط الأسرة خلال فترة طويلة من السنين يتمتع بخزاناً لغوياً لا حدّ لها .

واللغة في المجتمع الإنساني الرائق لها عدة مستويات : مستوى بلاغي ، ومستوى شعري ، ومستوى أدبي ، ومستوى في الطقوس ، وأنهرياً المستوى العام ومنه الحديث أو الخطاب العادي . وتعتمد اللغة في صحتها وقوتها على المستوى العام للغة ، لأن الحديث اليومي حين يحسنه أفراد المجتمع ينشط اللغة ويبعده إلى الشباب ، فليس الكلام الإنساني من خلق العلماء أو اللغويين ، بل هو من

خلق العامة من الناس ممن ربما لم تتح لهم فرصة التعلم في مدرسة ؛ ومن لا يكادون يحسنون كتابة أو قراءة .

حقاً إن العلماء والأدباء قد يعملون على تنمية اللغة وجعلها غنية حتى تزهر ذلك الجمال الرائع في النصوص الأدبية ، ولكن لمحظ أن أندر وزارات وأروعها هي تلك التي تظهر طبيعية ودون رعاية أو تعهد .

ولا تعمق جذور اللغة إلا في التربية العامة التي منها تستمد اللغة عصيرها وغذائها . هذا إذا قدر للغة ألا تموت وتندثر كما اندثرت تلك اللغات القديمة التي انقطعت صلتها بكلام الناس وخطابهم . يجب لهذا ألا تكون هناك فجوة عميقة بين ألفاظ الأدب والحديث البوسي . فقد تتطور تلك الفجوة إلى عزل لغة الأدب ، وتصبح أشبه باللغة المصنوعة التي تتقرر صيغها وأشكالها بوساطة سلطة عليا كما هو شأن في الجامع اللغوي بأوربا . فقد يصدر المجمع اللغوي قواعد محددة لتنظيم الاستعمال الأدبي ، وقد يفرض النصوص التي يجب أن تعلم في المدارس ، ولكنه لن يستطيع السيطرة على ذلك الحديث المرح في الأسواق : ولا على الخطاب العادي في البيوت وبين أفراد الأسرة .

فإذا انفصلت لغة الشعر مثلاً عن لغة الحديث والخطاب الفضالي تماماً : أصبح الشعر غير قابل للفهم : ولم يعد الشاعر في هذه الحال يخدم المجتمع بل يجد نفسه يخاطب فريقاً محدوداً من الناس وفي مجال ضيق من مجتمعه . من أجل هذا اكتب كل من «تشوسر» في القرن الرابع عشر و«دريلدن» في القرن السابع عشر شهرة عظيمة بين شعاء اللغة الإنجليزية ، لأن كلاً منها كان يراعى في شعره تقاليد لغة الخطاب الذي كان سائداً في عصره . ويعود هذان الشاعران من أوضاع شعاء الإنجليزية : وقد كان تأثيرهما في هذه اللغة خالداً ومحل الإعجاب والتقدير في مختلف العصور .

ومن المسلم به بين اللغويين الآن أن المرء يتعلم الكلام لا عن طريق الغريرة أو الإحساس الداخلي كما هو شأن في عمليات التنفس أو الأكل والشرب أو المشي ونحو ذلك ، بل يتعلمه من المجتمع الذي ينشأ فيه ، في محيط الأسرة [اللغة بين التقوية والداعية]

أولاً ، ثم في القرية أو الحى من المدينة ، وأخيراً في المدرسة والichel والمصنع و محل العمل ، أو من زملائه في المهنة ، ومن التوادى والمجتمعات العامة .
وحسن الكلام يتطلب توازناً بين أمرين : النظام ، والحرية .

أما النظام فبمراجعاة ما يجري عليه التقاليد اللغوية للمجتمع ، وأما الحرية فتتمثل في محاولة المتكلم أو الكاتب التعبير عن نفسه في صراحة وصدق وفراة تأثير . فالكاتب الذى يسخر من العرف اللغوى السائد في مجتمعه ويختار عن عد أسلوباً آخر ، لا يثبت أن يجد نفسه يكتب في فراغ : لأنصاراف الناس عن أدبه . أما الذى يلتزم التوازن بين النظام والحرية : بين التقليد والتجدد ، بين سلطة المجتمع وشخصيته الفردية ، فهو صاحب الإنتاج المحبوب المأنوس الذى يتطلب دائماً أن تنشطه ، وأن تبعث فيه الحياة عن طريق تلك الينابيع المتفجرة من الاستعمالات العامة في صورها إلى لا حصر لها . فنحن الآن في أمس الحاجة لإيصال الأفكار والأحساس في دقة ودون لبس أو إيهام ، لأننا في عصر التقدم السريع للعلم والتكنولوجيا . فإن الوعى اللغوى لم يكمل نضجه ، ولم يتضح أثره إلا في العصور الحديثة . وقد عبر عن هذا « لويس » في بده كتابه اللغة والمجتمع بقوله : (نحن في وسط ثورة لغوية ، في السينين الخمس الأخيرة تأثر كل تحول كبير في حياة الناس في المجتمع بنمو المواصلات المادية ، ولم يكن تأثره بنمو الاتصال اللغوى أقل من ذلك أو متخلقاً عنه . ولعلنا في بداية ما لا بد أن يكون تغيراً شاملًا في وظائف اللغة بالنسبة للإنسانية)^(١) .

وقد أسلوب « لويس » وأفاض في كتابه حين حدثنا عن أن اللغة وسيلة لصيغ الفرد بالصيغة الاجتماعية . وكان مما قرره أنه كلما ازداد الفرد توغلًا في عضويته للمجتمع ، ووثقاؤه في صلته به ، زاد دور اللغة ، لأن حياته الاجتماعية فحسب ، بل في سلوكه وإحساسه وتفكيره أيضاً .

وقد بدأ دور اللغة في المجتمع الإنساني الحديث ، في صورة جلية ، وظهر

(١) ترجمة الدكتور تمام حسان : M.M. Lewis : Language in Society. ص ١ .

أثره في الصناعة والحروب الحديثة والنظم السياسية . فأصبحت الثورة اللغوية جزءاً من الثورة الصناعية ، ولا يمكن لمجتمع اليوم أن يستغل كل موارده الاقتصادية ، استغلاً تاماً إلا على أساس تعميم القراءة والمكتابية ، أو ما نسميه بالوعي اللغوي الذي يشمل أيضاً القدرة على الكلام والاسماع بعد أن تطورت وسائل الاتصال الكلامي على موجات الأثير .

فإذا نظرنا إلى الحرب الحديثة رأينا أن الاستعمال اللغوي غير مقصور على تدريب الجندي ، بل إن الجندي خلال المعركة وفي كل لحظة من لحظاتها ، وفي أثناء قيامه بالقتال ، يتلقى الأوامر بين الحين والحين . فالحرب الحديثة في أيامنا هذه تعبير عن الشعور الجماعي ، وتتطلب لذلك وعيًّا لغوياً شاملًا . وتمثل الزيادة الهائلة في استعمال الكلمة المنطقية والمكتوبية في الحرب الحديثة ، أحد التيارات الرئيسية للثورة اللغوية . أى أنه مع الآلة الكاملة في الحرب الحديثة ، ومع التمويض في حجم الوحدة المقاتلة ، وميدان العمليات الحربية ، لا يصبح المنهج الجماعي ممكناً إلا مع اتصال لغوي شامل : لأن الشعور الجماعي يعدّ من أهم ما تضم به الحرب الحديثة . وليس يقتصر هذا الشعور الجماعي على المشركيين فعلاً في المعارك من جنود وبخاصة وطيارين . بل يشمل أيضاً كل عضو في مجتمع . ذلك لأن الإرشادات الروحية التي تصدر للشعب ، وتحريضه على التماسك في وحدة لا تنفص أمام العدو . وكما حدث أمام الخماهير لولا يعلم به الأعداء . وبما يفعل ذلك الفيوض من الدعايات الذي ينفذ ليلاً ونهاراً من معسكر العدو ، كل هذا يتطلب تناصقاً وترتباً في المجتمع كله عن طريق الكلمات المنطقية والمكتوبية . فحتى المنشورات التي تلقاها من العدو تعدد بمنتهى قداثة لغوية ذات أثر كبير في تحطم الروح المعنوية لدى الأعداء .

أما دور اللغة في النظم السياسية فربما يكون أوضح ، وأثره أعمق . ففي السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، بل خلال هذه الحرب ، شهدنا بوضوح ظهور العقل الجماعي في صورة متطرفة لدى كل من النظم السياسية الثلاثة التي سادت في أوروبا حينئذ من شيوعية وفاشية وديمقراطية غربية .

فقد استغلَّ الاتصال اللغوي لخدمة كل من هذه النظم السياسية المتباعدة ، ووُجِدَ الساسةُ والقادةُ في هذه الدول أنَّ من الضروري توجيه المواطنين نحو أهداف الدولة ، وتثريـب كلِّ منهم على أداء دوره السياسي . إذ يتحمـل أن يصبحُ أكـبر عدد ممـكن من أفراد الشعب يعـتون بالنشاط السياسي ، ويـتـدرـبون على المـناـهجـ السـيـاسـيةـ ، الـىـ تـكـفـلـ الحـفـاظـ عـلـىـ كـلـ مـنـ هـذـهـ نـظـمـ السـيـاسـيـةـ . فـتـوضـعـ أـمـامـهـمـ غـيـاـتـ مـحـدـدـةـ لـأـهـدـافـ الدـوـلـةـ : وـيـصـرـونـ بـهـاـ وـيـشـجـعـونـ عـلـىـ الرـغـبـةـ فـيـ الـوصـولـ إـلـيـهـاـ . وـاستـخـدـمـ فـيـ هـذـاـ السـبـيلـ : وـعـلـىـ نـطـاقـ وـاسـعـ : الصـحـافـةـ وـالـإـذـاعـةـ ، وـهـمـ مـنـ أـهـمـ أدـوـاتـ الثـورـةـ الـلـغـوـيـةـ .

وـبـرـغـمـ أـنـ مـوجـاتـ الإـذـاعـةـ تـجـاهـلـ عـادـةـ حدـودـ الدـوـلـةـ . وـأـنـ العـدـوـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـقـتـمـ تـلـكـ الـحـدـودـ بـإـذـاعـاتـهـ المـسـمـوـةـ ، لـمـ يـحـاـوـلـ القـادـةـ فـيـ أـيـ مـنـ هـذـهـ الدـوـلـ مـصـادـرـ أـجـهـزـةـ الرـادـيوـ الـىـ أـفـرـادـ الشـعـبـ . لـأـنـ مـثـلـ هـذـاـ التـصـرـفـ ، فـرقـ اـسـتـحـالـةـ نـجـاحـهـ حـتـىـ مـعـ فـرـضـ أـرـدـعـ الـقـوـائـمـ . سـيـؤـدـيـ فـيـ نـهاـيـةـ الـأـمـرـ إـلـىـ حـرـمانـ الدـعـاـيـةـ الـخـلـيـةـ مـنـ أـفـوـيـ أـسـلـحـهـاـ وـأـمـضـاـهـاـ .

فـيـ أـلـماـنـياـ النـازـيـةـ أـسـتـ هـيـةـ ثـقـافـةـ تـحـتـ إـمـرـةـ «ـ جـوـبلـزـ »ـ : وـسـيـطـرـتـ هـذـهـ خـيـةـ عـلـىـ الأـدـبـ وـالـصـحـافـةـ وـالـإـذـاعـةـ وـالـفنـ وـالـموـسـيـقـ وـالـمـسـرـحـ وـالـسـرـيـعاـ . وـوـجـهـتـ كـلـ ذـلـكـ لـخـدـمـةـ الدـوـلـةـ . وـتـطـلـبـ ذـلـكـ مـخـتـارـاتـ مـعـيـنةـ مـنـ التـعـابـيرـ الـكـلامـيـةـ ذاتـ الـأـثـرـ الـقـوـيـ فـيـ نـفـوسـ النـاسـ وـعـقـوـدـهـ . وـاتـسـمـتـ هـذـهـ التـعـابـيرـ بـالـزـيفـ حـيـثـاـ ، وـالـصـدـقـ حـيـثـاـ آخـرـ ، وـلـكـنـهاـ فـيـ الـحـالـيـنـ تـعـدـ مـظـهـراـ مـنـ مـظـاهـرـ الثـورـةـ الـلـغـوـيـةـ .

أـمـاـ فـيـ رـوـسـياـ الشـيـوعـيـةـ فـفـوـقـ مـاـ كـانـ لـدـىـ النـازـيـيـنـ مـنـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ نـواـحـيـ الـاتـصـالـ الـلـغـوـيـ وـتـوجـيـهـهـ ، يـقـضـيـ دـسـتـورـهـ بـاـتـخـابـ بـمـجـلسـ السـوـقـيـتـ الـأـعـلـىـ عـنـ طـرـيقـ الـلـجـانـ الـخـلـيـةـ لـتـوـابـ الـعـمـالـ . فـلـلـيـهـمـ اـنـتـخـابـاتـ ذاتـ صـورـ مـتـدـرـجـةـ مـنـ أـسـفـلـ إـلـىـ أـعـلـىـ ، أـيـ تـبـدـأـ مـنـ الـقـاعـدـةـ الـشـعـبـيـةـ وـتـهـنـيـ بـالـجـلـسـ الـأـعـلـىـ . وـمـنـ الـمـفـرـضـ أـنـ تـمـ عـلـيـاتـ الـاتـصـالـ وـمـسـطـ الـمـنـاقـشـاتـ الـىـ تـشـورـ عـنـدـ التـرـشـيـعـ لـكـلـ طـبـقـةـ مـنـ طـبـقـاتـ الـنـظـمـ السـوـقـيـيـ . وـفـيـ ذـلـكـ الـمـنـاقـشـاتـ وـلـاـ شـكـ توـعـيـةـ

لغوية : أو اتصال لغوي شامل . يؤدي حتماً إلى الشعور بدور اللغة وقرة تأثيره .

وأكمل مع ذلك نشعر حين نعرض للنظام الديمقراطي الغربي ، أي الذي يعتمد على الحكومة النيابية المختلطة . أن الحاجة إلى النقاش والمحاجة أشد وأكثر إلحاحاً . ذلك لأن الاتفاق النهائي في مثل هذا النظام إنما يتم عن طريق الصراع بين الاختلافات الفردية في الرأي . لذلك تُعنى النظم الديمقراطية الغربية بمسألة الاتصال اللغوي كل العناية ، وتوالها كل الاهتمام : فليست المنشآتة ابتناء الوصول إلى رأى نهائى إلا تفكيراً جماعياً وسيلة اللغة أو الكلام . وحين يتغير مبدأ سيادة الشعب ، وحرية رأى الفرد ، تتألف المجالس التي تمثل الأفراد من مجالس بلدية ومجالس إقليمية ومجالس نوابية ، ويستخدم النقاش في كل من هذه المجالس في لغة مشتركة تلقى بها الخطب ، وتصاغ بها البيانات والقرارات . وتدار عن طريقها المحاجة ، وكل ذلك رغبة في الوصول إلى رأى

وللاتصال اللغوي وجهاً أو فاجهتان هما : الكلام والإصغاء. وليس يقل الإصغاء أهمية عن الكلام في أي مجتمع عام . فاللبيب الحاذق حين يكون في موقف المعارضة يدرك تمام الإدراك قدر الحكمة المأثورة التي تقول : « استمع جيداً إلى خصمك ». فالإصغاء الجيد مثل الكلام الجيد ، ولكن ر بما يكون أشق وأصعب . ذلك لأن الاستماع الجيد أو حسن الإصغاء يتطلب تركيزاً في كل المawahب الذهنية . وليس من البسيط على كثير من الناس أن يصغوا إلى حديث يستغرق فترة طويلة دون أن يشط الذهن في أي لحظة من لحظاته .

ويع أن الناس عادة يحسنون الحديث خيراً من الإصغاء ، لا نزال ندعوا في مجتمعاتنا إلى التنافس بين المتكلمين ، ونشجعهم على التعبير عن خواطرهم ، حتى حين لا يكون لديهم ما يستحق التعبير عنه . وقد نشجع على حسن الإصغاء أيضاً إذا تذكروا أن بعض أولئك الذين يبدون في المجتمعات وكأنهم مجرد مستمعين للمناقشة ، يستطيعون خلال هذا الصمت إعداد قدر من التعبير في أذهانهم ، يدخل لها فيما بعد كل المجتمعين ، وتكتف كل الغلبة والنصر على معارضتهم .

الفصل الثاني

القومية

القومية مصطلح اجتماعي سياسي حديث بدأ الدارسون للجتماع والسياسة يستذرونه بالبحث منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى الآن . وهو كمعظم المصطلحات الاجتماعية السياسية يعسر أن يعرف تعريفاً جاماً مانعاً ، ولذلك نرى في بحوث من عرضوا القومية تعرifications عددة متباعدة إلى حد ما^(١) .

ولعل مما أدى إلى عسر تعريف القومية في شكل حاسم عدم وضوح الفرق بين مصطلحي «الأمة» و «الدولة» في كثير من الأذهان ، والخلط بينهما في العصر الحديث .

أما في العصور التاريخية القديمة فلم يكدر الباحثون يعنون بالتمييز بين فكرة «الأمة» وفكرة «الدولة» . وكل الذي تصوروه عن «الدولة» أنها السلطة المئوية بالحكم مثلثة في ملك من الملوك . أو في إمبراطور . أو في قائد أو زعيم . أو «أمة» . فشعب يتميز باسم خاص يطلق عليه . وبصفات معينة ربما كان أوضحها أن له لغة واحدة .

ومن هنا نشك لحظة في أن القدماء كانوا يدركون تمييز الأمة العربية مثلاً عن الأمة الفارسية أو عن الأمة الهندية ، ولكنهم لا يكادون يرسيطون بين فكرة «الأمة» وبين نظام الحكم أو القائمين به ذلك الربط الوثيق الذي نلحظه في الدراسة الحديثة . ذلك لأن الذين قاموا بالحكم ، أو توّلوا القيادة في العهود القديمة . كانوا يتسمون إلى أسر معينة وتوارثوا الحكم بعضهم عن بعض : أو كانوا من الزعماء والقادة المعاصرين الطموحين الذين نصبوا أنفسهم حكم شعب أو أكثر من شعب . وربما كان كل من هؤلاء وهؤلاء أجيالاً عن الأمة

(١) ينظر كتاب: «م. هي القومية؟» ؟ ، لساطع الحصري بيروت ١٩٥٩

المحكومة لا يشرك أهلها في نسب أو لغة أو نحو ذلك . فلم يكن المحكومون فيما مضى يرون غرابة أو غضاضة في أن يتولى أمورهم أجنبي مني توفرت له أسباب الحكم ، واستطاع بوسيلة ما الوصول إلى مركز السلطان . أى أن ما نتصوره الآن من وجود صلة أساسية بين انتهاء الفرد إلى «أمة» و إلى «دولة» معاً وفي نفس الوقت ، بعد في الحقيقة فكرة جديدة نشأت في القرون الثلاثة الأخيرة . فقد أصبحنا الآن ندرك أن معنى الجماعة القومية وهي التي يعبر عنها بالأمة ، يتضمن الحق في أن تناول أو تكتسب صفة الدولة .

وهكذا نرى أن عصور التاريخ قد عرفت الأمم كما عرفت الدول ، وإن لم تميز بين هذه وتلك التمييز الدقيق على النحو الذي يقوم به المحدثون من دارسي الاجتماع والسياسة .

إذا تساءلنا كيف ومتى نشأت فكرة «الدولة» ، تبين لنا أن نشأتها ترجع إلى آلاف من السنين ، وأنها أتت على النظام القبلي ذلك النظام الاجتماعي الأصلي للإنسانية الذي لا يزال سائداً في بعض جهات أفريقيا وأسيا حتى الآن . فهو النظام الذي كان يستطعم كل أنحاء العالم في وقت من الأوقات .

ويمكن أن يلخص هذا النظام القبلي : دون خوض في تفاصيل الدراسة الاجتماعية بأنه بدأ في صورة القرابة أو الاتياء إلى أسرة واحدة : وفي توافق صلة المرأة بغيري من الناس أكثر من صلةه بالآخرين : وفي خضوعه لسلطة موحدة في هذا المحيط الضيق .

وقد قويت هذه الوحدة بين الأقارب ، وتوقت عراها عن طريق الاشتراك في اللغة أولاً وبالذات ، ثم عن طريق الاشتراك في التقاليد والعادات والأساطير . وهذا نلحظ في الأساطير الإنسانية القديمة صلة القرابة والاتياء إلى الأسرة الواحدة في وضوح وجلاء ، كما نلحظ فيها التعبير عن الأغرب الذين لا ينتسبون إلى هذه الأسرة ، والذين كانوا يعدون من وجهة نظر أفرادها أعداء في كثير من الحالات .

وإنه لمن المؤسف والمخل جنباً أن كل أسباب التوتر التي شهدتها في

العصر الحديث، وكل أنواع التحالف والتزاع الذي يقوم الآن بين الدول ويؤدي إلى العداوة والبغضاء وويلات المروب، لها ما يناظرها في المجتمع القبلي البدائي. فقد ظهر قامبيشرين في أفريقيا مثلاً حين اكتشفت منذ نحو قرن أو يزيد أن كل آخر ورب القبلية هناك ترجع إما إلى ضغط اقتصادي من مجاعة وعوز، أو إلى ضغط سياسي رغبة في التوسيع القبلي. فاعتداء قبيلة على أرض أخرى، أو على مكان صيدها لا يكاد يختلف إلا في الاسم عن رغبة «هتلر» حين كان يعني نفسه بالاستيلاء على مصادر القمع العظيمة في «أوكرانيا». . . أى أن أولئك المعتدين البدائيين من زعماء القبائل في سهل تاريخ الإنسانية يعدون في الحقيقة بثابة الأسلاف لأمثال «الإسكندر»، وتيمور—لانك، وجنكيرخان، وقابلون».

أما كيف أنهى ذلك النظام القبلي من معظم العالم، وكيف حل محله نظام الدولة فيرجع ذلك إلى عوامل ثلاثة:

أولاً: الحاجة الملحة إلى التعاون بين القبائل لخلق حالة من الاستمرار دعا إليها التقدم الزراعي. وبذلت هذه الحاجة واصحة جليلة في حوض النيل ودجلة والفرات. فلم يكن من البسيط التغلب على كوارث الفيضان في هذه الأشهر إلا بعمل جماعي منظم يشارك فيه عدد كبير من الناس. ولذلك نشأت المدينة الإنسانية في أحواض هذه الأنهار. وأدى التعاون بين القبائل في هذه المناطق إلى خلق نظام سياسي وإداري حتى تتحقق أهدافه أو أغراضه التي هي في حقيقة الأمر أهداف اقتصادية. وحتى يجيء الجميع ثماره. ويكتفى لهم حياة مستقرة في راحة وأمن من المجاعات، عن طريق ذلك التقدم الزراعي.

أما العامل الثاني في نشأة الدولة فهو هجرة جماعات كبيرة من الناس واستقرارها في سلام بمنطقة معينة. فقبائل السلافيين الذين انتشروا في شرق أوروبا هم أساس دولة الاتحاد السوفييتي، وكذلك الشأن في الهجرات الكبيرة إلى أمريكا الشمالية.

ويحدثنا التاريخ عن عدد من مثل هذه الهجرات السلمية الجماعية التي ترب عليها نشرء بعض الدول القدمة.

أما العامل الثالث: فهو الغزو ، وأمثلته كثيرة في التاريخ . وترتب على هنا الغزو أن عظمت رقعة الدولة ، وأصبح الحكم فيها خلال فرات تاريخية طويلة ، وأنحدر السلطان السياسي فيها شكل أسرة حاكمة لدولة عظيمة أو إمبراطورية .

ومع ظهور تلك الدول العظيمة في عصور التاريخ ، ثم اختفاؤها أو اندثارها بقيت هناك قوة كامنة تربط بين جماعة من الناس ربطاً وثيقاً ، وتشد بعضهم إلى بعض في تجاذب عجيب ، ومشاركة في الشعور ، وإحساس بما يخزّنهم على التواد والترابط فيما بينهم فكأنهم أسرة واحدة ، مما يجعل هذه الجماعة شبه كيان مستقل عن الجماعات الأخرى في تلك الدولة العظيمة . وتلك القوة الكامنة هي التي تبلورت في العصر الحديث إلى ما يسمى بالقومية ..

أى أن التاريخ القديم قد عرف القومية . ولكنها كانت خلال عصوره المختلفة بمحاجة القوة الكامنة التي لا تكاد تظهر حتى تخفي أو تكمن . وبلا شك كيف تفسر أن إحدى الأسر الحاكمة في الصين قبيل ظهور المسيحية قد ضمت إلى ممتلكاتها ما يعرف بدولة «أنا» شرق الهند الصينية . وأن الأئاميين قد خضعوا للحكم الصيني والثقافة الصينية أكثر من ألف عام . ثم مع هذا افصلت «أنا» عن نفوذ الصين في القرن الخامس عشر . وعدها كياناً المستقل . وتم هذا برغم ما اشتهرت به الثقافة الصينية من القدرة على متصاحص الشعوب الأخرى وضمها ، أى أن الإمبراطورية الصينية العظيمة لم تستطع خلال ألف سنة أن تقضي على تلك القوة الكامنة التي يمكن أن تضيق عليها القومية الأنامية . ودولة «أنا» هي التي تعرف الآن بقبرص الشهالية والجنوبية ، والتي تشهد صراعاً مريضاً مع أمريكا .

ويبدو أن تلك القوة الكامنة التي تضيق عليها الآن اسم القومية كان لها شأن ما في كل عصور التاريخ ، وإن ضلت في أكثر الأحيان في حالة انزواء أو ترخيص ، تبرغ في صورة خاطفة على إثر انهيار الإمبراطوريات أو الدول العظيمة . وفوق أنفاس المأسى والمذلة حتى ينتهي بها الناس عند انهيار دولة من تلك الدول الكبيرة لا حظ المؤرخون أن هذه الدولة تمنت إلى جماعات ، كل جماعة منها يتجذب أفرادها بعضها إلى بعض برباط سحري ، متخلدين

لأنفسيهم وطنًا صغيراً يجمع شملهم ، وفيه ترعي مصالحهم . ثم لم تكدر تنضي فتره تاريخية قصيرة حتى عادت الحال سيرتها الأولى ، وتكونت دولة كبيرة أخرى ، تنضوى تحت نفوذها تلك الأوطان الصغيرة .

ونتساءل في كل حدث من تلك الأحداث التاريخية عن كنه ذلك الرباط السحرى الذى يعمل على الجذاب أفراد كل جماعة بعضهم إلى بعض ، وعن المخافر على وحدة الشعور بينهم ، وعلى أن يسود التواد والرحمة بعضهم مع بعض : هل هو الاشتراك فى لغة واحدة ؟ هل هو الاشتراك فى منطقة من الأرض يعيشون فيها ؟ هل هو الاشتراك فى العقائد والأديان ؟ إلخ . ونظل نتساءل عن هذا السر : ثم لأنكاد نفق أو تجمع على رأى حاسم ، لأننا نجهل الكبير من الظروف والملابسات التى صاحبت تلك الأحداث التاريخية .

المثلk بعسر تشخيص القومية فى ضوء الأحداث التاريخية القديمة ، ويقع الباحث الآن بالتماسها فى التاريخ الحديث ، لأن حوادثه أقرب إلينا ، وعلمنا بتفاصيلها أكبر وأدق ، ولأن مصطلح القومية فوق هذا مصطلح حديث ، فلم يكن فى العهد القديمة موضع مدارسة بالتحليل والتفسير وسبر الغور .

لا غرابة إذن أن يقرر معظم الدارسين من المؤمنين أن القومية كما ظهرت فى العصر الحديث قد ولدت فى مهد البحر الأبيض المتوسط وغرب أوروبا . فبعد سقوط الدولة الرومانية كان غرب أوروبا مستقرًا بجماعات قبلية اعتزج بعضها فى بعض نتيجة عدة غزوات : وانتهى أمرها إلى أن اندمجت شكل المالك أو الإمارات الإقطاعية . وفي أواخر القرن الوسطى بدأت ثلاث من هذه الجماعات تأخذ شكلاً قومياً واضح المعالم والسمات . فالجماعة الأولى قد تألفت من قبائل « الغال » ، وكانت تتكلّم لغة منحدرة من اللاتينية ، ولكنها تتميز بطابع محلى متاثرة بما كان سائداً في تلك المنطقة من لغة اندثرت على إثر الغزو الروماني وهي اللغة « الكلتية » . لذلك اتصفت اللاتينية الجديدة في بلاد « الغال » بسمات خاصة ، وأصبحت فيما بعد ما يعرف باللغة الفرنسية ، وما تعرف منطقها باسم « فرنسا » . ولفرنسا حدود طبيعية محيرة : إذ تكون

معظم حدودها من جبال البرانس والمحيط الأطلسي وجبال الألب . أما حدودها من جهة الألزاس واللوارين فليست حدوداً طبيعية ، ولذلك كانت سبباً في عدّة غزوات ، وفي إثارة المشاكل السياسية بين فرنسا وألمانيا في العصر الحديث . ولم يكُن ينفَضِي القرن الرابع عشر الميلادي حتى كانت فرنسا مجتمعاً فوياً يشعر بكيانه المستقل ويتكلّم ما نعرفه الآن باللغة الفرنسية التي أصبحت المهاد النفسي والفكري لهذا الشعب . وهكذا تكونت القومية الفرنسية ؛ وأصبح الفرنسيون منذ ذلك الحين يشعرون شعوراً قوياً بكيانهم وبقوميتهم التي تماها وقوها ، وأشعل أحاجيجها ، ما كان بين فرنسا وإنجلترا من حروب . فليس هناك ما يعمق الشعور بال القوميّة مثل وقوف الجماعة ضدّ أقوام آخرين ، واعتبارهم أعداء أو خصوماً .

وأما القومية الثانية التي نشأت في غرب أوروبا فقد كانت القومية الإنجليزية وقد مرت بما يشبه التجارب التي مرت بها القومية الفرنسية ؛ إذ بعد الغزو النورماندي امتنجت اللغة الفرنسية لغة الغزاة بلغة السكسوبيين ؛ وتحظى ذلك الصراع اللغوي بما نعرفه الآن باللغة الإنجليزية ؛ التي سادت في معظم الجزر البريطانية . وأصبحت أيضاً المهاد النفسي والفكري للشعب الإنجليزي . وقد أُثْبِتَ الشعور بال القوميّة الإنجليزية وعذري جذوته ما خاصه الإنجليز من حروب في ذلك الحين ضدّ الفرنسيين والأسبان ؛ كما عمل على تمييزها واستقلالها انعزال الإنجليز في جزر مقطوعة الصلة بالقارّة الأوروبيّة . وقد استمد «شكسبير» في رواياته التاريخية نماذج الشعور بال القوميّة الإنجليزية من حروب إنجلترا مع فرنسا وأسبانيا . ذلك لأنّ التحام الجماعة القوميّة بأعدائها يقرى دائمًا من شعورها بكيانها وذاتها .

ثم كانت القومية الثالثة في غرب أوروبا، وهي القومية الأسبانية التي نشأت على إثر صراع الأسبان مع العرب ، ونجاحهم في إجلاء العرب عن شبه الجزيرة ذات الحدود الطبيعية من المحيط والجبال . ولعلّ مما ساعد على تمييز القومية الأسبانية ، تلك الحسود الطبيعية التي عزلتها عن سائر أوروبا ؛ وتلك الحروب

الى ثارت بينهم وبين العرب ، ثم الى خاصها الأسبان ضد إنجلترا . وهكذا نشأت القومية الأسبانية واللغة الأسبانية الى انحدرت أيضاً عن اللاتينية ؛ غير أنها تتميز بطابع محل قوى من شعور الأسبان بقوميتهم . ذلك لأن الرومان حين غزوا إسبانيا ومعهم لغتهم اللاتينية عملوا جاهدين على أن تحل اللاتينية محل اللغة التي كانت سائدة في إسبانيا حيثما . وانتهى ذلك الصراع اللغوي بفوز اللاتينية وحلوها محل اللغة الأخرى ؛ ولكن بعد أن أخْتَنَّها المحرج . واندثرت اللغة الأخرى تدريجياً بعد أن خلفت في لاتينية إسبانيا آثاراً ميزتها عن الفرنسية . وأصبحت اللغة الأسبانية في ثوبها الجديد المعاد النفسي والفكري للشعب الأسباني أيضاً .

وهكذا فرى أن أقدم القوميات الأوروبية هي التي تكونت في غرب أوروبا ، ولكن تلك القوميات التي نشأت قبل القرن التاسع عشر قد انحرفت عن فكرة «القومية» كما يحددها الدارسون في العصر الحديث ، وطالعت إلى ما هو أبعد من القومية . وأصابتها فيما بعد ما يمكن أن يسمى بعقدة التفوق ، فشنست الحروب بغية التوسيع في أراضيها . وتكونين دولة كبيرة أو إمبراطورية ؛ كما شاءها حكم التفرد من ملوك وأمراء حبرة في إنجلترا وفرنسا وإسبانيا . فأصبحت هذه الدول الكبيرة تحمل شعار القومية في بلادها مثلاً أولاً في ملوكها ثم في حكومتها بعد ذلك . ولما زاد طموحها وكبرت أطماعها وأصبحت لها مستعمرات يدأت تنظر إلى «ال القومية » في البلاد الأخرى نظرة خاصة ؛ تذكرها حيناً وتسخر منها حيناً آخر .

وليست القومية في مثل هذه الدول الكبيرة بال القوميَة التي يعنيها الدارس الحديث للجتماع والسياسة . فهو يرى أن القومية بمفهومها الحديث لم تظهر في أوروبا إلا خلال القرن التاسع عشر على إثر حافزيين أساسين هما : قوة الموعن السياسي بين الأفراد في المجتمعات ؛ والثورة الاقتصادية الصناعية .

ويعبر عن هذا بروفسر «توريبي» فيصف نمو القومية وقوتها في القرن التاسع عشر بقوله : إن الدول قبل هذا القرن كانت تحكمها في أوروبا عائلات ملكية مثل أسرة «هابسبورج» في ألمانيا . فلما كان القرن التاسع عشر اقتسم

هذه الدول قوتان: إحداها الديموقراطية، أى الرغبة الملحة لدى كل فرد في أن يكون له دور ما في المجتمع، وأن المجتمع لذلك يجب أن يمثل مصالح المواطنين. أما القوة الأخرى فهي الاقتصاد القوى، واعتقاد الناس أن الثورة الصناعية التي سادت في بعض نواحي أوروبا قد جعلت حياة الفرد في خطر، وحسمت على كل دولة أن تعمل جاهدة على حماية الاقتصاد القوى. وهذا الحماس المفاجئ في الإحسان بالملائحة لدى كل أفراد الشعب هو الذي نهى قدرة الشعب ونشاطه وإمكاناته في القيام بالجهود العامة. ولكنه من ناحية أخرى ولسوء الحظ دعا إلى ما يشبه العداوة والبغضاء. فلم ثبت أن شهدنا أنه حين أصبحت مصلحة الجميع مهددة من الخارج هب المجتمع كله وهو بحس أن حياته كلها في خطر. وهكذا على أساس من هذه المخاوف شئت قومية القرن التاسع عشر بالعداوة والبغضاء وقد انقضت الثقة، وأصبحت النظرية التجارية التي نادى بها «تيسون» في إنجلترا من توحيد الشعوب في نسيج واحد مشترك المصالح. ومن تكوين اتحاد بين شعوب العالم عن طريق التجارة الحرة، أصبحت هذه النظرية في خبر كان، ولم يعد يؤمن بها أحد بعد منتصف القرن التاسع عشر^(١).

ونشوء القومية الحديثة في غرب أوروبا عملية تاريخية ثبتت في دول معينة، وفي ظروف خاصة، وبوسائل مختلفة، غير أن سهولة المواصلات في العصر الحديث جعلت الفكرة الاجتماعية السياسية التي تشيع في شعب من الشعوب تستقبل إلى الشعوب الأخرى؛ إن شئت قلت عن طريق العدو، أو قلت عن طريق التقليد وتبادل الثقافات. أى أن ذلك الاتجاه الاجتماعي السياسي الذي خدعوه بالقومية أصبح ملكاً للإنسانية جموعاً. ومن المؤكد أن القومية في غرب أوروبا التي هي في الحقيقة نتاج ظروف وعوامل خاصة بهذه المنطقة من حيث النواحي السياسية والجغرافية والاقتصادية، قد انتقلت إلى العالم كله فساعدت على ذلك التوسيع السريع الذي فلحوظه الآن في عدد الدول المشاركة في الأمم المتحدة.

فلم يحدث في تاريخ الإنسانية أن استقل مثل هذا العدد الكبير من الدول على أساس القومية . فقد أخذت فكرة القومية تتغلل أيضاً في الشعوب الآسيوية ثم في الشعوب الأفريقية . وهكذا يمكن أن يقال إنه إذا كان القرن التاسع عشر عصر القوميات في أوروبا ، فإن القرن العشرين عصر القوميات في سائر العالم .

وما يدعو إلى الدهشة حقاً موقف الدول الكبيرة في أوروبا من القوميات التي نشأت بها خلال القرن التاسع عشر . فقد كانت إمبراطورية النمسا وروسيا القصصية من أشد الدول مقاومة لفكرة القومية ، وأقصاها ضراوة في محاربتها . فكانوا يقمعون الحركات القومية التي تقام في بقاعهم الشاسعة : بل كانوا أيضاً يستنكرون أشد الاستنكار ما يقوم من القوميات في سائر المناطق الأوروبية الأخرى في غير بلادهم ، وما لا يخضع لنفوذهم . فحين قام الشاعر اليوناني « ريفاس » يدعو قومه إلى الاستقلال ويشيد بالقومية اليونانية في أثناء إقامته ببلاد النمسا بادرت الحكومة الفسولية إلى اعتقاله وتسلمه إلى الدولة العثمانية التي قامت بشنقه في بلغراد . وحين قام « ايسيلاند » بثورته في رومانيا : وإشادته بالقومية الرومانية ضد استعمار الدولة العثمانية : تطوع قيصر روسيا فأصدر بياناً استنكر فيه هذه الثورة بأصرح العبارات وأقصاها .

وفقاً قمعت روسيا القصصية بكل عنف وقسوة ثورة « بولندا » سنة ١٨٣٠ . وكذلك شأن عندما ثار المجريون على إمبراطورية النمسا سنة ١٨٤٩ سارعت روسيا القصصية إلى تحجدة النمسا لإنجاد هذه الثورة .

على أن هذه الدول الكبيرة في أوروبا لم تلتزم موقفاً محدداً إزاء القوميات الناشئة ، فقد هبت روسيا القصصية لمساعدة ثورة اليونان ، وواجهت فرنسا جهاداً طويلاً ضد الوحدة الألمانية أو القومية الألمانية ؛ أما إنجلترا فكانت سياستها إزاء القوميات الناشئة تتذبذب على حسب ما تقضي به مصالحها الخاصة ، فلم تكن تعرف ببداً حقوق القوميات اعتراضاً صريحاً ، ولم تكن تعارضه معاشرة واضحة جلية . وكذلك شأن في فرنسا : فقد كانت تتآرجح بصدّ قضابها القوميات بين التأييد والمعارضة . فقد أيدت الحركات القومية في بلاد

اليونان وبليجيكا ، ولكنها وقفت موقف الردد والتخاذل إزاء حركات الاتحاد الإيطالي . وذلك يرغم مبادئ الثورة الفرنسية ، ويرغم ما كان ينادي به بعض المفكرين في فرنسا من أمثال «رينان» الذي كان يقول (إن كل قومية تولد وتنشأ يجب أن تلقي من فرنسا التشجيع والعون) ، قوله: لامرين وهو وزير الخارجية سنة ١٨٤٨ مشيراً إلى حركات الاتحاد الإيطالي والاتحاد الألماني: (إن فرنسا لن تعارض هذه الحركات ، ولن تسمح لسائر الدول بمعارضتها) ^(١) .

ومن الغريب حقاً أن نجد بعض الساسة والمفكرين في هذه الدول الكبيرة يقعنون من الحركات القومية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر موقف الاستخفاف بها والسخرية منها ، ويروها وليد الوهم والخيال . فيقول السياسي النساوي الشهير «ترنيخ» هازئاً ساخراً من فكرة الرحدة الإيطالية: (لا رابطة تربط مختلف الأقطار في إيطاليا غير التسمية الجغرافية) . ويقول السياسي الإنجليزي المعروف «ديزراييلي» واصفاً فكرة القومية: (إنها من خلق جماعة من الطلاب المحرومين من المخ ، ومن الأساتذة الموجلين في التعصب) . ويقول السياسي الفرنسي المشهور «تير» عن مبدأ حقوق القوميات: (أنا لا أعرف مبدأ أشد سخافة من هذا المبدأ . وأقدر منه على الخدم والتشرذم) .

بل إن جماعة من رجال الدين الكاثوليك قد يقع بهم الضلال إلى أن يصيروا فكرة القومية بالكفر والإلحاد زاعمين أن اختلاف اللغات الذي يستند عليه مبدأ القوميات دليل صريح على غضب الخالق الأعلى : لأنه في أصل شائه نتاج للمعصية والزبiqu عن طاعة الله . . ولعلهم بهذا يشيرون إلى قصة التوراة في بلبة الألسنة .

وأما المفكرون في الأمم النامية خلال القرن التاسع عشر فقد أشادوا بالقوميات ودافعوا عنها ، فكان في ألمانيا «فيخته» ، وماكس نورداو ، وفي بلجيكا «أميل لا بولاي» . ولكن مما يُؤسف له أن هؤلاء المؤيدون لفكرة القومية في القرن التاسع عشر قد قصروها على أوروبا . فلم يكونوا يرون أن

(١) كتاب «ما هي القومية؟» لـ ساطع المعرى من ١١ - ٢٢ .

شعوب آسيا وأفريقيا أهلاً لذلك الحكم القومي . فيقول « ماكس نورداو » مثلاً : (إن شمال أفريقيا يجب أن يكون مهجراً ومستوطناً للشعوب الأوروبية ، وأما سكانه الحاليون فيجب أن يدفعوا نحو الجنوب وفي مجاهل الصحراء إلى أن يفنوا هناك) ..

يجدر بنا بعد هذا أن نستعرض في إيجاز نشأة القوميات الحديثة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين في القارات الثلاث : أوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا .

١ - القوميات في أوروبا

شهد القرن التاسع عشر بعد مؤتمر فيينا صراعاً مريضاً بين الدول الكبرى في أوروبا ممثلة في روسيا القيصرية وإمبراطورية النمسا والمملكة العثمانية ، وبين الشعوب التي هبت تبادى بوحدتها واستقلالها على أساس ما عرف حينئذ بالقومية . وكانت الحركات القومية خلال هذا القرن بمثابة بعث للشعوب من مرقدها . ذلك لأن القومية الواحدة كان يشهدها أكثر من دولة من تلك الدول الكبيرة ، كما أن الدولة الواحدة كانت تضم عدة قوميات . فلم تكن الحدود في الدول تكتنف بتفتضي نصوص المعاهدات التي تتفق بعد الخراب ووحدتها . بل كانت تتغير تلك الحدود أيضاً دون حرب أو قتال بسبب زواج المذوك أو وفاته . فقد خبرت حروب نابليون خريطة أوروبا السياسية ، كما غيرتها الدول المتقدمة التي فهرت نابليون حين فكرت في إعادة تنظيم أوروبا . وقررت العمل بمبادئ ما سمي حينئذ بحقوق الملوك الشرعية : متتجاهلة مع الأسف الحقوق الشرعية للشعوب والقوميات .

وهكذا ظلت خريطة أوروبا بعد مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ بعيدة كل البعد عن الاعتقادات القومية : فقد ظل الألمان موزعين بين عشرات من الإمارات المستقلة ، وظل الطليان كذلك لا تجمع بينهم وحدة سياسية ، والبولنديون موزعين بين ثلاث دول قوية هي روسيا القيصرية والإمبراطورية النمساوية وبروسيا الألمانية . وظل اليوغسلافيون خاضعين لحكم دولتين كبيرتين هما الدولة العثمانية والإمبراطورية النمساوية .

في حين ظلت الإمبراطورية النمساوية تحكم قوميات مختلفة من ألمانيا وطليان ومجريين ورومان وتشيكين وبولنديين ويوغسلافين . وظلت السلطنة العثمانية تضم في قسمها الأوروبي وحده قوميات متباينة : يونانيين ، وبلغاريين ، وألبان ، ويوغسلافين .

فإذا قورنت خريطة أوروبا بعد مؤتمر فيينا بما صارت إليه بعد الحرب العالمية الأولى ظهرت لنا قوميات أوروبية متعددة : فقد توحدت ألمانيا ، وتوحدت إيطاليا ، واستقلت بولندا ، وتكونت يوغسلافيا ، وانفصلت فنلندا عن روسيا ، كما انفصلت البروسي عن السويد ، وبلجيكا عن هولندا ، وتم بجانب هذا أن تكونت دول جديدة أهمها : اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وألبانيا ، وتشيكوسلوفاكيا .

القومية اليونانية :

هبت اليونان بعد مؤتمر فيينا تشد استقلالها ، ثائرة على حكم الدولة العثمانية . وظهر فيها جماعة من المفكرين المصاحين على رأسهم « كوربس Corais » الذي كان ينادي بأن الشعور القومي لا يكتفى إلا بإحياء اللغة الإغريقية والأدب الإغريقي . مع أن اليونانيين حينئذ لم يكونوا في الحقيقة نسلاً مباشراً للإغريق القدماء . وهكذا تطلع اليونانيون إلى لغتهم التي تجمع شملهم ويتميزون بها وحدتها عن سواهم . وساعدت الدول الكبرى الحركة اليونانية فهزمت أسطول إنجلترا وروسيا وفرنسا أسطول محمد علي في نافارين ، وهزمت روسيا تركيا في معارك أرضية . وأدى هذا إلى استقلال اليونان وبعث القومية اليونانية . فلم يكدر العام ١٨٣٠ ينتهي حتى كان لليونانيين كلائهم المستقل في أوروبا وقوميتهم المشبّبة ، وكانت بهذا أسبق القوميات الأوروبية في الظهور والاتكال بعد مؤتمر فيينا . وتم ذلك برغم ما كان يتمتع به اليونانيون تحت حكم الأتراك من مزايا هامة كوظيفة سكرتير الباب العالي وترجمانه وقائد الأسطول العثماني ، وبرغم الرواج التجاري الذي تتمتعوا به ، والرخاء الذي عاش فيه الفلاحون منهم ،

ولكنها القومية ، والبعث القومي ، الذي يدعى الناس فلا يمكنون إلا الاستجابة له.

القومية الإيطالية :

ترك مؤتمر فيينا القومية الإيطالية موزعة مشتقة بين ولايات صغيرة تزعم نفسها الاستقلال ، وأخرى ترثي تحت حكم الدول الكبرى . ثم يزغ فجر القومية الإيطالية ، وبدأ الإيطاليون يحسون بكيانهم المميز ، مثلاً في تلك اللغة التي تندحر انحداراً مباشراً من اللاتينية ، وترتبط بينهم ربطاً وثيقاً . فيها يشعرون بعضهم مع بعض ، وبها يعبرون عن أفكارهم وأحاسيسهم وأماكنهم . وظهر بينهم جمعية الكاربوناري ، ثم جمعية إيطاليا الفتاة التي أنشأها « مازيني » الذي لقب بـ« الحرية والوطنية ». وبعد ثورات وحروب استغرقت نحو نصف قرن ، اشترك فيها السياسي الحنك ذو العقل الراجع والنظر البعيد « كافوز » الذي آمن بالوحدة الإيطالية إيماناً قوياً ، كما اشترك فيها القائد البطل المقدام « غاريبالدي » تحت إيطاليا وحدها واكتملت قوميتها ، وخلصت من فرود الإمبراطورية الفسقية سنة ١٨٧٠ . ومع هذا ظهر من زعماء إيطاليا وقادتها من كانوا يرون أن هذه الوحدة غير كاملة ولا شاملة ، وطالعوا إلى مناطق في شان إيطاليا ظلت تحت سيطرة إنحصاراً « كالترنفينو » و « التيرول » و « تريست » . لا تشوي سرى أن معظم سكان هذه المناطق يتكلمون اللغة الإيطالية . وظهر في إيطاليا بعد الوحدة حزب قوى يطالب بهذه المقاطعات ، ولم تكدر تتحقق آماله إلا في نهاية الحرب العالمية الأولى .

القومية الألمانية :

كانت حروب نابليون بمثابة المنطلق للقومية الألمانية ، فقد أحسن الألمان في أشأنها وبعد هزيمة نابليون بكيانهم وتعزيزهم عن غيرهم ، وبدأوا ينجذب بعضهم إلى بعض ، ويتعلّم بعضهم إلى بعض ، مع ما كانوا عليه من تشتت وانفصال في صورة إمارات وولايات يحاول كل من حكامها أن يستقرار بصالحه ونفوذه وسلطانه ، وكان أقواها بروسيا الألمانية . ووجد الألمان منذ

تعلّمهم إلى الوحدة أن أوضاع ما يتميّزون به عن الشعوب الأخرى أن لم ينم لغة واحدة تجمع شعّلهم وتلم شتاهم . ولذلك كان يقول فيلسوفهم *Fichte* في خطبه في حواره مع رجل من أهالي بروسيا :
— أنت ، ألمست ألمانياً ؟

فِي جِيَهِ الرَّجُلِ فِي شَكْلِ حَاسِمٍ :
— كَلَا، أَنَا لَسْتُ أَمَانِيًّا، بَلْ أَنَا بِرُوسِيٌّ .. وَلَكِنْ «فِي خَتَه» يَرْدِعُهُ قَاتِلًا :
— أَصْنَعُ إِلَى جِيدًا ، إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ أَهَالِي بِرُوسِيَا وَسَائِرِ الْأَلَمَانِ لَيْسَ إِلَّا
فَرْقًا عَارِضًا وَلَيْدَ الْمَصَادِفَةِ . أَمَّا الَّذِي يَتَعَيَّنُ بِهِ الْأَلَمَانُ عَنْ سَائِرِ الشَّعُوبِ الْأُورُبِيةِ
فَهُوَ الْلُّغَةُ الَّتِي يَشَرِّكُ فِيهَا جَمِيعُ الْأَلَمَانِ ، وَالَّتِي تَعَيَّنُهُمْ تَعَيُّنًا جَوْهِيًّا عَنْ جَمِيعِ
الْشَّعُوبِ الْأُخْرَى .

ولذلك تطلع الألمان منذ شعورهم بقوميتهم إلى إحدى زعامتين : بروسيا والنسا ، في كل منها تسود الألمانية . غير أن « النساء » خذلتهم وانفصلت عنهم خاضعة لأطماع حكامها من الإباطرة الذين كانوا يؤثرون إمبراطورية شاسعة تضم قوميات متباينة ; وبهذا أسلموا زمام الوحدة الألمانية إلى بروسيا ، وتمت الوحدة الألمانية فيها بين ١٨٤٨ - ١٨٧٠ بفضل الحبود العظيم الذي بذله ملك بروسيا يعاونه « بسمارك » مستشار الدولة الذي كان يؤمن بإيماناً قوياً أنه لا سبيل إلى وحدة ألمانيا بغير حرب : ويعان في صراحة أن الوحدة الألمانية لا يمكن أن تقوم على نشر المبادئ والشعارات القومية وحدها : بل لن تتحقق إلا على أسنة السيف والرماح . فعمل أولاً على أن يضمن حياد روسيا ، كما هادن « فرنسا » ، وذلك ليتفرغ للنسا إلى حاربها وهزمها في موقعة « سادوا » سنة ١٨٦٦ واكتفى بإذلال هذه الإمبراطورية الكبيرة : وضم بعض المقاطعات التي يتكلم سكانها الألمانية ، إلى الوحدة الألمانية مثل « شلسويج » و « هاشترين » و « مملكة هنوفر » ، ومقاطعة « هس » و « فرانكفورت » . فانفصلت أجزاء ألمانيا وأصبحت تؤلف وحدة جغرافية وسياسية تنتد من حدود روسيا إلى حدود فرنسا . وأخيراً نجح بسمارك في إثارة فرنسا وحاربها وانتصر عليها . وكان ذلك

لِيُضْمَنْ اعْرَافُ الْعَالَمِ بِهَذِهِ الْوَحْدَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ مِنْ نَاحِيَّةِ ، وَالْعَمَلُ عَلَى دُعْمِ الشَّعُورِ الْقَوْيِيِّ بَيْنَ الْأَلْمَانِ مِنْ نَاحِيَّةِ أُخْرَى . فَلَيْسَ أَقْوَى عَلَى إِشْعَالِ الْقَوْمِيَّةِ وَتَوْطِيدِ أَرْكَانِهَا مِنْ أَنْ يَشْعُرَ أَبْنَاؤُهَا أَنَّهُمْ بِوَاجْهَهُونَ عَدُوًّا لَّهُمْ بِقَوْمِهِمْ وَبِيَكِيدِهِمْ . وَعَلَى إِثْرِ هَزِيمَةِ فَرْنَسا عَقَدَتْ مُعَاهِدَةً بَيْنَ الْمُتَحَارِبِينَ ، وَكَانَ أَهْمَّ نَصوصُهَا ضِمْنَ الْأَلْزَاسِ وَالْأُورَينِ إِلَى أَلْمَانِيَا ، لَا لَشَيْءَ سَوْيَ أَنَّ اللَّغَةَ الْأَلْمَانِيَّةَ لِغَةُ مُعَظَّمِ سَكَانِ هَاتِئِنِ الْمَقَاطِعَتِينَ . وَأَفْقَعَتْ ظَرُوفُ الْحَرْبِ وَالْإِنْصَارَاتِ الَّتِي أَسْكَرَتْ الْأَلْمَانِ كُلَّهُمْ تِلْكَ الْوَلَيَاتِ الْجُنُوبِيَّةِ ، الَّتِي كَانَتْ تَرْدِدُ فِي الْإِنْصَامِ نَهَائِيًّا إِلَى الْوَحْدَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ مُثْلِهِ « بَافَارِيَا » وَ« وَرْتَبِرَجْ » وَ« دُوقِيَّةِ بَادِنْ » ، بِأَنَّ مِنَ الْحِيرَةِ لِهِمُ الْإِنْصَوَاءُ تَحْتَ رَأْيَةِ الْقَوْمِيَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ ، بِزَعْمَةِ بِسَارِكِ . وَفِي سَنَةِ ١٨٧١ تَوَجَّهَ الْمَلَكُ « وَطْلَمْ » إِمْپِرَاطُورًا عَلَى أَلْمَانِيَا فِي قَصْرِ فَرْسَى . وَلَكِنَّا نَسْأَلُ بِرَغْمِ هَذَا التَّصْرِيرِ الْمُبِينِ هُلْ بَلَغَتِ الْقَوْمِيَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ بَعْدِ هَزِيمَةِ فَرْنَسا كُلَّ مَا كَانَتْ تَصْبُو إِلَيْهِ ؟ لَعَلَّ فِي سُلُوكِ « هَتَلِرْ » قَبْيلِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَّةِ مَا يُجِيبُ عَنِ هَذَا السَّؤَالِ ، إِذَا كَانَ دَائِمُ الْمَطَالِبِ بِعَشْرَةِ الْمَلَيْنِ مِنْ الْأَلْمَانِ الْمُقِيمِينَ عَلَى حَدُودِ أَلْمَانِيَا الْمُتَّلِرِيَّةِ . وَكَانَ يَعْنِي بِهَذَا الْمُتَكَلِّمِينَ بِالْأَلْمَانِيَّةِ فِي الْعَسَا وَتَشِيكُ وَسُلُوفَاكِيَا . وَلَعَلَّ أَهْمَّ مَا يُسْرِرُ عَلَى هَذِهِنَّ خَمْ سَكَانِهَا إِلَى بِلَادِهِ دُونَ حَرْبٍ أَوْ مَعَاوَةٍ أَنَّ سَكَانِهَا لَا يَتَكَلَّسُونَ إِلَّا لِلْأَلْمَانِيَّةِ (١) .

الْقَوْمِيَّةِ الْبُولَنْدِيَّةِ :

ظَلَّتِ الْقَوْمِيَّةِ الْبُولَنْدِيَّةِ حَتَّى نَشُوبِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى تَقَانِي طَغْيَانِ الْحَكْمِ الْرُّوسِيِّ مِنْ نَاحِيَّةِ وَالْحَكْمِ الْبُرُوسِيِّ مِنْ نَاحِيَّةِ أُخْرَى . وَكَانَ أَهْمَمُ مَا اجْبَهَتْ إِلَيْهِ رُوسِيَا الْقَبِصِرِيَّةُ لِلْقَضَاءِ عَلَى الْقَوْمِيَّةِ الْبُولَنْدِيَّةِ مُحْوِيًّا كُلَّ أَثْرِ لِلتَّقَافَةِ الْبُولَنْدِيَّةِ مُمِثَّلَةً فِي تَارِيخِهَا وَقِيَّعَهَا . فَمَحْرَمَتْ عَلَى سَكَانِهَا اصْطِنَاعُ اللَّغَةِ الْبُولَنْدِيَّةِ فِي الْأَغْرَاضِ الرَّسْمِيَّةِ ، وَفَرَضَتْ عَلَيْهِمُ الْلَّغَةِ الْرُّوسِيَّةِ ، وَتَارِيخِ الْإِمْپِرَاطُورِيَّةِ الْرُّوسِيَّةِ فِي الْمَدَارِسِ وَدُورِ الْعِلْمِ . وَنَحْدَثُنَا الْعَالَمُ الْمُشَهُورُ « مَدَامْ كُورِي » فِي مَذَكَرَاهَا عَمَّا صَادَفَهَا فِي « بُولَنْدا » ، وَهِيَ تَاحِيدَةٌ صَغِيرَةٌ بِإِحدَى الْمَدَارِسِ حِينَ تَجَرَّأَتْ مَدْرَسَةٌ شَجَاعَةٌ مِنَ الْبُولَنْدِيَّاتِ ،

وأخذت تتلو على تلاميذها شطراً من تاريخ بولندا القوي باللغة البولندية . فلما دقت الأجراس منيرة بزيارة المفتش الروسي تطوعت بعض التلميذات وأختين في لمح البصر الكتب البولندية في مكان قريب . فلما أقبل المفتش يهادى في غطرسة وكبراء وجد أمامه عشرين من التلميذات يستمعن إلى درس في الخياطة والتطريز . وبعد أن قام بتفتيش الأدراج واطمأن إلى أنها خالية مما يمكن أن يشير أزمة أو لوماً ، سأله المدرسة أن تخثار له إحدى التلميذات ليوجه إليها بعض الأسئلة . وكان أن اختارت له تلميذة النابغة التي عرفت فيها بعد بحثاً كوريا . فسألها المفتش أن تتلو الصلوات والأدعية ، فتلتها في لباقه دون تعرُّف باللغة الروسية . ثم سألاها عن قدر من تاريخ القياصرة الروس فأجابت بالروسية أيضاً ودون تردد أو تلعم . فلما انصرف المفتش انفجرت التلميذة بكى حزناً على القومية البولندية والتاريخ البولندي ، بل قل حزناً على لغتها القومية^(١) .

ولم تكن بولندا تحت حكم الألمان بأسعد حظاً ، فقد حرمت اللغة البولندية في الأمور الرسمية ، بل فرضت الصلة على صغار الأطفال باللغة الألمانية وتعرض بعضهم للجلد بالسياط كلما رفضوا ذلك .

ومع ماعانته القومية البولندية تحت حكم الروس والألمان ، ثارت بولندا مرتين إحداهما سنة ١٨٣٠ والأخرى سنة ١٨٦٣ ، وأقامت الثورة في قسوة وعنف ، ولكن القومية البولندية ظلت تتجه إلى أن كانت الحرب العالمية الأولى .

قوميات أخرى في أوروبا :

ظلت الحركات القومية في أوروبا في صراع مع الدول الكبرى طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى أن انتهت الحرب العالمية بمعاهدة فرساي التي اعترفت بهذه القوميات ، وأعادت توزيع أوروبا على أساسها . في الشمال من شبه جزيرة اسكندنافيا ظهرت قومياتان متباينتان عرفتا فيما بعد بدولتي السويد والدنمارك ، كما اسلخت القومية الفنلندية عن روسيا ، وكذلك دول البلطيق (استونيا ، لاتفيا ، لتوانيا) .

(١) نفس المرجع ص ٢٠٢ .

وفي الغرب انفصلت بلجيكا عن هولندا ، وهم مما وحد بينهما مؤتمر فيينا ، ولكن التجربة أثبتت فشلها ، فثارت بلجيكا وطالبت بالاستقلال الثاني سنة ١٨٣٠ وحصلت عليه بعد حرب مع هولندا . وكان أوضح ما ثارت له بلجيكا سوء سياسة هولندا ، فقد جعلت اللغة الهولندية اللغة الرسمية ، وجعلت العاصمة « لاهاي » ، ومعظم الوزارات هولندية ، إلى غير ذلك مما ألهب القومية البلجيكية ، وأثارها ضد الوحدة مع هولندا . ولكننا مع هذا نتساءل هل الأساس الذي بني عليه تكوين بلجيكا أساس قوي؟ ولعلنا نجد الجواب عن هنا التساؤل فيها لازال نشهده الآن من صراع في بلجيكا بين اللغتين الفلامنكية والفرنسية.

وفي مناطق البلقان ظهرت قوميات ثلاثة هي التي عرفت فيها بعد بقومية رومانيا ، والقومية البلغارية ، والقومية اليوغوسلافية . وأساس هذه القوميات كما سرى لغوى ، فلكل منها لغتها المتميزة التي جذبت أفرادها بعضهم إلى بعض وعبرت عن أفكارهم وأحساسهم ، وميزتهم عن حوطم من شعوب . واكمل هذه القوميات كيانها ، ويرهن على تميزها واستحقاقها الاستقلال بعد حركات ثورية عنيفة ، بل بعض الحروب أيضاً ، مما حمل المؤمنين في فرساي بعد الحرب العالمية الأولى على الاعتراف بهذه القوميات .

أما في وسط أوروبا فقد ظلت الإمبراطورية النمساوية ، أو قل ظل أباطرة النمسا يستمدون بتلك الدولة الكبيرة التي كانت تضم عدة قوميات ، ويحاولون بالفهر والعسف حيناً ، وبالهادنة حيناً آخر ، الاحتفاظ بحدودها الشاسعة . غير أن الشعور القومي في بعض مناطقهم كان أقوى من سلطانهم وجبروتهم؛ فقد تسربت مبادئ القومية إلى النمسا على إثر الانقلاب الصناعي في أوروبا ، وبعد إنشاء السكك الحديدية ، التي ربطت بين بلاد الإمبراطورية ، فساعدت على إشعال الشعور القومي . وكانت دولة النمسا تتألف من أربع قوميات :

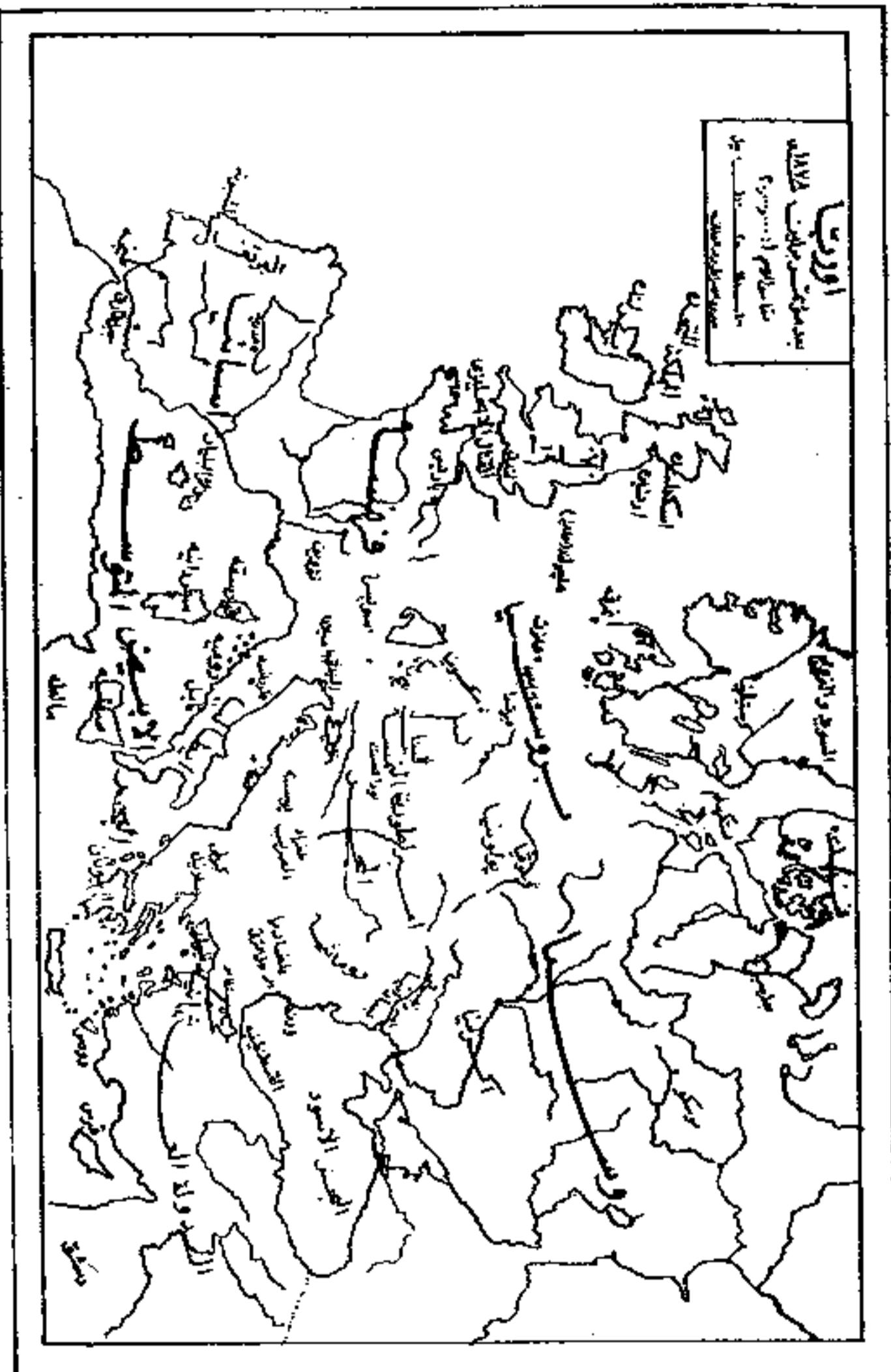
- ١ - القومية السلافية في الشمال ويتكلّم أهلها لغة متميزة في مقاطعة « بوهيميا » ، و « مورافيا » وجزء من شمال المجر ، والسلافية في الجنوب وتمثل في المكرولات والمصرب » .

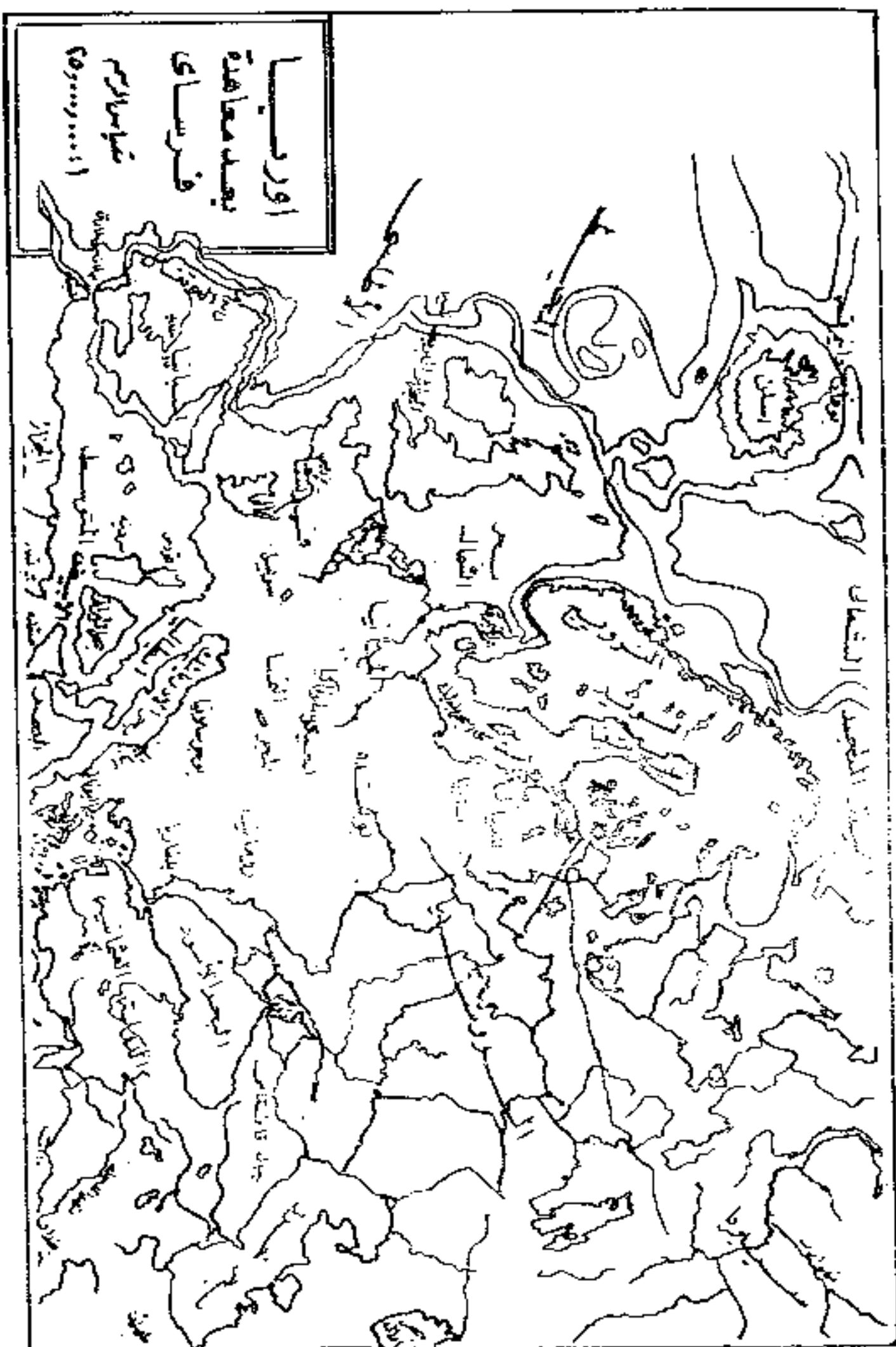
- ٢ - القومية المغولية في معظم أنحاء «المغرب».
- ٣ - القومية الألمانية على ضفاف نهر الطوفة.
- ٤ - القومية اللاتينية في مقاطعة «تونسلفانيا» و «بكتوفيا» و «التيrol» و «ترستا».

وكان لكل من هذه القوميات لغتها المتميزة التي ربطت بين جماعاتها، وجدت بعضهم إلى بعض. وظهر بين السلافيين زعماء يدعون إلى إحياء التاريخ القوي واللغة القومية، وإلى الوحدة بين كل من يتسمون إلى العنصر السلافي، أمثال «پلاكى» في بوهيميا، و «كولار» الذي دعا إلى وحدة السلافيين. كما ظهر في «المغرب» زعيم قوى وجه نشاطه إلى إحياء اللغة المغربية، فأصدر أول حقيقة بهذه اللغة وهو «كشوط».

وكانت سياسة الحكام من الأباطرة تعمد إلى استغلال الفرق بين هذه القوميات، وتؤلب بعضها على بعض، أملأا في القضاء عليها جميعاً. فلما قاتلت الحركات القومية في مقاطعات الإمبراطورية الفرويدية قابلها هؤلاء الأباطرة بالعنف والقمع، أو منح بعضها ما سموه بالاستقلال الذاتي. وظلت هذه القوميات في صراع مع الأباطرة الطاغية إلى أن انتهت الحرب العالمية الأولى. وعقدت معااهدة فرساي التي اعترفت بالقوميات. وقد اشتعلت الثورات القومية في الإمبراطورية سنة ١٨٤٨: فقامت «المغرب» تطالب بالاستقلال الذاتي، وثارت «بوهيميا» مطالبة باعتبار كل اللغات على قدم المساواة. وفي لحظة مهادنة منع الإمبراطور «المغرب» حكومة مستقلة، وسمح لها بوضع دستور خاص بها. ثم نقض عهده حين رأى اختلاف القوميات في إمبراطوريته، وقام بعضهم ضد بعض. فالذين من العنصر السلافي دعوا إلى الوحدة بينهم ضد الألمان، وأساء المجريون معاملة من يتسمون إلى العنصر السلافي فانضمت الصربي إلى الكروات وهم عنصر سلافي، وحاربوا المجريين. فانتهز الإمبراطور هذه الفرصة وسحب كل الامتيازات التي منحها «للمنج»، وقضى نهائياً على النوار والحركات القومية، إلى أن كانت معااهدة فرساي سنة ١٩١٨ التي

كان من نتائجها أن «منحت» بولندا ما يسمى بالامر إلى بحر البلطيق لأن معظم سكانه كانوا يتكلمون اللغة البولندية . أما مدينة «دوزج» فيرغم أن أهلها من الألمان ويتكلمون الألمانية فقد وضعت بعتصفي هذه المعاهدة تحت وصاية عصبة الأمم . كما كان من نتائج هذه المعاهدة فصل «التسا» عن «البحر» على أن يسود في التسا قومية ألمانيا وفي «البحر» قومية مجرية . أو إن شئت قلت: إن التسا تكونت من يتكلمون الألمانية . وإن «البحر» تكونت من يتكلمون بال مجرية . ولكن كان من أوضاع ما أخذ على معاهدة فرساي أنها سمحت بضم بعض المجريين أو من يتكلمون باللغة المجرية إلى رومانيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا . فقد خضت «ترنافاتيا» وسكانها من البحر إلى رومانيا ، وضمت «كرواتيا» إلى يوغوسلافيا . وضم الجزء الشمالي من البحر إلى تشيكوسلوفاكيا ، وضمت مقاطعات اليرول في الجنوب إلى إيطاليا . أي . أن التقسيم الجغرافي في هذه المعاهدة لم يكن كلـه على أساس القوميات ؛ بل ترك جزءاً للنزاع والشـفـاق القومي ؛ مما ظلت معه أوروبا بين المجريين العـالمـيـين تقـاسـيـ وـثـنـ ، وما كان من الأسباب المباشرة للحرب العالمية الثانية . في تشيكوسلوفاكيا أقلية كبيرة من الألمان فرضت عليهم اللغة التشيكية . ففضلوا لهذا وأصبحوا على خلاف دائم مع الأكثـرـيةـ السـلـاـفـةـ . وفي بولندا ذـوـمـ منـ الـأـلـمـانـ يـنـطـلـعـونـ إلىـ أـلـمـانـيـاـ الـكـبـرـيـ ، كذلك اقتـطـعـتـ مقـاطـعـةـ «ـبـارـبـاـ»ـ منـ شـمـالـ روـمـانـيـاـ . وـضـمـتـ إـلـيـ روـسـياـ بـرـغـمـ أـنـ أـهـلـهـاـ لـاـ يـتـكـلـمـونـ إـلـاـ لـغـةـ روـمـانـيـاـ .





٢ - القوميات في أفريقيا

ذكرنا آنفًا أن القومية بوصفها فكرة سياسية واجتماعية تعدّ من الشعارات التي أمدّتنا بها أوروبا في العصور الحديثة . ذلك لأن القبائل التي شهدت سقوط الدولة الرومانية قد استقرت في مناطق من أوروبا ، وامرتخت بمن ين فيها من سكانها الأصليين . وتكون من هؤلاء وهؤلاء ما نسميه في الوقت الحاضر بالقوميات الأوروبية .

ولما اندثر النظام القبلي في أوروبا حل محله ذلك النظام الذي يدعوه المؤرخون بالنظام الإقطاعي . ومع أن هذا النظام الإقطاعي قد اختلفت خصائصه باختلاف المناطق ، لكنه كان في أساسه يتالف من قرية أو عدة قرى يسيطر عليها أحد اللوردات ، ويعد من الناحية العملية مالكًا للأرض فيها . ويدين هذا اللورد بالولاء لمن هو أكبر منه وأقوى مثل « الكونت » أو « الإيرل » أو « الديوك » ، ثم الملك . فكما يدين « اللورد » بالولاء للكونت أو الديوك وتحوهما يدين هؤلاء بالولاء للملك . أو كما حدثنا رجال القانون من وصفوا هذا النظام الإقطاعي : كان القروي يدين بالولاء « للورد » . وكل « لورد » يدين بالولاء « لكونت » أو « إيرل » ، وهذا الأخير يدين بالولاء « لديوك » ؛ وأخيراً يدين الديوك بالولاء للملك . ولكن هذا النظام لم يطبق على هذه الصورة في كل الحالات .

ولما اندثر هذا النظام أو كاد ، لم يختلف من صور الولاء إلا الولاء للملك . ويعود ولاء الرعية نحو ملكتها الأساس الذي بني عليه ما يسمى بالواجب الوطني أو الوطنية . ثم كان من البسيط أن امتد هذا الولاء من شخص الملك إلى الدولة أو المملكة . فننظر إلى الدولة على أنها بذاته شخص يدين له كل مواطن بالإخلاص والحب ، وتطلب هذا الحب وذلك الإخلاص من المواطنين واجبات وخدمات . فإذا كان من حق المرء أن يكون مواطننا فإن عليه واجباً هو أن يكون مواطنًا صالحًا أميناً مخلصاً . وهكذا تكونت الدولة القومية الحديثة في أوروبا من الناحية التاريخية .

ـ ويرغم هذا فإن في القومية الحديثة مضموناً عاطفياً قوياً هو الذي حار الدارسون في تفسيره وبيان كنهه كما سرى فيها بعد . على أنه مما يسترعى الانتباه أن الكلمة التي تعبر عن الوطنية في معظم اللغات الأوروبية قد انحدرت من أصل لاتيني معناه «الأب» ، ويطلق على الوطن في بعض اللغات «أرض الأب» ، وفي البعض الآخر من اللغات قد تغلب العاطفة والحنين فيطلق على الوطن «أرض الأم» كما في الإنجليزية مثلا . . وكذلك الشأن في اللغة التي ينشأ المرء عليها في وطنه يطلق عليها عادة «لغة الأم» . ويعبر المرء أحياناً عن الوطن «بأرض الأسرة» كما هو الشأن في بعض تعبير اللغتين الإنجليزية والألمانية .

ونستوحى مما تقدم أن المحبة والإيثار ، وهو مما يسود في الأسرة السعيدة ، يرتبطان أيضاً بالوطن أو بما يسمى بالقومية . فالماء في مرحلة الرجولة وقد أعيته مشاكل الحياة وأرهقته قد يحن إلى عهد الطفولة يوم كان خليلاً من تلك المشاكل . ولذلك يحس كل منا بالعاطفة والولاء تجاه وطنه كما يحس بهما تجاه أسرته السعيدة . وكذلك الشأن في إحساسه نحو لغته التي تعلمتها بين أحضان أمه : وظل بعد ذلك يتأثر بتراثها الذي ينمي عاطفته وأحساسه نحو هذه اللغة^(١) .

فيما نظرنا في ضوء هذا إلى حدود الدول الأفريقية وجدناها وابدة المصادقة أو الأحداث الاستعمارية . فقد أنس كل من البرتغال وأسبانيا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وبليجيكا مراكز لها في أفريقيا . وخططت الحدود بعد ذلك على أساس سلسلة من الاتفاقيات بين هذه القوى الاستعمارية ، بل في بعض الأحيان كانت إحدى هذه الدول الاستعمارية تقسم الحدود في مناطقها على أساس إداري بحث كما كان الشأن في أفريقيا الفرنسية في غرب القارة . فلو قد خططت الحدود على أساس جغرافي أو أساس قبل ، لما وجدت تلك الدول الحديثة في غرب أفريقيا . ذلك لأنها تتألف من خليط عجيب من السكان ، وليس حدودها معلم واضحة مميزة . أى أن القوميات في أفريقيا لم تتكون على نفس الأساس التاريخية التي تكونت عليها القوميات في أوروبا الحديثة .

وليس من الضروري في الحديث عن القوميات في أفريقيا التوغل في تاريخ هذه القارة ، بل ربما يكفي في المدف الذي رسمناه لهذا الكتاب أن ننظر إلى أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية ، فربما أن بريطانيا قد استأثرت بمناطق شاسعة في الشرق وببعض المناطق في الغرب ، في حين أن فرنسا قد احتلت معظم المناطق في الغرب وببعض المناطق في الوسط . وقد شاركت البرتغال وبليجيكا في احتلال مناطق واسعة من وسط القارة .

وتعود الثورة القومية في أفريقيا خلال العشرين سنة التي تلت الحرب العالمية الثانية من أهم الظواهر السياسية المتاخرة التعقيد التي ظهرت في منتصف القرن العشرين . فلم يكُن العام ١٩٦٣ ينتهي حتى شهدت أفريقيا أكثر من ثلاثين دولة مستقلة كانت منذ سنوات قليلة أقاليم مستعمرة تشرف عليهاقوى الاستعمار الكبري .

على أنه إذا كان للاستعمار من فضل فإن نشر التعليم في هذه المناطق ومدّها بكثير من مظاهر الحضارة الحديثة بعد فضلاً للذلة الاستعمار البغيض . ولم تقم تلك الدول المستعمرة بإصلاحاتها وتنظيماتها واستثمارتها وتنوير وسائل الرخاء ومظاهر الحضارة في هذه المناطق حتّى في أهلها ، أو رغبة في النهوض بهم ، بقدر ما كانت لتوفير الحياة المريحة لمستوطني الأوربيين أو تكوين أجهزة إدارية تخدّم الدولة المستعمرة . ومع هذا فرب ضارة نافعة . لقد تعلم الأفريقيون وهمروا . وقوى الوعي ينتمي لهم وكيالهم : ونشأ بينهم زعماء وقادة تطلعوا إلى الحياة الكريمة لقومهم وأوطانهم : وأسّعوا أصواتهم بمجلجة مدوية للعالم أجمع في مؤتمر منشستر سنة ١٩٤٥ . وكان أبرزهم حينذاك « نكر ومه » و « جوموكينياتا » :

ويرغم بعض الاضطرابات العرضية التي ثارت في أثناء الدعوة إلى القومية الأفريقية بين العامين ١٩٤٥ ، ١٩٦٠ ، فقد انتهى الصراع بالحصول على استقلال ذلك العدد الكبير من الدول ، دون اللجوء إلى استخدام العنف في أكثر الأحوال . فإذا استثنينا ما حدث للجزائر وكينيا « والكمبرون » نرى أن مولد استقلال الدول الأخرى لم يصحبه عنف يؤدي إلى خسائر جسيمة في الأرواح .

ونظرنا فإذا بأكثر من ثلاثين دولة مستقلة تنشأ في أفريقيا خلال بضع سنوات ، وأصبحت كلها أعضاء في الأمم المتحدة . ونتساءل هل كان الأساس الذي تكونت عليه هذه الدول أساساً قومياً حقيقياً بالمعنى الذي شهدناه في قوميات أوروبا ، أم أنها في الحقيقة وليدة التنظيم الإداري في عهد الاستعمار ! ؟ وإلا فلا ندرى لماذا يقوم نزاع أو صراع بعد الاستقلال في نيجيريا والكونغو وجهات أخرى من القارة .

وكيف تم في مثل هذه القراءة القصيرة استهلال هذا العدد الكبير من الدول الأفريقية التي من بينها القزم الذي لا يكاد عدد سكانه يجاوز نصف مليون كدولة « جامبيا » في الغرب ، والعملاق الذي يبلغ عدد سكانه أكثر منأربعين مليوناً كدولة « نيجيريا » التي تكاد تساوى كل بريطانيا في المساحة وعدد السكان . . فما هي الأسس أو المقومات التي بُنيت عليها دولة « جامبيا » ، وما الذي سوّغ أن ينشأ في مثل هذه المنطقة الضيقه ومع ذلك العدد الضئيل من السكان ، دولة مستقلة ذات كيان متميز ؟

أخشى أن السماحة غير المتوقعة التي ظهرت لنا من الدول الاستعمارية الكبرى ولا سيما بريطانيا وفرنسا في سياستها تجاه الحركة الاستقلالية في أفريقيا . لم تكن إلا خدعة أرادوا بها تفتيت القارة إلى وحدات منعزلة غير مهمسكة . وهكذا لم يكدر يبدأ العام ١٩٦٣ حتى شهدنا في غرب أفريقيا دولات صغيرة الحجم قليلة السكان أمثال « داهومي » ، « توجو » ، « ليبيريا » ، « سيراليون » ، « جامبيا » ، وغيرها من الدول التي أسكنها فكرة الاستقلال ، والتي سمحت لبريقه الزائف أن يشتتها أو يفتها . أى أن تلك الدول الاستعمارية ، بتشجيعها على مثل هذا التشتت أو التفتت قبل الاستقلال ، وبتجاهله بعده ، كانت بمثابة الراعي غير الأمين على السائمة ، فركها تضل في متأهات القارة الأفريقية لعلها تعود إليه نادمة آسفة حين تعانى من المشاكل الاقتصادية والإدارية ، ما ينوه به كل منها في انعزاظها الذي سموه استقلالاً .

وتباً المصلحون من زعماء أفريقيا بمثل هذا المصير المروع ، فأنخلوا ينادون

حتى قبل الاستقلال بالدعوة إلى لم الشمل في صورة أو أخرى .

وظهرت أول خطوة إيجابية بذلك الاتحاد الذي تم بين غانا وغينيا سنة ١٩٥٨ ، ثم انضمت إليه « مالي » سنة ١٩٦٠ ، ولكن ، هذا الاتحاد لم يتحقق أهدافه الطموحة ، ولم تثبت خططه أن انتسبت رأساً على عقب . فقد أدى الانفصال الجغرافي بين الوحدات المكونة لهذا الاتحاد : والفارقان الأساسية في النظم الدستورية والإدارية والقضائية ، وفوق هذا كله أدى اختلاف اللغة إلى فشل التجربة . فلما كان العام ١٩٦١ اجتمع في الدار البيضاء ممثلون للدول : غانا ، غينيا ، مالي ، المغرب ، ليبيا ، الجزائر ، والجمهورية العربية المتحدة ، وحاولوا تأليف جبهة قوية تواجه ذلك الاتحاد الذي تم بين اثنى عشرة دولة ، وعرف بمجموعة برازيل ، وهي الدول التي تسود فيها اللغة الفرنسية . وهنا يبرز دور اللغة في عزل بعض دول أفريقيا عن البعض الآخر . فقد بذلت التخلخل وأصبحا في مجموعة الدار البيضاء التي لا يكاد يجمع بينها ثقافة واحدة ، أو بعبارة أخرى لغة واحدة : في حين أن الروابط الثقافية بين الدول التي تتكلم الفرنسية في مجموعة برازيل قد شجعها على تحديد سياسة مشتركة ، وعلى مواجهة المشاكل الاقتصادية المشركة . أى أن مجموعة برازيل بذلت بسبب الإثبات في اللغة أكثر تماساً ، واتسعت قرارتها بطابع عمل يتميز بوضوح على تلك النيرة العاطفية التي بذلت في اجتماعات الدار البيضاء التي لم تسمح عن نتيجة ذات بال .

وظهر مع هذين الاتحادين ، بل ربما قبلهما ، ميل عام في شرق أفريقيا يؤلف من دولة المثلثة في « تنزانيا » ، « أوغندا » ، « زنبار » ، « كينيا » ، اتحاداً عُرف باتحاد شرق أفريقيا الذي كان من أقوى دعائمه أن دولة قد أخذت بالثقافة الإنجليزية ، أى أن اللغة الإنجليزية تسود بينها .

ثم كانت نهاية المطاف بأن دعا المصلحون من زعماء أفريقيا إلى وحدة تلم شتاها وتؤلف بين دولها المبعثرة المتنافرة ، وأنذروا يتامرون بذلك أبداً أو شعراً يجمع بينهم ويلتئمون حوله . فنبت فكرة الشخصية الأفريقية التي تبناها ، وكان من أكثر المتحمسين لها « نكرودا » . فكان يتطلع إلى أفريقيا التي تتجاهل

الحدود الضيقة الخاصة بالجنس والطبيعة والقبيلة واللغة، فتولفت من مناطقها ما يمكن أن يسمى بالولايات المتحدة الأفريقية ، التي تهدف إلى ربط الدول المستقلة برباط وثيق في صورة اتحاد «فيدرالي» مسياسي واحد يشبه في بعض نواحيه البناء الدستوري القائم في الولايات المتحدة الأمريكية . وهكذا ظهرت منظمة الوحدة الأفريقية ، واكملت شمل أعضائها في اجتماع عقد سنة ١٩٦٣ في أبيدجان.

غير أن الرواية لم تمّ فضولاً ، ومن العسير التنبؤ بصير هذه الوحدة الأفريقية ، فالتيارات السياسية العالمية تقوم بدور خطير في توجيه الصراع السياسي الذي نشهده الآن بين دول أفريقيا . ذلك لأن من بين هذه الدول ما يؤمن بالإيديولوجية الاشتراكية ، وأسبقاها في هذا غالباً على يدي «نكر وما» ، وغينيا على يدي «سيكوتوري» . وبرغم أن كلام الزعيمين يستلهم رأيه أو مذهبه من الاشتراكية العلمية ، غير أن مذهب نكر وما يحاول تكيف الاشتراكية مع حاجات أفريقيا وظروفها ، ويدعوها باشتراكية أفريقيا . ويشركه في هذا رئيس جمهورية السنغال الذي يرى أيضاً وجوب تفسير الأفاريقين للاشتراكية بحسب تلامُح حاجات أفريقيا وظروفها . في حين أن سيكوتوري في غينيا مختلف عنهما فلا يرى إحداث أي تعديل في النظرية الاشتراكية العلمية . وبرفرض ما يسمى بالاشتراكية الأفريقية . ويعدّ هذا نوعاً من المتعصب بالانماط .

ويبدو أن السر المخفى في اتجاه هؤلاء الزعماء نحو الإيديولوجية الاشتراكية هو فقدانهم الثقة في كل ما يمت إلى الدول التي استعررت بلادهم زمناً طويلاً . ولذلك انصرفوا عن نظامها الاقتصادي الرأساني إلى نظام آخر أعمله يحقق أهدافهم ويكتفى بلادهم مستقبلاً أكثر رخاء واستقراراً^(١).

فأفريقيا الآن مسرح للصراع السياسي والاقتصادي بين الإيديولوجية الاشتراكية والإيديولوجية الغربية . وتعمل كل منها جاهدة على كسب الأصدقاء بين دول أفريقيا ، وليس من البسيط التنبؤ بصير هذا الصراع .

ونتساءل بعد كل ما تقدم هل اتضحت معالم القومية في أفريقيا ؟ وهل

استقرت على أمر معين محدد؟ يبدو أن القومية في إفريقيا ، باستثناء إثيوبيا ودول الشمال ، لا تزال تتلمس طريقها في ظلام هذه القارة ، وأن المفكرين فيها قد تجاهلوا حقيقة هامة ، أو لم يولوها ما تستحق من عناية . وتلك الحقيقة هي دور اللغة في دعم القومية بين مناطق إفريقيا .

ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة ما نشر بالأهرام (مارس سنة ١٩٦٩) تحت عنوان «إفريقيا والفرنكوفونية» على لسان الزعيم الأفريقي ليوبولد سنجور رئيس جمهورية السنغال وأحد مفكري الوحدة الأفريقية . فهو فيها يبدو يؤمن بإمكاناً غوياً بدور اللغة لا في دعم القومية فحسب ، بل أيضاً في تجميع شعوب تعيش في مناطق متباينة . ونحن هنا نقتبس طرفاً من هذا المقال : (وتحدث الرئيس سنجور عن الفرنكوفونية وهي تلك الحركة التي ترى إلى الجمع بين البلاد التي تكلم الفرنسيبة في ظل رابطة ثقافية سياسية غيرها تدعيم الثقافة الفرنسية ونشر إشعاعها في العالم : وقد سبق أن عرف الرئيس السنغالي هذه الحركة في تصريحات سابقة فقال : الفرنكوفونية هي إنسانية شاملة تسع خيوطها حول المعمورة لتربط بين جميع الأجناس في مختلف القارات . ومن الجدير بالذكر هنا أن اللغة الفرنسيبة كانت حتى أوائل هذا القرن هي لغة المعاملات الدولية . والمحافل الدبلوماسية والمؤتمرات حتى قامت اللغة الإنجليزية بمنافسها فيما بين الحربين العالميتين : وحتى استطاعت أن تطغى عليها وتتصبح لغة المعاملات الدولية وبخاصة بعد أن أتيح للدبلوماسية الأمريكية أن تسيطر على العالم عقب الحرب العالمية الثانية . ولكن لم يكدر يمضي على هذه السيطرة زمن طويل حتى استطاعت الفرنسيبة أن تستعيد بعض مكانها وتعود لنفرض نفسها في المحافل الدولية وفي الأمم المتحدة . ويرجع ذلك فيها يرجع إلى استقلال مجموعة من الدول الناطقة بالفرنسية ، وإلى سياسة الرئيس دي جول الرامية إلى بعث الوجود الفرنسي في المجتمع الثقافي الدولي .

واليوم يوجد ثلاث وثلاثون دولة تكلم الفرنسيبة . إما لأنها تعتبرها لغتها الرسمية . وإما لأنها لغة التدريس فيها . وإنما لأنها تعتبرها اللغة الثانية بعد لغتها

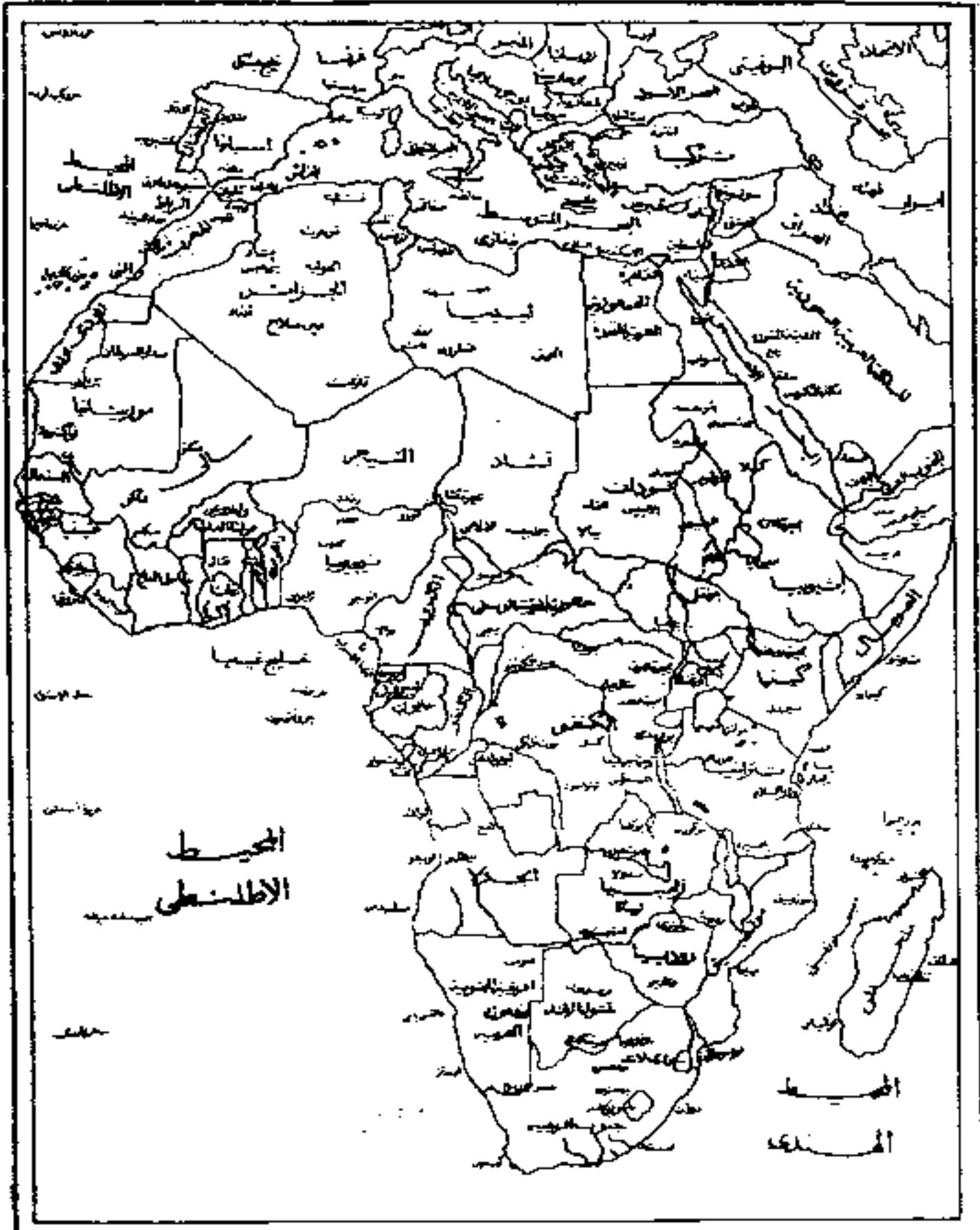
الأصلية . وسواء من هذه الدول ما كان في القارة الأمريكية مثل كندا ، هايني أو في آسيا مثل لاوس ، كمبوديا ؛ أو في العالم العربي مثل لبنان وتونس والمغرب والجزائر ؛ أو في أفريقيا مثل الكونغو كنثاسا . مدغشقر ، أو في أوروبا مثل سويسرا وبلجيكا ولوکسمبورج . . فإن هذه الدول في مجموعها تتألف من نحو أكثر من مائة مليون نسمة ، وإن كان من يجيدون الفرنسية من هنا المجموع ويتكلمونها فعلاً لا يتجاوزون خمسة وسبعين مليون نسمة . وهذه الدول قد قررت أن تربّط في ظل «كومونولث ثقافي فرنسي » للدفاع عن اللغة الفرنسية والعمل على نشرها . وهذا «الكوندولث» هو الذي أطلق عليه اسم «الفرنكوفونية» . وكانت السنغال بزعامة الرئيس ليوبولد سنجور من أول المدافعين عن هذه الفكرة والمحمدين لها . وببدأ الرئيس سنجور نشاطه بهذه الدعوة دأب على متابعة «الأوكام» . وفي أحد اجتماعات مجلس رؤساء هذه المنظمة بمدينة «تاشاريف» عاصمة مدغشقر في يوليه سنة ١٩٦٦ كلف المجلس الرئيس ليوبولد سنجور والرئيس «ديوري هاماكي» رئيس جمهورية «النيجر» . بالقيام بإجراء الاتصالات اللازمة لوضع مشروع لإقامة منظمة دولية للدول الناطقة بالفرنسية . وقد سافر الرئيس سنجور في سبتمبر سنة ١٩٦٦ إلى كندا في سبيل هذا المشروع وكان من نتائج مساعدته إنشاء مجلس الدول لغة الفرنسية في ٥ مايو سنة ١٩٦٧ والجمعية الدولية لعلميات الدول الناطقة بالفرنسية . وفي نوفمبر سنة ١٩٦٧ قررت منظمة «الأوكام» الأفريقية إنشاء منظمة دولية للتعاون الفني بين الدول الناطقة بالفرنسية ، بل كان موضوع «الفرنكوفونية» محل مناقشات رؤساء الدول الأفريقية في أثناء اجتماعهم في الشهر الماضي بمدينة كنثاسا . وفي نهاية شهر فبراير اجتمع بمدينة «نيامي» مؤتمر جديد يجمع بين ممثل ثلاثة وثلاثين دولة لوضع اللمسات الأخيرة لمؤتمر عام تقرر أن يعقد سنة ١٩٧٠ لوضع النظام النهائي للفرنكوفونية) .

أفرقة



اوپیتیا بعد معاہدہ فرسای

أفريقية ملائمة



أفريقية الحديثة

٣ — القوميات في آسيا

هذه هي القارة العظيمة التي شهدت الحضارة الإنسانية منذ بدئها وفي مهدها، والتي قامت بها حضارات عريقة ذات تراث فكري وفلسفى رائع ، والتي يحدُّثنا تاريخها القديم عن دول وإمبراطوريات أُسست بها ، ومع هذا كله ظلت القوميات في بعض مناطقها تنتظر كل هذه القرون قبل أن تبلور إلى ما نشهده الآن في الجنوب الشرقي منها .

فإذا بدأنا بغربي آسيا وجدنا به بعض القوميات العربية الأصلية مثلة في القومية الإيرانية والقومية التركية والقومية العربية في العراق ولاد الشام . ولعل من حسن التنظيم هنا أن ترك الحديث عن القومية العربية في آسيا إلى حديث أكثر إيماناً وإفاضة حين نعرض إلى القومية العربية في كل مناطقها ونخصها ببحث أشمل وأكمل .

أما القومية الإيرانية فتلك التي عرفت في التاريخ القديم بدولة فارس التي نافست اليونان والروماني ، وكان لها في التاريخ شأن عظيم . نشأت هذه القومية في المنطقة التي بها الآن دولة إيران الحديثة . وظللت خلال معظم العصور التاريخية متغيرة ذات كيان مستقل برغم ما أصاب البلاد من اضطرابات وهزات في بعض التغيرات التاريخية . وسرى فيها بعد أن غزو العرب لبلاد فارس ونشر الدين الإسلامي بها ، بل اصطدام الفرس للخط العربي واقتباهم مئات من الكلمات العربية . كل هذا لم يؤثر في القومية الفارسية ولم يتضمن على تغييرها واستقلالها . وهكذا خرجت القومية الفارسية من تاريخها الطويل مهيأة قوية للبيان . فلما كان العصر الحديث وتعرض العالم لحربيين عالميين شهدنا القومية الإيرانية تظاهر من الدول الكبرى بالاعتراف بكتابها واستقلالها ، فلا يصيّرها من تلك الدول إلا ضغوط مؤقتة لفترة قصيرة : لا تثبت بعدها أن تركها وشأنها . ويكون أن نذكر هنا أن بريطانيا وأمريكا قد انسجتا من إيران بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة ، ثم انسجت روسيا بعد مضي عام واحد على الانسحاب البريطاني الأميركي . لأن هذه الدول الكبرى كانت تنظر إلى الاحتلال لإيران

في أثناء الحرب على أنه إجراء مؤقت تطلبته ظروف استراتيجية . وذلك لما تسم به القومية الإيرانية من عراقة في تاريخها وأصالة في تكوينها . ولا تملك قوة إزاء هذا إلا الاعتراف بكيانها وتمييزها واستقلالها .

ومع كل ذلك لا تزال إيران تشهد نزاعاً حول بعض حسنه ، في الجنوب تثور إحدى مناطقها مطالبة بالانفصال ، لأن سكانها يتكلمون العربية وحدها وتدعى هذه المنطقة عربستان ، وفي حدود أخرى لإيران يخوض قوم من الأكراد مطالبين بالانفصال لأنهم يتكلمون اللغة الكردية . وفي منذعة أذربيجان تقام دعوة للانفصال على أساس اللغة كذلك .

أما القومية التركية فقد نشأت حيث هي الآن في آسيا الصغرى ، ومنها امتدت واتسعت فتوحاتها حتى كونت إمبراطورية عظيمة يحيط بها عدد قوميات ، ثم انكمشت بعد الحرب العالمية الأولى إلى القومية التركية التي تسود في كل أنحائها اللغة العثمانية : فتجعل من قومها جماعة متربعة غير كبرى مستقلة ، برغم اعتناق الأتراك للدين الإسلامي . ولما أراد كمال أتاتورك دعم القومية التركية ولم شتات ما تفرق من أبنائها ، لم يجد خيراً من إعادة تركيبة عباداته يستند إليه في دعوته وإصلاحاته . ففرض المكتابة اللاتينية . وبذلك يحصل من مئات الكلمات العربية التي افترضها اللغة التركية . ذلك لأنها بعد ذلك تجيء لغة التركية تحيزها واستقلالها ، إيماناً منه بأن القومية التركية لأنها هي التي تأسس لغة أصلية خالية من كل العناصر الأجنبية عنها .

فإذا تساءلنا بعد الذي تقدم عما يمنع إيران وتركيا من الاندماج في بلاد القومية العربية التي على حدودها ، والتي تشاركها في عقيدة إسلامية : لم نجد مثل هذا التساؤل جواباً أوضح من أن اللغات هي التي صفت بين هذه الدول الإسلامية ، وجعلت منها قوميات متميزة مستقلة .

وفي غرب آسيا من القوميات المتميزة : القومية البوشنية التي على أساسها قامت دولة أفغانستان ، وهي دولة إسلامية على حدود دولة إسلامستان هما إيران وباكستان : ومع هذا تستقل عنهما لأن سكانها يتكلمون «البوشتو»

ويعززون بها وحدتها . ويقوم الآن نراع بين أفغانستان وباكستان حول منطقة تقع شرق باكستان ، وطالب بها أفغانستان لأن سكانها البالغ تعدادهم خمسة ملايين يتكلمون اللغة المسماة « بالبوشتوا » وهي اللغة القومية لأفغانستان . وبرغم أن أفغانستان قد شهدت خلال تاريخها الطويل قوى أجنبية تحكمها وتخضعها لنفوذها، من فرس وإغريق وعرب وأتراك ومغول ، ظلت قوميتها مهاسكة متمنية بفضل لغتها القومية « البوشتوا » . فلما كان القرن التاسع عشر عانت أفغانستان من ضغوط سياسية واقتصادية ، فرضتها بريطانيا وروسيا ولكنها أكملت استقلالها ، وتميزت قوميتها بعد الحرب العالمية الأولى ، وانضمت إلى عصبة الأمم سنة ١٩٣٤ ، ثم إلى الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ ، ولزمت الحياد خلال الحرب العالمية الثانية .

إذا انتقلنا إلى شرق آسيا وجدنا قوميتين متميزيتين هما القومية اليابانية وال القومية الصينية .

ال القومية اليابانية :

ظلت اليابان منعزلة عن العالم الغربي قبل القرن التاسع عشر خلال كل تاريخها الذي لا نعرف عن تفاصيله إلا القليل . ولم يكن للبابان قبل هذا القرن اتصال بالأمم الأخرى . إلا ما كان من اتصالها بالصين اتصالاً ثقافياً وتجارياً . ثم كانت تلك الرحلة التاريخية للأدميرال « بري » الأمريكي حين رحل في منتصف القرن التاسع عشر إلى شواطئ الجزء الياباني ، وأرغمهم على الاتصال التجاري بالعالم الغربي . وأحست اليابان بقوة العالم الغربي وبحضارته وتفوقه في الصناعة ، فعمدت إلى الأخذ بهذه الأساليب الحديثة ، وبمظاهر الحضارة الغربية : ثم أصبحت يفضل ما اتصف به أبناؤها من جد وثبات تشكل منافساً قوياً لثلاث الحضارة الغربية في تجاراتها وصناعتها ، وعظم شأنها بين دول العالم لا سيما بعد أن هزمت الأسطول الروسي سنة ١٩٠٤ . وهكذا عاشت اليابان في التاريخ الحديث محل الاحترام والهيبة من العالم الغربي : وفي منحاجة من الاستعمار الأوروبي ، عزيزة كرامة في جزرها يطلب الجميع ودها ، وبهاب قوتها ، وبخشى

من تفوقها التكنولوجي والصناعي . ثم كانت الحرب العالمية الثانية واستسلمت اليابان للقوة النرويجية الرهيبة واحتلتها الجيوش الأمريكية حتى العام ١٩٥٢ .

ومع هذه غلت القومية اليابانية متميزة الكيان مستقلة عما عداها من الشعوب التي تحبس بجزرها . فبرغم أن اليابان قد استمدت من الصين دينها وثقافتها وفلسفتها ، إلا امتنعت أيضاً الرى الصيني والخط الصيني وطرق الطهي ، والموسيقى ونظام الإدارة ، برغم هنا كله ظلت اليابان على تميزها واستقلالها^(١) القوي ؛ فهو يمكن ما اقرضته من الصين إلا بثابة المظهر الخارجي ، وظلت القومية اليابانية فيحقيقة أمرها وفي أعماقها على ما كانت عليه من تطلع إلى آفاق أبعد . من الحضارة أو الثقافة الصينية . ومررت القومية اليابانية في أطوار شبه إلى حد كبير تلك التي مرت بها القوميات الأوروبية ، من انتقال من النظام الاقتصادي إلى النظام الرأسمالي في البنيان الاقتصادي .

ونسائل هنا عن الذي عزل القومية اليابانية ، يجعلها تحتفظ بكتابها وتميزها ، برغم اختفاء بكل مظاهر الحياة في الصين ؟ ثم لأنكاد نظر يحواب أوضاع من أن اليابان لغة قومية متميزة لا تمت إلى اللغة الصينية بصلة إلا من حيث إنها تكتبان بخط واحد ، ولكنهما تقرآن وتنطقان وتسمعان في أصوات مختلفة متباينة .

القومية الصينية :

هي من أعرق القوميات في القارة الآسيوية : فتاريخها حافل بالثقافة والفلسفة والتفكير منذ قرون كثيرة قبل ظهور المسيحية . ومع ما تعرضت له الصين في العصر الحديث من تدهور اقتصادي وخلف في مظاهر الحضارة وضغوط استعمارية رهيبة ، هبت الصين من كبوتها ويعشت من مرقدها ، وأصبحت الآن من أقوى دول العالم ، وأعظمها خطراً . وقد ظلت القومية الصينية خلال كل تاريخها الطويل العريق وبرغم ما تعرضت له في بعض فتراته ، مهاسكة متميزة ، دون أن يكون لنظامها الاقتصادي ، الحديث منه والقديم ،

أثر واضح في تلك القومية الصينية . فالصين الحديثة التي تأخذ الآن بالنظام الشيعي أو الاشتراكي قد مرت فيها يشبه هذه التجربة الاشتراكية مرتين من قبل إحداهما قبيل ظهور المسيحية على يد الزعيم « ونج منج » الذي أقنع الإمبراطور بالنظام الاشتراكي من ملكية الدولة للموارد الطبيعية ، واحتكارها للسلع ، وتنظيمها للأسعار ، وإصلاح للأراضي ، وتأمين الوحدات الجماعية التي تسمى الآن « كمبونات » . ثم انهارت هذه الإمبراطورية الاشتراكية بسبب انتشار الفساد فيها ولم تعم طويلاً . أما التجربة الاشتراكية الثانية في تاريخ الصين فكانت بعد هذا بحوالي ألف من السنين ، أي خلال القرون الوسطى لأوروبا . وفي هذه التجربة أتممت التجارة ونظمت الأجور والأسعار ، وسيطرت الدولة على البنوك ، ثم فشلت هذه التجربة أيضاً^(١) .

نشأت إذن القومية الصينية على أساس تاريخها العريق في الثقافة والفلسفة مثلاً في لغتها القومية التي وجدت بين أفكار الصينيين وأحساسهم وميزتهم عن غيرهم من الأمم والشعوب .

القوميات في الجنوب الشرقي لآسيا :

كانت كتب الجغرافيا إلى عهد قريب تطلق على هذه المنطقة اسم الهند الصينية : لأنها تقع جنوبي الصين والهند . ولأنها فوق هذا قد تأثرت خلال تاريخها الطويل بالحضارات الصينية والهندية . فالمسافر من الصين إلى ما يجاورها من هذه المنطقة لا يكاد يشعر بأنه انقل إلى أرض غريبة ، أو بين قوم يتميزون في معظم المظاهر العامة عن الصينيين . بل حتى في الملامح الجسمانية قد يرى المسافر وجوه شبه واضحة بين أهل الصين ومن يجاورهم من أهالي هذه المنطقة . فالعادات مشابهة ، والملامح متقاربة ، ومعظم مظاهر الحياة يمت بعضها إلى بعض . وكذلك الشأن بين الهند وما يجاورها من أراضي ما كان يسمى بالهند الصينية . وهذه المنطقة تاريخ قديم يتصل بتاريخ الصين من ناحية وبتاريخ الهند من ناحية أخرى . ففيما مثلما التي يجري شأنها الآن على كل

(١) نفس المرجع ص ١٥٧ .

لسان كانت إلى عهد قريب تسمى « مملكة أنام ». ويحدثنا التاريخ أن أرض « أنام » قد خضعت للسيطرة الصينية قبل القرون الوسطى نحو ألف سنة ، فتأثرت بالثقافة الصينية والفلسفة الصينية والعادات والفنون التي سادت في بلاد الصين ، ثم برغم هذا ظلت القومية الأنامية متماسكة متميزة ، واستقلت « أنام » عن الصين في القرن الخامس عشر ، مع ما اشتهرت به الثقافة الصينية من القدرة على امتصاص الشعوب الأخرى وهضمها .

ونظرنا بعد الحرب العالمية الأولى فإذا بهذه المنطقة التي كانت تسمى حينئذ بالهند الصينية مقسمة تقسيماً مصوّعاً اقتضته النظم الإدارية للاستعمار الغربي ، وفيها « فيتنام » و « كمبوديا » و « لاوس » و « تيلاند » التي كانت تعرف باسم سiam . وخضعت هذه الأراضي فيما عدا « تيلاند » للتغور الفرنسي أو الاستعمار الفرنسي . وبخت « تيلاند » أو « سiam » من الاستعمار الأوروبي ، وتميزت شخصيتها في المجال الدولي الحديث . وهي الآن على علاقة طيبة بالعالم الغربي ، فلا تعرف بالجمهورية الصينية ، برغم أن بها جالية صينية قوية يبلغ تعدادها نحو ١٠٠ سكان « تيلاند » . أما فيتنام فقد صاحبها مع الاستعمار الفرنسي لا تزال مائة في الأذهان . وبعد صراع دموي مرير انسحب جيشوشن فرنسا من فيتنام ثم كانت المنافسة حول فيتنام بين النظمتين الشرقيتين مثلاً في روسيا والصين : والغربي مثلاً في أمريكا . وتقسم فيتنام الآن إلى شماليّة وعاصمتها هانوي : وجنوبية وعاصمتها سيجون . أما « كمبوديا » فيتسمى معظم سكانها إلى السيميين أو أهالي « تيلاند » ، فهم خليط من النسل المنغولي والأرمني . والديانة السائدة بها هي البوذية . وقد تأثرت « كمبوديا » بالثقافة الهندية فيما مضى : كما تأثرت لغتها باللغة السنسكريتية وهي اللغة الهندية الدينية القديمة . وفي العصر الحديث حصلت « كمبوديا » على استقلالها منذ سنة ١٩٥٣ .

ثم مملكة « لاوس » التي ينتمي معظم سكانها إلى أهالي « بورما » . ونعرف من تاريخها القديم أنها أصبحت مملكة مستقلة في القرن الثامن الميلادي . فلما كان القرن الثامن عشر تنازعت أرضها دولتان من دول المنطقة فسيطرت

«تيلاند» أو سيام على معظم أراضيها ، وسيطرت «أنام» أو فيتنام على الباقي من أرضها . ثم كان الاحتلال الفرنسي وظلت «لاوس» خاضعة للنفوذ الفرنسي إلى أن استقلت سنة ١٩٥٤ .

أما مناطق النفوذ البريطاني فيها كان يسمى بالهند الصينية فهي «بورما» و«الملايو» و«سنغافورة» و«سراواك» في شمال جزيرة «بورنيو» .

وتشمل «بورما» أقواماً من أجناس مختلفة غير أن معظمهم من البنسل المنغول وتسود فيها الديانة البوذية ، ولكنها من حيث اللغة موزعة المقاطعات بين لغات متباينة . ومع هذه الفروق التي تباعد بين سكانها جعلت منها بريطانيا منطقة محددة ، وفصلت بينها وبين الهند ، ثم استقلت بورما سنة ١٩٤٩ .

وأما «الملايو» و«سنغافورة» و«سراواك» فقد تألف منها في السبعين الأخيرة ما يعرف الآن «ماليزيا» التي يقوم النزاع بينها وبين «أندونيسيا» حول «سراواك» التي هي جزء من إحدى الجزر الأندونيسية . هذا إلى أن معظم سكان سنغافورة من الصينيين . ويقوم الصراع الآن بين أبناء اللغتين الملاوية والصينية : مما اضطر حكومة ماليزيا إلى إعلان الأحكام العرفية في ١٥/٥/١٩٦٩ .

دعنا نتعدد من دولة «ماليزيا» من بين دول آسيا ، مثلاً رائعاً لدور اللغة في تشكيل القومية ودعمها . إذ نشهد الآن صراعاً دموياً في «ماليزيا» ونتساءل عن السر في نشوب هذا الصراع ، ثم لا نكاد نجد تفسيراً واضحاً سوى أن دولة ماليزيا تسودها تلات لغات مختلفة لا تمت إحداها إلى الأخرى بصلة . وهي : اللغة الملاوية ، واللغة الصينية ، واللغة الهندستانية .

وقد شاء الاستعمار البريطاني منذ ست سنوات أن يؤلف من بهذه المناطق المتباينة دولية الخادبة أطلق عليها اسم «ماليزيا» . وكان أبناء هذه المناطق ، قبل أن ينحصر ظل الاستعمار ، قاتعين بأن تتعظمهم لغة المستعمر أي اللغة الإنجليزية ، أو على الأقل تستظم الطبقة المثقفة التي تطلعت إلى مقاليد الحكم بعد الاستقلال . وظلت الإنجليزية لغة الثقافة والتعليم والسياسة والإدارة ونظم الحكم في هذه البلاد زمناً ليس بالقصير قبل الاستقلال ، وقد نشأ زعماء

ماليزيا الحاليون ومعهم الطبقة المستبرة في ظل الثقافة الإنجليزية ، بل قل في أحضانها ، ولم يكن أحد منهم يرى غرابة أو غضاضة في أن تسود بينهم اللغة الإنجليزية تجمع بينهم وينفاثون بها برغم لغاتهم المحلية . فليس للملاوي إزاء اللغة الإنجليزية فضل على الصيني أو الهندي ، بل هي بالنسبة لهم جميعاً لغة المستعمر القوى ، فلا يدعها لنفسه أى فريق منهم ، وهكذا قضوا سنوات الاحتلال .

ثم تطلع الزعماء إلى الاستقلال وحكم أنفسهم بأنفسهم في إثر تلك الحركات الاستقلالية التي سادت كل مناطق آسيا وأفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية . فلما تم لهم ذلك بدأت القوميات المحلية تطلّ برأسها ممثلة على الأقل في أقوى لغتين بتلك المناطق ، وأكثرها شيوعاً ، وهما اللantan الملاوية والصينية . فدولة ماليزيا الاتحادية تألف من ثلات قوميات أو ثلات لغات . ونحو نصف السكان يتكلمون اللغة الملاوية ، ونحو ٣٥٪ يتكلمون اللغة الصينية ، ويتكلّم ما بقى من السكان لغات أهمها شأنها اللغة الهندستانية التي تمثل نسبة ١٠٪ من عدد السكان .

وقنعت كل الأطراف المعنية في ماليزيا بذلك النظام الاتحادي الذي أقنعهم به الاستعمار البريطاني أو فرضه عليهم . وساد الهدوء في أوائل عهد تأسيس ذلك النظام الاتحادي . غير أن المجتمع الصيني أو إن شئت فلت : إن المتكلمين بالصينية عاشوا خلال السنوات السنتين الماضية يؤلفون من أنفسهم مجتمعاً منعزلاً مغلقاً يحتلّ بالأسرار والغموض ، فلا يسمحون لأنفسهم ولا لغيرهم أن يعقد معهم علاقات من أي نوع ، فلاتزاوج مع غيرهم ، بل حتى الصداقات العادية البريئة لم يسمحوا بها لأنفسهم مع المتكلمين باللغة الملاوية .

ثم كان أن وزعت المناصب الكبرى بين زعماء الشعوب الثلاثة بعد قيام الاتحاد الماليزي ، فنجد أن الملك ورئيس الوزراء وذئبه ووزراء التعليم والثقافة والإعلام والعدل من المتكلمين باللغة الملاوية ، وأن وزراء التجارة والصناعة والاقتصاد والمالية من الصينيين أو المتكلمين بالصينية ، وليس بين المندوب سوي وزير العمل .

وأصبح الأهالي في ماليزيا بعد تأسيس الاتحاد ينظرون بعضهم إلى بعض على أنهم أبناء شعوب مختلفة متباينة ، فلا تكاد تسمع أحداً منهم يقول إنه ماليزي

الجنسية ، بل يعبر في صراحة واعتزاز بأنه ملاوي أو صيني أو هندي . أى أن دور اللغة في تشكيل هذه القوميات الثلاث بدأ بعد الاستقلال ، وترك أثراً تجريئاً في المجتمعات ماليزيا . فاعتزل كل فريق بلغته واستمسك بها وذاد عنها . ولا غرابة لذلك أن نشهد أن صحف العاصمة « كوالا لمبور » تصدر باللغات الثلاث الملاوية والصينية والهنديّة ومعها اللغة الإنجليزية ، وأن الإذاعة والتلفزيون تذيع نشرائهما وأحاديثها بكل هذه اللغات .

ولعل أهم ما أثار تلك التعرات القومية في « ماليزيا » وأدى إلى ذلك الصراع الدموي الذي نشهده الآن أن الحكومة قد اتخذت مجموعة من الخطوات تهدف بها إلى اتساع المجال أمام الملاويين ، وتحدد من نشاط الصينيين بصفة خاصة . وأبرز تلك الخطوات عقد امتحان في اللغة الملاوية لكل المتقدمين إلى الجامعة وجعل اجتياز هذا الامتحان بنجاح شرطاً أساسياً للدخول الجامعية .

ولذلك لا ندهش حين ترکز الأضطرابات في ثلاث مقاطعات هي : « سيلانجور، بيراق، بينانج ». وهي المقاطعات التي تسود فيها اللغة الصينية . فأبناء هذه المقاطعات ينادون الآن في صراحة بأن لغتهم الصينية في خطر ، ويخشون عليها أن تندثر .

وأخيراً نجد « أندونيسيا » التي تكون من عدد كبير منagascar أشهرها جاوة وسومطرة وبورنيو ، والتي خضعت للاستعمار الهولندي إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية ، فحلت اليابان محل هولندا خلال هذه الحرب . ولما انتهت الحرب بهزيمة اليابان حاولت هولندا العودة إلى أندونيسيا فوجدت الدنيا غير التي ألفتها من قبل ، ووجدت القومية الأندونيسية ، أو إن شئت قلت الوعي السياسي بـ«أندونيسيا» على أشدّه . ثم بعد نزاع وصراع ومقابلات طويلة ، تم استقلال أندونيسيا سنة ١٩٤٩ ، وأصبحت جمهورية ذات سيادة .

وأهل أندونيسيا ينحدرون من الجنس « الملايو بولينيزيا » مختلطين بأجناس أخرى . ونعرف من تاريخهم أنهم تأثروا بالثقافة الهندية والديانة البوذية إلى أن دخلها الإسلام في القرن الثاني عشر ^(١) .

وهنالك نرى أن الجنوبي الشرقي لآسيا قد تمهد بعد الحرب العالمية الثانية عددًا من الدول المستقلة التي تتباين في اتساع أراضيها وفي تعداد سكانها. فسكان أندونيسيا نحو 90 مليوناً، وسكان «بورما» نحو 21 مليوناً، وسكان «تيلاند» نحو 21 مليوناً كذلك. وسكان الملابي مع سنغافورة نحو 8 ملايين، وسكان «فيتنام» نحو 29 مليوناً، وسكان «لاؤس» نحو مليونين، وسكان «كمبوديا» نحو خمسة ملايين.

فإذا تساءلنا عن أسس القومية في كل دولة من هذه الدول نجد أنفسنا في حيرة. ذلك لأن حدود الدول الآسيوية التي استقلت حديثاً ليست في الحقيقة إلا تركة خلفها الاستعمار والاحتلال، ولم يطرأ عليها من التغير بعد الحرب العالمية الثانية، إلا تقسيم الهند إلى دولتين الهند وباكستان، وتقسيم فيتنام إلى شمال وجنوب. وفيما عدا هذا ظلت التقسيمات التي صنعها الاستعمار أيام الاحتلال، وهي تلك التقسيمات التي لا مسوغ لها من أساس جغرافي أو جنسي واضح، بل هي وليدة التقسيم الإداري للاستعمار حيناً، وتوسيعات الاحتلال حيناً آخر، أو السيطرة على الأماكن الاستراتيجية في بعض الأحيان. هي إذن حدود مصطنعة لا مسوغ لها من حيث النظر إلى القوميات. ونلحظ أن كل دولة من دول الاحتلال قد انحنت مركزاً تلتف حوله المنطقة الخاضعة لنفوذها رغبة في أن تظهر هذه المنطقة في شكل موحد. أو صورة قومية زائفة. وكان ذلك دون نظر أو أخذ في الاعتبار ما يقوم في أنحاء هذه المنطقة من خلاف جنسي أو لغوي أو عقائدي. ولم تلتفت دول الاستعمار إلى مثل هذه الفروق إلا حين كانت سياستها تهدف إلى التفرقة بين الأقوام والجماعات في إحدى المناطق؛ وهي سياسة فرق تسد؛ رغبة في القضاء على كل معارضة، وفي حكم المنطقة كلها حكماً دكتاتورياً.

وتربى على تلك السلطة المركزية في المنطقة المختلفة أن تولد في أذهان الناس ما يشبه القومية؛ ولكنها قومية زائفة لا مسوغ لها ولا أساس تقوم عليه. وهذا لم يكد الاحتلال يتحسر عن هذه المناطق حتى شهدنا التزاع والخلاف يشتد بين أقوام المنطقة الواحدة؛ وأوشكت تلك الوحدة المصطنعة أو المصنوعة على

الانفصام إلى أجزاء متنافة . وقد ظهر أثر ذلك في التزاع اللغوي الناشر الآن بين بعض مقاطعات الهند، كما ظهر أيضاً في ضعف السلطة المركزية بـأندونيسيا ، لولا أن تبه زعماؤها واتخذوا لأندونيسيا لغة قومية هي التي يسمونها Bahasa Indonesia ، كما ظهر أثر ذلك في الثورة التي قامت بها قبائل « كرلين » Karen في « بورما » .

فإذا نظرنا في ضوء ما تقدم إلى الهند الحديثة رأينا أمر الحدود المصطنعة أوضاع . فحدود الهند الحديثة من صنع الإدارة البريطانية ، أو الاحتلال البريطاني قرابة قرن من الزمان . بريطانيا هي التي خلقت من تلك المنطقة الشاسعة في آسيا ما يسمى بالهند ، التي أتخد لها الاستعمار مركزاً تدير منه كل المقاطعات ، وتحتاج حوله كل التواهي ، ويتعلّم إليه السكان الذين يختلفون عقيدة ولغة وجنساً على أنه موضع وحدتهم واللحام لشلهم . فرسخ في نفوسهم أو كاد ، أنهم أبناء وطن واحد تميّز الحدود ، تدير شؤونهم سلطة موحدة هي سلطة الاستعمار ، ويتآثرون بشقاقة واحدة صدرّها لهم بريطانيا ، بل فوق هنالك أصبع المتفقون منهم وفي كل أنحائها يتكلّمون ويتفاهمون بلسان واحد هو اللغة الإنجليزية ، وهذا أمهر ما توصل إليه الاستعمار من خداع هؤلاء القوم الذين يعيشون في الهند الحديثة . أما الهند العربية التي حدثنا التاريخ عن فلسفتها وحكمتها وتفوقها في الرياضة ، فلا تكاد تتطابق حدودها على حدود الهند الحديثة . فنحن نعرف أن شمال الهند بما في ذلك باكستان كان قبل الاحتلال البريطاني وحدة متساكنة إلى حد كبير ، لها ثقافتها ولغاتها وعاداتها المستقلة تمام الاستقلال عما كان سائداً في الجنوب . فقد خضع شمالي الهند فيما مضى لغزوات متعددة ، وهجرات وفدت إليه من أواسط آسيا ، وأمدته بشقاقات وعادات تبلورت بعد ذلك وأصبحت تشكل كياناً متميّزاً لأهالي الشمال . أما جنوب الهند فلم يتعرض لمثل هذه الهجرات أو الغزوات ؛ ولذلك يقيّت له لغاته القديمة وعاداته الأصيلة . وبرغم هذا التباين بين الشمال والجنوب استطاعت بريطانيا خلال الاحتلال أن تولّف منها وحدة إدارية ذات مركز هام تتطلّع إليه كل البلاد في الشمال والجنوب (١) .

وشاء الاستعمار البريطاني فوق هذا أن يجعل من بعض المناطق الواقعة الاتصال بالهند وحدات مستقلة . فخلق لأسباب إدارية أو استراتيجية دولة في جزيرة « سيلان »، صبغها بالصيغة البريطانية في نظام الحكم : ومعظم مظاهر الحياة ، وفرض على أهلها اللغة الإنجليزية بوصفها اللغة الرسمية . فلما انتهت الحرب العالمية الثانية استقلت سيلان وانضمت إلى الكونفدرالية سنة ١٩٤٨ . ولكن لم يكفله أمر الاستقلال في هذه الجزيرة حتى شهدنا الخلاف ينبع بين أبنائها حول اللغة الرسمية ، وكانوا في عهد الاحتلال قانعين بأن تكون اللغة الإنجليزية اللغة الرسمية للجزيرة كلها ، حتى إذا استقلت بدأ التزاع بين اللغتين المحليتين هناك وما اللغة « السينالية » التي يتكلّم بها معظم السكان ، واللغة « التاميلية » التي يتكلّم بها نحو ٢٠٪ من السكان . ذلك لأن الدولة قد اتجهت بعد الاستقلال إلى جعل اللغة السينالية اللغة الرسمية ، فاحتاج أبناء « التاميل » وثاروا لعدم المساواة بين اللغتين . ويرغم السماح لأبناء « التاميل » أن يتعمّلوا بلغتهم المحلية قامت الخلافات : بل الصراع الدموي الذي أدى إلى قتل كثيرين بين التاميليين وإلى تشريد عدة آلاف من المتكلّمين باللغة « التاميل » .

وبالغ من ثروات الاستعمار أن خالق في شبه الهند مملكة صغيرة هي التي نعرف الآن بـ « نيبال » التي لا يتجاوز تعداد سكانها على حسب آخر الإحصاءات ثانية ملايين ، والتي تقع على حدود جبال الهيمالايا . فقبل موجة الاستقلال التي سادت الهند في إثر الحرب العالمية الثانية : كان الاستعمار ينظر إلى « نيبال » على أنها وحدة متميزة ، ويعاملها على هذا الأساس طلباً لود « المهراجا » حاكمها الذي ورث حكم هذه المنطقة عن آجداده . فلما استقلت الهند سنة ١٩٤٧ تبع هذا استقلال « نيبال » ، ولكن بعض الدول الكبرى ظلت تنظر إلى « نيبال » على أنها لم تستكمّل كيان الدولة المستقلة ، ولهذا عارضت روسيا في مجلس الأمن عن طريق « الشيتو » في قبول « نيبال » عضواً في الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩ .

نحن بعد الذي تقدم أمام مجموعة من الدول الصغيرة التي استقلت خلال بضع سنوات بعد الحرب العالمية الثانية ، والتي تقع مناطقها فيها كان يسمى

بالمفهود الصينية ، ومع هذه الدول الصغيرة دولة كبيرة المساحة غزيرة السكان هي الهند . وقد رأينا آنفًا أن حدود هذه الدول مصطنعة أو مصنوعة تكونت في عهد الاحتلال على أساس أبعد ما تكون عن الجنس أو اللغة أو العقيدة . وقد نشأ في هذه الدول طائفة من الزعماء والمفكرين الذين تعلموا في الجامعات الأوروبية وتأثروا بنظام الحكم في أوروبا وأعجبوا به . واستمد هؤلاء الزعماء آرائهم عن نظام الحكم الأوروبي ، مثلاً في الديمقراطية ، من كتب ألفها علماء الغرب . فيهم الاستقرار والرخاء والحرية التي تتمتع بها الدول الأوروبية ، وأسكنوهم تلك الشعارات الحذابة التي رأوا تلك الكتب تصف الديمقراطية بها ، مثل حق التوراة على الظلم ، ومثل أن الديمقراطية هي الحصن الخصين ضد الطغيان ، وأن تاريخ النظام الديمقراطي ليس إلا سجلاً لأعمال مجيدة ضد كل نظام أو حكم سياسي سيء . ونظر هؤلاء الزعماء في أثناء جهادهم قبل الاستقلال فإذا بقوى الاستعمار تُشيد بالنظام الديمقراطي ، وتلوح به أمام أعينهم في غطرسة وكبراء ، يوصفه نظاماً فوق مستوى الناس في آسيا ، زاعمين أن القوم في آسيا لم يكتملوا الأهلية لمثل هذا النظام . وهكذا أصبح هذا النظام يبرق لأعين الزعماء في آسيا ، وهم العطاش إلى حرية بلادهم ، المتطلعون إلى نهوضها . بحيث تصبح على قدم المساواة مع تلك الدول الأوروبية . وأصبحت الديمقراطية بمنزلة الطعام الشهي الذي يبرق أمام أعين الجميع من خلف زجاج سميك ، ولا سهل إلى الوصول إليه . وهذا أقبل على هذا النظام كثير من هؤلاء الزعماء ، وسعوا إلى التمتع بجزيئاته وتطبيقه في بلادهم . غير أن بعض هؤلاء الزعماء المجاهدين كانوا قد فقدوا الثقة بكل ما يحيى إلى عهد الاستعمار يصلة : حتى ولو كان فيه من الناحية النظرية خير بلادهم ، ومن بين ما يحيى إلى الاستعمار البعض ذلك النظام الديمقراطي . وهذا لم يكن أمامهم إلا أن يلقوا بأنفسهم في أحضان النظام المناوى للغرب أي الشيوعية أو الاشتراكية .

وكان على زعماء آسيا وقد ورثوا عن الاستعمار حدوداً مصطنعة لبلادهم أن يعملوا جاهدين على أن تكون من تلك الحدود قوميات على نسق القوميات في أوروبا ، وأنحنوا يلتسمون الأسس التي عليها تُبنى هذه القوميات الجديدة .

وقد أدركوا في قراره أنفسهم أن الدعوة إلى القومية الهندية مثلاً على أساس ما نشأت عليه القوميات في أوروبا ليس إلا سراباً يبرق للأعين حتى إذا جاءه الظمان لم يجده شيئاً . فالظروف في آسيا تختلف عنها في أوروبا ، والتاريخ غير التاريخ . إذ تضم الحدود الجغرافية للهند الحديثة علماً من أجناس متباينة متنافرة ، ولغات مختلفة ذات لهجات كثيرة . في الهند عشر لغات أساسية ، وكل منها لهجات متعددة . فليس بها ما يمكن أن يسمى باللغة القومية . وقد فشلت الجهود والمحاولات في جعل اللغة الهندستانية لغة قومية لكل مناطق الهند ، لأنها هي نفسها لغة محلية يتكلم بها في مناطق محدودة .

ولَا افتقد هؤلاء الرعماء في مناطقهم تلك الأسس التي عليها بُنيت القوميات في أوروبا بل حاولوا إلى شعارات تنبثق من ظروفهم ، ومن طبيعة تكوين مناطقهم وأخذوا يدعون إليها ، ويئذنون قلوب الناس حولها . في إندونيسيا مثلاً ظهرت اللغة التي يسمونها *Bahasa Indonesia* ، وأصبح القوم هناك يتخذونها لغة قومية يلتلفون حولها وتوحد بين أفكارهم وأحساسهم .

ومع هذا فلا تزال بعض القوميات في آسيا في دور التكوين ومن العسير التنبؤ مستقبلها .

دعنا نعقد مقارنة سريعة بين الظروف التي نشأت فيها القوميات بأوروبا ، وتلك التي تجري أحدها الآن في أفريقيا وآسيا .

كانت أوروبا كما أشرنا آنفاً تخضع لسيطرة الدولة الرومانية قبل القرون الوسطى ، ثم انهارت تلك الدولة العظيمة ، وتفتت إلى مناطق بحكم كل منها ملك أو ديروك أو نحو هذا ، وخيّم على القارة نوع من الهدوء النسي نسيت معه عهد الرومان الذي لم يشكل استعماراً بالمعنى الذي شهدناه في أفريقيا وآسيا . ذلك لأن كثيراً من الحاميات الرومانية قد استقرت في مناطق أوروبا بعد انهيار الإمبراطورية ، وامتزجت بسكانها امتزاجاً تاماً ، وانقطعت صلتها بروما . ولم يعد أحد من نسل تلك الحاميات يذكر أن أجداده في يوم ما كانوا غزاة أو محليين لتلك المنطقة . وعاش من نسل من تلك الحاميات حياة مدنية

مستقرة ، وعملوا في الزراعة ونحوها من وسائل العيش وطلب الرزق ، وشاركوا الناس في تلك المناطق في كل مظاهر الحياة وتكلموا بلغاتهم . ثم كان عصر النهضة الأوربية ، وساد أوربا هدوء نسبي ، وبعثت جديدة في الفكر والعلم والفن . وفي ضوء هذه النهضة بدأت القوميات في أوربا تنشأ رويداً رويداً فتشجع في مكان وتتشرّف في آخر ، إلى أن اكتمل كيانها في أواخر القرن التاسع عشر . ومع أن بعض القوى الكبّرى خلال ذلك القرن كانت تحاول الضغط على هذه القوميات والحد من انتشارها ؛ فإن الرأى العالمي حيثما كان بوجه عام ينصرها ويشجع عليها ، أو على الأقل يقف منها موقف الحياد . ولم يترك ضغط القوى الكبّرى في هذه القوميات إلا آثراً مؤقتاً لم يُضعف من قوتها ، ولم يمنع من انتشارها . ولعل المنافسة التي كانت بين هذه القوى الكبّرى روسيا وإنجلترا وفرنسا وإنجلترا – كانت من العوامل التي ساعدت القوميات الأوربية على استكمال نشوئها وتميزها واستقلالها . ولم تكمل تنهي الحرب العالمية الأولى حتى شهدنا القوميات في أوربا مستقرة معترفة بها . هذه هي القوميات الأوربية التي ورثتنا ذلك المصطلح السياسي الاجتماعي الذي نسميه الآن بالقومية .

فإذا نظرنا إلى القوميات في أفريقيا وأسيا وجدناها قد ولدت بعد الاحتلال واستعمار، وأن نشأتها إنما كانت بعد انحدار كابوس الاستعمار. دون أن تنهار تلك الدول التي فرضته وأأسسته. دون أن تفتت كما تفتت الإمبراطورية الرومانية: بل انسحبت وهي لا تزال على قدر كبير من قوتها. تاركة مناطق في أفريقيا وأسيا مؤسسة على حلم إسلامي أو استراتيجية خلقها الاستعمار دون اعتبار الجنس أو دين أو لغة. وتلك الحدود المصطنعة أو المصنوعة هي التي على أساسها تقوم الآن الدعوات القومية في أفريقيا وأسيا. ولم تتع لمナاطق أفريقيا وأسيا فترة كافية من الاستقرار والهدوء والنهضة العلمية والفكرية كالذى ساد في أوروبا قبل ظهور قومياتها. ولهذا يحاول الآن الزعماء والقادة في أفريقيا وأسيا أن يتمموا شعارات جديدة، وأساساً جديدة يبنون عليها قومياتهم أو دولتهم، وليس من المبالغة إذن أن يقال إن مفهوم القومية في أوروبا مختلف إلى حد كبير عن مفهومها في أفريقيا وأسيا.

والقوسية في حقيقة أمرها هي تلك القوة السحرية التي تدعى الأفراد في بيئه من البيئات إلى التجاذب بعضهم نحو بعض ، وشعورهم بوحدة بينهم في الفكر والأحساس ، وتعاونهم على مواجهة الحياة ، يعملون جاهدين على أن يكونوا من أنفسهم مجتمعاً منسجماً في الآمال والأهداف ، ومتطلعاً إلى السلام والاستقرار والرخاء في بيئتهم . وهذا هو القدر المشترك بين قوميات أوروبا وقوميات أفريقيا وأسيا ، برغم الظروف التي نشأت فيها هذه أو تلك .

فإذا تساءلنا عن دور اللغة في قوميات أوروبا ، ودورها في قوميات أفريقيا وأسيا ، تبين لنا أن الأمر يتطلب فصلاً خاصاً نحاول فيه أن نعالج دور اللغة في نشأة القومية ، أو ما نسميه « اللغة والقومية » .



مذاکرات اسلامی

الحمد لله رب العالمين



الفصل الثالث

اللغة والقومية

بعض الذين كتبوا عن القومية في العصر الحديث كانوا من السياسيين الذين سخروا من فكرة القومية ، ووصوها بأنها شعار من الوهم يعمد إليه بعض الزعماء والقادة في بيته من البيئات ليجمعوا الناس حوله ويخدعوهم به ، فيضمونوا ولادهم وخصومهم ؛ أو ليؤلفوا قلوبهم ، فيستقر الحكم والسلطان لهؤلاء الزعماء والقادة . وقد يكون سلوك هؤلاء الزعماء ذا طابع أثافي شخصي ولا هم إلا ضياع النفوذ والاستمار بالسلطة . غير أن بعضاً منهم من ذوى التفوس الطيبة والتوايا الحيرة ، الذين يعملون جاهدين لصالح قومهم ، ليكفلوا لهم حياة كريمة يسودها الأمن والرخاء والاستقرار . وهؤلاء قد يعودون إلى فكرة القومية فيدعون لها : لأنها في رأيهم السبيل الوحيد لتجتمع القوى ، وتوحد الجهود بين أفراد قومهم . وإن كانوا في فرارة أنفسهم يؤمنون أن فكرة القومية ليست إلا وهمآ وخيالا .

وهؤلاء السياسيون الساخرون يرون أن ما يسمى بال القوميـة لا يعنـو أن يكون الـانتمـاء إلى دولةـ أو ما يـدعـى بالـجـنسـية « Nationality » وقد يكتـسب المرء هذهـ الجنسـيةـ بـالمـيلـادـ وـحدـهـ ، أوـ بـالـإـقـامـةـ فـيـ بيـئةـ فـرـةـ مـنـ الزـمـنـ ، وـهـوـ مـعـ هـذـاـ لاـ يـكـادـ يـشـعـرـ نـحـوـ هـذـهـ بـيـئةـ بـولـاءـ أوـ اـعـتـزـازـ ، يـلـقـىـ لـمـ يـكـلـمـ لـغـهـ وـلـاـ يـدـيـنـ بـدـيـهـاـ ، وـلـاـ يـأـخـذـ بـعـادـاتـهاـ وـتـقـالـيـدـهاـ . فالـدـوـلـةـ فـيـ رـأـيـهـمـ هـيـ وـحدـهـ ذاتـ المـفـهـومـ الـواقـعـيـ ، فـقـدـ حدـدـ القـانـونـ الدـوـلـيـ معـالـمـهـاـ : وـنـظـمـ أـمـورـهـاـ مـعـ الدـوـلـ الـأـخـرىـ فـيـ الـعـالـمـ . وـهـيـ وـحدـهـ الـىـ تـسـمـىـ إـلـىـ هـذـاـ القـانـونـ المـعـرـفـ بـهـ فـيـ كـلـ أـنـجـاءـ الـعـالـمـ ، وـعـلـىـ أـسـاسـ موـادـهـ تـحـكـمـ مـحـكـمـةـ الـعـدـلـ الدـوـلـيـ . وـالـدـوـلـةـ وـحدـهـ هـيـ الـىـ يـكـنـ أـنـ تـشـرـكـ فـيـ تـلـكـ المنـظـمـةـ الـعـالـمـيـةـ المسـاـمـةـ بـيـةـ الـأـمـ الـمـتـحـدةـ ، وـكـانـ يـجـبـ

هذا أن تسمى ببيئة الدول المتحدة . فليس الاشتراك أو الاتجاه إليها يقوم على أساس ما يسمى بالقومية ، بل على أساس الدولة .

وهذه ولا شك صورة قائمة لفكرة القومية ، إذ يسلبنا هؤلاء السياسيون الساخرون برسومها قيمة عاطفية نبيلة يعتر بها معظم الشعوب في العالم ويستمدون منها ، ويفسرون كيأنهم عليها .

ولكن معظم الذين تحدثوا عن القومية من غير هؤلاء السياسيين الساخرين قد نظروا إليها على أنها حقيقة واقعة ، وأشاروا بها وبأثرها في نهضة الشعوب كما حاولوا أن يحددو مقوماتها ، ويوضحوا معاملها وسماتها . ثم نظرنا فإذا بهؤلاء يختلفون في تلك المقومات ، ويضطربون في بيان تلك المعلم والسمات ، ونشاء عن هنا عدة نظريات حول القومية وحقيقة أمرها والأسس التي تقوم عليها ، وغير ذلك مما تفصله الكتب التي عرضت لتعريف القومية . ففهم من يجعل الدعامة الأساسية في نشأة القومية بما يسميه بشيئه المعيشة المشتركة ، وقد أخذ بهذه النظرية جماعة من كتاب فرنسا ومفكريها أشهرهم «رينان» إذ يقول فيما يقول : (إن الأمة روح وجوهر معنوي . وهذا الجوهر المعنوي يتتألف من أمرين : أحدهما يعود إلى الماضي : والآخر يتعلق بالحاضر . ويرتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً وثيقاً . ذلك لأن الاشتراك في تراث ثمين من المذكرات الماضية : والرغبة في المعيشة المشتركة ، مع الاحتفاظ بذلك التراث المعنوي المشترك ، والمعنى وراء زيادة قيمة ذلك التراث ... هذا هو أساس الأساس في تكوين الأمة) ^(١) .

ولا نحب أن نقف طويلاً أمام هذه النظرية ، لأنها إنما نشأت في عهد احتدام فيه الجدل والنقاش بين مفكري الألمان والفرنسيين إبان الحرب السبعينية . فهي وليدة ظروف خاصة بين الدولتين الكبيرتين ، ولذلك تسم بالذاتية لا بالموضوعية . فيقول المؤرخ الفرنسي «دوكولانج» مثلاً في معرض هذا النقاش : (قد يكون الألزاسيون ألمانياً باللغة ، ولكنهم على كل حال فرنسيون بالترفة والمشيئه ، والذي جعلهم فرنسيين لم يكن فتوحات لويس الرابع عشر أو معاهدة

(١) انظر كتاب ساطع الحصري (معنى القومية) ص ١٢٢ بيروت .

«وستاليا» — كما يتوهم الألمان — بل هي الثورة العظمى . فإن هذه الثورة هي التي دعت إلى اندماج الألزاس في فرنسا ، وبجعلت الألزاسين فرنسيين بكل معنى الكلمة . إن القومية لا تتعين باللغة ، بل إنها تتعين بالرغبة والمشيئة . . . فالعدالة تنقضى بمحاجة مشيئة الألزاسين وتحقيق رغباتهم في هذا المضمار . . .

ويكفى هنا أن نتساءل لماذا تلاشت مشيئة الانفصال التي ظهرت بين الجنوبيين في الولايات المتحدة الأمريكية بعد هزيمة جيوشهم في ساحة القتال ، في حين أن مشيئة الانفصال التي ظهرت بين المغاربة في أوروبا ظلت تتجدد وتشتعل ، برغم المسائر التي تکبدوها خلال ثوراتهم المتالية ، وسلسلة الم Razem الأليمة التي تعرضوا لها .

أما النظرية الثانية التي نادى بها بعض المفكرين في الدول الشيوعية والاشراكية فكان أساسها كما هو المتوقع ، أن المصالح الاقتصادية هي أساس الأساس في نشأة القومية ، وإن لم ينكر أصحاب هذه النظرية أثر اللغة الواحدة ، والأرض الواحدة ، والثقافة الواحدة في نشأة القومية .

ويبدو لنا أن أولئك الذين رکزوا اهتمامهم وعنايّتهم عند الحديث عن القومية على مشيئة المعيشة المشتركة حيناً : وعلى المصالح الاقتصادية حيناً آخر قد خلطوا بين أمرين كان يجب التمييز بينهما : أولهما تلك الطاقة الكامنة التي قد تفجر وينشأ في إثر هذا الانفجار ما نسميه بالقومية ، والآخر الموازي على هذا الانفجار ومعالله الظاهر . فإذا اختلفت مهارات القومية في أوروبا بعض الاختلاف ، فقد اشتركت ولاشك في تلك الطاقة الكامنة التي هي السر الحقيقي في كل قومية .

ولستنا ندهش إزاء تلك الآراء المتباينة والجدل الختدم بين من يعترفون بالقومية أن يظهر أولئك السياسيون الذين نثروا وجدها ، وقرروا أنها لا تعودوا أن تكون الاتجاه إلى دولة من الدول في

وإذا تذكروا أن نشأة القومية عملية تاريخية بطيئة تتطلب زمناً طويلاً أدركوا أن فكرة المشيئة في المعيشة المشتركة أو المصالح الاقتصادية ليست في الحقيقة إلا عوامل قد تساعد على دعم القومية لا خلقها . فمثل هذه الأمور ترتبط بزمن

معين وبظروف ميامية خاصة . فالقومية الصينية في عهد الرأسمالية هي هي في النظام الشيوعي الذي يسود الصين الآن ، وإن كان يمكن القول بأن النظام الاقتصادي الجديد قد قوى أو ساعد على دعم تلك القومية الصينية .

دعنا بعد هنا نتناول في عرض سريع أشهر تلك المقومات التي نصادفها في الكتب التي تحدثت عن القومية : الجنس . الدين . الثقافة . اللغة .

١ - الجنس :

يعنى الدارسون بمصطلح « الجنس » عادة قوماً من الناس نشأوا من أصل واحد أو أرومة واحدة ، وأصبحت لهم ملامح جسمانية معينة مشتركة بينهم : كأن يشار مثلاً إلى الجنس اليهودي ، أو كأن يقال إن الأوروبيين في الوقت الحالي يتآلفون من أجناس متعددة ، وأن ما يمكن أن يسمى بالبقاء الجنسي لم يعد له وجود في أوروبا . فما كان يسمى في أوروبا بالجنس التوردي ، أو جنس البحر الأبيض المتوسط ، أو الجنس اللبناني ، وغير ذلك مما كان في وقت من الأوقات بعدَ أجناساً متميزة ، كل هؤلاء قد أصبحوا الآن يؤلفون أجناساً مختلطة ممزوجة مع تفاوت في نسبة هذا الاختلاط والامتراج .

وفي الحق أن مصطلح الجنس لا يبعد مصطلحه علمياً دقيقاً : فليس له مكان بين تقسيمات المخلوقات الحية تلك التقسيمات التي اكتسبت القبول والاعتراف بها بين الدارسين في العالم . فعلم الطبيعة يتآلف من ثلاثة ممالك : الحيوان . النبات . المعادن . وكل مملكة منها ترتب في نظام تدريجي ذي سبع شعب هي التي تعرف : بشرطى المملكة ، والأقسام ، والمراتب ، والأسر ، والأنواع ، والأجناس ، وأخيراً المتنوعات .

فالإنسان ينتمي إلى النوع المسمى *Homo* الذي يندرج تحته أجنس ، ومتنوعات ، خذلت تحديداً علمياً دقيقاً في علم الأحياء .

ولا تتضمن في هذا النوع *Homo* معالم الجنس البشري على النحو الذي قرره عالم مثل « يوهان فريدريك بلومباخ Johann Friedrich Blumenbach » : فقد

قسم الجنس البشري إلى خمسة مجموعات على حسب تلك السمة الواضحة، وهي لون البشرة :

- (١) الأبيض القوقازي .
- (٢) الأصفر المنغولي .
- (٣) الأسود الأثيوبي .
- (٤) الأحمر الأميركي أو الإنجليزي .
- (٥) الأسود الملاوي .

ثم استمر هذا العالم يصف هذه المجموعات على حسب الهاياكل والتكتوين العظمي كشكل الجمجمة (طويلة . متوسطة . عريضة . إلخ) ، وكاعتدال الأنف أو فلطحته ، وكبروز الصدغ ، وكتجعد الشعر ، وكلون العيون إلخ . ونحو ذلك من صفات جعلها أساساً لتقسيماته .

وقد قام بنفس المحاولة علماء مشهورون في علم الأجناس ، أو الفرع الخاص بمقاييس الأعضاء في الجسم الإنساني . ثم تكررت المحاولات ، ولكن النتائج التي اهتموا إليها ، وحدثونا بها ، كانت مضطربة وغير مؤكدة . وتبين لهم بما لا يدع مجالاً للشك أن توزيع الأجناس في العالم تباين تبايناً غير متوقع . حين تكون الأسس المختارة للتوزيع ملائمة معينة أو مجموعة من الملائم مثل : القامة ، والجمجمة ، والأنف ، والصدغ ، والأعين ، والشعر ، والبشرة ونحو ذلك . فالاجناس التي حاولوا تمييزها قد تبين للدارسين أنها غير واضحة المعالم : وأن أساس تمييزها تحكمي .

أما الذين درسوا الأجناس البشرية من حيث الوراثة والبيئة فكانوا أكثر نجاحاً . فبرغم أن الاكتشافات الرائدة التي قام بها « ماندل » لم تكن معروفة للدارسين ، ولم يتسع بها أحد إلا بعد انتهاء القرن التاسع عشر ، فإن التقدم الذي أحرزه علم الوراثة منذ ذلك الحين تقدم سريع مرموق . فمن المحقق الآن أن الوراثة تتم عن طريق البكتيريوسات في الكروموزومات ، وليس عن طريق الدم . ذلك لأن وراثة الدم فكرة خاطئة ظلت محل القبول منذ عهد

أرسطو الذي كان يؤكد لتلاميذه أن دم المرأة في النظام الشهري ، وهو الذي ينقطع في أثناء الحمل ، يساهم في المادة التي يتكون منها جسم الجنين . وفي الحق أنه ليس هناك جریان دموي بين المرأة وجنبها ، فلا تمر قطرة واحدة من دم الأم إلى الجنين في رحمها . بل الصحيح هو أن نواة كل خلية من جسم الوليد تحتوى على ٢٤ زوجاً من الكروموسومات ، زوج من جهة الأب ، وزوج من جهة الأم . أي أن الجنين ينحدر إليه ٢٤ من الكروموسومات عن كل من الآب والأم ، ولكن عدد ما يرثه الوليد من هذه الكروموسومات قد يختلف باختلاف الوالدين . فما يرثه عن أحدهما قد يكون أقل ، أو أكثر ، أو مساويا ، لما يرثه من الآخر ، ويتم كل هذا في حدود ٢٤ كروموسومات . وهكذا نرى أنه بعملية رياضية بسيطة يكون عدد الحالات في وراثة الكروموسومات عن الآباء في حدود الملايين . غير أن الغالب السائد أنه في حالة التزاوج المختلط ، أي حين لا يقتصر التزاوج على أفراد أسرة معينة ، نلحظ أن عدد ما ينحدر إلى الوليد من الكروموسومات من الأجداد يتباين ، فهو من الجد الرابع أكثر من الجد الثامن . ومن الجد الثامن أكثر من الجد السادس عشر . ويؤكد لنا علماء الوراثة أننا لا نكاد نرجع إلى ما قبل الجد الرابع والستين : أي في حدود الجيل السادس . حتى تشهد حالات كثيرة قد انعزل فيها الوليد عن أسلافه من حيث الكروموسومات ، فلا يكاد ينحدر إلى الجنين من هؤلاء الأسلاف القديماء عناصر جسمانية . وعليه فأولئك الذين يدعون الآن الانتساب أو الاتناء إلى النسل المباشر لأحد الخلفاء الراشدين مثلا . ويتخلون من هذا الادعاء وحده شعاراً لفخرهم واعتزازهم ، يجدر بهم أن يعرفوا — على حسب ما يؤكد له علماء الوراثة — أن من المشكوك فيه أن يكونوا قد ورثوا عناصر جسمانية بيولوجية عن هذا الخليفة .

وقد أصبح من المقرر الآن من الناحية البيولوجية أن الفرق بين دم الزنجي ودم الرجل الأبيض في «اسكتلندا» طفيف ، بل قد تبرهن التحاليل على أن الجاميع الدموية لهما متعددة تمام الاختلاف .

ما تقدم ذكره فكرة الجنس بين البشر قد أثبتت على وهم ، أو بعبارة

أدق ليس لها أساس بيولوجي مؤكداً.

أما الكلمة الأجنبية (Race) التي ترجم عادة بالجنس البشري فقد انحدرت إلى بعض اللغات الأوربية عن الكلمة العربية «رأس» عن طريق اللغة الأسبانية. وتختلف هذه الكلمة في الأصل الاشتقاق عن نظيرتها (Race) أيضاً تلك التي تعبّر في الإنجليزية عن السباق. وقد كانت الكلمة (Race) يُعنى الجنس في اللغة الإنجليزية تعبّر فيها مضموناً عن نسل الحيوان من أب واحد، واستعملها شكسبير بهذا المعنى في بعض رواياته، غير أنه استعملها أيضاً للإنسان، إذ يقول في إحدى رواياته (Happy race of kings) وفي رواية أخرى (The whole race of mankind). وبرغم ورود هذه الكلمة عدة مرات في أعمال شكسبير لا نكاد نتعرّف على مثل واحد لها في ترجمة الكتاب المقدس أيام جيمس الأول – أي في أواخر القرن السادس عشر من الميلاد: بل عبر عن معناها بكلمات أخرى.

وظلت كلمة (Race) في اللغة الإنجليزية غير محددة الدلالة حتى جاء «ماكس ميلر» في منتصف القرن التاسع عشر وخلط في استعمال الوصف «آري» فلم يقتصره على اللغات الآرية أو المتكلمين بها كما فعل «وليم جونس» من قبله؛ بل استعمله في بعض أقواله للدلالة على قوم ذوي ملامح جسمانية متميزة، كطول القامة، وكالشعر الأصفر؛ مما شجع بعض الكتاب في عهده على استعماله بمعنى «الجنس الآري» الذي زعموا أنه يتتفوق على الأجناس الأخرى في العالم. وقد استغلت هذه الدلالة استغلالاً دنيئاً أيام هتلر.

وكان هذا برغم أن «ماكس ميلر» نفسه قد تنبه فيما بعد إلى هذا الخلط وبنبه في كتاباته المتأخرة إذ يقول: (لقد أعلنت مراراً وتكراراً أنّي حين أشير إلى الآرين لا أعني مطلقاً أولئك الذين يتصفون بملامح معينة في الدم أو العظام أو الشعر أو الجمجمة. وإنما أريد فقط أولئك الذين يتكلمون لغة آرية. وحين أتحدث عنهم لا يخطر في ذهني أي خصائص تشريحية. فأصحاب العيون الزرق، والشعر الأصفر في اسكندنavia قد يكونون الغزاة وقد يكونون من وقع عليهم

الغزو. قد يكونون قد اصطنعوا لغة الغزاة السُّرُّ أو العكس . وفي رأي أن علماء الأجناس البشرية الذين يتحدثون عن الجنس الآري والدم الآري والأعين الآرية والشعر الآري إنما مثلهم في الخطابة مثل اللغوي الذي يحدثنا عن معجم طويل الرأس أو أسطس الأنف)^(١) ..

ومع هذا فقد استقر الرأى بين الكتاب على قصر استعمال الوصف « آرى » على معنى الجنس الآري ، وتسمية ما أسماه ولم جوز باللغات الآرية ، اللغات الهندية الأوربية ، منعا للبس والإبهام .

حقاً إنه من العسير في بعض الأحيان أن نلتسم كلمتين مختلفتين بإحداها تعبر عن اللغة والأخرى تعبر عن المتكلمين بها . فنحن نقول مثلاً : اللسان الكلى ، كما نقول الجنس الكلى ، وتقول اللسان العربي كما نقول الجنس العربي ، لا لشيء سوى أنها تفتقد كلمة أخرى للتفرقة بين تسمية اللغة وتسمية الجنس . غير أن السياق في مثل هذه الحالة كفيل بتحديد المعنى المقصود . ومن واجب الدارس على كل حال أن يفصل فصلاً تاماً بين أنساب الشعوب واللغات التي يتكلمون بها ، وألا ينساق مع أولئك الذين يستمدون بالأفكار الرائفة المصلحة حول ما يسمى بالجنس ، ويصررون في غباء على الحديث عن النساء الجنسي والتفرق الجنسي ..

وإذا تبين مما تقدم أن فكرة الجنس وفروع الجنس ليس إلا وهما ، وليس له أساس علمي مؤكداً ، فهو يجوز مع هذا أن نعدها من مقومات القومية ؟

٤ - الدين :

الدين هو الولاء الروحى لعقيدة من العقائد . وإذا نظرنا إلى موقف الدين في العالم الآن تبين لنا أن الصين تترفع إلى حد ما عن الكونفيوشية ، وأن الديانة البرهيمية واليهودية قد أصبحتا في الوقت الحالى تقتصران على قوم معينين . ولذلك يمكن القول بأن هناك ثلاثة أديان عالمية فقط هي التي تستأثر بالمحبة والإخلاص

بين جميع البشر ، وهي : اليودية ، وال المسيحية ، والإسلام . وتسمو هذه الأديان الثلاثة فوق حدود الجنس والقومية والنظم الاجتماعية والطبقات والطوائف وكل القوانين والدساتير الوضعية ، لأنها تسم حفاظاً بالعالمية والخلود . فهي تؤكد لناحقيقة ذلك العالم الروحي غير المحسوس الذي لا يمكن رؤيته ، وتدعو جميعاً إلى خلود العبر المجردة للخير والجمال والحق . فهي لذلك تمنع البشرية قدرأً وافراً من الأمان والسلام ، مما لا تقدر الدنيا على منحه .

وقد يعتقد المرء ذلك الولاء الروحي فجأة ، بل ربما في نعمة عين ، كالذى حدث لعمر بن الخطاب حين سمع أخوه تقرأ آيات بينات من القرآن الكريم . وكذلك الشأن في الشعوب ، فقد يسود أحدها دين جديد خلال فترة قصيرة نسبياً ، كما حدث في اسكندينavia حين عمّت المسيحية بها ، وانتشرت بين قومها ، في القرن العاشر الميلادى . ولم تكن سيادة المسيحية في هذه المناطق الشمالية مجرد تغيير في العقيدة ، بل شمل هذا تغيراً في الثقافة أيضاً ، وترتب عليه غنى كبير في اللغة . فالعلماء والمثقفون هناك وجدوا أنفسهم في حاجة ملحة لخلق مصطلحات جديدة تعبّر عن المفاهيم التي تتصل بالعقيدة الجديدة .

وقد يتعدد أثر الدين في اللغة أشكالاً أخرى . فاللغة « الكرواتية » واللغة « الصربية » وكلاهما في يوغوسلافيا تُعدان في الحقيقة لغة واحدة . ولكن بسبب الاختلاف المذهلي بين أبناء هذه وأبناء تلك في الفلسفة المسيحية ، تكتب « الكرواتية » بحروف لاتينية ، في حين أن « الصربية » تكتب بالحروف « السيريلية » وهي حروف الكنيسة الأرثوذكسيّة للإغريق .

وإذا كانت أشهر الديانات في العالم تسم بالروح العالمي ، وتسмо على كل ما يفصل بين الإنسان وأخيه الإنسان ، فهل يعقل مع هذا أن ندعى أن الدين من مقومات القومية ؟

فالإسلام مثلاً جاء للناس كافة ، ويدعو البشرية جموعاً إلى اعتناقه والإيمان بتعاليمه وشرائعه ، لا يفرق بين جنس أو لون أو وطن ، ويقول نبيه الكريم إنه : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتفوى ». ويُسم الإسلام أيضاً

بالمباحة والبعد عن التحصّب إزاء الديانات السماوية الأخرى.

ولا يصحّ لهذا أن يكون داعياً إلى القومية، أو من مقوماتها، فهو دين عالمي، ويعتنقه الآن في العالم أقوام من قوميات متباينة في «شارق الأرض وغفارها» وكلهم إخوان في الدين يتّعاظفون روحياً، وينصر بعضهم بعضاً في صدق هذا الدين الحنيف، ونشر تعاليمه، ودعم أركانه. وفي مبادئ الإسلام ما يسمح لكلّ وطن بتنظيم شؤونه السياسية والاقتصادية على حسب «متطلبات الحياة فيه»، وعلى حسب ظروفه الاجتماعية، فلا يفرض لكلّ مسألة دينوية حلّاً معيناً، بل تسمم شرائطه بالمرونة، وسعة الأفق، بحيث يمكن تطبيقها في كلّ أرض وكلّ وطن. ولنا من قصة تأثير التخل بالمدينة خير دليل على هذا، تلك القصة التي يحسّنها النبي الكريم بقوله الرائع: «أَنْتُ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دِيَنِكُمْ».

ولا يصحّ لهذا أن نتصوّر أن نشأة دولة باكستان إنما كانت على أساس الدين وحده، بل يجب أن نلتّمس أسباب نشأة هذه الدولة من ظروف أخرى بعضها تاريخي وبعضها لغوی، وأن نسمو بديننا الإسلامي عن الدعوة المحلية. هنا إذا وصفت دولة باكستان بالقومية الباكستانية. وفي الحق أن القول بأن باكستان دولة قومية بالمعنى المألوف لنا في قوميات أوروبا فيه قدر كبير من التجوز والافتalaة.

أما في أوروبا فلم يكدر ينقضى القرن التاسع عشر حتى شهدنا النامن بظهور لـ«الدين نظرة أوسع آفاقاً وأكثر سماحة»، ولم يعد لهم تلك الحساسية العقائدية التي سادت أوروبا خلال القرون الوسطى، والملاك نشأت كلّ القوميات الأوروبية في رحاب المسيحية، واستقلّ بعضها عن بعض وتميّزت، برغم أن الجميع من المسيحيين. فهل يمكن أن يقال مع هذا إن الدين كان من مقومات القوميات الأوروبية؟ بل إن المسيحية منذ نشأتها قد فرقت بين الدين والدنيا، وتركـت ما لا تفيـض لـقيـصـرـ وما لـلهـ لـهـ. وبهـذا سـمحـتـ بـنشـأـةـ الـقـومـيـاتـ:ـ أوـ لمـ تـعـرـضـ عـلـيـهاـ،ـ وـلـمـ تـحـدـ مـنـ اـنـشـارـهاـ.

فالقوميات التي هي من صنع الإنسان. ومن النظم الدينية التي اهتدى إليها بعقله وتفكيره وليس بوحي من الله، لا يصح أن تربطها بالدين، وأن يجعله اللنة بين القومية والعالمية.

من مقوماتها ، وإنما تكون بذلك قد هبّتنا بذلك المستوى الروحي الخالد الشامل الذي تنسّم به الديانات السماوية إلى مستوى دينوي محدود الأفق ، هو من عمل الإنسان وحده ، وليس للروح الإلهي فيه نصيب .

من الإسراف إذن أن يقال إن القومية بمعناها الحديث في السياسة والنظم الاجتماعية تتطلب الدين أو العقيدة كأحد مقوماتها .

٣ — الثقافة :

حين نسأّل عن تعريف مقبول للثقافة نجد أنها لا تكاد تعني سوى ذلك الطريق الموروث للحياة في شعب من الشعوب . وحين نتحدث عن الحضارة التقليدية في شعب ما نجد أنها تشمل فنونه وحرفه التي ترجع إلى أزمان بعيدة في القدم ، كما تشمل قوانينه ، ونظرته إلى تأسيس المجتمع ، وموقفه من الأخلاق والقضاء ، وسموّ من يتحلى بها ، بل تشمل أيضاً قدر ما يتسم به هذا الشعب من الذوق السليم ، وسعة الأفق والسماحة ، وروح الدعاية بين أبناءه وكلمة الحضارة حين تقابلها باليداوة لا تعني أكثر من حياة المرأة في المدينة حياة مستقرة منتظمة . في مجتمع ينتمي بالقانون ويتحضر له . إنها مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي ، تختت بعد تطور طويل شاق للمجتمع البشري .

وتقع أقدم مراكز الحضارة والثقافة في أحواض الأنهر الصالحة للملاحة كالنيل والفرات ودجلة ونحوها . وقد نشأت هذه المراكز مستقلة في إثر الاهتداء إلى الفلاحة المنظمة في الأودية الكبيرة ؛ حيث يسهل تبادل السلع والأفكار بين الناس . ثم تأثر بعضها ببعض ، غير أنه لا يمكن الوقوف على مدى تأثير ثقافة بأخرى في هذه المراكز الحضارية ، أو تحديد قدر هذا التأثير . ففي تاريخ الإنسانية شهدنا بين الحين والحين شعوباً مختلفة قدمت للعالم هدايا فكرية وثقافية متعددة ، وعملت على استقراره ورخائه ونهضته . فالمصريون القدماء قد منحوا العالم ذلك النوع من الكتابة التصويرية التي تطورت بعد ذلك على أيدي الصينيين إلى الكتابة المقطعة ، ثم عنهم أخذ الإغريق حروف المعاء أو الكتابة

المجائية . ووهبنا الإغريق القدماء دروساً ونماذج رائعة في فن النحت والدراما والموسيقى والفلسفة ، كما وهبنا الرومان القانون والنظم الإدارية . أما العرب فاليوم يرجع الفضل في نشر المعرفة بالرياضيات والفلك وغير ذلك من صنوف العلوم . ولكن الغريب في ثقافات الشعوب خلال العصور التاريخية أنها لا تثبت على حال ، فيبها نرى الثقافة في شعب ما تقدم في اطراط عدة أجيال ، قد نراها تعود القهقرى وتتتكسر ، دون توقع لمثل هذا الانكماش أو تفسير واضح له . فإذا تساءلنا بعد هذا عن أوضاع مقياس الثقافة في العالم الحديث لا نكاد نهتدى إلى رأى حاسم قاطع . فهل تقيس الثقافة الآن عن طريق الدراسة الدقيقة للفن والأدب والقانون في شعب من الشعوب ؟ أو هل الثقافة تعتمد أولاً وبالذات على المستوى العام للتعليم في هذا الشعب ؟ إنها في الحقيقة تستمد جذورها ، وإلى حد كبير ، من كل ما تقدم . ولكنها مع هذا تعكس بوضوح درجة التحرر وسعة الأفق والسماحة بين الناس في حياتهم العامة ، كما تعكس مدى دغبهم في السماح لغيرهم بحرية الرأي . فإذا نظرنا في بيته من البيوت وشهدنا السماحة وسعة الأفق تسود بين الناس تبين لنا بجلاء أن مستوى الثقافة في هذا المجتمع متوازي راقٍ وعلى درجة سامية . وعلى العكس من ذلك إذا شهدنا أن هذه العادات آخذة في الانحطاط والانكماش فليس بعوضنا عن فقد الثقافة في مثل هذا المجتمع أو يعني عنا ما قد نراه فيه من مظاهر برافرة في الفن والعمارة الشائعة أو النظم المحكمة في التعليم والإدارة . ذلك لأن الشعدين الأصيلين للثقافة هما : التحرر ، والسماحة .

إذا تبين لنا أن الثقافة والهبة الفكرية لم يستأثر بهما شعب واحد في كل العصور التاريخية ، وأن ثقافات الشعوب قد صبَّ بعضها في بعض وتأثر بعضها ببعض ، وأن شعوباً متعددة قد أسممت في الهبة الثقافية للإنسان خلال التاريخ البشري ، إذا تبين كل هذا فكيف يقال مع ذلك إن الثقافة من مقومات القومية الحديثة . إن الثقافة في معظم مظاهرها تراث إنساني ، وما قد يتسم منها بالمحليّة قدرٌ تافه لا يمكن أن يخلق شعباً أو قومية واعية . دعنا إذن

نفتش عن السر الحقيقى لنشأة القومية ، أو بعبارة أخرى عن أنس « الأساس » بين مقومات القومية ، فربما نفتض في نهاية الأمر أنه ينحصر في اللغة المشتركة .

٤ - اللغة :

بحديثنا الدارسون لعلم النفس عن غرائز أو تزعّات فطرية عامة ذات أثر بين في حياة المجتمع ، وينصون ثلاثة منها بالعنابة وهي : المشاركة الوجدانية ، والاستهواء ، والتقليد . ويطلقون على هذه التزعّات الثلاث في بعض الأحيان التزعّات الاجتماعية ؛ ذلك لأنها تربط المرأة بمجتمعها ربطاً وجداً وإدراكياً وسلوكياً ، فهي لأفراد المجتمع المتأسّك والانسجام في الوجودان والتفكير والسلوك .

أما المشاركة الوجدانية فهي أن يحس المرأة بالانفعالات التي قد تكون عند الآخرين ، أي أن يشاركهم في السراء والضراء والحزن والفرح . فإذا دخل المرأة بيته ووجد أهله يضحكون مثلًا شاركهم في هذا الشعور وضحك مع الضاحكين ، وإن لم يشعر شعوراً تاماً بسبب هذا السرور . بل إن المرأة في السينا قد يضحك مع الضاحكين بسبب حوار خاص باللغة الإنجليزية ، وإن لم يكن على معرفة بهذه اللغة تسمح له بفتح هذا الحوار .

وتكون المشاركة الوجدانية على قدر ما بين المرأة والذين حوله من صلة القرابة أو الصداقة ، وعلى قدر محبته لهم . فالأطفال يشاركون أهلهم وجدائياً في سرعة ويسر ، لأنهم يكتنون لأهلهم الأقربين الود والمحبة والعطف والرحمة .

وأما الاستهواء فهو أن يتقلّل المرأة أفكار الكبار حوله وأرائهم ، دون مطالبة بما يثبت أو يبرهن على تلك الأفكار والآراء . وتتوقف عملية الاستهواء أيضاً على قدر محبة المرأة لصاحب الرأي ، وعلى احترامه له ، واعتراضه بآرائه . ولهذا لوحظ أن الأطفال تستهويهم آراء الكبار من أهلهم ، ويتأثرون بها تأثيراً عميقاً .

وأما التقليد فكان يعجب المرأة سلوك غيره فيقلده في هذا السلوك . فالطفل قد يقلد أبيه في طريقة كلامهما ومشيئما وطريقتهما في تناول الطعام أو الجلوس إلى المائدة .

ويميل بعض الدارسين لعلم النفس إلى اعتبار هذه التزععات الثلاث نزعة واحدة يطلقون عليها لفظ التقليد . ذلك لأن المشاركة الوجدانية هي في الحقيقة تقليد في الإحساس والمشاعر ، واعتقاد المرء لآراء غيره دون فحص لها ليس في الحقيقة إلا تقليداً في الإدراك ، ويبيّن بعد هذا التقليد في السلوك .

ويرى هؤلاء الدارسون في ختام حديثهم عن هذه التزععات الاجتماعية أنها من أكبر العوامل في انسجام الجماعات ، وأن لها أثراً كبيراً في تفاقم الجماعة وتأثرها ، ووحدتها في الآمال والأماني ، وسعياً إليها لتحقيق تلك الآمني والآمال.

ويجب ألا يغيب عن ذهاننا أن تلك التزععات الاجتماعية تتحذى مع الإنسان صورة أرق وأسمى من مجرد غريزة يشركه فيها بعض الأنواع الراقية من الحيوان . ويتحقق ذلك عن طريق اللغة التي يتميز بها النوع الإنساني . فلا يكون الانسجام بين أفراد الجماعة تاماً وشاملاً إلا عن هذا الطريق . فالمتعة الوجدانية التي يحس بها المرء العارف باللغة الإنجليزية حين يشارك المقربين وجدانهم في مشهد سينمائي ، أرق وأسمى من تلك التي قد تكون لدى من يجهل هذه اللغة . وإعجاب المرء بآراء غيره يصحبه عادة تغييرات ساحرة أخاذة تصدر من صاحب هذه الآراء . وكذلك الشأن في تقليد السلوك لا يتم عادة في صمت مطلق . بل يكتنفه عادة كلام مفぬن فصيح يثير إعجابنا بالسلوك ويدفعنا إلى تقليده . تصور مثلاً أسرة تتألف من أب عني ، وأم صماء بكماء ، وأبناء شاءت الظروف أن ينشأوا في بيئات أجنبية فلا يحسنون لغة أبوتهم . فإذا ضم مجلس أفراد هذه الأسرة شهدنا انفصاماً بينهم ، وتفككاً في صلة بعضهم البعض ؛ وشهدنا ما يمكن أن يكون بينهم من مشاركة وجدانية أو استهواء في الرأي أو تقليد في السلوك ، في صورة أدنى مرتبة وأقل فعالية مما يكون لدى أسرة أخرى ينطق كل أفرادها بلسان واحد ويتفاهمون بلغة واحدة . فانسجام الأفراد في الجماعة ، وتوافقهم وتأثرهم ووحدتهم في الآمال والأماني ، وغير ذلك مما يتباهى الدارسون للتزععات الفطرية لا يتحقق كاملاً شاملاً إلا مع اللغة التي هي أقوى رباط بين أفراد المجتمع .

فإذا سمعنا عن تلك الترعرعات الفطرية التي يشترك فيها الحيوان أيضاً ، تبين لنا أن المجتمع الإنساني يتطلب في كمال انسجامه وتأزره وتعاونه شيئاً أرق من تلك الغرائز ، ويتمثل هذا الشيء في خير ما اهتمى إليه الإنسان في كل تاريخ الإنسانية ، ألا وهو اللغة .

فاللغة هي الأساس في شعور الجماعة بانتماء بعضهم إلى بعض ، واشراكهم في نفس الذكريات سواء كانت تاريخية أو ثقافية ، بل واقتصادية أيضاً .

ليست اللغة إذن كما قد يظن لأول وهلة مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار أو مجرد رموز لما يدور في الأذهان ، بل هي تلك الوسيلة التي امتنجت بعقولنا وتقوسنا ، والتي ساها بها الإنسان فوق الحيوان ، وندين لها بتلك القوة التي ساعدتنا على التعاون مع رفاقنا ، ومنحتنا السيطرة على مخلوقات أقوى منها جسماً .

فإذا كان للقومية وجود حقيقى ، أو مفهوم محدود ، وجب أن تلتئم في تلك الرابطة الوثيقى التي تولف بين أفراد المجتمع ، وتوحد بين أفكارهم وأحاسيسهم وعواطفهم ، والتي تسمى باللغة أو اللسان .

فأقوى رباط يجمع أواصر الأسرة هو اللغة التي يشعر بها أفراد الأسرة أنهم يفكرون بطريقة موحدة ، ويحسون بإحساس واحد . وينطمون لطريقاً مهائلاً . فللأسرة صفات خاصة في النطق والأداء ، واختيار الألفاظ ، وإثارة بعضها على بعض . فكثيراً ما يهاب أفراد الأسرة في النطق بصوت معين : في صورة لغة أو عيب نطق ، وكثيراً ما يهابون في إثارة لفظ بعينه ، أو تركيب بعينه ، يشعرون بين أفراد الأسرة ، ويصبح إحدى خصائصهم التي يتميزون بها في خطفهم الضيق ، والتي تتحقق من ترابطهم ، وشعورهم بأنهم وحدة منسجمة ، يفكرون معاً ، ويشعرون معاً ، كما يأكلون ويسربون حول مائدة واحدة . قصورهم بكائهم الأسرى ، وتمزيتهم عن الأسر الأخرى ، هو في الحقيقة بعثابة قومية صغيرة . وهكذا تكون القومية بمعنى الرباط الوثيق بين أفراد المجتمع ذات مستويات . وذات أحجام ، وأصغرها حجماً ما نسميه بالأسرة ، ثم ما نسميه بالقرية . ثم ما نسميه بالمدينة . ثم ما نسميه بالدولة

الى ها لغة مشتركة تنتظم كل المناطق ، ويعمد إليها كل أفراد المجتمع .

فالقومية في حقيقة أمرها ليست إلا الشعور بما يجذب أفراد المجتمع بعضهم إلى بعض لتألف منهم وحدة متميزة . وقد تخدعنا بعض المظاهر الخارجية والعادات الاجتماعية الطارئة التي لا تسم بالثبات والدائم . والتي نظرًا على الشعب في فترة من تاريخها تحت تأثير ضغط سياسي أو اقتصادي أو حتى ثقافي ، قد يخدعناها كلها فنلتزم فيه مقومات القومية : غافلين أو متغافلين عن الرباط الحقيق ذي الصبغة الدائمة الخالدة الذي قامت القرون الطويلة بنسجه ودعمه ، وتعزيز جذوره ، في قلوبنا ، وأفئدتنا وفوسنا ؛ وهو اللغة .

فتصورنا للقومية بوصفها رباطاً وثيقاً بين الأفراد يبدأ من الأسرة التي هي أصغر صورة للقومية ، ثم القرية وهكذا . وعلى قدر اتساع مناطق القومية يقل وثوق ذلك الرباط بين الناس ، لا لشيء سوى أنهم يكتشفون أن بينهم فروقاً نطقية محلية تباعد بينهم ، وتخلخل عواصفهم . فإذا نشأت بينهم ما يسمى باللغة المشتركة عادت لهم وحدتهم ، وتطلعوا إلى هذه اللغة التي تلم شتاهم ، ويجمع ما قد تبدّد من وحدتهم وانسجامهم . وإذا لم تكون لقوم من الأقوام تلك اللغة المشتركة . فلا قومية بينهم إلا في حدود الأسرة أو القرية .

وقد دلت الملاحظة الحديثة على أنه حين تقوى الصلة بين مناطق مجتمع من المجتمعات ، وتسهل بينها وسائل الاتصال ، تكون لها مع الزمن « لغة مشتركة » تقرب بينهم ، وتعين أهلها على تفاهم أسرع وأيسر ، وتفضي لهم مصالحهم الدينية . ولدينا في العصر الحديث أمثلة كثيرة للغات المشتركة كالإنجليزية المشتركة التي تسود في مناطق إنجلترا : وكالفرنسية المشتركة التي تسود في مناطق فرنسا ... إلخ .

وتتعدد اللغة المشتركة في بدء نشأتها مركزاً معيناً ينبع من الظروف والفرص ما لا ينبع لغيره ، فتتطلع إليه المناطق الأخرى : وتسليم له الرمام في النواحي السياسية ، والاقتصادية والثقافية : ويترح إلى الناس من كل صوب . ثم تبلور عملية الاتصال إلى مزيج لغوي منسجم يقبله الجميع . وهو ما يسمى باللغة المشتركة . ومراكز اللغات المشتركة في العالم هي عادة العواصم التي يهيأ لها

من الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مالا ينبع لغيرها من المناطق : وأهم صفات اللغة المشتركة أنها على حد تعبير « هنري سويس » (تلك اللغة التي لا يستطيع السامع أن يحكم على المنطقة المحلية التي يسمع إليها المتكلم) . أى أن اللغة المشتركة قد أصبح لها مع الزمن كيان مستقل ، فلا تذكرها في أثناء الحديث بها أو سياقها بمنطقة خاصة أو طبقة خاصة ، بل يشعر كل من السامع والمتكلم أنها ملك الجميع ، وأم الجميع ، لا يدعها لأنفسهم قوم بأعيتهم ، ولا تنساب إلى بيئه معينة . وهي لذلك تكتب الاحترام من الناس جميراً . فلا يسخر منها أحد ، ولا ينقدها أحد ، بل يلتجأ إليها الكل ليتخدوا منها العصا السحرية التي تقضي لهم مصالحهم الدينية .

واللغة المشتركة هي في الحقيقة تعبير آخر لما يسميه السياسيون بالقومية . ولذلك لم يكن من المصادفة أن القومية حين بدأت تتحذى شكلها في القرن الثامن عشر لم يكن روادها من العسكريين أو السياسيين ، وإنما كانوا من العلماء والشعراء والكتاب الذين حاولوا جهدهم أن يتتسوا روح الشعب في الأساطير القديمة ، والأغاني المجهولة الأصل . وكانت اللغة في أعمال هؤلاء المفكريين أداة هذه الذكريات . والشجارب المشتركة . والسجل التاريخي . فليست القومية إلا تلك الصلة الروحية التي أساسها الأفكار والرغبات والمشاعر ، وكلها تتصل من عقل إلى عقل ، ومن نفس إلى نفس في كلمات شائعة وثيقة الاتصال بتلك العقول والنفوس . فالكلام المشترك والتعابير العامة والتغم الكلامي بل المجازات ، كل هذا يتغلغل في نفوس أبناء البيئة الواحدة ، ويصبح المهد النفسي للشعب ، ثم قد يتفجر في لحظة من لحظات التاريخ ، وينشأ عنه ما يسمى بالقومية .

لا غرابة بعد الذي تقدم أن نرى مفكري الألمان يؤمنون إيماناً قوياً بأثر اللغة في تكوين القومية . ولعل « هردر » Herder العالم اللغوي في أواخر القرن الثامن عشر كان أول من تبه الأذهان في كتبه إلى علاقة اللغة بتنفسية الأمة وشخصيتها إذ يقول : (إن اللغة القومية عزلة الوعاء الذي تشكل به ، وتحفظ فيه ، وتنتقل

بوساطته أفكار الشعب . واللغة سواء قلنا إنها خلقت دفعه واحدة من قبل الله أم ذهبتا إلى أنها تكونت تدريجياً بعمل العقل ، لا يمكن أن نشك في أنها الآن تخلق العقل ، أو على الأقل تثير في التفكير تأثيراً عميقاً ، وتسدهه وتوجهه توجيهها خاصاً . والأدب الذي يسود بين الطبقات العليا من الأمة يعكس تأثيرات خارجية أو أجنبية ، ولكن لغة الشعب تمثل في كل روح الشعب نفسه . إن لغة الآباء والأجداد بمثابة مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتراث والتاريخ والفلسفة والدين . إن قلب الشعب ينبض في لغته . إن روح الشعب يمكن في لغة الآباء والأجداد^(١) .

وهكذا نرى أن « هردر » كان ينادي بأن اللغة مكمن القلب والروح للأمة ، ولذلك تستمسك الأمة بلغتها استمساكها بالحياة . وكان يدعو إلى أن من واجب كل فرد في أمة ، بل من حقه ، التمسك بلغته القومية ، وعلى الدولة التي ترعى شئون الشعب أن تحترم هذا الحق .

ولما أصدر إمبراطور النمسا في أيام « هردر » أمراً يقضي يجعل اللغة الألمانية اللغة الرسمية في بلاد « المجر » التي كانت تابعة لإمبراطوريته ، استنكر « هردر » وهو الألماني . هذا الأمر أشد الاستكبار وقال : (وهل لشعب ما . حتى لو كان شعباً جاهلاً مختلفاً . ثروة أمن من لغة أجداده ؟ في تلك اللغة تكمن كل ذخائر الفكر والتراث والتاريخ والفلسفة والدين ، وفيها ينبض قلب الشعب : ويتحرك روحه . وإن من ينتزع من مثل هذا الشعب لغته ، أو يقصره في احترامها ، يحرمه من ثروته الوحيدة التي لا تعرف البلي ، والتي تستقبل من الآباء إلى الآباء وعلى مر الأجيال والعصور) .

وقد كان لآراء « هردر » أبلغ الأثر في البلاد الألمانية والسلفية ، فقد أصبح بعدها كثير من المفكرين والسياسيين في ذلك الحين يربطون بين اللغة والقومية ربطاً وثيقاً ، ويقررون أن اللغة بمنزلة القلب والروح من الأمة ، وعليه فالمتكلمون بها يصبحون ذوى قلب واحد : وروح مشتركة ، فتشأ لهم قومية

(١) ساطح الخصري في كتاب « ما هي القومية ؟ » ص ٦٥ .

واحدة ، وعلى دعائهما يجب أن تتوسّل لهم دولة موحدة .

وحياته بعد « هردر » الفيلسوف الألماني « فيخته Fichte » في أوائل القرن التاسع عشر ، وشهد النكبات التي حلّت بيلاده على يدي نابليون ، فأصدر كتاباً بعنوان « حماوزات وطنية » نصّ فيه على حوار رائع تمّ بينه وبين رجل من أهالي بروسيا :

فيخته : أنت ، أنت ألمانيا ؟

فيجيب الرجل إجابة حاسمة : كلا .. لست ألمانيا ، بل أنا برؤسي .. وأنخر برؤسي ، ولا أرضي عنها بدليلا ..

فيقول فيخته : أصحح إلى جيداً . إن الفروق التي بين أهالي بروسيا وسائر الألمان ليست إلا مظاهر عارضة طارئة سطحية نتجت عن أحداث اعتباطية ولدتها المصادفة البحتة . أما الذي يتميز به الألمان عن الشعوب الأخرى فشيء أساسي طبيعي يتمثل في اللغة التي يشارك فيها جميع الألمان فتميّزهم عن غيرهم تمييزاً جوهرياً .

ثم ألقى في جامعة برلين خطاباً حماسياً أحب به مشاعر الشباب . واسأله يقوله : (إلى جميع الذين يتكلمون باللغة الألمانية . فإنني عندما أخاطبكم أنت أيها الحيسعون أمّا الآن يتجه ذهني من خلفكم . ومن وراء جدران هذه القاعة ، إلى جميع الذين يتكلمون اللغة الألمانية) .

ولعل أروع ما جاء في بعض خطبه قوله : (اللغة والقومية أمران متلازمان ومعادلان . إن اللغة التي ترافق المرء ، وتحركه حتى أعمق أغوار تفكيره وإرادته ، هي التي تجعل منا نحن الألمان مجتمعًا مهاسكاً يدبّره عقل واحد . إن الذين يتكلمون لغة واحدة ينلّفون من أنفسهم كتلة موحدة ، ربطت الطبيعة بين أجزائها بروابط متباعدة ، وإن كنا لا نراها . إن الحدود التي تستحق أن تسمى حدوداً طبيعية بين الشعوب هي التي ترسمها اللغات) .

وشهد القرن التاسع عشر أيضاً شاعراً ألمانياً عظيماً هو « موريس آرفت » الذي كان يؤمن في أوائل حياته بالترزعة العالمية حتى كانت حروب نابليون

ومآسيها ، فأصبح يدعو في حماس شديد إلى القومية الألمانية . ففي إحدى قصائده الرائعة يتساءل عن الوطن الألماني ، هل هو بروسيا ؟ هل هو بافاريا ؟ هل هو « مسنجاليا » ؟ ثم يجيب عن التساؤل بالتفى ويقول : (إن الوطن الألماني يجب أن يكون أكبر وأسخى من هذا كله . إنه كل البلاد التي ترن في أرجانها أصوات اللغة الألمانية) .

ثم تبئي بعد هؤلاء فكره أن اللغة أساس القومية جماعة من المفكرين المصلحين منهم « ماكس نورثور » الذي كان يقول : (إن الفرد ينتمي في المجتمع باللغة ، وبها وحدها . باللغة يصبح عضواً في الشعب الذي يتكلمها . وباللغة وحدها يتلقى كل التراث الفكري والشعوري والأخلاقي والاجتماعي للأمة ، سواء منه ما انحدر عن قرائع الكتاب والشعراء والمفكرين ، السالفين ، أو المعاصرين) .

ومن أروع ما جاء في كلام هذا الكاتب المفكر قوله : (في عهد من عهود الحضارة التي اجترناها منذ أجيال كان عمل اللغة في الحياة العامة محدوداً نسبياً ، لأن أداة الحكم في ذلك العهد كانت تمثل في السوط ، ولغة السوط مما يفهمه الناس دون حاجة إلى وسادة نحو والصرف والمعاجم . . حتى العدالة لم تكن تحتاج إلى كثير من الكلام . لأن الحكماء والقضاة كانوا يضيقون بالأأخذ والرد والمحوار بين المتحاصرين . . . حتى العقيدة نفسها لم تكن تلتفت إلى كلام الناس ، فالكاثوليكية كانت تصور الخالق للناس في صورة صاحب السلطان الأجنبي الذي لا يستطيع التقرب إليه ، وطلب المغفرة منه ، إلا بلغته الأجنبية وهي اللاتينية ، وعلى يدي حجاج معينين هم القس . أما العامة فلم يكونوا يتمتعون بحق الكلام ؛ وأما النبلاء فكانوا يرثون ما يرثون دون أن يحتاجوا إلى الكلام ولكن الأمور تغيرت الآن . فصار كل شيء يرتبط باللغة وأصبح حرمان شعب من حق استعمال لغته أسوأ ما تتعرض له الشعوب من عسف وظلم وذلة ومهانة إن لم يكن في هذا القضاء المبرم على هذا الشعب المسكين) .

ويتصفح صدق الرأي الذي نادت به النظرية الألمانية من أن القومية مرادفة للغة حين نذكر تلك القوميات التي نشأت في أوروبا خلال القرن التاسع عشر .

فقد وحدت ألمانيا على أساس اللغة وحدتها بعد أن كانت مجزأة إلى دوبلات كثيرة ، وكذلك وحدت إيطاليا على أساس اللغة أيضاً . وإن استقلال بولندا وأتحادها قد تم أيضاً على أساس أن الناطقين بالبولندية أصحاب قومية واحدة . وكذلك استقلال اليونان وبغاريا ورومانيا وألبانيا ويوغوسلافيا وال مجر وتشيكوسلوفاكيا ، فكل هذه الدول قامت على أساس أن لكل منها لغة قومية متميزة عن غيرها . أى أن تفكك كل من السلطنة العثمانية والإمبراطورية النمساوية إنما كان بسبب اختلاف اللغات فيما ، فانفصلت عن السلطنة العثمانية الشعوب التي تتكلم بغير التركية ، وانفصلت عن الإمبراطورية النمساوية الشعوب التي تتكلم بغير الألمانية .

ويرغم أن أحداث التاريخ خلال القرن التاسع عشر تبين بوضوح وثائق الصلة بين اللغة والقومية لا يزال بعض السياسيين يتسبون الفضل في نشوء هذه القوميات إلى عوامل أخرى ، ويررون دور اللغة في ظهور القوميات الأوربية دوراً ثانويّاً .

ويسوق أصحاب هذا الرأي أمثلة من الدول فيها أكثر من لغة واحدة : فاسيين أو متဂاهلين أن أهم عامل في تفكك الإمبراطورية النمساوية والسلطنة العثمانية هو اختلاف اللغات فيما . فقد انفصلت عن كل منها قوميات . وكان الأساس الواضح في ظهور هذه القوميات هو اللغة وحدتها .

ومن الأمثلة التي يسوقونها « بلجيكا » التي تسود فيها الآن لغتان مختلفتان هما الفرنسية و « الفلمنكية » . ففي الإحصائيات الرسمية تجد أن نحو ٣٨٪ من مجموع السكان في بلجيكا لا يعرفون غير اللغة الفرنسية ، وأن نحو ٤٢٪ منهم لا يتكلمون غير الفلمنكية ، أما الباقى فيسيطرون على اللغتين .

وفي نقاشنا لأصحاب هذا الرأى يجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه ليس من اللازم أن تتطبق حدود الدولة على حدود القومية . فللدولة صفاتها التي تحددها القوانين السياسية العالمية التي انبثقت منها القانون الدولي العام ، وأُسست لها المحاكم الدولية . في حين أنه ليس للقوميات في العالم قوانين وضعية تنظم شؤونها أو تحكم بيتهَا . وقد حدثنا التاريخ عن دولة تضم عدة قوميات : كما حدثنا عن قومية واحدة

وزع أبناؤها بين عدة دول : وترتب على هذا فزاع وصراع وسفك دماء نعرض بعض تفاصيله في فصل من الفصول التالية .

وأما الشأن مع بلجيكا ففيما أننا نذكر أنها لم تصبح دولة مستقلة إلا منذ سنة ١٨٣٠ ، وأن للقوى الكبيرة من بريطانيا وفرنسا وغيرها دوراً واضحاً في الإبقاء على بلجيكا في حوزة الحالية . وفي الحق أن هذه الدولة تتألف من قوميتين أو لغتين متميرتين . فإذا قدر لهاتين القوميتين انفصال إحداهما عن الأخرى فسيكون هذا على أساس اللغة وحدها ، أي أن المناطق التي تسود فيها اللغة الفرنسية تندمج مع فرنسا ، والمناطق الأخرى التي يتكلّم سكانها اللغة الفلمنكية تندمج مع هولندا تقرب اللغة الفلمنكية من الهولندية قرباً شديداً .

على أننا حين ندرس أحوال بلجيكا الداخلية وموقف الدول الكبرى منها قد نرى ما يسوع وجود بلجيك على حالها الراهنة : ولو إلى أمد ما .

إذا نظرنا إلى التوزيع اللغوي في بلجيكا تبين لنا أنَّ معظم المتكلمين بالفرنسية يقطنون في الجنوب . وأنَّ معظم المتكلمين بالفلمنكية يقطنون في الشمال ، غير أنَّ الخطوط المدية بين هؤلاء وهؤلاء معقدة شديدة التشابك . فهناك مدن وبقائع فرنسية تحيط به أخرى فلمنكية : وكذلك العكس . أي أنَّ تشابك اللغتين قد يظهر حتى في بعض المدن البلجيكية الصغيرة . في العاصمة « بروكسل » مثلاً نجد أنَّ نحو ٢٨٪ من السكان لا يعرفون غير الفرنسية ، وأنَّ نحو ١٧٪ لا يعرفون غير الفلمنكية ، وأنَّ نحو ٢٥٪ يعرفون اللغتين ولكن تغلب عليهم الفرنسية . في حين أنَّ نحو ٣٠٪ يعرفون اللغتين أيضاً ولكن الفلمنكية تغلب على أسلوبهم . يتعلّم هذا التشابك اللغوي العجيب هو الذي حدا بهاتين القوميتين إلى أنْ قنعوا بشرع من التعايش السلمي في ظل دولة واحدة .

ثم لا ننسى أنَّ بلجيك كانت خاضعة لأسبانيا في القرن السابع عشر ، ثم للنمسا في أوائل القرن الثامن عشر ، ثم لفرنسا بعد ذلك ، فلم تتع لحركة القومية فرصة الظهور تحت ضغط الاحتلال طوال هذا الزمن ، أو قبل إن احتلّها زمناً طويلاً قد أبطأ من ظهور القومية فيها أو تبلورها .

كذلك لا نسى موقف بريطانيا من بلجيكا . - هند عملت بجندة على عزها أو استغلالها . فقد وجدت بريطانيا أن نابليون حسنت عمل بلجيكا استغل سواحلها في إحكام الحصار البري الذي أعلنه على بروكسل . وهذا عمل بريطانيا بعد انتصارها على نابليون على فصل بلجيكا عن بروكسل وضعيتها في هولندا . وتكون من بلجيكا وهولندا في وقت ما يعرف بشكبة الأرض الواطئة التي بذلك بريطانيا جهوداً جبارة في دعمها ، ولكن البلجيكيين ثروا وظلتوا بالانفصال عن هولندا ، فلم تجد بريطانيا بدلاً من مسايرة هذه شرارة . ومنع الاستقلال لبلجيكا بعد أن أخذت العهود الصريحة من فرنسا بضمان عدم الاستقلال والاحترامه . ولما حاول نابليون الثالثضم بلجيكا إلى فرنسا ثانية عدحت بريطانيا وماجت وأعلنت على لسان وزير خارجيها لورد « كروز » أن مصلحة بريطانيا تقتضي بأن تبقى سواحل بحر الشمال في أيدي دولة أو حرب صغيرة) . أى أن سياسة بريطانيا كانت من أقوى العوامل التي أدت إلى - تصبح بلجيكا على وضعها الراهن .

ومع ذلك لا نغالي حين نقرر أن مشكلة اختلاف المسميات مشكلة في اختلاف اللغة في بلجيكا ، قد واجهت الدولة منذ استقلالها . ولذا نرى توجهها حتى الآن كما سنرى في الفصل التالي .

أما المثل الآخر الذي يتصفه عادة أصحاب الرأي لدى بعض فكره الربط الوثيق بين اللغة والقومية هو « سويسرا » .

وفي الحق أن « سويسرا » تعد مثلاً فريداً بين الدول . فهو يُربع لغات : الإيطالية على حدود إيطاليا ، والفرنسية على حدود فرنسا . وللألمانية على حدود ألمانيا ، وأخيراً لغة رابعة من أصل لا تبني هي اللغة « الترمونشية » . وإن كان المتكلمون بها لا يكادون يتجاوزون واحداً في المائة من مجموع السكان . أما نسبة المتكلمين بالإيطالية فهي في حدود ٤٪ ، والمتكلمين بالفرنسية في حدود ٢١٪ ، والمتكلمين بالألمانية نحو ٧٤٪ . ولو قد تركت أمور « سويسرا » شأنها لنشأت بها قومياتان متتميزان على الأقل هما القومية الألمانية والقومية الفرنسية ، غير

أن هناك ظروفاً تاريخية وعوامل جغرافية ساعدت على خلق هذه الدولة المحايدة وسط عدد من الدول التي تقوم المنافسة بينها ، والتي رأت منذ زمن بعيد أن مصلحتها جمِيعاً تقضي بأن تفصل بين الواحدة منها والأخرى مناطق محابية ، وأن وجود هذه المناطق والاحتفاظ بها يلائم مصلحة الجميع من كل الوجوه .

وهكذا نرى أن العامل الأساسي في الإبقاء على «سويسرا» بوضعها الراهن هو الرغبة الصادقة بين الدول الأوروبية المحيطة بها في أن تكون أرض «سويسرا» بمثابة المناطق المترامية السلاح ، أو بمثابة ملجأ أمين يفرّ إليه القوم كلما أصابتهم محنة سياسية أو هزيمة عسكرية ، أي أن «سويسرا» منذ بدء تكوينها كانت في الحقيقة من صنع دول أوروبا المحيطة بها . هنا إلى أن الطبيعة الجغرافية في «سويسرا» كان لها دوراً في تشكيل هذه الدولة . فالجبال الذي تولف «سويسرا» كثيرة الفروع معقدة الشعاب ، وتنقطع سفوحها المشابكة بكثير من الوديان العميقه التي تضم عدداً من البحيرات . مما جعل مناطقها في شبه انعزال إحداها عن الأخرى .

وقد بدأ التحالف السويسري بين ثلاثة من هذه الوديان : ثم أخذ يتسع تدريجياً خلال عدة قرون : ودون أن يتعرض لمؤثرات أو ضغوط خارجية . إلى أن أصبح على الشكل الحالي .

سويسرا الآن تتألف من خمس وعشرين مقاطعة لا يجمع بينها إلا الشؤون الخارجية والمدفوع . وبعض الأمور المتعلقة بالمواصلات . وأما الشؤون الأخرى فقد تركت لكل مقاطعة تقريرها وتصريفها كماشاء . ولكل مقاطعة شعار خاص : وعلم خاص ، ودستور خاص ، وسير الإدارة فيها وفق خطة من الامبريزية الواسعة النطاق .

ويرغم ذلك الاستقرار الظاهري في سويسرا بعد أن ميل السكان وعواطفهم تتجه اتجاهات متباينة : فعواطف أهالي سويسرا الإيطالية تتجه نحو إيطاليا . وميل سويسرا الفرنسية تتجه نحو فرنسا وهكذا .

وقد ظهرت آثار هذه التخلافات العاطفية في شكل واضح خلال أحداث

الحرب العالمية الأولى ، ولم تستطع الحكومة الاتحادية التغلب عليها إلا ببذل جهود شاقة .

ونختتم هذا النقاش مع المعارضين لفكرة الربط الوثيق بين اللغة والقومية بأن نقول : حتى إذا سلمنا جدلاً أن سويسرا نجحت وحدتها في تكوين دولة مستقرة ذات عدة لغات ، لا يصح أن نأخذ من هذا المثل الفريد دليلاً ينقض الأمثلة الكثيرة التي شهدتها الآن في أوروبا وأفريقيا وأسيا . فسويسرا كما تبدو لنا الآن دولة لم تستقر فيها القومية على وضع معين ، أو لم تتجاوز قوميتها لتأخذ طابعاً متميزاً . وليس هناك ما يمنع من الناحية النظرية أن تكون دولة ولا قومية لها ، وأن تكون قومية ولا دولة لها . فالدولة والقومية أمران متبايان ، أو يجب أن ننظر لهما على هذا النحو ، فقد حددت القوانين الدولية مفهوم الدولة ، وبينت بوضوح ما لها وما عليها : في حين أن فكرة القومية لا تزال تضطرب في مفهومها ، وفي مفهومها بين كثير من السياسيين ، أو حتى في السياسة .

دعنا إذن نتبع المشاكل العالمية التي نجحت عن فصل حدود اللغة عن حدود الدولة .

الفصل الرابع

فتشر عن اللغة

نستمد هذا العنوان الغريب من المثل الفرنسي « فتش عن المرأة » لإيماننا بأن كثيراً من المشاكل الاجتماعية والسياسية ، بل الاقتصادية ، في العالم يمكن أن يعزى إلى اللغة ودورها في المجتمع .

ومن الغريب أن الكتب التي تعرض لمثل هذه المشاكل تكاد تغفل أو تتجاهل الأثر الكبير للغة في إثاراتها بين الدول ، وتعزوها إلى عوامل طارئة ، أو أمور لم يعد لها وزن في العصر الحديث .

فالحدود الجغرافية الطبيعية التي كانت فيها ماضي تفصل بين القوميات كالجبال والبحيرات والأنهار ونحوها أصبحت الآن في خبر كان ، بعد ذلك التقدم العظيم الذي نشهده في وسائل الواصلات بين بلدان العالم . فدولة مثل « بلغاريا » تبدو على الخريطة وقد قسمتها جبال البلقان إلى إقليمين متضادين . ومع هذا تسودها الوحدة السياسية . بل إنها تعدّ من أكثر دول البلقان تجانساً من حيث التكوين البشري . وأقواها تماسكاً من حيث القومية . كذلك في الحديث عن حدود القوميات قد تثار بعض المسائل الاقتصادية أو الاستراتيجية ، وهي في الحقيقة من الأمور الطارئة ، أو التي تنتهي للتغطية الأطماع التوسعية لدى بعض الدول . ويغفل الساسة عن السرّ الحقيقى لمشاكل الحدود أو الصراع بين القوميات . وهو في رأينا يركز في اللغة . أما ما كان يسمى بالجنس أو أصل الشعوب فقد تبين لنا آنفًا أنه أصبح أسطورة ، وأنه من العسير الآن الحكم على جماعة من الناس بأنهم يتسمون إلى جنس معين . فقد اختلطت الأجناس في معظم أنحاء العالم ، ولم يعد هناك ما يمكن أن يطلق عليه جنس خالص نقى لا تشوبه صفات من الأجناس الأخرى .

ويبدو أن تجاهل اللغة في تحديد القوميات إنما يرجع إلى أن شأن اللغة من الوضوح والشروع بحيث يُظن أنها لا تتطلب تعمقاً في دراستها ، أو بحثاً في أثرها . فهي تجري على كل لسان ، ولا يكاد يختلف إليها إلا على أنها مجرد وسيلة للتعبير . ولذلك يلتمس الناس أسباباً أخرى في تمييز القوميات ، لأن دراسة اللغات فوق طاقتهم ، وتحتاج إلى جهد كبير و زمن طويل ، ولا يسع وقفهم مثل هذا ؛ أو إن شئت قلت إن غفلتهم عن اللغة أو تجاهلهم لقدرها كان في بعض الحالات متعدداً وعن قصد ، ويحفزهم إلى هذا سوء النية في كثير من الأحيان .

فالقوميات الحديثة في أوروبا ؛ وبعد أن قاست صراعاً مريضاً فيها بيتها خلال القرن التاسع عشر ، وبعد أن مرت بمحرين عالميين ، لا تزال تفتقد الحكم العادل الحاسم في تكوين حدودها ، ولا تزال تتطلع إلى اليوم الذي تناول فيه كل حقوقها القومية ؛ وذلك بضم أصحاب كل لغة إلى إخوانهم في اللسان الذي يوحده بين مشاعرهم وأحساسهم ؛ ويكون بمثابة السجل الذي يضم تراجمهم والمحاذية السحرية التي تلم شتاهم ، وتؤلف بين قلوبهم وعقوهم . ليصبحوا وكأنهم عقل واحد . يفكرون بطريقة واحدة ؛ ويشعرون بشعور موحد .

ورأينا لهذا أن نستعرض أشهر المشاكل السياسية والاجتماعية بين القوميات الحديثة في أوروبا وأسيا وأفريقيا ؛ ليتبين لنا دور اللغة فيها بصورةه الحقيقة التي طمس الناس كثيراً من معالمها وملامحها .

أما مشاكل اختلاف اللغات في آسيا وأفريقيا وأثر ذلك في الصراع بين القوميات فلاتزال بمثابة رواية لم تتم فضولاً ؛ إذ لم يكدر يمر على نشأة هذه القوميات وتمييزها أكثر من بضع سنوات؛ ولذلك سنكتفي بالإشارة إليها بإشارة سريعة عابرة .

فإذا بدأنا بالهند رأينا أنها ظلت خاضعة لحكم بريطانيا خضوعاً تاماً أكثر من قرن ، وأن بريطانيا عملت جاهدة على نشر اللغة الإنجليزية فيها ، فلم يكدر يبدأ القرن العشرون حتى شهدنا هذه اللغة قد أصبحت في كل مناطق

المند بثابة لغة مشتركة توحد بين أقاليمها المختلفة وطواقوها التبائية ، ويجمع بعضهم إلى بعض ، برغم أنها لغة المستعمر . وإذا كان الاستعمار من خير في هذه البلاد فهو أنه منع الهند لغة مشتركة يجعلهم يفكرون تفكيراً موحداً ، وقوت وعيهم السياسي والاجتماعي ؛ ومكنت زعماءها وقادتها من السيطرة على قلوب الناس وعقولهم عن طريق ذلك اللسان الموحد ، فاستجابت لهم الجماهير والتقدوا حولهم .

فلمما بدأ ظل الاستعمار يتلاطم ، وبدأت لغة المستعمر تتخلص معه ، شهدنا مع الدهشة والأسف اللغات الهندية المحلية تطلّ برأسها ؛ وتکاد تؤدي إلى تفكك أقاليمها . ومكنا تعدد القوميات في الهند بتنوع اللغات . ومع ما يبدو من أن فصل باكستان عن الهند أساسه ديني أو عقائدي ؛ نجد أن السرّ الحقيقي في الفصل بينهما يكمن في اختلاف اللغة ولا يكاد القوم يشعرون بهذا ، أو على الأقل لا يكادون يعترفون بالأثر الكبير في هذا الانفصال . «الأردية» التي تسود في أنحاء الباكستان تمتّ في الحقيقة إلى الهندوسانية بصلة وثيقة ؛ ومع ذلك تميزت اللantan بإحداثها عن الأخرى ؛ فالأردية التي هي في الأصل لغة الجيش ، قد تطورت تطوراً مستمراً ؛ وأصبحت تكتب بالأبجدية العربية . وتشتمل على ألفاظ عربية وفارسية كثيرة . وهكذا أخذت صورة مبارزة لأنحائها الهندوسانية . وأدى ذلك إلى ما يسمى بالقومية الباكستانية والقومية الهندوسانية .

ونشهد الآن في الهند بعد زوال نفوذ اللغة الإنجليزية صراعاً بين بعض اللغات المحلية التي يحاول أصحابها أن يبرهنوا على كيانهم وقوميتهم المتميزة باصطدام تلك اللغات والدعوة إليها . ومن العسير التنبؤ بمصير هذا الصراع اللغوي الذي نشهد مظاهره في بعض أقاليم الهند في الوقت الحالى . وبكفى هنا أن نسوق أمثلة لما ينشر في الصحف العالمية بهذا الصدد :

١ - في شهر أغسطس سنة ١٩٦٧ نشرت الصحف خبراً مؤسفاً تخصه في قوله : (قتل خمسة وخمسون شخصاً خلال الاختurbات العنفية التي سادت

طوال الأيام الأربع الماضية في مدينة «رانشى» بولاية «بيهار» الهندية بسبب نزاع لغوى نشب على إثر توزيع منشور في الولاية يعارض بشدة إدخال اللغة الأردية كلغة رسمية ثانية بجانب الهندوسنانية . وقد أعلن وزير البوليس الهندي أن ١٠٦ من الأشخاص قد أصيبوا واعتقل ٧٩٥ شخصاً) .

٢ - (لا يزال الصيام من الأسلحة التي يستخدمها الزعماء السياسيون الهند و زعماء الطوائف والمذاهب المختلفة في مختلف الأزمات التي يواجهونها . ومنذ أسبوعين بدأ واحد من هؤلاء الزعماء هو زعيم طائفة «السيخ» الصيام حتى الموت . واعتكف في الهيكل النبوي في «أمريسار» بعد أن أقسم أن يظل صائمًا حتى تستجيب حكومة «نهرور» لطلبه بإنشاء ولاية تتكلّم اللغة البنجابية ويكون فيها «السيخ» أغليّة) . هذا هو نص ما نشرته الصحف . أما اللغة البنجابية التي يشار إليها في هذا الخبر فهي أهم لغات الشمال الغربي من الهند ، ويتكلّم بها سكان «لاهور» ، وتلك الطائفة المعروفة باسم «السيخ» .

٣ - أما الصراع اللغوى الذى يقوم الآن في منطقة «مدراس» (قدمونى) عنيف ؛ وقد أشارت إليه الصحف في عدة مناسبات :

في فبراير سنة ١٩٦٤ نشرت الصحف ما نصه : (أعلنت حكومة شاسترى اليوم أن رجال البوليس أطلقوا النار على الطلبة المتظاهرين بولاية «مدراس» وقتلوا أربعة منهم . وكان الطلبة قد تظاهروا احتجاجاً على قرار الحكومة الهندية يجعل اللغة الهندوسنانية اللغة الرسمية للبلاد . وقد أطلق رجال البوليس نيران مدافعين عندما حاول الطلبة اقتحام مركز البوليس . وصرح مسئول في حكومة «مدراس» بأنه صدور تعليمات إلى رجال الجيش الهندي بأن يكوزوا على استعداد للتدخل في أي وقت ، وقال إن الطلبة يلقون بأنفسهم على قضبان السكل الحديدة ليرغموا القطارات على الوقوف ، ثم يجبروا ركابها على التزول ؛ كما أحرقوا إحدى عربات القطار . وكان رجال البوليس قد قتلوا ستة طلاب آخرين خلال الاشتباكات التي نشبّت منذ أسبوعين للسب نفسه ، كما انتحر

ثلاثة أشخاص احتجاجاً على قرار الحكومة الهندية ، وأعتقل نحو ألف شخص معظمهم من الطلبة .

وفي يناير سنة ١٩٦٥ نشرت الصحف : (لا تزال الهند تعاني من نزاعها الداخلي الحاد الذي نشأ عن القرار الذي اتخذته الحكومة الهندية باعتبار « الهندستانية » اللغة الرسمية ، والتي تسبب حتى الآن في انتشار ثلاثة أشخاص . ولا تزال معظم مدارس هذه الولاية مغلقة بعد أن انتشرت خلال اليومين الماضيين أعمال العنف وإراقة الدماء . . . وقد طوق رجال البواليس مساكن الطلبة في المدارس والكلليات بعد أن أشعلوا النار في سيارات الأتوبيس المدرسية ، وق�햒وا المرافق العامة ومقر حزب الدستور الحاكم بالطوب . وجدير بالذكر أن اللغة الهندستانية في هذه الولاية التي يتكلّم أهلها لغة « التاميل » تعدّ لغة أجنبية ؛ وهذا يقول الطلبة إن فرض اللغة الهندستانية على الولاية ضرب من الاستعمار الهندي) وقد ذر البواليس بما لا يقل عن ٢٠٠ طالب في السجون ، كما اعتقل ألفين معظمهم يتسمى إلى الحزب الانفصالي الذي يعارض منذ مدة فرض اللغة الهندستانية على الولاية .

وفي فبراير من نفس العام عادت الصحف إلى نشر ما يلى (توقفت حركة المرور في « مدراس » بعد أن أعلن سائقو القطارات وسيارات التاكسي والأتوبيس الإضراب عن العمل في جميع أنحاء الولاية احتجاجاً على إحلال اللغة الهندستانية محل اللغة الإنجليزية كلغة رسمية ، كما أغلقت المحال التجارية والفنادق أبوابها تضامناً مع المصريين . وقد دعا زعيم العمال في منطقة « مدراس » عمال الموانئ و٣٥ ألف عامل في المصانع للإضراب عن العمل اليوم .

وانتحر اثنان آخرين من المواطنين في ولاية مدراس بإشعال النار في نفسها للسب نفسه ، وكان أحد الذين انتحرقا ناظراً لمدرسة ابتدائية والثاني مزارعاً . وقد وصل عدد الذين انتحروا في الولاية احتجاجاً على استخدام اللغة الهندستانية أربعة حتى الآن) . ثم تستمر الصحيفة في وصف المظاهرات وتدخل البواليس والجيش إلى أن تقول : (وقد احضر شاسرى رئيس وزراء الهند إلى التراجع

فأعلن في كلمة أذيعت في الراديو أن الحكومة لن تفرض اللغة الهندستانية كلغة رسمية على الولايات التي لا تتكلم فيها هذه اللغة ، وأن هذه الولايات تستطيع استخدام اللغة الإنجليزية بدلاً من اللغة الهندستانية) .

هذه هي الحال التي تواجهها الهند الآن من حيث المشاكل اللغوية . ومن العسير ، بل قل من الحال أن يستقر أمر القومية الهندية إلا بعلاج المشكلة اللغوية . ولا شك أن هذا يتطلب جهوداً متضافرة و زمناً طويلاً ، قبل أن يقال إنه قد أصبح للهند قومية متميزة ذات كيان مستقل ، تعمل على اجتناب الناس بعضهم إلى بعض ، وشعورهم بشعور واحد ، وتعاونهم على ما فيه الخير والرخاء لهم جميعاً . ذلك لأن دستور الهند الذي صدر سنة ١٩٥٠ قد نص على وقف استخدام اللغة الإنجليزية بعد خمسة عشر عاماً ، وعلى أن تحل اللغة الهندستانية محلها بوصفها لغة رسمية . غير أن عدد المتكلمين بالهندستانية لا يكادون يجاوزون ١٩٠ مليوناً من سكان الهند البالغ عددهم ٤٠٤ مليوناً . وفي الهند يجاذب اللغة الهندستانية عشرات من اللغات ومئات من اللهجات ، وأشهر لغاتها : السنكريتية ، والبالية ، والسهالية ، والبنغالية ، والمهراتية ، والبنجابية ، والسيجانية ، وتنتمي هذه اللغات إلى الفصيلة الكبرى المسماة بالهندية — الأوربية . كما بها لغات أخرى تنتمي إلى الفصيلة الدرافيدية أشهرها : التاميلية ، والكتارية ، والتلوجو .

فاللغة المحلية التي تشير الاضطرابات في منطقة « مدراس » هي التاميلية ، أو لغة « التامل » التي يتكلم بها نحو ٣٤ مليوناً لا تنت إلى الهندستانية بأية صلة . وتثير لغة « التامل » في جزيرة سيلان مشكلة كذلك ، فهي في صراع مستمر مع « السهالية » السائدة هناك ، وتوشك أن تقسم الجزيرة إلى منطقتين قوميتين . (الصراع بين لغة الملایو وللغة الصينية في ماليزيا وإعلان الأحكام العرفية في ١٥ / ٦٩ / ٥ انظر ص ٧٦) .

ونلحظ نفس الظاهرة بين دول أفريقيا المستقلة حديثاً . فبعد أن بدأ ظل الاستعمار يتغلب ومعه لغته من إنجليزية وفرنسية وغيرها ، شهدنا اللغات المحلية تُطلى برأسها وتثير العصبية بين أبناء هذه الدول ، وتدعو إلى حركات

الاقتصادية مؤسفة لا ندري مصيرها ، ولكننا نرجو مخلصين أن يتتبه لها القادة والزعماء في منظمة الوحدة الأفريقية . فليس الصراع الدموي الذي نشهده الآن في «نيجيريا» إلا مظهراً لصراع لغوي بين لغة «الهوسا» في شمال «نيجيريا» و«الإيبو» في جنوبها .

فاللغة وحدها هي أساس القومية ، فهي الحاذبة السحرية التي تمثلب قوماً من الناس بعضهم إلى بعض ، و يجعلهم يشعرون بشعور واحد ، ويحسون بكلائهم وتميزهم عن غيرهم .

خذ مثلاً جزيرة «قبرص» التي يسكنها منذ زمن طويل جماعات من الناس تضمهم أرض واحدة ، ومصالحهم الاقتصادية مشتركة ، وفي صلاح أمر الجزيرة واستقرار الرخاء والأمن فيها خيرهم جميعاً . ومع هذا نشهد الآن صراعاً بين فريقين في هذه الجزيرة الصغيرة ، ولا مسوغ له إلا وجود لغتين مختلفتين هما اللغة التركية واليونانية .

بل حذ «كندا» مثلاً واضحاً لما تشير اللغة من مشاكل في الدولة الواحدة فيها المتكلمون باللغة الإنجليزية الذين يؤمنون معظم السكان . وبها المتكلمون بالفرنسية الذين أصبحوا في حدود ثلث مجموع الشعب الكندي ، وتركز هذه الأقلية الفرنسية في مقاطعة «كويبيك» التي أصبحت الآن أشبه بجزيرة فرنسية وسط محيط من المتكلمين بالإنجليزية . فهي في شبه عزلة عن «فرنسا» التي يسمونها بالوطن الأم . وترتبط على ذلك اختلاف في مستوى المعيشة بين الكندي البريطاني والكندي الفرنسي . فالمواصف الرئيسية في الدولة تكاد تكون مقصورة على المتكلمين بالإنجليزية ، في حين أن أبناء الطائفة الفرنسية لا يسمح لهم بالتعيين في الوظائف العامة إلا إذا توفر فيهم شرط إجاده اللغة الإنجليزية . أما الذين من أصل بريطاني فلا يختلفون بتعلم الفرنسية ، بل حتى إذا تصادف أن لم يها أحددهم زراه يستنكف من التحدث بها إلى مواطنيه الفرنسيين ، ويصر على مخاطبهم بالإنجليزية . و«كويبيك» الآن هي المقاطعة الوحيدة في كندا التي تستخدم فيها اللغتان الإنجليزية والفرنسية بوصفها لغتين رسميتين . أما

سائر المقاطعات فيقتصر فيها على الإنجليزية كلغة رسمية . وتعمل فرنسا الآن على تشجيع الكنديين الفرنسيين ، في حين أن بريطانيا والولايات المتحدة يعملان على تشجيع المتكلمين بالإنجليزية . وقد يبلغ التوتر الداخلي في كندا حدا يثير بقيام ثورة انفصالية شاملة في مقاطعة « كويبيك » من أجل استقلالها وانفصالها تدريجياً عن كندا .

دعنا بعد هذا نشير في تفصيل إلى المشاكل التي أثارتها اللغة في قوميات أوروبا بعد أن مر على نشوء هذه القوميات ما يقرب من قرنين ، وبعد أن شهدت حربين عالميتين ومع هذا فلا تزال قائمة تذر بالحروب والصراع الدموي . بل حتى التي يُظن من هذه المشاكل أنها سُويت واستقرت ، فيبدو أن التسوية قد تحملت على دخل ، وتحت ضغط الدول الكبرى ، وأنها تكمن الآن مرصدة تتحقق الفرصة المواتية لثور ثانية وهدد السلام في كثير من مناطق أوروبا .

أولاً — الحدود بين فرنسا وإيطاليا :

قبيل الحرب العالمية الثانية دوت في العالم نداءات مصدرها الفاشية الطموحة في إيطاليا تطالب بتعديل الحدود بين إيطاليا وفرنسا . وبلغ الحساس ذروته بين الجماهير الإيطالية حين طالبت بعض الصحف باستعادة « نيس » ، « سافوا » ، و « كورسيكا » من فرنسا . ذلك لأن « نيس » ، « سافوا » تركتا فرنسا سنة ١٨٦٠ كشرط من شروط تلك الصفقة السياسية التي عقدت بين نابليون الثالث والزعيم الإيطالي « كافور » ، غير أن فرنسا لم تقم بتنفيذ جميع الشروط ، ولم تف بكل التزاماتها في هذه الصفقة . أى أن أساس المطالبة الإيطالية كان في ظاهره أساساً تاريخياً . وتجاهلت إيطاليا ذلك الاستثناء الذي أجرته فرنسا حيث ذكر هاتين المنطقتين وكانت تبغيه رغبة الأهالي في الانضمام إلى فرنسا ، لأن مثل هذا الاستثناء كان في رأي موسوليني وأتباعه محل ريبة وشك . ولكن موقف فرنسا من هاتين المنطقتين اكتسب مع الزمن تدعيماً وقوة ، لأن السكان بهما أصبحوا يتكلمون الفرنسية ، فصاروا بهذا جزءاً من

القومية الفرنسية . ولا تحدد القوميات على أساس الأوضاع التاريخية ، فالعبرة بما صارت إليه المنطقة ، لا بما كانت عليه . ولذلك لم ينظر إلى هذه المطالبة نظرة جدية في أوائل الحرب العالمية الثانية ، وإيطاليًا في أوج غطرستها . في المدينة التي عقدت مع فرنسا سنة ١٩٤٠ لم تحتمل إيطاليًا « نيس » أو « سافوا » اللتين طالما فادت بتأييدهما فيما :

وألا خرجت إيطاليًا من الحرب مهزومة مدحورة لم تطالب فرنسا إلا ببعض التعديل في الحدود الشرقية ، على ساحل « الريفيرا » حيث يتكلم السكان الفرنسيون وحدهما . وركزت فرنسا مطالبيها بعد الحرب على مناطق استراتيجية في الجانب الإيطالي من جبال الألب ، فيها القوى المائية والقوى الكهربائية المولدة عنها . وأرسل الحلفاء المنتصرون ثلاثة من الخبراء لتبيّن رغبات الأهالي في هذه المناطق ، فوجدت اللجنة أنهم يتكلمون لهجة قرية من الفرنسية والإيطالية ، وأنهم لذلك غير متخصصين للانضمام إلى فرنسا أو إيطاليًا . ومع هذا رضخت الدول المنتصرة إلى المطالب الفرنسية ، على أن تضمن فرنسا المصالح الإيطالية وحقها في استغلال القوى المائية و المياه الأنهار المنحدرة صوب إيطاليًا وتأيدت هذا في معاهدة الصلح سنة ١٩٤٧ . وهكذا نرى أن مشكلة الحدود بين فرنسا وإيطاليًا ليست في حقيقة أمرها إلا مشكلة لغوية أو قومية . ولأن استمر على حال في مستقبل الأيام مالم تخاطط على هذا الأساس وحده .

ثانيًا — الألزاس واللورين :

ضُمِّت هاتان المقاطعتان إلى فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر . يرغبهما أن غالبية السكان في الألزاس لا يتكلمون إلا الألمانية وحدها . أما في منطقة اللورين فكانت اللغة الألمانية تسود في جهاتها الشرقية ، في حين أن الفرنسية كانت تسود في الغرب منها . ولا كان ذاتين المنطبقتين أهمية اقتصادية كبيرة تطلعت إليها الدولتان الكبيرتان المنافستان . فلما هزمت فرنسا في حرب السبعين استولت ألمانيا على المقاطعتين على أساس أن اللغة الألمانية هي السائدة

في معظم الأنجاء بهما. ثم تبدلت الحال بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، واستعادت فرنسا المقاطعتين العزيزتين ، غير أنها في غباء وسوء فهم للشعور القوي بين السكان قد عملت جاهدة على زيادة نفوذها وثقافتها بينهم ، فحاولت تغيير لغة الأهالي وحظر تعليم اللغة الألمانية . وعارض سكان الألزاس ذلك في قوة وأصرار ، مما اضطرت معه الحكومة الفرنسية إلى الاعتراف ببعض ازدواج اللغة في الإقليم .

ثم قامت الحرب العالمية الثانية ، ونجحت ألمانيا في أوائل الحرب في ضم المقاطعتين لأراضيها ، ولكن الفدر أ. إلارهزيم «ألمانيا» ثانية في هذه الحرب العالمية ، وعادته المقاطعتان إلى فرنسا ، ولا تزال مشكلتهما من أعقد المشكلات الأوروبية : لأنها لم تخطط على الأساس اللغوي القوي ، وستظل مثار التنازع بين الدولتين إلى أن تقوم بينهما الرغبة الصادقة في تسويتها على هذا الأساس وحده .

ثالثاً - منطقة السار :

منطقة ذات أهمية اقتصادية كبيرة تطلعت إليها فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى . وحاولت ضمها إلى أراضيها . برغم أن الأهالي بها لا يتكلمون إلا الألمانية . ولكن الحلقات في معاهدة فرساي سنة ١٩١٩ قرروا وضع هذه المنطقة تحت إشراف عصبة الأمم لمدة ١٥ سنة : يجري بعدها استفتاء عام ليقرر السكان ما إذا كانوا يرغبون في العودة إلى القومية الألمانية ، أو الانضمام نهائياً إلى فرنسا . ومررت مشكلة «السار» في مراحل ثلاثة :

١ - من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٣٥ كانت المنطقة تحت إشراف عصبة الأمم .

٢ - في سنة ١٩٣٥ أجري استفتاء عام ، وأسفرت نتيجته عن رغبة الكثرة الغالبة من السكان في العودة إلى ألمانيا .

٣ - بعد الحرب العالمية الثانية نظمت العلاقات بين فرنسا و«السار» بمحض اتفاقية وقعت سنة ١٩٥٠ : فيها منح «السار» استقلالاً ذاتياً في

التشريع والإدارة ، على أن تكون فرنسا مسؤولة عن سياساته الخارجية ، وأن يكون هناك اتحاد اقتصادي جمركي ون כדי بين «السار» وفرنسا .

ثم كان الاستفتاء العام بين أهالي «السار» سنة ١٩٥٥ ، وصوت الأهالي ضد وضع المنطقة تحت الإشراف الدولي . وكان في هذا الدليل الخامس على تفاصير السكان من السيطرة الفرنسية ، ولا سيما بعد استقلال ألمانيا الغربية . ولم تجد فرنسا وحلفاؤها بدأً من عودة هذه المنطقة إلى القومية الألمانية ، وتم هذا تدريجياً سنة ١٩٥٩ ، لسبب بسيط واضح هو أن الأهالي لا يتكلمون إلا اللغة الألمانية : وليس يجدرى مع تمسك الأهالي بلغتهم أو قوميتهم ، تلك الضغوط السياسية التي قد تهوم بها الدول الكبرى^(١) .

رابعاً – دوقة «لوكسمبورج» :

تمثل هذه المنطقة أدق تمثيل مجال الانتقال بين فرنسا وألمانيا ، إذ تسود فيها اللغة الألمانية ، ولكنها مع هذا تتأثر إلى حد بعيد بالثقافة الفرنسية . ويبعد أن الدول الكبرى خلال القرن التاسع عشر أرادت أن تجعل من هذه الدوقية منطقة حياد . أو ما يسمى بالدولة الحاجزة Buffer State . ليحول دون توقع الصدام بين ألمانيا وفرنسا . ولكن هذا الحياد قد خرق مرتين في الخريجين العاملين . فاستغلت ألمانيا أراضي «لوكسمبورج» في الهجوم على فرنسا وتحطيم خط «ماجيتو» أو تقويضه .

وفي أوائل الحرب العالمية الثانية أعلنت ألمانياضم «لوكسمبورج» إلى «الريخ» الألماني أو القومية الألمانية ، على أساس أن الأهالي بهذه المنطقة لا يتكلمون إلا الألمانية ، ولكنها تحررت من جديد في نهاية الحرب ، غير أن فرنسا لم تحاول المطالبة بهذه الدوقية بعد الحرب . أو ضمها إليها ، فقد وجدت من تجاربها في مناطق أخرى أن لا جدوى من القضاء على اللغة الألمانية أو القومية الألمانية : ففتحت بجهازها وشاركتها مع دول الحلفاء في أوروبا في السوق الأوروبية .

(١) مشكلات الخدمة السياسية ص ٣٦٨ ملديكتور محمد فائق عقيل .

ولكن « لوکسمبورج » تواجه الآن مستقبلاً مظلماً تكتنفه الشكوك والريب ، وستظل تشكل مشكلة من مشاكل الحدود ، لأنها جزء من القومية الألمانية اقتطع منها ، وستطالب به ألمانيا في أول فرصة تناح لها . وكل هنا لأن السكان بها لا يتكلمون إلا اللغة الألمانية ، فلا يدينون إلا إلى القومية الألمانية . وأغلبظن أنه لو أجري هناك استفتاء عايد لطالب السكان بقوميتهم المسلوبة ، والانضمام إلى إخوانهم الشعور والأحساس المشتركة التي وعاوها ولا شك اللغة الألمانية .

خامساً—مشكلة يوبن Eupen ومالميدي Malmedy :

هاتان مقاطعتان على حدود ألمانيا وبلجيكا كانتا تابعتين لألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ، وطالبت بهما بلجيكا بعد الحرب على أساس أن معظم السكان بهما يتكلمون اللغة الفرنسية إحدى اللغتين الرسميتين في بلجيكا . ووافقت دول الحلفاء على مطالب بلجيكا . وضحت « يوبن » ، « مالميدي » إلى بلجيكا ، برغم أن بهما جالية كبيرة لا تتكلم إلا الألمانية . ثم واجهت بلجيكا صعوبات كبيرة بسبب هذا الفضي : لأن العناصر الألمانية بالمنطقة قد رغبت في العودة إلى ألمانيا . ولما كانت الحرب العالمية الثانية وغزت ألمانيا بلجيكا خضت إقليمي « يوبن » ، « مالميدي » إلى الريخ الألماني سنة ١٩٤٠ ، ولكنها أعيدتا إلى بلجيكا في إثر نهاية الحرب . وبرى بعض الساسة من البلجيكيين أنه إذا أريد الاستقرار في هذه المنطقة ، وجب طرد الألمان منها وإحلال عناصر بلجيكية محلهم وإلا فسوف تتجدد المشكلة .

ولكن بلجيكا نفسها التي تطالب بهذه المنطقة على أساس اللغة ، أو ما يسمى بحق تحرير المصير ، تواجه الآن مشكلة من أعقد المشاكل هي سيادة لغتين في هذه الدولة الصغيرة : اللغة الفلامنكية واللغة الفرنسية . وتتحذ بلجيكا عادة مثلاً لإمكان تأسيس الدولة على لغتين مختلفتين . وقد أشرنا آنفاً إلى الأسباب التي ساعدت على تماستك الدولة البلجيكية حتى الآن ، غير أن مستقبل بلجيكا ينذر بالخطر ، وتوشك أن تشعب إلى قوميتين ، وربما انفصلت

إحداها عن الأخرى ، واستقلت استقلالاً ذاتياً في مستقبل الأيام وذلك بسبب الصراع القائم الآن بين اللغتين الفلمنكية والفرنسية . فبرغم أن المجلس التأسيسي قد قرر أن تكون اللتان متساويتين في حق الاستعمال ، إلا أن هذا القرار يبيّن منذ ذلك الحين حبراً على ورق ، لأن اللغة الفرنسية ظلت لغة العلم والثقافة في جميع أنحاء البلاد ، في حين أن « الفلمنكية » اقتصر أمرها على لغة كلام بين أهلها .

وحاول أبناء اللغة الفرنسية ، أو أصحاب القومية الفرنسية ، فرض هذه اللغة في الدواوين والمدارس رجاءً أن تنتظم كل أنحاء بلجيكا ، غير أن اللغة الفلمنكية أو القومية الفلمنكية عارضت هذا وأثبتت وجودها ، وعملت على دعم كيانها . فألف بعض أبناء هذه اللغة سلسلة طريقة من الأشعار والقصص والروايات وأصبحت الفلمنكية لغة أدب وثقافة أيضاً .

وبدأت بلجيكا استقلالها بأن جعلت اللغة الفرنسية وحدها اللغة الرسمية بلاد ، وأدى هذا إلى حرمان أبناء اللغة الأخرى من تولي الوظائف والمساهمة في الأعمال الحكومية . كما أدى إلى صعوبة التفاهم بين الموظفين الذين لا يعرفون غير الفرنسية ، وأصحاب المصالح وال الحاجات من لا يعرفون غير الفلمنكية . بذلك ثار أبناء الفلمنكية وتذمروا من هذا الوضع المجحف بحقوقهم ، وبدأت هذه الحركة القومية تبلور ، وتنفذ شكلًا منظاماً منذ سنة ١٨٤٠ . واضطرت حكومة البلجيكيّة في سنة ١٨٥٦ إلى تأليف لجنة لدراسة مطالب أبناء الفلمنكية أو القومية الفلمنكية ، واقررت اللجنة عدة اقتراحات منها :

(أ) أن اللغة الفلمنكية يجب أن تكون لغة التعليم في جميع المناطق التي يتكلّم أهلها هذه اللغة ، وأن جامعة « غاند » يجب أن تحول إلى جامعة فلمنكية .

(ب) أن القوانين يجب أن تنشر باللغتين ، وعلى القضاة والمحامين والpoliticians السياسيين أن يسيطرّوا عليها .

(ج) أن الجيش يجب أن يقسم إلى كتائب بعضها من المتكلمين بالفرنسية والبعض الآخر من المتكلمين بالفلمنكية.

ولكن الحكومة البلجيكية ظلت تملأ في تنفيذ هذه الاقتراحات حتى سنة ١٨٧٨، ثم أخذت تستجيب لها شيئاً فشيئاً، فسمحت أولاً بأن تكون البلاغات الرسمية والراسلات الإدارية باللغة الفلمنكية في المناطق التي تسود فيها هذه اللغة. ثم سمحت بأن تصبح الفلمنكية لغة التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية بهذه المناطق. وأخيراً سمحت أن تكون التشريعات والقوانين باللغتين، وأن يكون ضباط الجيش ملمين باللغتين.

ولكن أبناء اللغة الفلمنكية لم يقنعوا بذلك الخطوات. وظلوا حتى الآن يطالبون بخطوات أخرى أكثر تحقيقاً لقوميّهم، ودعاً لكتابتها. ويكون أن نقرأ ما ينشر بالصحف العالمية في هذه الأيام يصادف هذه المشكلة، لندرك أن مشكلة اللغة أو القومية في بلجيكا تعد الآن في الحقيقة رواية لم تتم فصولاً.

في أكتوبر سنة ١٩٦٢ كتبت صحفنا ما نصه: «معارك عنصرية في بروكسل بين المتحدين بالفرنسية والمتحدثين بالفلمنكية». اضطر الرئيس البلجيكي اليوم إلى استخدام العصى العنيفة لغض المعارك التي وقعت بين البلجيكيين الذين يتحدثون بالفرنسية، وعشرات الآلاف من إخوانهم الذين يتحدثون بالفلمنكية. وقد قام أبناء الفلمنكية بالزحف على «بروكسل» للمطالبة بالمساواة في الحقوق، في الوقت الذي قامت فيه مظاهره مضادة من أبناء الفرنسية. واشتبك الفريقان في معركة تدخل فيها البوليس: واعتقل عدد كبير من البلجيكيين، وأصيب عدد آخر. وقد امتلأت الشوارع بالأحجار والمسامير، وظللت مكبرات الصوت تدوّي في المدينة طول الليل، وتندى أبناء اللغة الفرنسية ليجتمعوا للدفاع عن العاصمة».

وفي مايو سنة ١٩٦٥ نشرت الصحف أيضاً بعنوان «خطر المآذعات في بلجيكا بسبب اللغتين الفرنسية والفلمنكية يتجدد ثانية»، ثم ذكرت الصحيفة أن الانتصارات المذهلة التي ظهرت بها الجماعات السياسية في الانتخابات

البرلانية التي جرت يوم الأحد الماضي أدت إلى اشتداد الخوف من أن تتجدد المنازعات بين البلجيكيين الذين يخاطبون بالفرنسية ، وأولئك الذين يتكلمون اللغة الفلمنكية . فقد تحولت المنازعات فيما مضى إلى معارك دامية بين الفريقين ولم تهدأ الحال إلا بعد أن أصدرت الحكومة الاشتلافية قانوناً بشأن استعمال اللغتين ، قبله الفريقان على مضض ، ومن ثم اتفقا على المهادة . غير أن حزب الحرية والتقدم وهو الحزب المحافظ ، قد كسب في الانتخابات عشرين مقعداً جديداً . وكان هذا الحزب يدعوا في أثناء المعركة الانتخابية إلى الحرية اللغوية في كل أنحاء البلاد . ولا تعني هذه الدعوة إلا رفض القانون الذي صدر في العام الماضي ، ويقضي بأن تكون اللغة الفلمنكية اللغة الرسمية في شمال البلاد ، وأن تكون اللغة الفرنسية اللغة الرسمية في الجنوب ، وأن تستخدم اللغتان رسمياً في العاصمة بروكسل . وقد ظهرت الجماعات المتطرفة التي تريد تقسيم بلجيكا إلى دولتين لكل منها استقلالها الثاني ، بعدد لا يستهان به من المقاعد في الانتخابات هي الأخرى . ومن ثم يتوقع المراقبون السياسيون أن تتجدد المنازعات حول اللغتين الفرنسية والفلمنكية .

فهل يقال بعد هذا إن بلجيكا استقرت فيها الفرمي برغم اختلاف اللغة بين أبنائها ؟ إن بلجيكا تعد في الحقيقة مثلاً ارتفاعاً لقوة الارتباط بين اللغة والقومية فلم يعن عنها أن أرضها مشتركة ، وأن مصالحها الاقتصادية مشتركة ، بل ولا تاريخها المشترك . ولأمر ما لم تشر منازعات في الحدود الجنوبية لبلجيكا ، ذلك لأنها حدود مصنوعة بين لغة واحدة وقومية واحدة ، وليس من المبالغة أن يقال إن خط الحدود بين فرنسا وبلجيكا ليس له أى مسوغ من الناحية الطبيعية أو البشرية .

سادساً - أيرلندا :

نعرض الجزء البريطاني في تاريخها الحافل لغزوات من أوروبا تمثل في الأنجلو ساكسون أولاً في القرنين الخامس والسادس من الميلاد . ثم الغزو

النورماندي في القرن الحادى عشر . ولم يكُن يتصف القرن السادس عشر من الميلاد حتى كان شأن اللغة الإنجليزية أو القومية الإنجليزية ، قد استقر على حال تتمثل في آثار شكسبير وفي الترجمة المعتمدة للكتاب المقدس . وظلت هذه اللغة في صعود حتى الوقت الحالى ، إذ يتكلم بها في العالم الآن ما ينافى على ٢٨٠ مليوناً ، في مناطق متباينة من العالم الحديث ، وقد حلّت اللغة الإنجليزية محلّ لغة قديمة كانت تسود تلك الجزائر البريطانية ، هي اللغة « الكلتية » . ثم لما كان الغزو النورماندي طعمت اللغة الإنجليزية بكثير من الألفاظ والتركيب الفرنسي . فلما اكتمل للإنجليزية نموها وازدهارها ، وأصبحت تشكل لغة متميزة ذات أدب وفلسفة وثقافة ، نشأ ما يسمى بالقومية الإنجليزية . وكان من أثر الصراع بين الإنجليزية الغازية والكلتية المغروبة ، أن تغيرت الأخيرة إلى أماكن معزولة في أسكوتلند وويلز وأيرلندا . ولا تزال فروعها سائدة في بعض هذه المناطق حتى الآن . غير أن المتكلمين بها في أسكوتلند وويلز أصبحوا الآن من القلة بحيث لا يكادون يشكلون خطراً أو ما يشبه الخطر على القومية الإنجليزية . أما في إيرلندا فقد التجأت إليها العناصر القديمة التي احتفظت بصفاتها الجنسية وخصائصها الثقافية . أو بعبارة أخرى احتفظت باللغة « الكلتية » ، القديمة أو ما تفرع منها ، وعلى أساس هذا وحده تكونت القومية الإيرلندية التي ظلت مثار النزاع والصراع الدموي حتى استقلت في السينين الأخيرتين .

وبعد الكفاح المührير أصدر البرلمان البريطاني سنة ١٩١٤ قراراً يمنع الحكم الذاتي لأيرلندا ، ولكن هذا المشروع تأجل مؤقتاً بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى . فلما انتهت الحرب أخذ أهل أيرلندا يجاهرون بوجوب تطبيق مبدأ حق تقرير المصير ، وطالب القوميون منهم بزعامة « دى فاليرا » بالاستقلال التام ، كما طالبوا بشمال أيرلندا المسمى « ألسْتَر » Ulster ، وهو المنطقة التي تبحث بريطانيا في عزها عن سائر أنحاء « أيرلندا » بعملية تهجير واسعة النطاق من العناصر الإنجليزية الذين استقروا بها ومعهم لغتهم . واضطررت بريطانيا سنة ١٩٢١ إلى الاعتراف بقيام دولة أيرلندا الحرة على أن تظل داخل

مجموعة الأمم البريطانية ، بينما ظلت «أستر» جزءاً من المملكة المتحدة . ثم تكونت في أيرلندا منظمة سرية عرفت باسم الجيش الأيرلندي الثوري ، بنت سياستها على العنف والتغريب والإرهاب لتحقيق ما تصبو إليه من ضم «أستر» إلى «أيرلندا» ، وفصلها عن المملكة المتحدة .

وفي الحرب العالمية الثانية وقفت أيرلندا الخرة على الحياد ، بل مالت إلى مساندة دول المحور . وكلف هذا الموقف دول الحلفاء ثمناً غالياً ، فقد كانت «أيرلندا» ميداناً للحاسمية دول المحور . وفي سنة ١٩٤٨ أعلن الانفصال التام بين جمهورية أيرلندا وبريطانيا ، وخرجت أيرلندا من الكونفدرالية البريطانية ، وما زالت جمهورية أيرلندا ترفضبقاء منطقة «أستر» منفصلة عنها ، وتطالب بتوحيد الجزيرة كلها .

وليس لكل هذا الصراع من سرّ سوى اختلاف اللغتين الإنجليزية «والكلتية» ، التي تسود معظم مناطق أيرلندا ، وتشكل قومية أيرلندية متميزة . فهل أجدى إزاء هذا المصالح الاقتصادية المشتركة بين هذه الجزر؟ وهل أجدى إزاء هذا وحدة الجزر من الناحية المغارافية؟ إن عجز اللغة الإنجليزية عن غزو الكلتية في أيرلندا والقضاء عليها : أو إن شئت قلت إن عجز أهالي أيرلندا عن السيطرة على اللغة الإنجليزية : وأدائهم ذلك في لكتة متميزة ظلت محل السخرية بين الإنجليز زمناً طويلاً ، كل هذا أدى إلى أن تكونت للفريقين مانسميه بعقدة اللغة ، وهي على الحاتم الإنجليزي عقدة التفوق ، وعلى الحاتم الأيرلندي عقدة التقص ، وهكذا صمدت اللغة الكلتية في معظم أنحاء أيرلندا ، وعلى أساسها تكونت القومية الأيرلندية . واللغة الكلتية هي لغة شعب من الجنس الآري يرجع وجوده في أوروبا إلى عصور ما قبل التاريخ . سكن أولاً أوروبا الوسطى ثم بلاد الغال (فرنسا) ، وأسبانيا ، ثم الجزر البريطانية . ولكن هذه اللغة اندثرت من أوروبا مخلفة جيوباً صغيرة ضئيلة الشأن في «بريتوني» ، وحل محلها فروع اللغة اللاتينية كالفرنسية والأسبانية . فلو قد نجحت اللغة الإنجليزية بأيرلندا فيما نجحت فيه اللغة الفرنسية في بلاد الغال ، لما شهدنا الآن ما يسمى بالمشكلة الأيرلندية .

سابعاً - مشكلة شلزفيج : Schleswig :

كانت هذه الدوقية جزءاً من أراضي الناج الدنمركي منذ أكثر من ستة قرون . ثم هاجر الألمان إليها ومعهم لغتهم ، وأصبحوا الأغلبية في الجنوب من هذه الدوقية . وأبدى هؤلاء الألمان رغبة ملحة في الانحاد مع ألمانيا ، وتم لهم ذلك على أيدي بروسيا والنمسا في حرب سنة ١٨٦٤ . فقد غزتا دوقية « شلزفيج » واستولتها على قسمها الشمالي والجنوبي دون اعتبار لرغبات السكان في الشمال وهم من الدنمركيين . وظلت بروسيا والنمسا تحكمان معاً هذه الدوقية إلى أن تنازلت النمسا عن حقوقها فيها لبروسيا سنة ١٨٦٦ : وحيثذ بدأ عهد جديد عملت فيه ألمانيا على صبغ الإقليم بالصبغة الألمانية . ولما هزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى جدد أهالي الشمال من هذه الدوقية مطالبهم بالانضمام إلى الدنمارك على أساس حق تقرير المصير . وأجري استفتاء عام في هذه الدوقية سنة ١٩٢٠ كانت نتيجته أن سكان الشمال وهم الذين يتكلمون الدنمركية أبدوا رغبهم في الانضمام إلى الدنمارك؛ في حين أن سكان الجنوب وهم المتكلمون بالألمانية أبدوا رغبهم في الانضمام إلى ألمانيا .

ثامناً - فنلندا :

وقدت هذه الدولة الصغيرة تحت حكم السويد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد ، وبقيت في قبضة السويد حتى استولت عليها روسيا في أوائل القرن التاسع عشر . وظلت ترثح تحت نير القياصرة الروسي إلى قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى حين ثارت للتخلص من السيطرة الروسية . وأُنست جمهورية مستقلة سنة ١٩١٧ . واحتفظت فنلندا باستقلالها وكيانها القومي منذ ذلك الحين ، برغم أطماع ألمانيا وروسيا خلال الحرب العالمية الثانية ، فلم تفك روسيا السوفيتية بعد الحرب في ضم هذه المنطقة إلى أراضيها ؛ بل اعترفت بالكيان финلندي أو القومية الفنلندية في معظم الحدود التي كانت لها قبل الحرب^(١).

فإذا ساءلنا كيف صمدت فنلندا الصغيرة لتحدي روسيا خلال الحرب الأخيرة وبعدها ، تبين لنا أن فنلندا تسودها قومية متميزة ، ممثلة في لغة مختلف كل الاختلاف عن كل اللغات التي تحويط بها ، كالسويدية والروسية والألمانية . فاللغة الفينيقية تمت إلى فصيلة لغوية تعرف باسم « الفينيقية - الأجرية » التي منها لغة « المجري » . ولغات هذه الفصيلة لا ترتبط بلغات أوروبا بأية صلة . . وهذا هو السر الحقيقي في تميز القومية الفنلندية وبقاؤها عبر القرون صامدة إزاء تحديات الدول الكبرى التي تحويط بها . فهل هناك مثل أروع من هنا للدلالة على أن أساس الأساس في القومية هو اللغة ؟ وأقرب القوميات شبهـاً بالقومية الفنلندية فيها يحيط بفنلندا من مناطق ، هي القومية التي في جمهورية « أستونيا » ، ذلك لأن اللغة « الفينيقية » هي لغة « أستونيا » أيضاً ، ولا ندري سبباً لفصل بين فنلندا وأستونيا وما متجلورتان ، ومتجللتان في اللغة أو القومية ، إلا حين تذكر أطماء الدول الكبرى ، وسياساتها الحمقاء في الفصل بين أجزاء القومية الواحدة : لأغراض توسيعية أو استراتيجية . فالقرب من « أستونيا » قوميتان صغيرتان آخرتان هما القومية « اللاتينية » والقومية « اللتوانية » ، واكل منها لغتها المتميزة . وكل من اللغة اللاتينية واللتوانية يمثل مجموعة لغوية تُعرف بالجماعة الباطنية أو البلطيقية ، وهي إحدىمجموعات تلك الفصيلة الكبرى التي يطلق عليها أختبارية - الأوربية ، والتي يتسمى إليها معظم لغات أوروبا . وقد تطورت اللغة اللاتينية ، وطبعت بها نصوص في منتصف القرن السادس عشر ، ثم أصبحت لغة قومية ذات أدب وتراث منذ منتصف القرن التاسع عشر . أما اللغة اللتوانية فقد استرعت انتباه اللغويين المحدثين ، لأنها لا تزال تحفظ بخصائص قديمة للفصيلة الكبرى أكثر من أي لغة أوروبية أخرى . وقد نشر بها بعض الكتب الدينية في منتصف القرن السادس عشر ، وأصبحت لغة قومية ذات أدب وتراث في القرن التاسع عشر .

لا غرابة إذن في أن الخلفاء بعد الحرب العالمية الأولى قد اعترفوا بهاتين المنطقتين بوصفهما قوميتين متميزتين ، ففتحتا الاستقلال على أساس مبدأ حرية تقرير المصير .

ولكن هذه الجمهوريات الثلاث الصغيرة على بحر البلطيق ظلت مجالاً لأطماع الألمان والروس خلال الحرب العالمية الثانية . وانتهى أمرها بعد الحرب بأن خرجت من عداد الدول المستقلة ، واحتفت من الخريطة السياسية لأوروبا ، ولكن إلى حين ، فستظل القومية بكل منها مثار التزاع ما بقيت لغاتها الثلاث صامدة . وهي الآن خاضعة لروسيا ، بل خُضِّت إلى أراضيها بعد استفتاء عام أجرته روسيا ، وقيل إن نتيجته كانت ٩٩٪ في صالح الحزب الشيوعي ، مما يشكك في حرية هذا الاستفتاء . وترتب على الاستفتاء أن المجالس التشريعية ، في هذه الجمهوريات قررت المطالبة بالانضمام إلى الاتحاد السوفيتي ، ووافقت روسيا على هذا الطلب : وأعلن وزير خارجيها مولوتوف في مجلس السوقية الأعلىضم أستونيا ولاتفيا ولتوانيا إلى الاتحاد السوفيتي بناء على طلبها . . . واعترفت بريطانيا بهذاضم على أساس أنه الأمر الواقع ، غير أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تزال تأبى الاعتراف به حتى الآن .

واسعاً — حدود بولندا :

تلك هي المشكلة المزمنة في أوروبا . وقد أشرنا آنفًا إلى القومية البولندية ودور اللغة فيها . وقد ظلت حدود بولندا ما يجاوز ألف سنة تشكل مشكلة كبرى واجهت دول أوروبا الوسطى ، وتعرضت تلك الحدود لكثير من التغيرات نتيجة الضغوط السياسية والعسكرية من جانب الدول المجاورة لها .

وقد حدث خلال ما بين الحربين العالميين أنه نجحت بولندا إبان قوتها ، في الوصول إلى البحر البلطيق ، فعزلت بعض الجماعات الألمانية في الشرق عن إخواهم في الغرب ، مما أدى إلى السبب المباشر في إشعال الحرب العالمية الثانية .

وقد تعرضت بولندا خلال تاريخها الطويل لبعض الغزوات والاعتداءات من الدول الكبرى المجاورة لها ، ولكنها برغم هذا ظلت تحفظ بوحدتها اللغوية والقومية .

وفي القرن الثامن عشر زاد ضغط الألمان على حدودها الغربية ، وضغط الروس على حدودها الشرقية ، وكادت بولندا تزول من الوجود بوصفها دولة مستقلة ، فقد قُسمت أراضيها بين روسيا وبروسيا والنمسا . وعملت هذه الدول الثلاث على تحطيم الروح القومية في بولندا ، ففرضت لغاتها وثقافتها على الشعب البولندي . ثم لم تكتمل تنهي الحرب العالمية الأولى حتى شهدنا القومية البولندية المكتوبة تنفيج كالبركان ، وعادت بولندا إلى سابق عهدها ، وأُسست جمهورية جديدة سنة ١٩١٨ . وقرر مؤتمر الصلح في باريس سنة ١٩١٩ : جعل الحدود الغربية والجنوبية لبولندا على أساس التوزيع اللغوي بصفة عامة ، وفصل بين الأغلبية البولندية على جانب والأغلبية الألمانية أو التشيكوسلوفاكية على الجانب الآخر . أما على الجانب الغربي فلم يكن هناك خط واضح يفصل الألمان عن البولنديين ، وكان الحد بينهما في تلك المنطقة حدًا بشرىًّا أو لغويًّا وليس حدًا جغرافيًّا طبيعىًّا . ورأت دول الحلفاء حيثُد ، وفي غباء وسوء تقدير ، ضرورة اتصال بولندا بالبحر البلطي ، وبذلك خلقت مشكلة الممر البولندي و « دانزيرج » التي كانت السبب المباشر في الحرب العالمية الثانية . ذلك لأن « دانزيرج » كانت مدينة مأهولة صرفة بلغت نسبة الألمان بها نحو ٩٠٪ . واستيلاء « بولندا » عليها يتنافى مع حق تقرير المصير . ولذلك وضعها الحلفاء مؤقتًا تحت إشراف عصبة الأمم . أما حدودها الشرقية فقد تركت لتفق عليهما بولندا مع روسيا . واقتراح الحلفاء سنة ١٩١٩ خطأً فاصلاً بين الدولتين على أساس لغوي بحث هو ما يعرف بخط « كرزون » .

وهكذا أصبحت حدود بولندا بعد الحرب العالمية الأولى تتضم ست دول هي « لاتفيا » ، « ليتوانيا » ، وألمانيا ، والاتحاد السوفيتي ، ورومانيا ، وتشيكوسلوفاكيا . وقد كانت الأطماع البولندية حيثُد سبباً في توسيع رقعتها ، وامتدادها خارج نواتها القومية ، مما خلق لها مشكلات الأقليات في أراضيها ، وأدى إلى نزاع سياسي خطير فيها بعد .

فلما قامت الحرب العالمية الثانية غزت النازية بولندا : ثم لم تلبث أن

قسمت أراضيها بين ألمانيا وروسيا بمقتضى اتفاق تم بين وزير خارجية ألمانيا «رويشروب» ووزير خارجية روسيا «مولوتوف» سنة ١٩٤٠. ثم عدلت حدودها بعد الحرب تعديلاً بعيداً عن التوزيع اللغوي أو حق تقرير المصير، مما سيؤدي حتماً إلى إثارة القومية البولندية في المستقبل. ذلك لأن اللغة البولندية وإن كانت إحدى لغات المجموعة السلافية غير أنها تشكل فرعاً منها مستقلاً متميزاً. وعرفت هذه اللغة منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وتطور أدبها في القرون الأخيرة، فأصبحت من الآداب الأصلية ذات التراث القوبي العريق. وأقرب لغات أوروبا شبهاً باللغة البولندية هي اللغة التشيكية، لغة تشيكوسلوفاكيا.

عاشرأً — حدود تشيكوسلوفاكيا :

كون الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى هذه الدولة الجديدة، ووضعوا لها حدوداً لا تكاد تمت إلى مبدأ حق تقرير المصير بصلة. ولذلك تعد خليطاً عجيناً من قوميات مختلفة، ومثلاً واضحاً لاستحالة تأسيس الدولة على تلك القوميات المتنافرة. فقد أصبحت بعد سنة ١٩١٨ تشمل «برهيميا» و«مورافيا» وجزءاً من سيليزيا العليا وهي المناطق التي كانت تابعة للإمبراطورية النمساوية، كما تشمل مقاطعة سلوفاكيا و«روشينا» اللتين كانتا تابعتين للمجر قبل الحرب. وقد بدأ تأسيس هذه الدولة الجديدة بالجمهورية التشيكية المستقلة سنة ١٩١٨، ثم أبدى المجلس الوطني في مقاطعة سلوفاكيا رغبته في الانضمام للتشيكين في دولة واحدة؛ وتم ذلك سنة ١٩١٩ في معاهدة «سنتر جerman». واعتقد زعماء هذه الدولة الجديدة حينئذ أن التشابه في اللغة والتقاليد والشعور القومي متقارب جداً، بحيث يسمح بضم التشيكين وأهالي سلوفاكيا في دولة واحدة. ولكن الأيام برهنت على أنها قوميتان متميزةان كما سرى^(١).

وما هدّد سلامة هذه الدولة الجديدة شمولها على بعض الأقليات القومية ذات القوميات المختلفة. في إقليم «السوديت» غرب بوهيميا، وفي «سيليزيا» و«مورافيا» وبعض المدن الكبيرة ما يقرب من ثلاثة ملايين من الألمان. وفي

سلوفاكيا جالية كبيرة تتجاوز نصف مليون من المجريين . ويختلف هنا الوضع مبدأً حق تقرير المصير .

وتكون هذه الدولة الجديدة على هذا النحو جعلها أشبه بجزرة من السلافيين في وسط أوروبا ، فيها أكثر من ثلث السكان لا ينتسبون إلى الشيكين ، ولا إلى أهالي سلوفاكيا . ومن هنا نشأت تلك المشكلة التي عرفت قبل الحرب العالمية الثانية بمشكلة «السوديت» ، تلك المشكلة التي بلغت الذروة في اتفاقية ميونيخ سنة ١٩٣٨ ، حين تركت تشيكوسلوفاكيا فريسة لأطماع النازية . ثم تبع ذلك الاحتلال بوهيميا ومورافيا سنة ١٩٣٩ على أساس أن اللغة الألمانية هي السائدة في هاتين المقاطعتين .

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى ، وتأسست تشيكوسلوفاكيا ، نطلعت هذه الدولة الجديدة إلى منطقة «السوديت» الألمانية وضمتها إلى أراضيها ، ولكن أهالي السوديت وهم من الألمان اعترضوا على هذا : وكانت تلك الواقعة بمثابة خطوة أولى في تدمير أهالي «السوديت» ، ومطالبهم بالانضمام إلى الريخ الألماني . ثم رحبوا فيها بعد بحركات النازى السياسية التي كانت تنشر دعايتها عن تحرير الألمان الذين يعيشون خارج الوطن الألماني . حتى أولئك الذين غادروا ألمانيا منذ أكثر من ثمانية قرون . ولكنهم مع هذا احتفظوا بلغتهم الألمانية وقوميّتهم الألمانية . وأمكن للنازية استعادة السوديت سنة ١٩٣٨ في اتفاقية ميونيخ . بل غزوا بوهيميا ومورافيا سنة ١٩٣٩ على أساس اللغة أيضاً .

ولكن الغريب أن تعلن «سلوفاكيا» : وهي التي يتكون من اسمها نصف الاسم الذي أطلقه الحلفاء على الدولة الجديدة تشيكوسلوفاكيا . استقلالها سنة ١٩٣٩ . وكانت سلوفاكيا قبل الحرب العالمية الأولى خاصة لحكم «المجر» ، وقام المجريون في أثناء حكمهم لها بجهود كبيرة في محاولة صبغ أهالي سلوفاكيا بالصبغة المجرية .

وفي الحق أن أهالي «سلوفاكيا» لم يكونوا على وفاق دائم مع جيرانهم من الشيكين نظراً لأن مستواهم الحضاري والثقافي كان أقل من مستوى الشيكين ،

وذلك بسبب خضوع سلوفاكيا لسيطرة المجر لعدة قرون ، بل إن شئت قلت بسبب اختلاف اللغتين التشيكية والسلوفاكية إلى حد ما ، وبرغم قرب الشبه بين اللغتين . وكان من الممكن أن تكون لها قومية واحدة على أساس قرب اللغتين أو تشابهما ، فهما من فرع واحد هو الفرع الغربي لمجموعة اللغات السلافية . وتعد الحركة الانفصالية التي قامت في سلوفاكيا سنة ١٩٣٩ بيعاز من النازى حركة غير موقعة من الناحية القومية .

ومن المشاكل القومية في تشيكوسلوفاكيا تلك التي تعرف بـ «روشينا» ، وهي مقاطعة في أقصى الشرق من الدولة الجديدة ، كانت تابعة للمجر ، وكانت اللغة المجرية هي اللغة الرسمية السائدة بها جنباً إلى جنب مع اللغة المحلية . وقد ضُممت هذه المقاطعة إلى تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب العالمية الأولى ليتَسنى لها الإخاطة بالمجر ، ولفصل المجر عن بولندا ، ولكن تسمع باتصال تشيكوسلوفاكيا بـ بولندا في حالة ما إذا احتاج الأمر إلى تعاونها المجري . وقضت معااهدة سنت جرمين سنة ١٩١٩ بأن تمنع تشيكوسلوفاكيا مقاطعة «روشينا» الاستقلال الذاتي؛ فقد لاقت صعوبات ومتاعب فيما يتعلق بالحقوق اللغوية؛ وباللغة التي تدرس في مدارسها ، وتعرضت لكثير من الاضطهاد فيما بين المجريين العالميين ، فلغة روشنينا أقرب إلى لغة أوكرانيا في روسيا . لا غرابة لذلك أن ضممتها روسيا إلى أراضيها بعد الحرب العالمية الثانية ، وأطلقت عليها «أوكرانيا» الكبراءة التي أصبحت الآن جزءاً من الاتحاد السوفييتي .

وهكذا نرى أن السرّ الحقيقي في كل مشاكل الحدود بـ تشيكوسلوفاكيا لا تعلو أن تكون اختلاف اللغات . أو اختلاف القوميات في تأسيسها .

حادي عشر - حدود «المجر» :

يؤكد لنا الدارسون للأجناس أن شعب المجر من عنصر مغولي الأصل كالبلغار ، غير أن البلغار يتكلمون إحدى اللغات السلافية في الفرع الجنوبي لهذه المجموعة اللغوية التي تضم عدداً من لغات أوروبا . في حين أن المجر لا تزال

تحفظ بلغتها الأصلية التي وفت بها إلى أوربا ، والتي لا تمت إلى لغات أوربا بصلة ، فيها عدا اللغة الفنلندية . فاللغة المجرية إحدى لغات تلك المجموعة المسماة « الفئبة الأجرية » الغربية عن لغات أوربا .

ومن هنا تميزت القومية المجرية عن القومية البلغارية ، وبعد إدراها عن الأخرى ، برغم ما يقال من أنها من جنس أصلي واحد هو الجنس المغولي ، وهكذا نرى أن العبرة في تشكيل القومية هو اللغة لا ما يسمى بالجنس الأصلي . فلم يعد هناك ما يربط بين القوميتين بعد اختلاف اللغة ، ولم تعد إدراها تشعر بضعف أو جاذبية تجاه الأخرى ، بعد أن أصبح سكان بلغاريا يصطادون لساناً ميالناً للسان المجرين .

وقد بدأ ظهور شعب المجر في وسط أوربا منذ القرن التاسع الميلادي ، ثم نهضوا وأسسوا مملكة لأنفسهم تحت وازدهرت خلال القرون التالية .

وفي القرن الثامن عشر تأسس من المجر والنسا إمبراطورية ثنائية تحت حكم أسرة « هابسبورج » ، ظلت قوية متساكحة حتى الحرب العالمية الأولى . ولكن المجريين لم يتساوا أبداً خلال هذا الحكم الثنائي قوميتهم الممثلة في لغة غريبة عن لغة النسا ، بل لا تمت إلى لغات أوربا بصلة . ولما هزمت هذه الإمبراطورية في الحرب العالمية الأولى انفصلت المجر عن النسا ، وتتجاهل الحلفاء المنتصرون الحدود النسوية للمجر في معاهدة الصلح سنة ١٩١٩ ، وتركوا نحو ثلاثة ملايين من المجريين خارج حدود قوميتهم ، جماعات منهم في ترانسلفانيا في الشرق وأخرون في مقاطعة براتيسلافا (برسبورج سابقاً) في الشمال الغربي من سلوفاكيا ، وجماعة ثالثة يبلغ عددهم ربع مليون على حدود يوغسلافيا .

وظلت مسألة إعادة النظر في معاهدة تريانو سنة ١٩١٩ الشغل الشاغل للحكومات المجرية في الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٣٨ . ولما قامت الحرب العالمية الثانية انضمت المجر إلى ألمانيا ، ونجحت في أوائل الحرب في استعادة أبناء قوميتها ، بل طافت على قوميات أخرى مجاورة في ترانسلفانيا وروธينيا وغيرها^(١) .

وبانهاء هذه الحرب عادت المجر إلى حدودها سنة ١٩٢٨ ، وتأكد هذا في معاهدة الصلح سنة ١٩٤٧ . أى أن الحلفاء المتصررين في هذه الحرب لم يجدوا مفرأً من الاعتراف بالقومية المجرية الممثلة في لغة غريبة متournée عن لغات أوربا ، فتركوا لها حدودها بعد أن انتزعوا منها «روشينا» التي يتكلم سكانها لغة أقرب إلى لغة أوكرانيا ، ولذلك ضمت إلى روسيا ، كما انتزعوا منها ترانسلفانيا وضموها إلى رومانيا برغم الأقلية المجرية التي تقيم فيها والتي يبلغ تعدادها أكثر من مليون نسمة . وكان ضم «ترانسلفانيا» إلى رومانيا على أساس أن أغلبية السكان يتكلمون لغة رومانيا . وقد تبين من دراسة مشكلة ترانسلفانيا في أثناء الحرب العالمية الثانية أنه من العسير حل هذه المشكلة بما يرضي الطرفين طالما تستمسك كل من المجر ورومانيا بقوميتها أو بلغتها . ولن ينجح أى تغيير في الحدود بين الدولتين ما دامت الجماعات المجرية المسماة «الزكлер» تعيش في رومانيا بعيدة عن وطنها القوى المجري .

أما في الحدود الجنوبيّة للمجر وهي الماخمة ليوغسلافيا فتوجد منطقة انتقال بين الصرب والمجر ، وتمثل هذه المنطقة في أقاليم : «باتشكا» ، «بارانجا» ، «بانات» . التي اختلفت فيها القومية الصربية واليوغسلافية . والقومية المجرية . وقد ضمت هذه الأقاليم إلى يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم عادت إلى المجر في أوائل الحرب الثانية ، ثم عادت مرة أخرى إلى يوغسلافيا بعد انهاء هذه الحرب .

ثاني عشر — مشكلة «التيروي الجنوبي» و «تونتينو» :

كان هذان الإقليمان تابعين للنمسا قبل الحرب العالمية الأولى . فلما انتهت الحرب بهزيمة النمسا تطاعت إيطاليا لضم الإقليمين إلى أراضيها ، ونجحت في ذلك برغم مبدأ حق تقرير المصير الذي أعلنه الحلفاء حيثـ . ذلك لأن «التيروي» الجنوبي تسود فيه اللغة الألمانية ، في حين أن إقليم «تونتينو» تسود فيه اللغة الإيطالية . وقد حاولت إيطاليا فيما بين الحربين العالميتين صيغ الإقليمين

بالصبغة الإيطالية ، فنشرت بهما الأسماء الإيطالية ، وأحلت اللغة الإيطالية محل الألمانية في التبرول الجنوبي . ولم تخلع الأسماء الإيطالية ، ولا الموظفون الإيطاليون في القضاء على الشعور القومي والمعارضة العنيفة التي أبدتها سكان التبرول الجنوبي الذين دأبوا على المطالبة بالانضمام إلى أبناء قوميهم في النمسا . ولا تزال هذه المشكلة قائمة حتى الآن . وتناولها الصحف العالمية المحايدة بالشرح والتفسير . ومع مرور ما يقرب من نصف قرن على ظهور هذه المشكلة نقرأ الآن في الصحف المحلية عرضاً مفصلاً للمشكلة نقبسه فيما يلي :

في معاهدة تسويات الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩ استولت إيطاليا على ولاية « بولترانو » وهي المعروفة باسم التبرول الجنوبي التي كانت خاضعة للنمسا . وفي نفس العام وعد ملك إيطاليا حكومتها وبولسانا أبناء التبرول المتحدين باللغة الألمانية بالاستقلال الذاتي في شتون ولائهم . وبعد ما يقرب من ٢٧ عاماً أي سنة ١٩٤٦ اتفق وزير خارجية إيطاليا مع وزير خارجية النمسا على نفس المبدأ . ونصت المعاهدة في مادتها الأولى على أن يتمتع السكان المتحدين باللغة الألمانية في المنطقة بكافة الحقوق والامتيازات التي تمنع السكان المتحدين بالإيطالية . حتى يعکسوا المحافظة على تراثهم التكيري الألماني وعلى ثقافتهم المتميزة . وبعد ستين فقط من هذه المعاهدة أعلنت إيطاليا ضد ولاية « تورينيو » إلى التبرول الجنوبي ومنحها الاستقلال الذاتي في إدارة موحدة . وبهذا بدأت أزمة العلاقة بين إيطاليا والنمسا . ذلك لأن أبناء التبرول الجنوبي يطالبون بفصل إقليمهم عن « تورينيو » ومنحهم الاستقلال الذاتي كما وعدت إيطاليا في اتفاقيتها سنة ١٩١٩ ، سنة ١٩٤٦ ، لأن سياسة الإدماج جعلتهم يواجهون سياسة تمييز عنصري تهدد مستقبلهم بالخطر . وأعلنوا إنكارهم لما تردداته الشائعات من أنهم يتخلون من الحكم الذاتي خطوة أولى نحو الانفصال عن إيطاليا ، والانضمام إلى النمسا مرة أخرى .

أما النمسا فقد أعلنت في « فيينا » أنها لا تطالب بإعادة التبرول الجنوبي إليها ، ولكنها تطالب باحترام الاتفاقيات المعقودة مع إيطاليا وتنفيذها نصاً

وروحاً . وترى النسا فيها قامت به إيطاليا سنة ١٩٤٨ من إدماج الإقليمين تحت حكم موحد محاولة للتخلص من الأغلبية المتحدة باللغة الألمانية . فهم في التيرول الجنوبي يمثلون ثلث السكان ، ولكنهم بانضمامهم إلى « تورنتينو » سيصبحون أقلية لا يتجاوز عددهم ثلث السكان في الإقليمين معاً .

ولما إيطاليا فرّى أن الأقلية الألمانية تتمتع بحقوق لا تقل عن حقوق أية أقلية أخرى في أوربا . أما سياسة الإدماج في رأيهما ، فتدعوا إليها ضرورة إستراتيجية من جانب ، وإدارية من جانب آخر .

وتمكن كل من الطرفين برأيه في المشكلة ، والتوجه الطرفان إلى الأمم المتحدة بشكواهما ، ولكن المنظمة الدولية لم تصل إلى قرار حاسم ، ونصح الدولتين بالدخول في مفاوضات مباشرة . ولما فشلت هذه المفاوضات المباشرة اقررت إيطاليا عرض المشكلة على محكمة العدل الدولية ، ولكن النسا رفضت ذلك ، وأقررت النسا تكليف « هرشولد » بالوساطة والقيام بالمساعي السلمية لإنهاء الخلاف ، ولكن إيطاليا رفضت هذه الوساطة . وهكذا عادت المشكلة إلى نقطة بدايتها من جديد دون أي تقدم .

ثالث عشر—مشكلات الحدود في البلقان :

ليس من الضروري في الحديث عن القوميات الرئيسية بالبلقان كما شهدتها القرن التاسع عشر أن نذهب إلى أبعد من هذا القرن . فقد كانت هذه القوميات في أوائله خاضعة لحكم السلطنة العثمانية منذ زمن طويل . ثم ضعفت هذه السلطة ، وبدأت المنافسة بين الدول الكبرى في أوربا حول أراضي البلقان التي يقطنها شعوب تسمى إلى أجناس مختلفة ، ولا يمكن أن تكون على أساسها قوميات متميزة . لذلك كان الأساس في نشأة القوميات في منطقة البلقان أساساً لغوياً صرفاً . فلم يبدأ القرن التاسع عشر حتى شهد العالم في البلقان ست لغات رئيسية هي : « التركية ، الترومنية ، البلغارية ، اليونانية ، الألبانية » وأخيراً « الصربيـة — الكروـاتـية » في يوغوسلافيا . وبرزت القوميات البلقانية

على أساس هذه اللغات ، وتميّزت كل منها عن الأخرى ، مما اضطرّ الحلفاء المنتصرين بعد الحرب العالمية الأولى إلى تأسيس دولة لكل لغة من هذه اللغات ، على حسب مبدأ حق تقرير المصير الذي نادوا به إثر انتهاء الحرب . ولكن الحلفاء لم يوقّعوا في كل الحالات بوضع حدود سليمة بين هذه اللغات ؛ ومن هنا نشأ ما يسمى بمشاكل البلقان في نظر ناس السياسة .

إذا بدأنا بالقومية التركية نجد أنّها مؤسسة على اللغة التركية العثمانية الحديثة ، التي تتسم إلى مجموعة بعيدة بعيدة كل البعد عن اللغات الأوروبية . هي التي تسمى باللغات الأتراكية . ومنطقها تشمل معظم أنحاء آسيا الصغرى وأسيا الوسطى وجزءاً من سيبيريا . وأهم فروع هذه المجموعة اللغة التركية الحديثة التي تسمى أيضاً اللغة العثمانية . وهي لغة أتراك الأناضول و«ترافقا» الشرقية . وهي اللغة الرسمية للجمهوريّة التركية في الوقت الحاضر . ليس غريباً إذن أن مبدأ تقرير المصير قد أدى في عُقاب الحرب العالمية الأولى إلى أكبر حركة هجرة وتبادل السكان في تاريخ خديث . فقد كانت الأقليات اليونانية التي تعيش على سواحل الأناضول . ولا سيما في مدينة أزمير وضواحيها تجاوز المليون نسمة ، وتشكل خطراً كبيراً على كيان القومية التركية الفتية وجمهوريّتها الجديدة في آسيا الصغرى . وبذلك تجبرت تلك الأقليات اليونانية على الهجرة من تركيا إلى الأراضي اليونانية . وبخاصة في «ترافقا» الغربية ؛ وتم ذلك خلال ثلث سنوات فيها بين ١٩٢٣ - ١٩٢٥ .

أما اللغات الأخرى في البلقان فتسري كلها إلى الفصيلة الكبرى التي يسمّيها اللغويون بالفصيلة الهندية - الأوروبية . غير أنها تنحدر من فروع مختلفة خذل هذه الفصيلة .

فاللغة الرومانيّة وهي لغة رومانيا حديثة إحدى اللغات اللاتينية كالإيطالية والفرنسية والأسبانية . ولا ذكرى كيف استقرت في تلك المنطقة بعيدة نسبياً عن مهد اللغات اللاتينية . ولا . . . أصل السكان في رومانيا ؛ وتكون لهم الجنسى ، موضع خلاف كبير بين درسي الأجناس ؛ ولا يجمع بينهم في الحقيقة

إلا اللغة التي هي أساس قوميّهم وعمل فخارهم واعتزازهم .

ومع أن القومية في رومانيا محددة المعلم متميزة بتميز لغتها ، نشأ على حدودها ما يعرف بمشكلة « بساريابيا » تلك المقاطعة التي دل الإحصاء سنة ١٩١٩ على أن نحو ٦٤٪ من سكانها يتكلمون اللغة الرومنية ، وأن نحو ١٥٪ يتكلمون لغة أوكرانيا . ولذلك ضمت هذه المقاطعة إلى رومانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكن روسيا استعادتها في أوائل الحرب الثانية . ولم تنشأ الحكومة الرومانية إثارة مشكلة « بساريابيا » ثانية عند إقرار معاهدة الصلح سنة ١٩٤٧ ، وقد عوضت رومانيا عنها بمقاطعة ترانسلفانيا التي معظم سكانها من الرومانيين ، ولكن المعاهدة تجاهلت وضع المجريين المسلمين « الزكتر » والذين يبلغ عددهم حدود مليون نسمة ويعيشون في شبه جزيرة في نطاق رومانيا . وهكذا حل مشكلة بساريابيا بين رومانيا وروسيا ، مشكلة « ترانسلفانيا » بين رومانيا والمجر .

أما القومية اليونانية فليست في حاجة إلى تعريف : فهي تتحدر من القومية الإغريقية العظيمة التي وهبَت الإنسانية تراثاً رائعاً في الفكر والفلسفة قبل المسيحية . وعلى ما تخلفه للإنسانية قامت النهضة الأوروبية الحديثة . وتتمثل هذه القومية في العصر الحديث في اللغة اليونانية الحديثة التي ابشت عن الأصل القديم : ولا تكاد تختلف عنه في الأصوات : بل يتركز الخلاف بينهما في بعض التواхи الاستعاقية ، وفي المفردات .

ولما كانت هذه القومية متميزة بتميز لغها العريقة لم يثرَ بيها وبين جيرانها ما يسبب مشاكل خطيرة حول الحدود . واقتصر التزاع بينها وبين بلغاريا على منطقة صغيرة في « تراقيا » الغربية التي أصبح معظم السكان بها يتكلمون اللغة اليونانية بعد تهجيرهم من الأناضول كما أشرنا آنفاً . كما اقتصرت على المنطقة التي تعرف « بالأبيروس » الشهانى بين اليونان وألبانيا .

وأما « ألبانيا » تلك الدولة الإسلامية الصغيرة فهي أصغر دول البلقان مساحة وأقلها سكاناً . ويلاحظ دارسو الأجناس أن سكان ألبانيا يتألفون من

شعبين متميزيْن يتمثل أحدهما في جماعات «الغج» Gheg طوال القامة وهم المعروف بالأنواعوط ، وتعدادهم في حدود ٦٥٪ من السكان . أما الشعب الآخر فيعرف أبناؤه «بالتولك» Tok وهم أقصر قامة ويشهرون في صفاتهم الجسانية وفي طباعهم جيرانهم اليونانيين . وتعدادهم في حدود ٢٣٪ من السكان .

ولم يكن هناك من مسوغ لتأسيس هذه الدولة الصغيرة بعد الحرب العالمية الأولى سوى أن أهلها يتكلمون لغة متميزة تختلف تمام الاختلاف عن اللغات المجاورة لها . وكان هناك شبه اتفاق على الإبقاء على «الألبانية» بوصفها دولة مستقلة ، لوجود عنصر ألباني متميّز لا يستطيع الاستقرار والعيش في هدوء مع أية دولة بلقانية أخرى ، ودار كل الخلاف بين الدول حول مدى اتساع هذه الدولة الجديدة . وفي الحق أن المسوغ الحقيقي لتأسيس هذه الدولة هو اللغة الألبانية التي هي فرع مستقل من فروع الفصيلة الكبرى الهندية — الأوروبية . وتسمى هذه اللغة عند أهلها بالأشكيب Shkip . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها المخطوطة يرجع إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي . وأول نصوص مطبوعة لها يرجع إلى منتصف القرن السادس عشر . وقد جمعت بهذه اللغة أغان كثيرة وقصص شعبية في القرن التاسع عشر . ومعظم المتكلمين بها يعتنقون الدين الإسلامي .

وأخيراً نختتم الحديث عن قوميات البلقان أو لغاته بلغتين تنتسبان إلى مجموعة لغوية واحدة هي المجموعة السلافية ، بل إلى فرع واحد من فروع هذه المجموعة هو الفرع الجنوبي ، وهاتان اللتان هما اللغة البلغارية التي يُتكلّم بها في بلغاريا وهي لغة قومية ذات حضارة وتراث أدبي . تميزت بين اللغات منذ القرن الثامن عشر وتكتب بالأبجدية الكريالية أو السيريلية . أما اللغة الأخرى فهي «الصربيـة — الكرواتـية» التي يتكلّم بها في معظم مناطق جمهورية يوغوسلافيا وأهم أقاليمها الصرب ، كرواتيا ، البوسنة ، الهرسك ، الجبل الأسود . ولها ثلاث لهجات محلية متميزة ، وينكتبها المسيحيون الأرثوذكس بالأبجدية «الكريالية»

أو السيريلية ، في حين أن الكاثوليك يكتبونها بالأبجدية اللاتينية . وقد وصل إلينا بعض آثارها التي ترجع إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، غير أنها لم تصبح لغة حضارة إلا في القرن التاسع عشر .

وَمَعَ أَن سَكَانْ بِلْغَارِيَا يَنْسُلُونْ مِنْ أَصْلِ مُغْرِبِ هَاجَرُوا مِنْذْ قَرْوَنْ إِلَى
هَذِهِ الْمَنْطَقَةِ وَاسْتَقْرَرُوا بِهَا ، تَجَدُّ أَنْهُمْ اتَّخَذُوا ذَلِكَ السَّانِ السَّلَافِيِّ وَسِيلَةَ التَّفَاهِمِ
وَالْحُطَابِ فِيهَا بَيْنَهُمْ . ثُمَّ كَانَ أَنْ اسْتَقْلَلَتْ هَذِهِ الْلُّغَةُ ، وَتَكَيَّزَتْ عَنْ أَخْوَاهَا مِنْ
الْلُّغَاتِ السَّلَافِيَّةِ ، وَأَصْبَحَتْ وَحْدَهَا تَشْكِلُ الْقَوْمِيَّةِ الْبِلْغَارِيَّةِ . وَتَعَدُّ بِلْغَارِيَا
مِنْ أَكْثَرِ دُولِ الْبِلْقَانِ تَجَانِسًا وَاسْتَقْرَارًا فِي قَوْمِيَّهَا ، وَمِنْ أَقْلِهَا مِشَاكِلٌ فِي حَدُودِهَا .
وَكُلُّ ذَلِكَ بِفَضْلِ لُغَتِهَا الْمُتَعَزِّزةِ الْمُوَحَّدةِ الَّتِي هِيَ اللُّغَةُ الْمُشَرِّكَةُ لِكُلِّ السَّكَانِ .

أما يوغسلافيا ففيها تكثُر الاختلافات العنصرية والانقسامات الاجتماعية ، وقد أدى موقعها إلى مواجهة جميع دول البلقان ، بل هي تنازع أيضاً المجر والنسا وإيطاليا . ولذلك كانت علاقاتها منذ نشأتها بكل هذه الدول يشوبها قدر من التوتر والمشكلات السياسية :

١- مشكلة كارينثيا السلوافية :

٢ - المشكلة المقدونية :

يشكل هذا الإقليم فراغاً شديداً بين يوغسلافيا وبلغاريا من ناحية ، وبين يوغسلافيا واليونان من ناحية أخرى . ويتألف السكان في هذا الإقليم وحدة

بشرية متميزة، ويتكلمون لهجة سلافية تعرف باللهجة المقدونية. وقد ضم معظم أراضيه إلى يوغوسلافيا بعد الحرب العالمية الأولى، ولكن السكان ظلوا غير راضين عن حكم يوغوسلافيا، وثيرهم وتحرضهم على الثورة بلغاريا. ولم تنبع يوغوسلافيا في الاحتفاظ بهذا الإقليم، إلا على أساس تكوين الجمهورية المقدونية التي هي إحدى جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي.

٣ - مشكلة ميناء تريست، فينيتسيا جوليا:

بين يوغوسلافيا وإيطاليا، وهي المشكلة المعقّدة التي كادت توقع العالم الحديث في حرب عالمية ثالثة. وليس طنه المشكلة من مسوغ سوى اختلاط السكان في هذه المنطقة بين سلافيين وإيطاليين، أو إن شئت قلت: سيادة لغتين في المنطقة، إحداها وثيقة الصلة بلغة يوغوسلافيا، والأخرى باللغة الإيطالية.

وعل من أهم أسباب اشتعال هذه المشكلة وتعقدتها بعد الحرب العالمية الأخيرة، تلك المنافسة القائمة بين المعسكرين الشرقي والغربي. فروسيا من ناحية تناصر يوغوسلافيا وتعمل على تحقيق مطالبيها: في حين أن دول الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا تؤيد الخانق الإيطالي في مطالبه، وبعد صراع سياسي طويل بين الكليتين الشرقية والغربية، وفشل الكثير من المقترنات التي تقدم بها كل من الفريقين، أنهى التزاع أو كاد، باتفاقية لندن سنة ١٩٥٤ وهي التي تقضي بتقسيم المنطقة بين يوغوسلافيا وإيطاليا، وحصلت إيطاليا على ميناء «تريست» وشقة ساحلية صغيرة تصلها بالأراضي الإيطالية. كما نص في الاتفاق على إنهاء الحكم العسكري للحلفاء في المنطقة وعلى تخصيص منطقة جمركية حرة في ميناء تريست، وحماية حقوق الأقليات في القسمين اليوغسلافي والإيطالي.

على أن المشكلة الحقيقة في دولة يوغوسلافيا هو تعداد الأجناس في أراضيها، ويُوحى بهذا اسمها القديم وهو مملكة الصرب والكروات والسلوفين، وقد هاجر

إليها فوق هذه الأجناس جماعات من الخبر وزماني وبلغاريا وألمانيا وإيطاليا ، فزادت هذه المجرات من التعقد الحensi في يوغسلافيا . وترتبط على تلك الاختلافات اللغوية والثقافية في يوغسلافيا خصوصاً بجهات معارضة تعمل على تفكك هذه الدولة : مما اضطرّ الحكومة يوغسلافية إلى إنشاء اتحاد يوغسلافي سنة ١٩٥٣ يتألف من ست جمهوريات هي :

- ١ - جمهورية الصرب وعاصمتها « بيوجراد » .
- ٢ - جمهورية كرواتيا وعاصمتها « زغرب » .
- ٣ - جمهورية البوسنة .
- ٤ - جمهورية سلوفينيا وعاصمتها « لوبليانا » .
- ٥ - جمهورية مقدونيا وعاصمتها « سكوبيي » .
- ٦ - جمهورية « مونتينيغرو » الجبل الأسود : وعاصمتها « تيتوجراد » .

وإذا كان الحكم الاشتراكي الناجح في يوغسلافيا قد كفل لها حتى الآن استقراراً ورخاء ، وإذا كانت البطورة التي ظهر بها زعماؤها الحاليون خلال الحرب قد أسررت الناس وجعلتهم يلتقطون حول هؤلاء الزماء ، ويطمعون إلى حسن سياستهم وبراعة قيادتهم ، إذا كان عندهم الواقع المشاهد الآن في هذه الدولة ، فليس هناك ما يؤمن المستقبل من ذلك نحصر البشرية المتباينة التي تكون منها . فلا بد من دعم القومية اليوغسلافية على أساس وحدة لغوية شاملة ، فب الرغم أن بها لغة رسمية هي اللغة « الصربية - الكرواتية » لا تكاد تتخطى هذه اللغة كل أنحاء الدولة ، ولا تزال هناك خجوات إقليمية متعددة يخشى معها أن تُطلَّ بعض الحركات الانفصالية برأسها في المستقبل ، حين تبدل الرعامة الحالية بغيرها . أو حين تجد صعوبات في تطبيق النظام الاقتصادي الحالي . ولا سبيل لتجاوز هذا إلا بدعم اللغة المشتركة في الدولة ، والعمل على أن تتخطى كل مناطقها ، بحيث يتظر كل السكان إليها على أنها لسانهم المفضل ، فيقتربونها في كل المجالات وكل الأوساط : وتوحد بين مشاعرهم وأحساسهم . ولا شك أن تحقيق هذه الغاية يتطلب زمناً طويلاً وجديداً كبيراً . ولكن مع الأسف

نقرأ الآن أخباراً تنشر في بعض الصحف وتشير إلى بعض أمم يوجه يوغسلافيا من الناحية اللغوية . فقد نشر بالأهرام في شهر أبريل سنة ١٩٦٢ ما نصه :

(اجتمعت لحتا الحزب الشيوعي اليوغوسلافي في مدينی بیجرد : زغرب ، لاتخاذ قرار بشأن الذين اشتركوا في الاضطرابات اللغوية التي نشب بين إقليمی الصرب وكرواتيا عندما حسم كل جانب على تعميم استخدام المصطلحات اللغوية الخاصة به في الشؤون الرسمية . ولالمعروف أن الطرفين يستخدمان نفس اللغة : ولكن مع بعض الاختلافات . وقد شکا المثقفون في إقليمین من التفرقة اللغوية ، ويخشى زعماء يوغوسلافيا أن تؤدي تلك تخلافات إلى إحياء خصومات قديمة بين الإقليمین) .

وتنضح لنا خطورة المشكلة اللغوية بيوغسلافيا حين تذكر أن بهذه الدولة ثلاث لهجات محلية متميزة ، وأن الأرثوذكس يكتبون بالأبجدية نكربلية ؛ في حين أن الكاثوليك يكتبون بالأبجدية اللاتينية .

◆ ◆ ◆

الفصل الخامس

أشهر اللغات القومية الحديثة^(١)

١

في أوربا

في عرضنا هنا للغات أوربا والحديث عنها تؤثر أن نترك اللغتين الإنجليزية والفرنسية إلى الفصل الذي فيه ستحدث عن اللغات العالمية الحديثة . فقد أخذت هاتان اللتان في العصر الحديث طابعاً عالمياً أكثر منه قومياً . وتنتمي الكثرة الغالبة من اللغات الحديثة في أوربا إلى القبيلة الكبرى التي تسمى الهندية - الأوربية .

المجموعة الجرمانية :

هي مجموعة من اللغات في عرب أوربا ووسطها وشمالها الغربي . وهي لغات ذات صلة وثيقة بعضها ببعض . وتشترك في خصائص لغوية أصلية ، لا سيما في تطور الأصوات أو التبادل الصوتي بين أفرادها ، وهو ما يعرف بقانون جريم Grimm وأشهر هذه اللغات وأوسعتها انتشاراً في العصر الحديث اللغة الإنجليزية ، وستحدث عنها بين اللغات العالمية الحديثة . وأفراد هذه المجموعة اللغوية في الوقت الحالي هي :

١ - الدنماركية :

وهي لغة منتشرة في شبه جزيرة « الدنمارك » في بحر البلطيق وما حولها من جزر . وقد أصبحت لغة كتابة وأدب منذ القرن الثالث عشر الميلادي .

A. Meillet and M. Cohen; *Les Langues du Monde*. Paris 1952. (١)

Mario Pei : *The World's Chief Languages*. London 1949. (٢)

٢ - السويدية :

لغة منتشرة في النصف الشرقي من شبه جزيرة «اسكتلندا». وصارت لغة كتابة وأدب منذ القرن الثالث عشر الميلادي.

٣ - النورويجية :

لغة النصف الغربي لشبه جزيرة «اسكتلندا»، وقد أصبحت لغة كتابة وأدب في القرن الثامن عشر الميلادي بعد أن استقلت عن النرويج الدفيمركي.

٤ - الأيسلنديّة :

وهي اللغة التي يتكلّم بها في جزيرة «أيسلندا»، وتكتب منذ القرن العاشر الميلادي. ويسبب انعزالها احتفاظها بظواهر لغوية قديمة. وهي مشهورة بأدب الملاحم «إدما» التي تقارن عادة بـ« بلاس » هوميروس، وملاحم اللغة السنكريتية في الهند.

٥ - الألمانية :

وهي لهجتان متميّزان شهالية وجنوبية. والجنوبية هي أصل اللغة الألمانية الرسمية الحديثة التي بدأ التدوين بها أيام «مارتن لوثر» الذي ترجم إليها الكتاب المقدس في القرن السادس عشر الميلادي. وتعدّ الألمانية أكثر اللغات الجرمانية محافظة، فقد استمسكَت بعناصر لغوية قديمة أكثر من غيرها.

٦ - الهولندية :

وهي اللغة الرسمية لمملكة هولندا. وهذه اللغة تنحدر من لهجات ألمانيا الشهالية، وتتصلّ اتصالاً وثيقاً باللغة «الفلمنكية» التي يتكلّم بها في شان بلجيكا، وتعدّ لغة رسمية هناك. وقد انتقلت الهولندية إلى جنوب أفريقيا مع المهاجرين حيث شاع استخدامها وأطلق عليها هناك «الأفريكانية» Afrikaans.

المجموعة البلطية — السلافية :

مجموعة من اللغات تشتهر في كثير من الخصائص التي تميزها عن المجموعات اللغوية المجاورة لها . وهذه المجموعة تنقسم إلى شعبتين : البلطية ، السلافية ، أما فروع البلطية فهي :

١ — اللثانية : وهي لغة « لتشيا » على بحر البلطيق . طبعت منها نصوص في منتصف القرن السادس عشر الميلادي . وقد تطورت هذه اللغة وأصبحت لغة قومية ذات أدب منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي .

٢ — اللتوانية : وهي لغة « لتوانيا » على بحر البلطيق . وتحتفظ هذه اللغة بخصائص قديمة جداً ترجع إلى القبيلة الكبرى الأم « الهندية — الأوربية » ، أكثر من أي لغة أوروبية أخرى . ونشر بها بعض كتب دينية منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي .

وأما لغات الشعبة السلافية فيتصل بعضها بعض على قدر مجاورة إحداها للأخرى . فلمسافر من « موسكو » متوجهًا إلى الغرب إلى « منسك » ثم إلى « وارسو » ثم إلى « براغ » . يلاحظ أن صيغ الكلمات وطراز الجمل والعبارات يتغير تدريجيًّا . وعلى مراحل متداخلة كأنها ألوان الطيف . فأبنية اللغات السلافية المجاورة يفهم بعضهم بعضًا إلى حد ما . أما غير المجاورة منها فنلاحظ بينها تبايناً في الأصوات والتصريف وتركيب الجمل : بل في الألفاظ أيضًا .

وأهم الصفات المشتركة بين لغات الشعبة السلافية هي : كثرة الأصوات الساكنة ، واستعمال عدد متقارب من هذه الأصوات في أوائل كثير من الكلمات ، وكذلك استخدام ما يعرف لدى الدارسين بالثنائية في الصوت الساكن (أى صورة حنكية وأنخرى غير حنكية مثل ما في الإنجليزية من نطق الناء في الكلمتين *Tune* ، *Tomb*) . وللاسم في اللغات السلافية سبع حالات إعرابية وثلاث حالات للتعبير عن الجنس (ذكر ، مؤنث ، محايد) . وبرغم أن الفعل

ينظر إليه من حيث الزمن على أنه ماضٍ ، حاضر ، مستقبل ، ومن حيث الحديث على أنه تام ، ناقص ، مؤقت ، مستمر ، وبرغم أن الفعل صيغة معينة في كل هذه الأحوال ، فالحظظ أن المتكلم بهذه اللغات يعنيه بوجه عام كون الحديث مستمراً أو كاملاً ، أكثر مما يعنيه كونه معتبراً عن الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل .

وتحتفل اللغات السلافية في موضع النبر من الكلمة . فاللغة التشيكية تجعل النبر على المقطع الأول من الكلمة ، في حين أن البولندية تجعل النبر عادة على المقطع الذي قبل الأخير .

أما الروسية فالنبر فيها متغير الموقع ، وليس له موضع ثابت فيها يبدو ، بل يتبدل في الكلمة الواحدة تبعاً لتصريفها . وينطبق هذا أيضاً على « الصربية - الكرواتية » لغة جمهورية يوغوسلافيا . ولكن المتكلمين بهذه اللغة يتحاشون جعل النبر على المقطع الأخير .

كذلك تختلف اللغات السلافية في طريقة الكتابة المجائية ، فأولئك الذين يتبعون إلى الكنيسة الأرثوذكسية كما في روسيا ، الصرب . بلغاريا يصطنعون الكتابة « الكريالية » . في حين أن المتبعين إلى الكنيسة الكاثوليكية كما في تشيكوسلوفاكيا - بولندا - كرواتيا ، يصطنعون الأبجدية اللاتينية .

وفرع الشعبة السلافية هي :

١ - السلوفينية : ويتكلّم بها في المنطقة الجنوبيّة للنمسا على ساحل الأ드리اتيك ، وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن العاشر الميلادي . ولها أدب مكتوب منذ القرن الثامن عشر الميلادي .

٢ - الصربية - الكرواتية : وهي لغة منطقها جمهورية يوغوسلافيا ، وهي اللغة الرسمية لها في الوقت الحاضر . وأهم أقاليمها الصرب ، كرواتيا ، البوسنة ، الهرسك ، الجبل الأسود . ولديها اللغة ثلاث لهجات محلية متميزة . ويكتبها المسيحيون الأرثوذكس بالأبجدية الكريالية ، والكاثوليك بالأبجدية اللاتينية . وقد وصل إلينا بعض آثارها الأدبية من القرن الخامس

عشر الميلادي ، ولكنها لم تصبح لغة حضارة وأداب إلا في القرن التاسع عشر .

[٣ - البلغارية] : وهي لغة جمهورية بلغاريا ، ويتكلم بها أيضاً في بعض المناطق المحيطة بهذه الجمهورية . وقد أصبحت لغة قومية ذات حضارة وأداب منذ القرن الثامن عشر ، وتكتب بالأبجدية الكريالية .

٤ - التشيكوسلوفاكية : وهي اللغة الرسمية بجمهورية تشيكوسلوفاكيا . وتكتب بالأبجدية اللاتينية منذ القرن الثالث عشر الميلادي . وقد أصبحت لغة أدبية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

٥ - البولندية : وهي اللغة الرسمية بجمهورية «بولندا» . وقد عرفت هذه اللغة منذ القرن الرابع عشر الميلادي . وتطور أدبها في القرون الأخيرة وأصبح من الآداب الأصيلة الغزيرة . وهي تكتب بالحروف اللاتينية .

٦ - الروسية (الكيري) : وهي اللغة الرسمية للاتحاد السوفيتي . وقد أصبحت لغة مشتركة بجمهوريات الاتحاد السوفيتي منذ سنة ١٩٤٥ . وأساس هذه اللغة هو لهجة «موسكو» التي اشتهرت بعد تأسيس جامعة موسكو سنة ١٧٥٥ م ، وقد أخذت شكلها الحالي منذ القرن التاسع عشر . وكان يتكلّمها في العهد الروسي القيصري ما لا يزيد على نصف عدد السكان . وهي تكتب بالأبجدية الكريالية .

٧ - الروسية البيضاء : وهي اللغة الرسمية بجمهورية روسيا البيضاء إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي المتأخرة لبولندا ، وليتوانيا . ويتكلّم بها نحو عشرة ملايين .

٨ - الأوكرانية (الروسية الصغرى) : وهي لغة «أوكرانيا» الواقعة في جنوب روسيا البيضاء . ويتكلّم بهذه اللغة نحو ٤٠ مليوناً .

مجموعة اللغات الرومانية :

وتتحدر هذه اللغات الحديثة عن اللغة اللاتينية ، ولذلك تشارك في خصائص لغوية أصلية . وأشهر هذه اللغات الفرنسية التي ستحدر عنها بين اللغات العالمية الحديثة .

ويؤكد لنا اللغويون المحدثون أن لغات هذه المجموعة لم تتحدر عن اللاتينية الموزجية الأدبية التي خطب بها «شيشرون» وكتب بها «فرجين» ، وإنما انحدرت عن اللاتينية العامة التي كانت تصطنع في الخطاب بين عامة الشعب في الإمبراطورية الرومانية ، قبل سقوطها في القرن الخامس الميلادي . وكانت هذه اللاتينية أيضاً لغة المحاميات الرومانية في الواقع البعيدة من الإمبراطورية ، وبين أفراد هذه المحاميات من ولد وعاش كل حياته دون أن يقع نظره على عاصمة الإمبراطورية . غير أنها تقضي في كثير من الأحوال النصوص المدونة التي يمكن أن تعد حلقة اتصال بين هذه اللاتينية العامة وبين فروعها الحديثة من اللغات الأوروبية .

وأشهر أفراد هذه المجموعة هي :

١ - الرومنية (لغة جمهورية رومانيا) : وهي اللغة السائدة الآن في رومانيا وبعض المناطق المجاورة لها . وأقدم ما وصل إلينا من آثارها يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادي مكتوباً بالأبجدية الكريالية . ولكن هذه اللغة تكتب الآن بالحروف اللاتينية ، ويتكلم بها ما يقرب من تسعة عشر مليوناً .

٢ - الإيطالية : هي لغة إيطاليا وبعض المناطق التي في جنوب سويسرا . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى منتصف القرن العاشر الميلادي ؛ أما اللغة الإيطالية المستعملة اليوم فهي لهجة مقاطعة «تسكانيا» التي كتب بها «دانني» في أوائل القرن الرابع عشر .

٣ - الرومنشية : هي لغة منتشرة في بعض مناطق سويسرا والنمسا . وعدد المتكلمين بها الآن نحو نصف مليون . وترجع أهمية هذه اللغة إلى أنها إحدى اللغات الرومانية التي اعتمد عليها الدارسون في المقارنات اللغوية . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي . وقد أصبحت منذ سنة ١٩٣٨ إحدى اللغات الرسمية في الاتحاد السويسري .

٤ - القطلونية : وهي لغة يتكلّم بها شرق إسبانيا (قطالونيا ، فلانسيا ، جزر البليار) وعدد المتكلمين بها نحو خمسة ملايين . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي .

٥ - الإسبانية : وهي لغة إسبانيا ومعظم جهات أمريكا اللاتينية ، وتعدّ من أكثر لغات العالم انتشاراً . وأقدم ما وصلنا من نصوصها يرجع إلى القرن العاشر الميلادي . وقد دخلت فيها ألفاظ عربية كثيرة .

٦ - البرتغالية : وهي لغة البرتغال وبعض جهات أمريكا اللاتينية وبخاصة في البرازيل . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي .

ومن اللغات القومية الحديثة تتميّز أيضاً إلى الفصيلة الكبرى (الஅங்கீகாரியை) ولكن يتميّز كل منها بصفات لغوية تجعل لها كياناً متميّزاً مستقلاً عن اللغات الأوربية الأخرى : وهما :

١ - اللغة اليونانية الحديثة : وهي صورة منبثقة عن اللغة « الكوريثية » التي كانت اللغة الرسمية للإمبراطورية الرومانية الشرقية . ولا تكاد تختلف اليونانية الحديثة عن « الكوريثية » في الناحية الصوتية . وإنما الاختلاف في بعض النواحي التصريفية وفي المفردات . وتحاول دولة اليونان الآن وتوسيدها الكنيسة في هذا : أن تقترب ما أمكن من اللغة « الكوريثية » . وقد أصبحت اليونانية الحديثة بثنائية لغة مشتركة لكل بلاد اليونان منذ القرن الثامن عشر ، وعلى أساسها تكونت القومية اليونانية الحديثة .

٢ - **اللغة الألبانية** : وهي لغة دولة «ألانيا» وتسمى عند أهلها بالإشكيپ Shkip واليونانية والصربيّة ، والتركية . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها المخطوطة يرجع إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي . وأول نصوص مطبوعة ترجع إلى منتصف القرن السادس عشر . وفي القرن التاسع عشر جمعت بهذه اللغة أغان كثيرة وقصص شعبية . ومعظم المتكلمين بهذه اللغة يعتنقون الدين الإسلامي . ويتكلّم بها نحو ١,٥ مليون نسمة . وباستثناء بعض الوثائق القانونية لم يبق من تراثها الأدبي ما هو أقدم من القرن التاسع عشر .

وأشهر لغات أوروبا التي لا تنتسب إلى الفصيلة الكبرى «الهندية – الأوربية» لقمان حديثان هما :

١ - **الفنلندية** : وهي اللغة الرسمية لفنلندا ، ويتكلّم بها أيضاً في «أستونيا» وهي مدونة منذ القرن السادس عشر الميلادي .

٢ - **المجرية** : ويتكلّم بها في المجر وفي بعض المناطق المتاخمة لها . وهي أقدم اللغات المعروفة بالفصيلة «الفنلندية – الأوربية» . ووصلنا بعض من نصوصها التي ترجع إلى القرن العاشر الميلادي .

٢

في آسيا

تنتمي اللغات القومية الحديثة في آسيا إلى عدة فصائل لغوية لا صلة بينها ؛ وأشهر هذه الفصائل تلك الفصيلة الكبرى (الهندية – الأوربية) ، وهذه الفصيلة في آسيا ثلاثة شعوب :

١ - الشعوب الهندية ولغاتها القومية الحديقة هي :

(أ) الهندستانية :

وهي اللغة الأساسية في غرب الهند . وقد أطلق عليها هذا الاسم اصطلاحاً ، لأنها أكثر اللغات انتشاراً في الهند . وطنده اللغة صورتان : « الأوردية » وهي في الأصل لغة الجيش ، وتنكتب بالأبجدية العربية ، وتشمل ألفاظاً عربية وفارسية كثيرة ، وهي الآن اللغة الرسمية في باكستان . أما الصورة الثانية فهي ما يسمى « بالهندى » وتنكتب بالخط الهندي القديم وفيها ألفاظ مستقرية كثيرة . وينكلم بالهندستانية ما يقرب من ۱۹۰ مليوناً . وتعد هاتان الصورتان بمثابة الجذرين متغيرتين للهندستانية ، فلا يقتصر الفرق بينهما على اختلاف الكتابة مما هو الشأن مع الكرواتية والصربية ، بل إن « الأردية » تظل متميزة حتى لو كانت بتلك الحروف الهندية القديمة . فاللهجتان مختلفان في البنية وفي الأداء ، لأنهما خضعتا لمؤثرات تاريخية مختلفة .

(ب) السهالية :

وهي شائعة في القسم الجنوبي من جزيرة سيلان وقد أصبحت اللغة الرسمية للسرير بدلاً من اللغة الإنجليزية منذ سنة ۱۹۷۴ .

(ج) البهالية :

وهي لغات شرق الهند انتشاراً في كلكتا وما بحراً ، وهذا أدب قديم . وتنكتب « سغور » وينكلم بها نحو ۳۴ مليوناً .

(د) المهراتية :

وتشتهر منطقة بومباي ، وهذا أدب شعرى قديم . وترجع بعض نصوصها إلى نحو نصف عشر الميلادى ، وينكلم بها ۴۰ مليوناً .

(ه) البنجابية :

وهي أهم لغات الشمال الغربي للهند . ويتكلم بها سكان « لاہور » والطاقة المعروفة بالسيخ .

٢ - الشعية الإيرانية وأشهر لغاتها القومية الحديثة هي :

(أ) الفارسية :

وهي اللغة الرسمية لدولة إيران في الوقت الحالي : وتنكتب بالخط العربي ; وأقدم نصوصها التي وصلت إلينا ترجع إلى القرن الثامن الميلادي . وهي ذات أداب غزيرة : وبلغت أوج ازدهارها على يدي الفردوسي في القرن العاشر الميلادي : وتتضمن ألفاظاً عربية كثيرة جداً .

(ب) الكردية :

وهي اللغة الأكيراد في الشمال الغربي من إيران . ويتكلم بها نحو خمسة ملايين ولا يزال معظم آدابها غير مدون .

(ج) الباشتو (لغة الأفغان) :

وقد عُرِفت منذ القرن السادس عشر من الميلاد : وانحنت لغة رسمية لأفغانستان منذ سنة ۱۹۳۶ . وتنكتب بالحروف العربية . وهي متأثرة بالفارسية : وكثير من آدابها لم يدون حتى الآن .

٣ - الشعية الأرمنية :

وهي لغة واحدة متميزة ذات كيان مستقل سادت في البلاد الجبلية الممتدة فيما بين العراق والأودية الجنوبية للقو芷 وعلى الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود . ولها أبجدية خاصة تتكون من ستة وثلاثين حرفاً : وتعود مثلاً دقيقاً للأبجدية الصوتية . ويرجع أقدم المخطوطات التي عُثر عليها من هذه اللغة إلى القرن التاسع

الميلادي . ولا يزال يُتكلّم بها في جمهورية « أرمينيا » في الاتحاد السوفيتي ، وفي مناطق أخرى مثل « جورجيا » « وأذربيجان » . وعدد المتكلّمين بها نحو ٤ ملايين وقد احتفظ أصحاب هذه اللغة بشخصيتهم وكثيراً منهم يتميّز خلال تاريخهم المليء بالملائسي والاضطرابات . ولا تزال لغتهم نشطة وقوية ، وتتضمن كلمات فرنسيّة مفترضة منذ أيام الصليبيين ، كما فيها قدر كبير من الكلمات الفارسية والمصطلحات الروسيّة .

أما الفصائل اللغوية الأخرى التي تتسمى إليها اللغات القومية الحديثة في آسيا فهي^(١) :

١ - اللغات الأتراكية :

ومنطقتها تشمل معظم أنحاء آسيا الصغرى وأسيا الوسطى . وقد استعمل أهل هذه اللغات في كتابتها حروفًا قومية يُعتقد أنها سامية الأصل ، وظلّت سائدة بينهم حتى دخول الإسلام فأحلّلوا محلّها الحروف العربية . وتتصف هذه اللغات بأنّها لغات التصاقية . ومن فروعها الحديثة « التatarية » على شواطئ « القوقاز » وجبال « الأورال » . و « القازاقية الأزبكية » التي يتكلّم بها نحو عشرة ملايين من المسلمين السنة في « طشقند » و « سمرقند » و « بخارى » و « فرغانة » و « القومية » على شواطئ بحر قزوين . ولكن أهم اللغات الأتراكية في العصر الحديث هي اللغة التركية العثمانية اللغة الرسمية للجمهورية التركية . وهي لغة أتراك الأناضول « وتراتشا » الشرقية . ومنذ تأسّست الإمبراطورية العثمانية في القرن الثالث الميلادي نشأ لهذه اللغة أدب عثماني يسمى اليوم بالأدب التركي . وهذه اللغة متأثرة تأثيراً كبيراً بالعربية والفارسية .

ويتكلّم بالتركية أكثر من عشرين مليوناً ، وتكتب الآن بالحروف اللاتينية وتتميز هذه اللغة بظاهرة الانسجام بين أصوات اللين أو الحركات . فصوت اللين الأمامي يتبعه أمامي مثله ، والخلفي يتبعه خلفي مثله وهكذا . وصوت اللين

(١) تركوا الحديث عن اللغة العربيّة إلى الفصل الخامس بالقومية العربيّة .

في اللاحق يتبع صوت اللين في الجذر الأصلي ويصبح مثلًا Evlalar بمعنى بيت يجمع Evler . أما Oda يعني حجرة فتجمع Odalar . واللغة التركية من اللغات النصفيّة ، فيها الجذر الأصلي يتركب عادةً من مقطع واحد لا يتغير ، ويتصل به لواحق متعددة للتغيير عن معظم الوظائف والعلاقات التحويّة . ويقع الفعل في آخر الجملة التركية . ويرغم أن التركية قد افترضت ألقاظاً كثيرة من العربية والفارسية قد حافظت على بنائها وتراكيها الخاصة خلال التراث .

٢ - الفصيلة الدرافية :

وتشتّب إلى شعب « الدرايف » الذي كان يسكن في جنوب الهند . وهي مجموعة من اللغات التي يتحدث بها نحو خمس ملايين في الهند ، أي نحو ٧٢ مليوناً معظمهم في المنطقة الجنوبيّة . وأهم خصائص هذه اللغات من حيث التصريح أنها تخالية من السوابق والدواخل . أما اللاحق فتحدد وظيفة الكلمة فيها . ومن خصائص هذه اللغات أيضاً أنها لا تتضمّن أي أثر للعنقى : وليس بها صيغ خاصة بالعنق . وأن بعض أصواتها مما يسمى بالأصوات الالتواية وأشهر فروعها الخديشة في الهند هي :

(أ) التاملية : ومنطقتها في الجنوب الشرقي من بلاد الهند « مقاطعة مدراس » وجزء من جزيرة سيلان ، وتعدّ آداب هذه اللغة من أغنى آداب اللغات الهندية بعد اللغة السنسكريتية . ويتكلّم بها نحو ٣٤ مليوناً . وطا تراث أدبي عريق يرجع إلى القرن الثاني من الميلاد .

(ب) الكناريّة : ومنطقتها حول مدينة « ميسور » وفي الجنوب الغربي من الهند : بذاتها مكتوبة كانت مزدهرة في القرن التاسع الميلادي . ويتكلّم بها نحو ٢٤ مليوناً .

(ج) التلوجو : ومنطقتها الشاطئ الشرقي من الهند شمالي منظمة « التاملية » ، وفي الجهات الشاسعة لجیدر آباد : بذاتها آداب عرفت منذ القرن الحادى عشر الميلادي . ويتكلّم بها نحو ٣٦ مليوناً .

٣ - الملايو - البولينيزية :

وهي مجموعة من اللغات يتكلّم بها شعوب تنتد من جزيرة « مدغشقر » في الغرب إلى جزيرة الفصح في الشرق ، ومن « فرموزا » وجنوب قيستان في الشمال إلى نيوزيلندا في الجنوب . وتتألف هذه المجموعة من شعوبين :

الشعبة الأندونيسية وتتضمن عدة لغات يتكلّم بها نحو ١١٥ مليونا . وقد تأثرت لغات هذه الشعبة باللغة العربية بعد دخول الإسلام في هذه المناطق ، ولذلك تتضمن كلمات عربية كثيرة . ومن لغات هذه الشعبة لغة « مدغشقر » ويتكلّم بها نحو ٤ ملايين وتنكتب بالحروف اللاتينية ، ولغة « الملايو » وقد أصبحت هذه اللغة الآن بثنائية لغة مشتركة لسكان كل الجزر الأندونيسية وبشبه جزيرة الملايو ؛ ولغة «جاوة» ويتكلّم بها نحو ٥٠ مليونا وهي لغة عريقة وطويلة تاريخ قديم ، وكانت تنكتب بالحروف الهندية في قديم الزمان ، وكان لها آداب قديمة حافلة باللاحام ، ولغة « سومطرة » ويتكلّم بها نحو ١٢ مليونا في جزيرة سومطرة .

أما الشعبة الثانية فنطقة انتشارها تنتد من نيوزيلندا في الجنوب إلى جزر « دلواي » في الشمال . ويتكلّم بها نحو ٣٥٠ مليونا من يسكنون عدة جزر صغيرة في المحيط الهادئ .

وتعود لغة « الملايو » أهم لغة في هذه المجموعة وأوسعتها انتشاراً . وقد أصبحت الآن تحمل المرتبة التاسعة بين لغات العالم الحديث . وأصبح لهذه اللغة في الشرق الأقصى أهمية كبيرة ، فهي بثنائية اللغة المشتركة لمعظم مناطقه ، وقد سميت « بيارا أندونيسيا » ، وانتخذت اللغة الرسمية للإدارة والحكم في هذه المناطق الساسعة . وقد ظلل أهل « الملايو » يستخدمون الحروف العربية في كتبهم وصحفهم زمنا طويلا ، وذلك لشروع الدين الإسلامي بينهم ، ولكنهم الآن لسوء الحظ قد بدأوا يتوجهون نحو الحروف اللاتينية . وتوصف لغة الملايو بأنها أيسر لغات العالم ، فليس فيها تلك المجاميع الصوتية الحسنة التي عرفت بها لغات

القرفاز . ونظام التصريف فيها سهل غير معقد . وكذلك تراكيب جملها بسيطة لا تعقيد فيها . وقد افترضت اللغات الأوروبية الحديثة بعض كلماتها مثل :

Bamboo, Sago

ومع أن لغات هذه المجموعة قد تبدو لأول وهلة متباعدة كل التباين ، غير أن الدراسة العميقة قد برحت على أنها تشارك في ملامع لغوية كثيرة . فمما ذكرها من « الفوئيات » تشابه تشابهاً قوياً ، وتتألف الأسماء فيها من مقطعين ، ويقع النبر على الأول منها . هذا إلى أنه ليس لظاهرة تكتم أو العدد في هذه اللغات صيغ خاصة أو تصريف متميز . ويعبر الفعل فيها بوساطة اللواحق والسوابق عن التعدي واللزم والبناء للمجهول والمطاوعة والمشاركة وغير ذلك . ويندر فيها تجاوز عدد من الأصوات الساكنة : كما يندر أن تنتهي كلماتها بالمقاطع المغلقة ، وترتب على هذا أن الأصوات الساكنة في هذه اللغات قد أخذت في الانكماس أو التناقض ، ومالت إلى الاختفاء من الكلام .

٤ - الصينية - التبتية :

مجموعة من اللغات المنتشرة في الصين . وهضبة التبت و « الحملاريا » وفي الهند الصينية : سiam وبورما وفيتنام وكمبوديا . وقد تيزرت منها في العصر الحديث لغات قومية ، على أساسها تكونت عدة دول في هذه المنطقة تعرف باسم فيتنام ، سiam ، وكمبوديا ، وبورما . ويرغم أن لغات هذه الدول قريبة الشبه بعضها البعض ، غير أن كلّ منها قد تطور وأصبح ذا كيان لغوي متميز ، بما سوّغ انفصال هذه الدول واستقلال كل منها عن الأخرى . وأهم لغات هذه المجموعة :

(١) الصينية :

وهي لغة جمهورية الصين ، ولها عدة لهجات أهمها لهجة العاصمة « بكين » التي تعتبر اللهجة الرسمية للجمهورية . والموطن الأصلي للغة الصينية هو منطقة النهر الأصفر ، ومنه انتشرت ناحية الغرب . ولها كتابة قديمة مزدوجة اللغة بين القومية والعالمية

من الرموز التي تدل على الصورة والتي تدل على الصوت . ولم تتغير الكتابة الحديدة عن القديمة إلا قليلاً في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد حين استعملت الريشة بدل أدوات الكتابة الصلبة . وهذه اللغة ذات أدب عريق يعدّ أغني أداب آسيا . وأقدم ما وصل إلينا منه مكتوبًا بعد حاضرًا لنصوص السنكريتية ، ولكن العصر الذهبي للأدب الصيني يعاصر العصر الذهبي للإغريقية . فالفيلسوف الصيني « مينج تسي » ولد قبل أرسطو بنحو ١٢ عاماً ، أى أنه عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ؛ ولكنهما عاشا وما تأدى دون أن يسمع أحدهما بالآخر . وأهم خصائص هذه اللغة أن ألفاظها آحادية المقطع ، وأن النغمة هي التي تحديد معنى الكلمة ، وأن الوظيفة التحوية للكلمة تُحدَّد بموقعها من الجملة ، وأن حرف اللام قد سقط واندثر من هذه اللغة .

ويتكلّم بالصينية الآن في الجمهورية الصينية الشاسعة : وفي بعض جهات الملادي والهند الصينية وسام وجزر الهند الشرقية . وظلت كذلك لغة الثقافة في اليابان « وكوريَا » و « أنام » زمناً طويلاً ، ومنها يستمدّ أبناء هذه البلاد دون انقطاع المصطلحات العلمية ؛ كما يستمدّ أبناء اللغات الأوربية الحديثة مصطلحاتهم من اللاتينية والإغريقية .

أما اللهجات الصينية فلا يكاد أصحابها يفهم بعضهم بعضاً . ويستخدم الكتابة الصينية بثابة أداة صلة بين أبناء هذه اللهجات التي لا يفهمون بها بعضهم بعضاً إلا كما يفهم الدنماركي السويدي أو كما يفهم البرتغالي الإسباني . ويعمل المسؤولون في الصين الآن على جعل لغة « بكين » اللغة القومية ، إذ يتكلّم بها في معظم أنحاء الصين . وقد فرض الزعيم الصيني « ماو تسي - تونج » بحكم القانون تعليم هذه اللهجة في كل مدارس الجمهورية الصينية .

وإذا سلمنا بأن التمييز بين اللهجة واللهجة أساسه الفهم المتبادل فحسب ، وجب أن ننظر إلى هذه اللهجات الصينية على أنها لغات لا هجات . ولذلك كانت الرموز التقليدية التي تشبه الكتابة التصويرية أمراً بالغ الأهمية لأصحاب

هذه اللهجات الصينية . فهم جميعاً يستطيعون قراءتها ولكن في نطق مختلف : أى كما يقرأ الأوربيون الأرقام . فحين يرى الإنجليزي الرقم ٥ يقول five ولكن الفرنسي يقول Cinqu و يقول كل من الإيطالي والإسباني شيئاً آخر .

(ب) التبتية :

ويتكلّم بها في منطقة هضبة «التبت» . وقد وصلت إليها نصوص قديمة من هذه اللغة ترجع إلى القرن الثامن الميلادي . ومن خصائصها الصوتية أنها تقبل توالى السواكن في أول الكلمة وآخرها ، وأن الاسم لا يتميز من الفعل إلا عن طريق السياق ، وأيّها تفرق بين المذكر العاقل والمذكر العاقل بإضافة لاحقة «با» للمذكر ، «ما» للمؤنث . وتتأثرت هذه اللغة بالأديرين البوذى والمسنكرى تأثيراً كبيراً .

(ج) البرمية :

ويتكلّم بها في «بورما» . وتتميز عن «التبتية» ب أنها لا تقبل توالى الأصوات الساكنة . لا في أول الكلمة ولا في آخرها . ويعبر عن الحالات الإعرابية بذرع الكلمة من الجملة . وهي تكتب بحروف من أصل هندي .

٥ - اليابانية - الكورية :

في الحق أن الصلة بين اليابانية والكورية لا تعدو أن تكون مجرد ظن أو حاس . فليس لدينا برهان قاطع على هذه الصلة سوى التشابه في البنية . فكلا اللغتين من النوع الأصفي . وكلاهما يتجاذل في التصريف ظاهر بالمعنى والمعنى والشخص . ولكن مثل هذا التشابه لا يقطع بأصلية الرايحة بين اللغتين .

أما اليابانية فتاريخها القديم مجهول أو لم تكتمل معرفتنا به . فهي تصطagne في الكتابة الرموز الصينية التي تعدّ من الكتابة الصويرية . والتي شاعت منذ القرن الرابع الميلادي . واليابانية مع ذلك ... يعكس الصورة الحديثة — تعد من اللغات التصريفية . ولذلك احتاجت إلى اصطدام بعض الرموز الصويرية .

فابتدعت منذ زمن طويل حروفاً تسمى «كانا»، تمثل مقاطع محددة ذات نطق ثابت . وقد تضاف هذه الحروف إلى الرموز التصويرية في الصحف والمجلات لمساعدة أولئك الذين لا يجيدون القراءة على الفهم السريع ، كان يكتب بالإنجليزية مثلاً five Pounds £ 5 .

ويلاحظ في الكلمة اليابانية أن حروفها متحركة ، بمعنى أن الحرف تعقبه حركة ، ثم حرف آخر تعقبه حركة أخرى وهكذا . والذلك توصف المقاطع اليابانية بأنها من النوع المفتوح أي الذي ينتهي بصوت لين أو حركة ، مثل «هراكي» : «نجازاكي» : «هيروشما» . . في حين أن الصينية تنتهي الكلمة فيها بصوت ساكن . وقد تأثرت اليابانية بالصينية أيضاً من حيث الألفاظ فقد افترضت اليابانية من الصينية — عبر قرون مضت ودون انقطاع — كلمات من أصل صيني للتعبير عن حاجتها .

وأما الكورية فتاريخها قبل القرن الخامس الميلادي يكاد يكون مجهولاً جهلاً تاماً . بل لا نزال حتى الآن نفتقد الوصف التحليلي الكامل لهذه اللغة في صورتها الحالية ، ولكن يبدو مع هذا أنه من المرجح أن الكورية ترتبط بال اليابانية . وقد افترضت الكورية كثيراً من الكلمات الصينية .

٣

في أفريقيا

إن الحديث عن اللغات في أفريقيا^(١) أمر مرهق غاية الإرهاق للدارسين . وقد توفر على دراسة هذه اللغات في السنين الأخيرة عدد من المتخصصين ليس بينهم لسو الحظ مصرى أو عربى . ويبلغ عدد اللغات في أفريقيا

The language families of Africa, by A. Werner.

(١)

Linguistic analyses, by A.M. Tucker.

Distribution of the Nilotic & Nilo-Hamitic Languages of Africa, by M.A. Bryan.

نحو ٥٠٠ لغة يتكلّم بها نحو ١٠٠ مليون من الزنوج الذين يعيشون جنوب الصحراء وفي المناطق الاستوائية.

فإذا استثنينا اللغة العربية في شمال أفريقيا، تبين أن هناك في شرق القارة لغتين قوميتين متميّزتين؛ إحداهما تسمى إلى الفصيلة السامية وهي الأمهرية اللغة الرسمية في أثيوبيا، والأخرى تسمى إلى المجموعة الكوشية وهي اللغة الصومالية.

١ — اللغة الأمهرية :

لغة قومية حديثة تسبّب إلى منطقة «أمهرَا» ويرجع أصلها تحدّرت من أختِ اللغة «البغرية» افترضت أو اندثرت. وقد تأثرت الأمهرية بعناصر كوشية. ومنطقة انتشارها تُمتد شماليًا إلى منطقة المتكلمين «بالتجرينية». وجنوبيًا إلى صحراء الدناكيل، أي معظم بلاد أثيوبيا الحديثة. وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي. وقد أصبحت الأمهرية اللغة الرسمية في أثيوبيا منذ القرن الثالث عشر الميلادي. وعلى أساسها تكونت القومية الحبشية.

٢ — اللغة الصومالية :

وتسمى هذه اللغة إلى فرع من الفصيلة الحامية يدعى المجموعة الكوشية التي تشمل الركن الشرقي لأفريقيا فيها عدّاً مناطق المنتشرة فيها اللغات الحبشية السامية. وتُمتد شماليًا بين النيل والبحر الأحمر وجنوبيًا إلى كينيا. أما في الغرب فتحدها المنطقة الجبلية في أثيوبيا. وقد بدأت دراسة هذه اللغات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وليس لها أدب مدون سوى بعض أسفار من الكتاب المقدس تشرّتها الإرساليات الدينية. وأشهر لغات هذه المجموعة «البعجة» و«الحالا»؛ والصومالية. غير أن الصومالية وحدّها هي التي تستحق أن يطلق عليها لغة قومية حديثة، فقد تغيرت عن أخواتها. واستشرت في بلاد الصومال وعلى أساسها تكونت القومية الصومالية.

فإذا تجاوزنا هاتين اللغتين بباحثين عن لغات قومية في أفريقيا وجدنا أنفسنا في عبطة خضم من اللغات واللهجات . غير أن الذين عنوا بدراسة هذه اللغات في حقلها الطبيعي قد اصطلحوا على تقسيمها إلى مجموعات ثلاث تميّز كل منها بخصائص لغوية محددة :

١ - المجموعة السودانية :

وهي التي تتمتد في شكل حزام عبر السودان الجنوبي من «جامبيا» إلى «كينيا» وتتضمن خليطاً عجيناً من اللغات المختلفة . وأهم خصائص هذه المجموعة : أن مفرداتها آحادية المقطع ، وأنها تكاد تخلو من التصريف على حسب العدد أو الشخص أو الجنس : وأن الإضافة فيها تكون بوضع المضاف إليه قبل المضاف فثلا : « محمد كتاب » معناه « كتاب محمد » ، وأن دلائل كثير من كلماتها ووظائفها التحوية تتغير بتغيير النغمة .

وأهم لغات هذه المجموعة لغة « الموسة » التي يتكلّم بها في السودان الأوسط وشمال نيجيريا . وقد اكتسبت هذه اللغة أهمية خاصة بين لغات أفريقيا في السنوات الأخيرة . وأصبحت بذاته لغة مشتركة للتجارة في مناطق متعددة من غرب القارة . وكنا نأمل أن تأسس عليها قومية حديثة في نيجيريا بعد استقلالها : ولكن الصراع الذي نشهده الآن في نيجيريا بين الشمال والجنوب يدل دلالة واضحة على أن القومية في جمهورية نيجيريا لم تستقر على وضع معين . فلم يكُن يتخلص ظل اللغة الإنجليزية لغة المستعمر حتى أخذت اللغات المحلية الأخرى في نيجيريا تتعال برأسها مطالبة بالانفصال . فالصراع الذي يدور الآن في نيجيريا هو في الحقيقة صراع لغوی بين « الموسة » و « والإيبو » . ويبدو أن ما في نيجيريا من لغات متعددة أشهرها « الموسة » ، و « كانو » في بعض جهات الشمال من الجمهورية ، « الإبوروبا » في الغرب ، « نوبى » في جهات أخرى من الشمال أيضاً : « إيدو » في الغرب . وأخيراً « إيبو » التي تسود في الشرق والغرب . يبدو كل هذا سبباً معاوياً لقيام قومية موحدة ؛ وكذلك الشأن في الدول التي استقلت

حديثاً في غرب أفريقيا ، مع ما في كل منها من تعدد اللغات . خذ مثلاً [غانا] التي يبلغ عدد سكانها نحو ٧ ملايين ، فيها من اللغات المحلية أربع لغات كبيرة هي : « أكان » . « توى » ، فولتا « السنفو » ، « إيوى » . وكذلك [داهوي] التي يبلغ عدد سكانها مليونين فيها تلات لغات هي : « بوروبا » ، « إيوى » ، « الفولاني » . و [السنغال] التي يبلغ تعدادها ثلاثة ملايين فيها أربع لغات هي : « الفولاني » ، « الولف » ، « ماندي » ، « السيرير » . و [سيراليون] التي يبلغ تعدادها ٥٢ مليون فيها لغتان محليتان هما : « ماندي » ، « تغى » . و [توجو] التي تعدادها في حدود مليون ونصف فيها لغتان هما : « إيوى » ، « القون » . و [مالي] التي تعدادها نحو خمسة ملايين فيها : « الفولاني » ، « ماندي مندينجرو » ، « ماندي عبارا » ، و « سونتىكة » . و [غينيا] التي تعدادها ٥٣ مليون فيها : « الفولاني » ، « ماندي مندينجرو » و « كيلالي » . . .

٢ - مجموعة البانتو :

وبعد هذه المجموعة أكثر انسجاماً أو أقل اضطراباً فيها بنيها من المجموعة السودانية . ويتكلم بها نحو ٥٠ مليوناً في وسط وجنوب أفريقيا على الحانب الآخر مما يسمى بخط « البانتو » الذي يعبر غربات « الكوتوغو » رأسياً ، من خليج « الكمرون » في الغرب إلى « مهاسا » في الشرق .

ومعنى الكلمة « بانتو » ba-ntu الناس أو القوم ، وهي جمع « مانتو » mu-ntu يعنى الرجل ، وقد سماها بهذا الاسم اللغوى المشهور « ولهم بذلك » في منتصف القرن التاسع عشر^(١) .

ويعتقد أبناء « البانتو » أن أجدادهم قد نزحوا نحو الجنوب من أعلى النيل وأحتلوا الوسط والجنوب الشرقي من القارة . ولكنهم فشلوا في غزو الجنوب الغربي حيث يقيم « الهوتسيت » و « البوشان » .

ومن أهم خصائص هذه المجموعة أن التصريف فيها مقصور على العدد والشخص ، دون الجنس ؛ وأن التصريف فيها يكون عن طريق المطابقة بين الأشكال المتعددة للاسم والسوابق Prefixes المتعددة في هذه اللغات . وأن الإضافة فيها على عكس المجموعة السودانية ، وأن كلماتها ثنائية المقطع في الغالب ، وأن مقاطعها مفتوحة أي تنتهي بحركة أو صوت لين ، وأن النبر يقع على المقطع الذي قبل الأخير من الكلمة . ولعل أوضح صفات هذه المجموعة أن مقاطعها المفتوحة ذات وقع موسيقى جميل ، وأن أصواتها توحي بالدلالة في شكل رائع . ولا يكاد يتتجاوز في هذه اللغات حرفان ساكنان إلا حين يكون أحدهما صوتاً أثنيّاً والثاني انفجاريّاً مثل بانتو bantu ، أو أن يكون الأول متبعاً « بباء » أو « واو » مثل سواهيلي Swahili ، « كينيا » Kenya .

أما ظاهرة المطابقة فتبدو واضحة حين يرتبط اسم بفعل أو وصف أو ضمير ، ففي هذه الحالة تضاف سابقة PreFix إلى كل من الاسم والفعل ، أو كل من الاسم والصفة : أو كل من الاسم والضمير . وتتحدد الدلالات عن طريق هذه السوابق : فمثلًا الاسم « غندا » تصبح « لوغوندا » أي اللغة . « بااغندا » أي الناس . و « أوغندا » أي المكان الذي يعيش فيه هؤلاء الناس . في السواهيلي مثلاً وهي أشهر لغات هذه المجموعة نلاحظ أن المقطع الأول من الاسم الذي في أول الجملة يُلْتزم : فيضاف إلى سائر الكلمات في الجملة بعده . ويمكن أن نسمى هذه الظاهرة بالمطابقة الاستهلاكية في أوائل كل كلمات الجملة . فمثلًا كلمة Umuntu التي معناها « رجل » تبدأ بالمقطع Umu الذي نراه في مجموعة كبيرة من الكلمات . فكلما استعملت إحدى هذه الكلمات في أول الجملة التزم هذا المقطع في أوائل الكلمات الأخرى من هذه الجملة . ويكون لتوضيح هذه الظاهرة أن نضرب المثل الآتي : الكلمة Wili معناها العدد « اثنين » ، فإذا شئنا تمييز العدد بكلمة مثل Visu التي معناها مُدِيَّة قلنا : Visu Viwili أي مدستان أو سكينان . وكذلك الثان في miti miwili معناها شجرتان ؟ Watu Wawili معناها شخصان .

وأشهر لغات هذه المجموعة وأوسعها انتشاراً «السواحيلى»، الذى هي في الأصل لغة «ززبار» وما يجاورها من السواحل . وقد استخدمت «السواحيلى»، بوصفها لغة مشركة في التجارة في كل أفريقيا الوسطى منذ زمن طويل ، أى أن مثلها مثل «الهوسة» في المجموعة السودانية . وقبل أن تتم السكك الحديدية في أفريقيا ، وقبل استخدام السيارات كان الاعتماد كله في استكشاف الأراضي يقوم على وسائل الركوب البدائية التينظمها السواحيليون . وتحتل اللغة «السواحيلية» الآن مركزاً مرموقاً بوصفها لغة العلم والتعليم في المدارس «بكينيا» «ونتجانيكا» ومناطق عددة في الكونغو البلجيكية . وتكتب هذه اللغة بحرف عربية ، وقد نمت ألفاظها وكلماتها نمواً كبيراً بفضل ما افترضته من ألفاظ عربية كثيرة .

أما الدول التي استقلت حديثاً في مناطق «البانتو» فلا تكاد القومية فيها تستقر على وضع معين ، وذلك بسبب تعدد اللغات في كل منها .

فمثلاً في «كينيا» و«تننجانيكا» و«ززبار» وهي المنطقة التي تسود فيها اللغة السواحيلية تجد بجانب هذه اللغة لغات أخرى هي : «الياو» . «نيامويزي» «سوکومويا» . «نياسا» . «الشعجا» . «كيمبورو» . «كامباز» . «الكافرونلدو» . «هابا» . «زنزا» . «أنجوى» . وكل هذه اللغات يرغم أن عدد السكان في المنطقة لا يكاد يتجاوز عشرين مليوناً .

ونجد في «الكونغو» التي تعدادها في حدود ١٥ مليوناً نحو سبع لغات محلية هي : «النجالا» . «منجو» . «البيلا» . «لولوا» . «اللوبا» . «اللواندا» . «اللامبا» .

أما «زمبيا» التي لا تكاد تتجاوز في تعدادها أكثر من ٥٢ مليون ففيها من اللغات المحلية ما يأتي : «اللوزى» . «اللامبا» . «النجبا» . «اللواندا» . «مارافي» . . .

ذلك هي المشكلة الكبرى في أفريقيا : وليس يرجى أن تستقر معها القوميات الأفريقية ، بل ليس يرجى معها أن تخنى الدول التي استقلت حديثاً

ثمار استغلالها . ومن واجب الرعماء والقادة في هذه القارة أن يُولُوا هذه المشكلة ما تستحق من عناية ، بل من واجب منظمة الوحدة الأفريقية أن تجعل منها الشغل الشاغل ، وألا تضنّ في سبيل حلها بجهد مادى أو أدبى مهما بلغ قدره . ويبدو أن من خير الحلول التي يمكن أن تُقترح لحل هذه المشكلة ، العمل على نشر لغة « الهوسة » في كل مناطق غرب أفريقيا بحيث تصبح لغة مشتركة بين أهلها ، ونشر « السواحلى » في كل مناطق شرق القارة لتصبح لغة مشتركة لها .

* * *

الفصل السادس

القومية العربية

يعترف كثيرون من الدارسين المحدثين بتعريف العالم الإيطالي «باسكال مانتشيني» للأمة إذ يقول : [إن الأمة مجتمع إنساني طبيعي مؤسس على وحدة الأرض والأصل والتقاليد واللغة ، على نحو كامل متفاعل في الحياة وفي الوعي الاجتماعي] . ويستمدون من كلامه في ثقة وحماس تعريفاً للقومية يتلخص في أن القومية في حقيقة أمرها شعور الناس في مجتمع ما بكينائهم وتمييزهم عن غيرهم ، ولا يتم هذا الشعور إلا إذا توافرت لهم عدة مقومات مشتركة هي : وحدة الأرض واللغة والتاريخ والمصالح المشتركة . فالجماعة التي تمتاز بوحدتها الجغرافية والجنسية وتقاليدها ولغتها ودينيها لها الحق في تقرير مصيرها السياسي ؛ ومن ثم جاء المبدأ المشهور الذي عرف في إثر الحرب العالمية الأولى وسيجيئ بحق تقرير المصير .

ولما اتجه الرؤساء والقادة في هذه الأيام إلى بعث القومية العربية شهدنا كثيراً من كتابنا وعلمائنا يغمرهم الحماس للفكرة ، ويسكرهم صداها القوى في البلاد العربية ، فيحاولون دعمها بحديث مفصل عن كل العناصر التي وردت في تعريف العالم الإيطالي للأمة ، فكأنما قد أحسوا أنه لا يمكن في دعم القومية العربية ، أن تُعزى إلى مقوم واحد أساسى كاللغة مثلاً ، فأشركوا معها ما سموه الاشتراك في الوطن الجغرافي وتصدى لهذا علماء الجغرافية ، والاشراك في التاريخ وعُتّى بهذا أسائلة التاريخ ، والاشراك في المصالح الاقتصادية وعالج هذا طائفه من الاقتصاديين ، بل والاشراك في الدين كما يؤكد لنا بعض من المفكرين . وتفتقد بين هؤلاء الكتاب المحدثين حديثاً مفصلاً عن دور اللغة في نشأة القومية ، فلا تكاد نظفر في كلامهم عن دور

اللغة إلا بحدث عابر سريع لا يدل على معاناة حقيقة لهذا الدور ، أو دراسة تخصصية في اللغة وطبيعتها ووظائفها في المجتمع .

ونحن نحمد هنا الخامس لتلك الفكرة القومية التي يدعو الجميع إلى بعثها ودعمها ، ولكننا في الوقت نفسه لا نتصور كيف يمكن أن يقال كما يقول المغارفيون منهم : (إن الوطن العربي من الناحية الجغرافية يمثل وحدة متكاملة متناسقة العناصر . فهو بمثابة إقليم متميز في مساحته وموقه وخصائصه الطبيعية)^(١) . يقال مثل هذا بوعن أن الوطن العربي يمتد من المحيط إلى الخليج ، وبرغم اختلاف المناخ فيه اختلافاً واضحاً ، إذ يمتد عرضاً في حدود عشرين درجة عرضية تجعل من بعض أقاليمه ما يشبه الزمهرير ، ومن البعض الآخر ما يشبه الجحيم . وهل من اليسير أن تتجاهل الصحاري والجبال وطبيعة التربة ، وأن تقول مثلاً : إن هناك وحدة جغرافية بين بلاد الشام وبلاد المغرب من ناحية والسعودية والسودان من ناحية أخرى ؟ ولم لا تذكر أن بلاد العرب تقع الآن في قارتين ، وتذكر مع هذا أن وسائل المواصلات الحديثة وتطورها العظيم لم تدع للحدود الجغرافية ما كان لها في قديم الزمان من أثر في عزل القوميات بعضها عن بعض ؟

أما حديثهم عن الاشتراك في التاريخ فيكتفيه بعض الغدوض . بل فيه بعض الخلط بين الاشتراك في التاريخ والاشتراك في التراث الفكري . فقد مر الوطن العربي بأحداث تاريخية متباينة . وليس من الضروري في الحديث عن القومية العربية أن نشير إلى حركات السلاجقة في العراق وأرض الجزيرة ، وإلى حركات الأيوبيين في مصر والشام ، والمرابطين والموحدين في المغرب . والمماليك في مصر ، بل ولا إلى أثر الحروب الصليبية التي يكاد أمرها يقتصر على بلاد الشام ، والمغول الذين لا نعرف لهم دماراً حقيقياً إلا في بلاد العراق وما حوطا . أما الاشتراك في التراث الفكري فهو حقيقة لا مراء في هذا . ولكنه كما سرني يمثل ناحية من دور اللغة في القومية .

(١) دراسات في المجتمع العربي لطائفنة من الأساتذة الجامعيين ص ٤٧ ، نشر دار النهضة العربية سنة ١٩٦٢ .

وأما الاشتراك في المصالح الاقتصادية فدعوة حديثة ينادي بها أصحاب مذهب اقتصادي معين ، ولكنها في رأينا ليست من عوامل نشأة القومية ، وقد تكون من عوامل دعمها . فالشعب يحس بكتابه وتميذه أولاً ، ويتناول الجاذبية السحرية التي تربط بين أفراده ، ويجذب بعضهم إلى بعض لتألف منهم كنه متميزة ذات شعور موحد وفكرة موحدة وكيان متميز ، ثم يحملهم هذا كنه على التعاون فيما بينهم والتماسهم معاً ما يكفل لهم جميعاً الاستقرار والأمن والرخاء . وحيثند يلتمسون لأنفسهم نظاماً من الحكم يحقق لهم ذلك ، ونظاماً اقتصادياً يلائمهم ويطمئنون إلى نفعه وجدواه . فالبعث القوى يبدأ أولاً ، وله مقومه الأساسي الذي تنشأ القومية وتولد في أحضائه ؛ وفي ظلال هذا البعث يلتمس أصحاب القومية الواحدة ما يعتقدون أن فيه خيرهم وصلاحهم وما يحقق لهم منافع دنيوية .

ونلحظ أن معظم الذين كتبوا عن القومية في العصر الحديث ينظرون الآن إلى ما يسمى بوحدة الجنس على أنه مجرد أسطورة . فليس هناك ما يمكن أن يسمى بالجنس العربي الخالص . فتلك القبائل التي فتحت الأنصار ؛ وتلك المجرات القبلية التي ظلت بعد ذلك قد امتصت كلها وهضمت في البيئات الجديدة . فلا نكاد نشهد الآن سمات أو ملامح جسمانية خاصة يتميز بها المواطن العربي . وقد أشرنا آنفاً إلى عدم جدية ما يسمى بوحدة الجنس في تكوين القوميات الحديثة .

أما الذين ربطوا بين الدين الإسلامي والقومية العربية فعدرهم أن الدعوة الإسلامية قد ارتبطت منذ ظهورها ارتباطاً وثيقاً بلغة العرب ، فالمعجزة الكبرى للإسلام تمثل في القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين ، ودعى المسلمين في جميع بقاع الأرض إلى التبعيد بعض نصوصه . فهم في صلامتهم ونكبهما وفي كل شعائر الإسلام يطالبون بقراءة ما يستطيعون من آياته البيئات ، فلا تصح صلامتهم ولا يتم تعبدهم إلا بترتيل تلك الآيات . ولكن مع هذا لا نُنصف الدين الإسلامي حين نربطه بالقومية العربية أو نقصر أمره عليها . فهو دين الناس كافة ، ولا تقتصر دعوته على شعب معين ، فهو دعوة روجبة

عالمية ولا تقف تعاليه عند حدود القوميات ، ولكنها مع هذا لا تناقض القومية ولا تدعوا إلى تحريرها ، بل سارت الدعوة الإسلامية جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى القومية منذ ظهور الإسلام . ولست بحاجة إلى الإفاضة في الحديث عن العالمية في الإسلام والمسيحية ، فتحزن نشهد الآن قوميات متميزة في أوروبا بين المسيحيين ، كما نشهد بين العرب أصحاب القومية الواحدة ، عدداً كبيراً من ظلوا على دينهم المسيحي ويؤمنون مع هذا بقوميتهم العربية إيماناً قوياً . وفي العالم الآن عشرات الملايين من المسلمين الذين لا يحسنون كلاماً عربياً ، ولا يخطر في بالهم أنهم يسمون إلى قومية عربية . في حين أن الوطن العربي الحديث يضم ملايين من المسيحيين ليس بينهم عربي واحد لا يحسن الخطاب باللسان العربي وسيطر عليه .

فالقومية العربية تمثل في شعور المرء نحو قومه ، أما الدعوة الإسلامية فتتجلى في موقف العبد من ربِّه ، وفي أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وفي مثل الآية الكريمة: « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » . غير أن صلة الإسلام بالقومية العربية أوثق من صلة المسيحية بقوميات أوروبا . وذلك للصلة التي بين الإسلام واللغة العربية . أي أن الإسلام يرتبط بالقومية العربية على قدر ارتباطه باللسان العربي لا أكثر ولا أقل . فالإسلام دعوة سماوية روحية عالمية ، في حين أن القومية العربية دعوة اجتماعية تحصر في قوم معينين ، ومع هذا لا تناقض بين الدعوتين ، بل إن الإسلام منذ ظهوره قد عمل على تعميق الشعور بالقومية العربية . فالذكر الحكيم الذي نزل به الروح الأمين ، ووعدهما سبحانه بالحفظ عليه ، يتالف من نصوص بتلك اللغة التي عليها تأسست القومية العربية .

القومية العربية قبل الإسلام :

يجمع الدارسون الآن على أنه كان للعرب قبل الإسلام لغة مشتركة انتظمت جل أنحاء شبه الجزيرة . وأصطنعت في الحالات الجدية من القول . فقد نظم بها الشعراء وخطب بها الخطباء وكثبت بها الرسائل والوصايا . وأهم

ما تتصف به هذه اللغة المشتركة الموزجية الأدبية أنها سمت على اللهجات المحلية القبلية ، فلا تتضمن صفة خاصة لإحدى القبائل . وقد نشأت هذه اللغة المشتركة وقت وازدهرت قبل الإسلام ، وأصبحت قبيل ظهور الإسلام سجلاً لكل الآداب الباهلية . أما كيف نشأت هذه اللغة فيُعزى ذلك إلى عدة عوامل منها الروحي ومنها الاقتصادي ، بل ومنها السياسي . فقد تطلع العرب القدماء إلى بنية مكة وما حوطها من مدن الحجاز ، يحجون إلى الكعبة ويؤدون المناسك فيها ويلتسمون الزلق من أصنامهم التي توسطها صنم قريش المسمى « هيل » . وترتبط على مواسم الحج قبل الإسلام أن اجتمعت وفود القبائل وتأثر بعضهم بلغة البعض ونشأ عن تلك الاجتماعات الروحية نواة لغة مشتركة بين العرب مؤسسة في أغلب زرها على لهجة مكة والجاز . وساعد على تبلور هذه اللغة واستقرارها ذلك العامل الاقتصادي الهام الذي يتمثل في أسواق العرب قبل الإسلام التي أشهرها « عكاظ » وهي السوق العامة للعرب وكانت تعقد قرب مكة في شهر « ذي القعدة » ، وسوق « الحجنة » وكانت تعقد في أواخر ذي القعدة بعد موسم عكاظ ، ثم سوق « ذي الحجاز » في أوائل ذي الحجة . ثم سوق « خيبر » بعد موسم الحج .

ولم يكن أمر هذه الأسواق مقصوراً على تبادل المنافع في البيع والشراء . بل كانت بمثابة مؤشرات ثقافية للعرب ، أو كما يصفها المستشرقون كانت أشبه بالأعياد الأولمبية لدى اليونان القدماء . في هذه الأسواق كانت تشد القصائد ، ويخطب الخطباء وتقوم المساجلات والمناظرات ، وتستمع وفود العرب بكل ذلك الناج الأدبي الرائع . فهي مجال المبارزة والمنافسة الأدبية بين العرب ، ولا يتصور أن تم مثل هذه المبارزة إلا على أساس لغة موحدة يسيطر عليها الخاصة بين وفود القبائل ويتنافسون في إتقانها نظماً ونثراً : كما يفهمها عامة العرب وينفعون بحسن جرسها وجمال موسيقائها . ثم تعود الوفود إلى قراها أو مناجعها ، وتنشر كل ما سمعت أو بعضه في ربوعها .

وهكذا تَمَّت نشأة اللغة العربية المشتركة قبل الإسلام فوُجدت من شعور

العرب بكينائهم وتميزهم عن الأمم الأخرى من فرس وروماني ويونان : بذلك اللسان العربي المبين ، الذي عليه وحده تأسست القومية العربية مع ماظل عليه العرب من بعض مظاهر الفرق . فقد ظلت كل قبيلة أو مجموعة من القبائل تختلف في عبادتها صيحاً خاصاً ، وتوتر أن تحافظ على أنسابها ، ولا تخضع إلا لرؤسائها وشيوخها . وربما شنوا الغارات بعضهم على بعض بياض الفتوة وحب المغامرة ، أو طلباً للثأر ، أو النزود عن حياضهم ، ولكنهم برغم هذا كانوا يشعرون أنهم جميعاً عرب ، وأن هناك ما يجذب بعضهم إلى بعض ويجمع شملهم أمام الغزو أو العدوان الأجنبي . وكان ذلك الجامع لهم والموحد لكينائهم يتمثل في لغتهم العربية التي اعتبروا بها كل الاعتزاز ، والتي أصبح الرجل منهم يقاس مركزه بين قومه بمقدار إتقانه لها وسيطرته عليها . وهكذا نشأت القومية العربية قبل الإسلام على أساس اللغة وحدتها .

فلما جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم بهذه اللغة الكريمة عظم شأنها واكتسبت فوق ما كان لها بين قومها من حب واعتزاز وإثارة : الخلود الذي وعدنا به سبحانه في قوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْكِتَابَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

غير أن الدعوة الإسلامية التي جاءت إلى الناس كافة . والتي تسمى بالعالمية في تعاليمها وشرائعها وكل أنسابها . قد ببرت العرب في أوائل عهد الإسلام ووجههم وجهة أسمى من القومية الخاصة : ونظرنا فإذا الدعوة تناهى بالإسلامة . وأن المسلمين إيخوة في الدين . وأن مثل المسلم للمسلم كمثل الحسد إذا اشتكي منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وأن المسلمين بعضهم البعض كالبيان المرصوص : وأنه لا فضل لعربي على أعمى إلا بالتفوى . فأدخل كل ذلك العرب وبهرهم ، وجعلهم يتوجهون بكل قلوبهم وعواطفهم نحو هذا الدين الحنيف . ثم كانت الفتوحات التي تمت في صدر الإسلام لنشر الدين في ربوع الأرض . وتشييت أركانه فيها وراء شبه الجزيرة . فشعور العرب كلهم في تلك الفترة كان مخصوصاً في الدعوة الإسلامية . وفي أنهم المسلمون الذين دعوا إلى إنقاذ الناس في البغاع الأخرى من الغواية والضلالة . ليهتدوا مثلهم .

وليصبحوا إخواناً لهم في هذا الدين الجديد . وهكذا انصر شعراء العرب أو كادوا عن النظم فيها تعودوه قبل الإسلام ، والتغوا حول النصوص القرآنية والأحاديث النبوية يستمدون منها مثلهم الأدبية والخلفية . فأصبحت السيادة الإسلامية أكثر منها للعربية دون تناقض بينهما ، أو حض على ذلك إحداهما لحساب الأخرى .

فلمما استقرت الفتوحات في العهد الأموي واتصل العرب بأقوام آخرين في الأمصار ، لم يلسان غير لسانهم ، وشق التفاهم بين هؤلاء وهؤلاء ، عاد إلى العرب إحساسهم بلغتهم ، وبدأوا يشعرون أنها التي تميزهم عن غيرهم ، وأن كيانهم ووطنيتهم تنحصر في تلك اللغة التي اعتز بها أجدادهم قبل الإسلام ، والتي شرفت بتزول القرآن بها . فقوى اعتزازهم بها ، واشتد استمساكهم بكل خصائصها ، وعاد لهم شعورهم بالقومية العربية ، مع الشعور بتميز لغتهم العربية عن اللغات الأخرى التي صادفوها في الأمصار . فتحولوا الدوّارين من الفارسية إلى العربية في فارس ، ومن الرومية إلى العربية في الشام ، ومن القبطية إلى العربية في مصر . لا مبالغة إذن أن يقال إن الدولة الأموية كانت عربية أكثر منها إسلامية . ولكنها لم تسم كما يصورها بعض المؤرخين من المؤرخين بالعصبية البغيضة وبالترمذ وضيق الأفق . ويبدو أن الدولة الأموية كانت تعمل على نشر اللغة العربية مع نشر الإسلام . وترك العربية تغزو ألسنة الناس في الأمصار كما تغزو الإسلامية قلوبهم وتقوسهم .

ونظرنا فإذا الصبغة العربية تسود في كل أعمال هذه الدولة ونظمها ومظاهرها الاجتماعية . فالخلفاء يرسلون أبناءهم إلى البادية ليكونوا بمنجاة من اللحن الذي شاع في الأمصار . حفاظاً على عروبيهم بالحفاظ على سلبيتهم العربية . ويروى أن الوليد بن عبد الملك كانت ثقافته في اللغة العربية ضعيفة ، وأنه كان لحانًا ، وأن عبد الملك كان يقول : (أضر بالوليد حينما له فلم نرسله للبادية) . فقد كانت البادية مدرسة لمن أراد أن يتعلم اللغة الفصحى بعيداً عنها انتشار بالأمسار من لحن بسب اختلاط العرب بغير العرب . ولكن عبد الملك لم يدع الوليد

فـ لـ هـ وـ خـ طـ هـ بـ لـ قـ الـ لـ حـ زـ مـ (إـ نـهـ لـاـ يـ بـلـ أـ مـرـ الـ عـ رـ بـ إـ لـاـ مـنـ يـ حـ سـنـ كـ لـامـ هـمـ).
وـ هـذـا دـخـلـ الـولـيدـ بـيـتـاـ وـأـنـحـذـ مـعـهـ جـمـاعـةـ مـنـ عـلـمـاءـ الـلـغـةـ وـأـقـامـ مـدـةـ يـشـتـغلـ بـهـاـ
وـيـحـاـوـلـ السـيـطـرـةـ عـلـيـهـاـ^(١).

وـكـانـ الـخـلـفـاءـ الـأـمـوـيـونـ يـقـرـرونـ بـجـالـسـ الشـعـرـاءـ عـلـىـ بـجـالـسـ الـفـقـهـاءـ،ـ هـمـاـ جـعـلـ
الـفـقـهـاءـ يـنـفـسـونـ عـلـىـ الشـعـرـاءـ حـظـوـهـمـ وـمـكـانـهـمـ،ـ وـيـقـفـونـ مـوـقـفـاـ عـجـيـباـ مـنـ الـفنـ
بـصـفـةـ عـامـةـ وـالـشـعـرـ بـصـفـةـ خـاصـةـ،ـ وـيـرـدـونـ فـيـ سـبـيلـ الـانتـفـاـصـ منـ قـدـرـ
الـشـعـرـ الـآـيـةـ الـكـرـيمـةـ:ـ (ـوـالـشـعـرـ يـتـبعـهـ الـغـاوـونـ،ـ أـلـمـ تـرـ أـنـهـ فـيـ كـلـ وـادـ يـهـيـمـونـ،ـ
وـأـنـهـ يـقـولـونـ مـاـ لـاـ يـفـعـلـونـ).

ولـعـلـ مـنـ أـوـضـعـ الـأـدـلـةـ عـلـىـ اـتـسـامـ الـدـوـلـةـ الـأـمـوـيـةـ بـالـعـرـبـيـةـ أـكـثـرـ مـنـ اـتـسـامـهـاـ
بـالـإـسـلـامـيـةـ:ـ أـنـ شـاعـرـ الـدـوـلـةـ الرـسـمـيـ كـانـ «ـالـأـخـطـلـ»ـ النـصـرـانـيـ الـذـيـ يـتـسـمـ
إـلـىـ قـبـيلـةـ تـغـلـبـ الـعـرـبـيـةـ،ـ وـيـحـسـنـ النـظمـ بـهـذـهـ الـلـغـةـ،ـ وـلـمـ يـؤـهـلـ هـذـهـ الـمـرـلةـ
مـنـ خـلـفـاءـ بـنـيـ أـمـيـةـ إـلـاـ أـنـهـ يـسـيـطـرـ عـلـىـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ الـتـيـ هـىـ قـوـمـيـةـ الـعـرـبـيـةـ؛ـ
وـكـانـ الـأـخـطـلـ أـثـيـرـاـ عـنـدـ عـبـدـ الـمـلـكـ يـدـخـلـ عـلـيـهـ بـغـيرـ إـذـنـ وـفـ عنـقـهـ سـلـسلـةـ
مـنـ ذـهـبـ وـصـلـيـبـ وـلـحـيـتـهـ تـقـطـرـ خـمـراـ؛ـ وـيـحـلـسـ مـعـهـ مـكـرـمـاـ وـهـوـ ثـمـلـ.ـ وـكـانـ
عـبـدـ الـمـلـكـ يـطـلـقـ عـلـيـهـ مـرـةـ شـاعـرـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ؛ـ وـمـرـةـ شـاعـرـ بـنـيـ أـمـيـةـ؛ـ وـمـرـةـ
شـاعـرـ الـعـرـبـ^(٢).ـ وـكـذـلـكـ كـانـ «ـالـقـطـائـيـ»ـ نـصـرـانـيـاـ مـنـ بـنـيـ تـغـلـبـ وـعـاصـرـ
الـأـخـطـلـ.

وـيـبـدـوـ أـنـ الـأـخـطـلـ نـفـسـهـ كـانـ يـعـتـزـ بـقـومـيـتـهـ الـعـرـبـيـةـ أـكـثـرـ مـنـ اـعـتـزاـزـهـ
بـتـسـيـحيـيـتـهـ.ـ فـيـرـوـىـ أـنـ أـمـرـأـتـهـ خـرـجـتـ مـرـةـ إـلـىـ السـوقـ فـرـ بـهـاـ أـسـقـفـ عـلـىـ حـمـارـ لـهـ
وـأـرـادـتـ أـنـ تـبـارـكـ بـلـمـسـ رـدـاءـ الـأـسـقـفـ فـلـمـ تـسـطـعـ أـنـ تـلـحـقـ بـهـ وـإـنـماـ لـحـقـتـ
بـذـيـلـ حـمـارـهـ،ـ وـعـادـتـ كـسـيـفـةـ الـبـالـ إـلـىـ زـوـجـهـ الـأـخـطـلـ وـشـكـتـ إـلـيـهـ
فـقـالـ لـهـ مـعـزـيـاـ:ـ (ـهـوـ وـذـيـلـ حـمـارـهـ سـوـاءـ)^(٣).

(١) الفخرى ص ١٠٩.

(٢) الأغافى ٢٨٧/٨.

(٣) الأغافى ١٧٤/٧.

١٧٩

لا غرابة إذن أن يكون مما هجا به الأختلط منافسيه وعيّرهم به أن أهم
غير عربية ، فهو الذي يقول :

وَمَا وَجَدُوا أَمَا لَهُ عَرْبَيْةٌ وَمَا أَسْهَرْتَهَا مِنْ خَتَانٍ كَلْوَمَهَا

ولا غرابة كذلك أن الأختلط لم يجد لدى «الوليد» اللحّانة نفس المخطوطة
التي كان يجدّها عند أبيه عبد الملك . فضعف الوليد في اللغة أضعف شعوره
بالقومية العربية ؛ وفقره من الشعراً وأهل البيان .

فالإسلام على عهد الرسول ، وصدر الإسلام على عهد الحلفاء الراشدين ،
قد اتسم بالسماحة من حيث اللغة العربية ، وقنع من المسلمين بأدائها على حسب
ما تستطيعه ألسنتهم . فالقرآن الكريم وإن نزل يتحدى الخاصة من فصحاء
العرب فإن الناس جميعاً عامتهم وخاصتهم قد دعوا إلى تلاوة ما قدروا عليه
من آياته في صلاتهم ونسكهم ، وهم قبائل متباينة ، وأصحاب لهجات في
الخطاب مختلفة ، فرقـت بينـهم بعض الصـفات الصـوتـية التي نـشـأـوا عـلـيـها ، وـغـيـرـتـ
بـهـاـ كـلـ قـبـيلـةـ . فـلـمـ تـنـاـولـ بـعـضـ الـعـامـةـ تـلـاـوةـ آـيـاتـ مـنـ الـقـرـآنـ ، وـنـطـقـواـ بـهـاـ عـلـىـ
غـيـرـ ماـ تـجـرىـ الـلـغـةـ الـمـوـذـجـيـةـ الـمـشـرـكـةـ الـتـيـ نـزـلـ يـهـاـ ، حـدـثـتـ تـلـكـ الـحوـادـثـ
الـفـرـديـةـ الـتـيـ يـرـوـيـ أـنـهـ وـقـعـتـ فـيـ حـيـاةـ الرـسـوـلـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ . فـيـرـوـيـ
مـثـلاـ أـنـ أـبـيـ بـنـ كـعـبـ دـخـلـ الـمـسـجـدـ يـصـلـ وـسـعـ رـجـلـ يـقـرـأـ آـيـاتـ مـنـ سـوـرـةـ
الـنـحـلـ قـرـاءـةـ تـخـالـفـ قـرـاءـتـهـ ، وـأـنـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ سـمـعـ هـشـامـ بـنـ حـكـيمـ
يـقـرـأـ سـوـرـةـ الـقـرـقـانـ عـلـىـ غـيـرـ مـاـ تـعـلـمـ عـمـرـ مـنـ الرـسـوـلـ ، وـأـنـ عـمـرـ بـنـ العـاصـ سـمـعـ
رـجـلـ يـقـرـأـ آـيـاتـ مـنـ الـقـرـآنـ قـرـاءـةـ أـنـكـرـهـاـ عـمـرـ ، إـلـيـ غـيـرـ ذـلـكـ مـنـ حـوـادـثـ
فـرـديـةـ تـرـوـيـ لـنـاـ ، وـيـقـالـ إـنـ أـصـحـابـهـ قـدـ اـحـتـكـمـواـ إـلـيـ النـبـيـ فـأـقـرـكـلـاـ عـلـىـ قـرـاءـتـهـ ،
وـقـالـ قـوـلـهـ الـمـشـهـورـ : (إـنـ هـذـاـ الـقـرـآنـ أـنـزـلـ عـلـىـ سـبـعـةـ أـحـرـفـ) ، فـكـانـتـ بـهـ إـحدـىـ
رـنـحـصـ الـإـسـلـامـ وـسـماـحـتـهـ مـنـ حـيـثـ الـلـغـةـ . ذـلـكـ لـأـنـاـ حـيـنـ تـنـظـرـ إـلـىـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ
فـيـ ضـوءـ الـرـوـحـ الـإـسـلـامـيـ نـرـىـ أـنـهـ يـهـدـفـ إـلـيـ التـسـيـرـ عـلـىـ النـاسـ فـيـ قـرـاءـةـ الـقـرـآنـ .
فـالـمـسـلـمـ أـيـّـاـ كـانـتـ لـهـجـجـتـهـ ، وـأـيـّـاـ كـانـتـ الصـفـاتـ الـكـلـامـيـةـ الـتـيـ درـجـ عـلـيـهاـ يـسـتـطـعـ
أـنـ يـقـرـأـ الـقـرـآنـ بـالـقـدـرـ الـذـيـ تـعـودـتـهـ أـعـضـاءـ نـطـقـهـ ، دونـ أـنـ تـنـكـرـ عـلـيـهـ قـرـاءـتـهـ

أو أن قسخر منها . أو كما عبر ابن قتيبة بقوله : (فكان من تيسير الله أن أمره أن يقرأ كل قوم بلغتهم ، وما جرت عليه عاداتهم . . . فلو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشطاً وكهلاً اشتد ذلك عليه وعظمت المحنـة ثم لم يعكرـهم إلا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتدليل للسامة وقطع للعادة) ^(١) .

بل نلحظ تلك السماحة بوضوح في دفاعـه صلى الله عليه وسلم عن سلمـان الفارسي وصـحـيبـ الرـوىـ وـبـلـالـ الحـبـشـيـ ، حين قـرـرـ أنـ كـلـ منـ يـتـكـلـمـ بالـعـرـبـيةـ فـهـوـ عـرـبـيـ . فـلـمـ يـقـلـ إـنـ مـنـ يـجـسـنـ الـعـرـبـيـةـ أـوـ يـجـيدـهاـ هوـ وـحـدهـ عـرـبـيـ ، بلـ كـلـ منـ يـتـكـلـمـ بالـعـرـبـيـةـ يـسـتـحـقـ أـنـ يـتـسـمـيـ إـلـىـ الـعـرـبـ ، وـأـنـ يـصـبـحـ وـاحـدـاـ مـنـهـمـ . وـبـهـنـاـ كـانـ يـشـجـعـ الرـسـوـلـ غـيـرـ أـبـنـاءـ الـعـرـبـ عـلـىـ تـعـلـمـ الـعـرـبـيـةـ ، وـيـغـضـ الـطـرـفـ عـنـ تـلـكـ الـفـرـوـقـ الصـوـتـيـةـ الـتـيـ بـيـنـ هـجـجـاتـ الـعـرـبـ ، وـعـنـ تـلـكـ الـانـحرـافـاتـ النـطـقـيـةـ الـتـيـ قـدـ تـسـمـعـ مـنـ الـأـجـنـبـيـ عـنـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ ، وـيـقـرـرـ أـنـ بـمـرـدـ الـكـلـامـ بـالـعـرـبـيـ يـؤـهـلـ صـاحـبـهـ لـلـانـتـاءـ إـلـىـ الـعـرـبـ أـيـّـاـ كـانـ أـصـلـهـ وـأـيـّـاـ كـانـتـ لـغـةـ أـبـويـهـ .

يروى الإمام مالك قال : (جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمـانـ الفـارـسيـ وـصـحـيبـ الرـوىـ وـبـلـالـ الحـبـشـيـ فـقـالـ : هـذـاـ الـأـوـسـ وـالـخـرـدـ جـ فـقـامـ مـعـاذـ بـنـ جـبـلـ فـأـخـذـ تـلـيـبـيـهـ . ثـمـ أـقـىـ بـهـ النـبـيـ — عـلـيـهـ السـلـامـ — فـأـخـبـرـهـ بـعـقـالـهـ ، فـقـامـ النـبـيـ — عـلـيـهـ السـلـامـ — فـأـعـلـمـ بـرـدـاعـهـ حـتـىـ أـقـىـ الـمـسـجـدـ ، ثـمـ نـوـدـىـ أـنـ الـنـصـلـةـ جـامـعـةـ ، وـقـالـ : يـأـيـهـاـ النـاسـ إـنـ الـرـبـ وـاحـدـ وـالـأـبـ وـاحـدـ وـلـيـسـ الـعـرـبـيـ بـأـحـدـكـمـ مـنـ أـبـ أـمـ ، وـإـنـاـ هـيـ الـلـسانـ ؛ فـنـ تـكـلـمـ بـالـعـرـبـيـةـ فـهـوـ عـرـبـيـ) ^(٢) .

وـمـكـنـاـ رـأـيـ النـبـيـ بـثـاقـبـ بـصـيرـتـهـ أـنـ بـجـاجـ الدـعـوـةـ الـإـسـلـامـيـةـ لـاـ يـتـمـ إـلـاـ بـالـفـضـاءـ عـلـىـ كـلـ مـظـاهـرـ الـعـصـبـيـةـ الـجـاهـلـيـةـ وـمـنـهـ عـقـدـةـ الـلـغـةـ . فـهـوـ الـذـيـ يـقـولـ : (إـنـ أـكـرـمـكـمـ عـنـ اللـهـ أـتـقـاـكـمـ) ، وـيـقـولـ : (كـلـكـمـ لـآـدـمـ ، وـآـدـمـ مـنـ تـرـابـ ، لـاـ فـضـلـ لـعـرـبـيـ عـلـىـ أـعـجـمـيـ إـلـاـ بـالـتـقـوـيـ) ، وـغـيـرـ ذـلـكـ مـنـ أـحـادـيـثـ تـقـرـرـ مـبـداـ مـنـ أـسـمـيـ .

(١) كتاب القرطيني ج ١ ص ٢٢٢ وكتاب التهجيات العربية ص ٤٦ .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٦ ص ١٩٨ .

مبادئ الإسلام هو الآخرة الإسلامية .

ولا يصح أن نتصور أن ما حدث في عهد عثمان من جمع المسلمين على مصحف واحد كان انتكاساً لتلك الساحة التي شهدناها على عهد رسول الله، بل امتداداً لعمل النبي على جمع شمل المسلمين والهؤلئين ما أمكن من قدر تلك الفروق الصوتية التي من شأنها لغات أجدادهم قبل الإسلام ، من فارسية ويونانية وقبطية وغيرها . فهدف عثمان كان أيضاً القضاء على عقدة اللغة بين المسلمين في الأمصار ، فعمل على جمع المسلمين على مصحف أمر بكتابتها وزعها على الأمصار ليحول دون بليتهم في قراءة القرآن ، ولبيعجم شملهم .

وهكذا نرى أن الإسلام على عهد الرسول والخلفاء الراشدين كان يتربيص بأصحاب العصبية اللغوية ، ويدعو إلى السماحة من حيث اللغة ، ويقنع من المسلمين بأداء العربية على حسب ما تستطيع ألسنتهم ، ويرى أن الأولى أن تجمعهم الوحدة الإسلامية ، وأن يكونوا إخواناً في الدين . وهذا لا نعرف أن أحداً من الفاتحين في صدر الإسلام قد دعا الناس في الأمصار إلى تبدّل لغات آبائهم . بل وجهت الدعوة كلها إلى الدين والدخول فيه ، ولم يطلب من المسلم في الأمصار أن يتعلم من العربية إلا بضع آيات من القرآن تصح بها صلاته ، وتم بها عبادته .

وإذا كان ماحدث فعلاً بعد ذلك من أن كثيراً من الناس في الأمصار قد هجروا لغات أجدادهم ، فإنما كان ذلك منهم عن طوعية ، وعن رغبة في تعلم تلك اللغة التي نزل بها القرآن . وهو دستور دينهم الجديد والمعجزة الكبرى له .

أما في عهد الدولة الأموية فقد تبدل الحال كما أشرنا آنفأ ، وأصبحت الدولة عربية أكثر منها إسلامية ، وبدأت النظرة للMuslimين من غير العرب على أنهم الموالى . ولم يكن لقب الموالى لدى الأمويين يدل على أنهم أدنى من العرب متزلاً . أو أقل شأناً كما يزعم بعض المؤرخين من المؤرخين الذين أخذوا بأقوال من شنعوا على الدولة الأموية بعد زوالها ، من الشيعة

والعباسيين . فلم يكن بدعاً أن يلقب الأمويون غير العرب من المسلمين بالموالي وإنما كان هنا على نهج ما قام به الرسول من تقبيل أهل المدينة بالأنصار بعد الهجرة . وكلمة المвой ترافق كلمة الأنصار في دلالتها وأهدافها ، وإن أسيئت النظرة إليها بعد ذلك . فلم يقنع أولئك الذين شنعوا على الدولة الأموية إلا بأن يصووها بمثل ماتنتطوي عليه القصة التي يقال فيها إن أحد المواли خطب فتاة من بنى سليم وترجوها ، ففرغ محمد بن بشير الخارجي إلى ولائي المدينة وشك إلينه ، ويقان إن الوالى أرسل في طلب الزوج وفرق بيته وبين امرأته وضربه مائى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه .^(١)

والذى لا شك فيه أن الدولة الأموية كانت عربية في تقاليدها ونظمها ، وأن مقاييس الأمور فيها كانت بيد العرب من خلافة أو ولاية أو قيادة ، وأن الأمويين كانوا يعتزون بقوتهم العربية ، ولكنهم لم ينظروا إلى المвой على أهم حوزتهم جنساً أو لغة ، بل إنخوة في الدين ، وأنصار في الإسلام .

لا غرابة إذن أن شهدنا اختلاط العرب بغيرهم في عهدهم بنى أمية ، بل امتداجهم بهم عن طريق المصاهرة في كثير من الحالات . ولا غرابة أن نشهد في عهدهم بعض القواد والولاة مثل « عبيد الله بن زياد » الذى لم يكن يحسن النطق بالعربية فيبدل الحاء هاء والتاء كافاً . بل شهدنا من أبناء الفارسيات من يتولى الخلافة مثل « يزيد بن الوليد » سنة ١٢٦ هـ . كذلك كان في العصر الأموي طائفة من أهل العلم الذين ولدوا في بيته فارسية ، ومع هذا كانوا محل التجلة والاحترام من جميع الناس ، مثل الحسن البصري الذى يروى أنه حين توفي خرجت البصرة على بكرة أبيها لتشييع جنازته حتى تعطلت صلاة العصر في المسجد الجامع ، هذا برغم أن أباه كان أحد الأسرى من مدينة « ميسان » .

انتشار الإسلام في فارس :

بعد أن استقرت الفتوحات الإسلامية ، وساد السلام ، أخذ الدين الإسلامي يغزو قلوب الناس في الأنصار وعقولهم ، وأقبلوا عليه إقبالاً منقطع النظير .

(١) ضحي الإسلام ج ١ ص ٢٤ .

فقد انتشرت الدعوة الدينية في ریوع فارس ، واتسم انتشارها هناك بالرغبة لا الرهبة . فقد سارع الناس من أهل فارس إلى هذا الدين الجديد الذي قضى على ما كانوا فيه من ببلة روحية . ذلك أن بلاد فارس قبل الإسلام كانت تتنازعها ديانات ثلاثة : الدين الرسمي للدولة وهو المسمى بالزرادشتية الذي ظهر هناك خلال القرن السابع قبل الميلاد ، وظل سائداً بين الكثرة الغالبة من الفرس حتى جاء الإسلام . وكان هذا الدين ينادي بأن الإله الحق هو « أهورا مزدا » ، أي أنه فيها يجدو كان يدعوا إلى الوحدانية : غير أن أتباعه فيما بعد قد أفسدوا هذه الوحدانية بinterpretations وتآويلات ترتب عليها أن نشأ بينهم خلاف ديني يشبه إلى حد كبير ما بين المسيحيين من أنصار الطبيعة الواحدة والطبيعة الثنائية . وقد خلف « زرادشت » صاحب هذا الدين أو الداعي إليه كل تعاليمه في كتاب مقدس يدعى « الأفستا » . وبيرغم أن هذه الديانة ظلت خلال قرون ، الديانة الرسمية لبلاد فارس : كان كثير من أهلها لا يطعنون كل الامتنان لمبادئها ، ويتعلمون إلى دين آخر يشع عاطفهم ونزعاتهم الروحية . لذلك ظهر بينهم في العصر المسيحي عقائدان غير « الزرادشتية » : إحداهما في القرن الثالث من الميلاد وهي « المانوية » . والمأنوية ديانة تأثرت بالفلسفة اليونانية وبالمناداة المسيحية في بعض تعاليمها . وكان بين أصحاب « الزرادشتية » و « المانوية » صراع ديني مرير انتهى بقتل « مانى » مؤسس « المانوية » شر قتلة . ولكن « المانوية » مع هذا ظلت شبه سرية في بلاد فارس ، ووجدت صدراً رجياً في بعض مناطق بلاد الحيرة ..

وأخيراً كان المذهب « المزدكي » الذي دعا إليه « مزدك » . وقد ادعى « مزدك » أنه يوحى إليه ، ثم جاء الناس بتعاليم جديدة غريبة ، منها أنه أبطل احترام النار ، كما أبطل الملكية الشخصية للملك والعقار ، بل والنساء .. فهو مذهب إباحي أقبل عليه كثير من الغوغاء والرعايا ، واعتنته « قيادة » أحد ملوك الفرس فترة من الزمن . ولكن مصير أصحاب هذا المذهب لم يكن أسعد من مصير أصحاب المانوية في تلك البلاد .

وهيكلنا نرى أن العقائد في بلاد فارس حين جاء الإسلام كانت تسودها ببلة روحية جعلت الناس يتطلعون إلى ما ينتظرون منها . فلما جاء الإسلام وجدوا فيه طلبهم المنشودة ، فأقبلوا عليه إقبالاً عظيماً . وفي خلال سنوات كان الدين الحنيف يسود في كل بقاع فارس وأفغانستان . وكان تمكّن الفرس بالدين الإسلامي واعتزازهم بتعاليمه أيام الأمويين لا يقل عن العرب الذين جاءوا بهذا الدين الجديد . وظلت بلاد فارس بعد ذلك وفي كل العصور بلاداً إسلامية لا تخيد عن تعاليم الإسلام ، بل ربما أوغلت فيها أحياناً إلى حد العصب ، مما أدى إلى نشأة عدة فرق إسلامية فيها بعد .

صراع العربية مع الفارسية :

لم يكن هناك صراع ديني بين العرب والفرس في عهد النبي أمير بل صراع لغوی ، أو صراع بين قوميتين . وظهرت بوادر هذا الصراع حين قام عبد الملك ابن مروان بتعريب الدواوين في الأنصار . فقد قوى الشعور بالقومية العربية في عهده ، إذ تبين للعرب بعد اتصالهم بالأنصار أن خواص لساناً عربياً مبيناً يتميزون به ويحسنون وحدهم أداءه . ونظم الكلمة بالفاظه وعباراته . والنطق بأصواته . فاشتد تعليقهم واعتزازهم بهذا اللسان وأصبحوا يرون أنهم لم يسموا عرباً . ولم يكن لهم ذلك الكيان المميز إلا على أساس لغتهم . ولذلك قرب « عبد الملك » شعراء الدولة وأدباءها من مجلسه . وذهب نفسه حاميأً لتلك اللغة الشريفة التي كرمها الله سبحانه بنزل القرآن الكريم بها . واشتهرت في عهد عبد الملك المجالس الأدبية التي اجتمع فيها الشعراء وأهل الفصاحة والبيان . وأثيرت فيها عسائل من النقد الأدبي ، والغوص عن نواحي الجمال والبلاغة في النص العربي . وكان عبد الملك يشعر شعوراً قوياً بخصائص لغته ، ويحاول جاهداً الحفاظ عليها ووقايتها من الانحراف والازلل الذي بدأ يجور على بعض ألسنة الناس في عهده . ولذلك حين سُئل لقد عجل إليك التسبيب يا أمير المؤمنين . أجاب : « شبيبتي مواقف الخطابة وتوقع اللحن » .

وأسف عبد الملك أسفًا شديداً لظهور التحقن على سان ابنه «الوليد» وقال كلمته المشهورة «أضر بالوليد حبنا له فلم نرسله تبادلة» . ولكن ابنه الآخر سليمان كان مثل أبيه مشهوراً بالفصاحة وحسن النية .

ورأى عبد الملك بثاقب رأيه وبالغ حرصه على تجنب أن يقوم بعمل خطير فيه قدر كبير من المغامرة ، ولكن في نجاحه حماية لغة العرب ، ونصرًا لسياسته العربية ، فأمر بتعريب الدواوين حتى لا تكون لغة غير العربية منه أو دالة .

أما كيف تم هذا التعريب ، وما هي المشك في يمكن أن تكون قد صادفته فلا تحديداً كتب التاريخ عن تفاصيل ذلك . بل تكتفي بأن تشير إلى أن الذي عرب ديوان العراق من الفارسية إلى العربية هو صالح بن عبد الرحمن ، وأن الفرس حاولوا عبثاً أن يشوهوا عن هذا : فلما أتى قال له رئيس الديوان مروان شاه «قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل التجربة» .. وكان الحجاج هو الذي أصدر الأمر بتعريب الديوان تحقيقاً لرغبة خبيثة عبد الملك وإرادته . وتخير الحجاج لهذه المهمة الخطيرة صالح بن عبد الرحمن موطئ بيته الذي كان يحسن العربية والفارسية . ولما أراد الفرس أن يتهدى سأله : كيف تصنع بد هويه ، وبستويه ؟ فقال أكتب عشرًا ونصف عشر . فقالوا له وماذا تصنع «بويده» ؟ قال أكتب أيضًا . . . وبروى . . . الفرس قد بذلوا مالاً كثيراً لصالح بن عبد الرحمن لعله يظهر عجزه عن تعريب الديوان من الفارسية ؛ لكنه أبى وأدى مهمته خيراً أداء .

ولكن تعريب ديوان خراسان من الفارسية أيضاً لم يتم إلا في عهد هشام بن عبد الملك أي بعد نحو ربع قرن من تعريب ديوان العراق . فقد ظل هذا الديوان وحده يسجل بالفارسية حتى أمر هذا الخليفة نصر بن سيار والي خراسان من قبل بيته أمينة ألا يستعين بأحد من أهل الشرك في أعماله وكتابته . ورأى نصر بن سيار أن أكثر الكتاب بهذا الديوان من جموس الفرس فأمر بتعريبه . وقد قصمت هذه الخطوة ظهور أهل فارس وفزعوا منها فرعاً شديداً .

أما تعريب الديوان بعصر الشام فقد تم في عهد عبد الملك وابنه الوليد ،

ويبدو من كلام المؤرخين العرب أنه لم يصادف في هذين المصريين متابع أو مشاكل ، بل تحقق في هذو سلام . ويروى لنا أن رئيس الديوان بالشام « سرجون » كان يدل على الخليفة وأعوانه بمهارته في تدبير أمر الديوان ويتأقلم كلما طلب منه أمر ، فأشار عبد الملك بتحويل الديوان إلى العربية بدلاً من الرومية .

وكذلك كان الثان في تعريب ديوان مصر ، فقد أمر بهذا التعريب الوليد بن عبد الملك بناء على مشورة أخيه عبد الله والي مصر ، وأسوة بتعريب ديوان الشام .

ولكي نتبين بخلاء حقيقة النصراع اللغوي بين العربية والفارسية في المشرق يجدر بنا أن نشير إلى ما تألف منه المجتمع الإسلامي في أمصار العراق وببلاد فارس بعد أن استقرت الفتوحات . فقد نزح إلى بلاد فارس طبقة من الحكماء العرب وكانوا قلة في عددهم ، كثرة في نفوذهم وسلطانهم . وكان من الضروري أن يستعينوا في قضاء حوائجهم بآلاف من الفرس في صورة خدم أو عبيد أو طهاة أو تجار . ثم كان مع هؤلاء أولئك الأسرى الذين دخلوا بيوت العرب في صورة إماء ؛ ولم يكونوا أقل عدداً من سبقوهم . هذا إلى أن الكثيرين من العرب أقبلوا على الزواج بالفارسيات . وولد منها أبناء وأحفاد . ونتصور لهذا أن المجتمع الإسلامي في أمصار العراق قد تألف معظمها من المولى الفرس الذين لا يكادون يحسنون العربية . وكان من الطبيعي أن يتعد هذا المجتمع الإسلامي وسيلة للتفاهم فيما بينهم . ثم بما بعد قليل من الزمن أن العرب يعتزون بلغتهم ويستمدون بها ، وأن الفرس قد عجزوا عن تحاكات هؤلاء العرب أو الوصول إلى مستوى التفاهم في أداء العربية . بل من الفرس من آثروا لغتهم الفارسية واستمكوا بها أيضاً . وهنا نشأ صراع لغوي بين الحانين انتظم روحان متباهيان ، فن جانب العرب سادت فيهم ما يمكن أن يسمى بعقدة التفوق Superiority Complex ومن جانب الفرس غالب عليهم ما يمكن أن يسمى بعقدة النقص Inferiority Complex . ومع هذا قنع كل من الفريقين في بادئ

الأمر بأن يصيطنعوا في الأمور العامة لغة عربية في بعض ظواهرها ، وتعدّ في الحقيقة مسخاً للغة الفصحى ، وأشبه بما يعرف في بعض شواطئ الصين بالإنجليزية المهجنة Pidgin English . واتسمت هذه اللغة الجديدة ببساط وسائل التعبير اللغوى ، وتحريف العناصر الصوتية التي اختصت بها لغة العرب ؛ بل شملها أيضاً بعض الانحرافات في الصيغ وتركيب الجمل ، والتخلص من ظاهرة الإعراب ، وكثير من الألفاظ والعبارات الفارسية .

ولم تقتصر هذه الحال على الجهات الفريدة من بلاد فارس ، بل جاؤها إلى المدن الإسلامية التي أمسها العرب كالبصرة والكوفة . فيروى أن عبد الله ابن زياد ولـى العراق أيام الأمويين كان لا يحسن النطق بالعربية ، وكان يعيّره بهذا شاعر يسمى ابن مفرغ ، فلما تمكن عبد الله من أن يضع يده على هذا الشاعر أمر بجره في ثياب ممزقة في طرقـات البصرة ، ويجمع عليه الصبيان يسخرون منه ويزأون ويسألونه بالفارسية : لـين چـیـست ؟ أـیـ ماـهـنـا ؟ فيـجـیـہـمـ ابنـ مـفـرـغـ بالفارسية أيضاً : آبـ اـسـتـ ، نـبـیـذـ اـسـتـ ، عـصـارـةـ زـبـیـبـ اـسـتـ ، سـمـیـہـ رـوـسـیـ اـسـتـ . أـیـ هـذـاـ مـاءـ ، وـبـیـذـ ، وـعـصـارـةـ زـبـیـبـ ، وـسـمـیـہـ الـبـغـیـ (١) .

وبرغمـ هذا شـهـدـ العـهـدـ الأـمـوـيـ بـعـضـاـ منـ الـمـوـالـيـ أـصـحـابـ الطـمـوحـ الـذـينـ حـاـوـلـوـاـ جـهـدـهـمـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ الـلـغـةـ الـعـرـبـىـ الفـصـحـىـ ؛ وـلـكـنـ بـقـيـتـ فـيـ الـسـنـنـ الـكـنـةـ تـمـ عـنـ أـصـلـهـمـ ، وـنـفـشـىـ مـاـ اـسـتـرـ مـنـ اـنـهـاـمـ لـلـفـرـسـ . وـيـكـنـىـ أـنـ نـشـيرـ هـنـاـ إـلـىـ أـنـ الـفـقـيـهـ الـكـبـيرـ «ـمـكـحـولـ»ـ الـمـتـوـقـ سـنـةـ ١١٧ـ هـ كـانـ لـهـجـتـهـ الـعـرـبـىـ تـنـمـ عـنـ أـصـلـهـ الـفـارـسـىـ ؛ إـذـ كـانـ يـبـدـلـ الـحـاءـ هـاءـ وـالـقـافـ كـافـاـ ، وـكـلـنـاكـ الشـائـنـ معـ الـمـحـدـثـ الـثـقـةـ الـكـبـيرـ «ـنـافـعـ»ـ أـسـتـاذـ مـالـكـ .

والغريبـ أـنـ بـعـضـ هـؤـلـاءـ الـمـوـالـيـ أـيـامـ الـأـمـوـيـنـ كـانـواـ يـحاـوـلـونـ نـظـمـ الـشـعـرـ الـعـرـبـىـ ، وـعـرـفـ مـنـهـمـ شـعـراءـ مـنـ أـمـثالـ زـيـادـ الـأـعـجمـ الـمـتـوـقـ سـنـةـ ١٠٠ـ هـ وـهـوـ مـوـلـيـ الـمـهـلـبـ بـنـ أـبـىـ صـفـرـةـ حـاـكـمـ خـرـاسـانـ . وـقـدـ سـمـىـ بـالـأـعـجمـ الـكـنـةـ فـيـ لـسـانـهـ جـعلـتـهـ يـنـطـقـ بـالـعـيـنـ هـمـزـةـ وـبـالـحـاءـ هـاءـ ؛ وـيـرـقـ حـرـوفـ الـإـطـبـاقـ ، وـتـلـكـ هـىـ

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٩٢ الأغافى ج ١٧ ص ٥٦ .

السمات الخاصة باللسان الفارسي . بل يذكر الباحظ أن زياذاً الأعجم كان يجعل السين شيئاً والطاء تاء فيقول في «السلطان» و«الشلتان» .. وهذا اختصار له المهلب بن أبي صفرة غلاماً فصيحاً ينشد له شعره في بعض المخالف والأندية . وتكررت هذه الحال مع شاعر آخر من المولى هو أبو العطاء السندي الذي اختار له مددوه من يلقي له الشعر ، وفي هذا يقول :

أعوذني الرواة يابن سليم وأبى أن يقى شعري لسانى
وغلى بالذى أجمجم صدرى وشكاني لعجمنى شيطانى
فاكفى ما يضيق عنه رواني بفصيح من صالح الغلمان
يفهم الناس ما أقول من الشعر فإن البيان قد أعيانى
نشأت إذن تلك الروح التى اتسمت بالعصبية القومية بين العرب والقرس
على أساس اللغة أو عن طريقها . فالعرب الذين تزحوا إلى الأمصار قد
اعتزوا بلغتهم إلى أبعد حدود الاعتزاز ، ورأوا فيها الفصاحة كل الفصاحة .
وكان الرجل منهم يقاس مركزه الاجتماعى على قدر إجادته لها وحسن نطقه
لأصواتها ، بين شاعر ينشد شعره في الأسواق ، أو خطيب يدعو إلى مذهب
اجتماعى أو سياسى . وقد أعادوا في العصر الأموى صورة من أروع ما ألفاه
قبل الإسلام في أسواق العرب التي كانت بمثابة مؤتمرات ثقافية . واقاموا
بالبصرة سوق «المريد» يتنافس فيها الشعراء بإنشاد روائع القصائد ؛ وتذوى
في جنباتها أصوات الخطباء المفوهين .

وقد نشأت العربية قبل الإسلام في بيئه أمية فتقاها أبناؤها عن طريق الآذان وحدتها ، وأدى هذا في نهاية الأمر إلى أن أصبحت أسماعهم مرهفة تغير من الأصوات التي تنبو في السمع ، ومن تنافر الحروف مجتمعة . فتخلصت لغتهم من الكلمات التي لا انسجام في أصواتها . وأصبحت لغة موسيقية الألفاظ والعبارات^(١) . ولذلك لم يكن العربي يمل سماع الكلمات من لغته أو ترديدها ؛ وكان بعد كل ما سوى العربية لكتة وعجمة . ومن هنا جاء الاستعمال القرآنى في قوله تعالى : « لسان الذى يلحدون إليه أعمى وهذا لسان عربي مبين » .

(١) دلالة الألفاظ ص ١٨٣ .

ويقول القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : «أَيْ لِسانُ الَّذِي يَعْلَمُ إِلَيْهِ وَيَشِيرُونَ أَعْجَمِيًّا . والْعِجْمَةُ الْإِخْفَاءُ وَضِدُّ الْبَيَانِ . وَرَجُلٌ أَعْجَمٌ وَامْرَأَةٌ عِجْمَاءٌ أَيْ لَا يَفْصِحُ » إلى أن يقول : «الْعَرَبُ تَسْمَى كُلُّ مَنْ لَا يَعْرِفُ لِغَتَمْ وَلَا يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِهِمْ أَعْجَمِيًّا »^(١) .

فلما اتصلوا بالقرن ، وببدأ المولى من المسلمين يحاولون تعلم لغة دينهم الجديد أعيتهم أصواتها وتراكيزها ، وأحسوا بعقدة النقص أمام العرب برغم أن الإسلام قد سوى بينهم ، وجعلهم جميعا إخوة في الدين . ولما زاد عقدة اللغة وبسيها انقسم المجتمع الإسلامي في حدود فارس إلى فريقين : أولئك الذين يحسنون العربية نطقاً وأداءً ، وأولئك الذين يتغرون فيها ، وسيطر على الفريق الأول عقدة التفوق في اللغة Superiority Complex ، كما سيطرت على الآخرين عقدة النقص Inferiority Complex . وحيثما نشأت تلك الحركة الانفصالية التي عرفت بعد ذلك باسم الشعوبية ، في التاريخ الإسلامي ، والتي ظهرت بوادرها لنصر بن سيار والي خراسان ، وجعلته يكتب لل الخليفة الأموي مروان الثاني متذرأً ومحدراً في أبيات مشهورة مطلعها :

أَرَى بَيْنَ الرِّمَادِ وَمِضْ نَارٍ وَرَوَشَكَ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضَرَامٌ
وَقَدْ بَلَغَتِ الْقَوْمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ ذُرُوبَهَا ، وَامتدَتْ إِلَى أَقْصَى مَنَاطِقِهَا فِي عَهْدِ
عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَشَمَلتِ إِسْبَانِيَا وَشَمَالَ أَفْرِيَقِيَا وَمَصْرُ وَالشَّامُ وَبَلَادُ الْعَرَاقِ مَعَ شَبَهِ
الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَكَانَ انتشارُ هَذِهِ الْقَوْمِيَّةِ عَلَى قَدْرِ انتشارِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَاسْتِقْرَارِهَا
فِي تَلْكَ الْمَنَاطِقِ ، وَانْتَشَرَ مَعَهَا الدِّينُ الْحَنِيفُ يَغْزِي وَقُلُوبَ النَّاسِ وَعِرَاطِفَهُمْ ،
وَاللُّغَةُ تَغْزِي أَلْسُنَهُمْ وَحَنَاجِرَهُمْ . وَصَادَفَتِ الْعَرَبِيَّةُ فِي بَلَادِ الشَّامِ عَدَةُ لُغَاتٍ
فَقَضَتْ عَلَيْهَا جَمِيعًا وَحَلَّتْ مَعْلَهَا . فَقَدْ كَانَ مَعْظَمُ الْعَامَةِ يَتَكَلَّمُونَ «الْآرَامِيَّةَ»
وَهِيَ لُغَةٌ سَامِيَّةٌ شَفِيقَةٌ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَيَصْطَانِعُ الْمُتَقْفُونَ مِنْهُمْ اليُونَانِيَّةَ وَالرُّومَانِيَّةَ ،
فَتَغْلِبَتِ الْعَرَبِيَّةُ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ ، وَبَدَأَتْ تَسْتَقِرُ فِي رِبْوَعِ الشَّامِ ، وَاسْتَقَرَتْ
مَعَهَا الْقَوْمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ . وَمَا يَسِّرُ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ أَنْ أَلْسُنَهُمْ كَانَتْ تَنْطَلِقُ

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٧٨ .

في أغلب الظروف والأحوال بلغة سامية قريبة من العربية هي اللغة الآرامية.

وانتشرت العربية في مصر أيضاً؛ وقضت على القبطية، بل ربما كان إقبال المصريين على لغة العرب أمر عادي يقابلهم على دين العرب. فلا غرابة أن عمت اللغة العربية كل بلاد مصر، وإن احتفظ بعض أهلها بال المسيحية. ويدعشن اللغوى الحديث حين ينقب عن أثر القبطية في نطق المصريين فلا يكاد يعتر على أمر ذي بال.

وانتشرت العربية في بلاد المغرب وفي الأندلس وأصبحت لها السيادة في كل هذه المناطق، ولازماها في انتشارها الشعور بالقومية العربية. ثم توقف اتساع القومية العربية على عهد العباسين، ولكن حركة انتشار الإسلام لم تتوقف. فقد واصل الإسلام سيره، وظل يشق طريقه تحديه تعاليه وشرائعه حتى وصل فيما بعد إلى الملايو وأندونيسيا وقلب أفريقيا.

وهكذا يمكن أن يقال إن حدود القومية العربية قد حددتها انتشار اللغة العربية. فحيثما استقرت هذه اللغة استقرت معها القومية العربية.

ثم كانت الدولة العباسية ذات الطابع الفارسي في معظم مظاهرها. وأقل توصيف بهذه الدولة أنها إسلامية عربية. أو إن شئت قلت: إنها كانت إسلامية أكثر منها عربية. فقد اعتمد العباسيون على الفرس في تأسيس هذه الدولة. وذكروا لأهل فارس هذه الملة عليهم، إذ كان لهم الفضل الأكبر في عردة السلطان لآل العباس، وانتزاعه من أيدي الأمويين. لذلك مال العباسيون للفرس، وأخلعوا عنهم نظم الحكم وقلدوهم في الأزياء والطعام، واحتفلوا بأعيادهم كالنيروز والمهرجان، فأصبحت بين أعيادهم الرسمية.

أما الشراب فقد أفرط فيه آل العباس أسرة بالفرس، وبخاصة شراب النبيذ الذي كان من مستلزمات الحياة المرحة اللاحقة في فارس. وربما شجعهم على هذا ما نسب إلى الإمام أبي حنيفة من أنه أفقى بحل النبيذ استناداً إلى أن معنى الحمر التي حرمها الدين مقصود على عصير العنبر: وما يقال من أن

أبا حنيفة كان يقتلى في هذا بالصحابي ابن مسعود^(١) .
 ولا يتأتى مثل هذا الاتغمس في الحياة الفارسية دون أن يكون للغة الفرس دور كبير في حياة الناس أيام العباسين . لا غرابة إذن أن يحدثنا بعض المؤرخين أن لغة كثير من الناس في هذه الدولة كانت ثنائية : أى يتكلمون العربية والفارسية ، بل كان الأمراء والوزراء وجلهم من الفرس يتوثرون الكلام بالفارسية حتى في قصور الخلفاء . ولذلك نشأ جيل من الناس ينطق باللسانين العربي والفارسي ، ويترجم اللغتين إحداهما إلى الأخرى من أمثال « وهب بن منبه » و « طاوس بن كيسان » و « موسى بن سيار الأسودي » الذي يصفه الباحظ بقوله : (إنه كان أعجج أعجج الدنيا) ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان مجلس مجلسه المشهور فيقدم العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدرى بأى اللسانين هو أبiven^٢ .

تلك كانت حال الناس في بعض مدن العراق على حدود فارس . أما في المناطق التي نأت من بلاد الفرس كخراسان ونحوها : فيبدو أن الفارسية قد ظلت اللسان السائد ، واقتصر شأن العربية على المسائل الدينية والعلمية ، وبين الخاصة من المثقفين الذين اشتهر أمرهم في كتب التاريخ . في حين أن العامة من الناس في بيوبهم وأسواقهم وأنديتهم لم يكونوا يصطادون إلا بالفارسية في كلامهم ، ولا يكادون يعرفون من العربية إلا بعض آيات من القرآن الكريم يتبعدون بها في صلاتهم ونسائهم ، ويرددونها في رطانة أعمجية . وقد بلغ من تأصل الفارسية في تلك النواحي الثنائية من فارس أن شق على كثير من المسلمين هناك حتى قراءة فاتحة الكتاب في ألفاظها وأصواتها العربية ، مما جعل أبا حنيفة فيها يُروي ^{لنا} يُفْتَن بجواز قراءة الفاتحة في الصلاة بالفارسية . فيقول السريحي ما نصه : (ثم عند أبي حنيفة رحمه الله إنما يجوز بالفارسية إذا كان

يُستيقن بأنه معنى العربية^(١) .

ووصل الأمر في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث من الهجرة أن بعض وزراء الخلفاء العباسيين كانوا يؤثرون الفارسية في مجالسهم الخاصة . فالفضل ابن سهل ذو الرياستين ووزير المأمون ، زاره مرة الطبيب ابن « بختشون » في أثناء مرضه بالحمى فوجد في يده المصحف فسألته بالفارسية (چون بیخی نامه لورزد؟ أي كيف تجد كتاب الله؟) ، فأجاب الفضل بالفارسية أيضاً (خوش وچون كليلة ودمنة : أي حسن مثل كليلة ودمنة) . . .

ولعل أكبر خطوة اتخذها المأمون في نصرة الفرس أن كافأ قائد طاهر بن الحسين بولاية خراسان ، وجعلها لأولاده من بعده يتوارثوها ، فمكّن بهذا الفرس من هذه المنطقة ، إذ تعد الدولة الطاهرية أول الدول الفارسية التي قامت في الإسلام . وقد حل محلهم في خراسان « الصغاريون » سنة ٢٥٩ هـ وهم فرس دما ولحماً ولغة . ولذلك لا تذهب حين يروى لنا أن أحد الشعراء قد نظم قصيدة بالفارسية ليستقبل بها المأمون عند قدومه إلى « مرو » ، وإن كان بعض المارسين يشكك في صحة هذه الرواية^(٢) .

الشعوبية صراع لغوی :

الشعوبية مصطلح بغيض يتردد كثيراً في كتب التاريخ الإسلامي ، ولا يزال يجري على بعض الألسنة والأقلام كلما أريد وصف حركة انفصالية في منطقة من المناطق . وما يسعى بالشعوبية أو الانفصالية في نظر بعض الناس ليس في الحقيقة إلا القومية في نظر الفريق الآخر . وهكذا نرى أن الحركة السياسية الواحدة قد يسخط عليها قوم فيطلقون عليها الشعوبية : ويرضى عنها آخرون فيسموها بالقومية . فالحركة التاريخية التي ظهرت بوادرها في أواخر عهد

(١) المسود للمرخى ج ١ ص ٣٧ .

(٢) تاريخ الأدب في إيران ص ٢٢ تأليف المستشرق « براون » وترجمة الدكتور إبراهيم الشاري .

بني أمية كانت من وجهة نظر العرب حركة شعبية ، ومن وجهة نظر الفرس حركة قومية .

ويحدثنا بعض المؤرخين عن تلك الحركة الشعبية التي قامت بين العرب والفرس والتي اقتصرت في الحقيقة على المشرق ، فيزعمون أنها كانت بين العرب وكل الأعاجم . بل يحاول بعض الدارسين أن يلتمسوا جذور هذه الحركة في تلك الحوادث الفردية التي وقعت في صدر الإسلام كقتل عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة المجري . وربما غالى بعضهم فتلمسوا تلك الجذور في الصلة بين العرب والفرس قبل الإسلام .

وفي الحق أن هذه الترجمة الشعبية لم تتخذ طابعاً واضحاً إلا في أواخر عهد بنى أمية . وإذا كان الأصفهاني^(١) يصف «إسماعيل بن يسار» بأنه شعبي بذلك من عند الأصفهاني حين عرف عنه أنه كان يرفع من شأن الفرس أمام هشام بن عبد الملك في قصيدة جاء فيها :

أصلٌ كريمٌ ومجدى لا يقاس به
ولِ لسانٍ كحدِ السيفِ مسمومٌ
أحمرٌ به مجدُ أقوامٍ ذوى حسبٍ
من كلِ قزمٍ بتاجِ الملكِ معهومٌ

فاصطلح الشعبية قد ذاع في العصر العباسى . أو بعبارة أدق في أواخر القرن الثالث من الهجرة . ولستا نعرف كتاباً خصص لتاريخ الشعبية ، أو اقتصر مؤلفه على بحثها وسرد حوادثها وتفسير حواجزها . وكل ما يتجده لدى القدماء يقصد هذه الحركة لا يعدو أن يكون إشارات وروايات متبايرة في كتب الحافظ ولا سيا البيان والتبيين ، وفي العقد الفريد ، وفي بعض ما نقله ابن قتيبة في كتابه المسمى بالعرب .

وهذه الحركة الشعبية التي ظهرت بوادرها في أواخر عهد بنى أمية ظل صداها حتى بعد أن أست الدوامة الفارسية في القرن الرابع المجرى . فيحدثنا رواة الأدب أن شاعراً من أصل فارسي نال من العرب في حضرة الصاحب

(١) الأغافل ج ٤ من ٤٠٨ .

ابن عباد وزير آل بويه في قصيدة مطلعها :
 غنيتنا بالطبلول عن الطبلول وعن عنس عذافرة ذمولي
 فقال الصاحب لبديع الزمان المعندي وكان بالحضره « أجب عن ثلاثة
 أدبك ونسبك ومنذهبك » ، فأنشد المعندي قصيدة يرد فيها على مزاعم الفارسي
 ويقول :

أراك على شفا خطير مهول بما أودعت قوله من فضول
 ترید على مكارمنا دليل مني احتاج النهار إلى دليل
 ومنها يقول :

مني عرفت وأنت بها زعيم أكف الفرس أعراف الخيول

ومعظم ما يروى لنا من مظاهر الشعوبية في كتب اللغة والأدب لا يعدو مجموعة
 من الأشعار تتضمن ذكر مثالب العرب ، وأنخرى يرد بها أصحابها متوهين
 بمحاسن العرب وطاعنون على الفرس والحياة الفارسية . ولكن من الغريب أن
 الخلفاء في أواخر عهد بنى أمية وفي العصر العباسي الأول لم يكتفوا بغضون
 مثل هذه الأشعار . بالتشكيل بأصحابها وإلزامهم في أرواحهم وأموالهم . فيروى
 لنا مثلاً أن إسماعيل بن يسار وهو من أصل فارسي مدح قوله في أبيات من
 الشعر بين يدي هشام بن عبد الملك . ومع هذا لم يصبه بأذى بل أكتفى
 بتأنيته .

بل حتى الشعراء العباسيون الذين تندرروا بحياة العرب وبداؤهم . وأشاروا
 بحياة الفرس وحضارتهم من أمثال « بشار بن برد » « وأبي نواس » و « دعبل »
 « الخزاعي » وغيرهم . لم تكن النظرة إليهم إلا على أنهم قوم من أصحاب المجد
 الذين أسرفوا في التشبيب بالنساء ومعاقرة الحرير . والتليل من أعراض الناس
 بالمجاء ، بل لم يسلم بعض الخلفاء من التسبيم . ومع ذلك لم يُقتل بشار لأنه
 كان ذا فزعية شعوبية ، ولم يُحبس أبو نواس إلا بسبب مجونه وخلالعنه .

وتصف كتب الأدب أمثال هؤلاء الشعراء بأنهم شعوبيون . وتسوى بينهم

في هذه التزعة بين شاعر « كالخريبي » الذي كل عليه لدى بعض دارسي الأدب أنه امتدح أجداده من الفرس في قصيدة اختتمها بقوله :

فلمَّا أتَى الإِسْلَامَ وَانْشَرَحَتْ لَهُ
صَدْورُهُ بِهِ نَحْوَ الْأَنَامِ تَنَبَّهَ
تَبَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى كَأْنَاهُ
سَهَاءَ عَلَيْنَا بِالرِّجَالِ تَصْرُبَ

وكل هذه الأشعار وإن صورت لنا في صورة تقاض شعوبية ، لا تundo في رأي أن تكون أشبه بالمهاترات الصحفية في عصرنا الحديث ، أو المنافسة المهنية بين شعراء من أصل عربي ، وآخرين من أصل فارسي . بدليل أنه لا خلفاء بنى أمية ولا خلفاء بنى العباس كانوا يضيقون حقاً بمثل هذه الأشعار أو يفكرون في إيداء أصحابها ، بل تركوا ملؤام وهؤلاء حرية القول ، فكأنما قد تذكروا الآية الكريمة : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يحيون » .

ولا نكاد نرى صدى لتلك التزعة الشعوبية بين الكتاب الناثرين ، أو بين أهل العلم من الموالي على كثريهم ، أولئك الذين ألفوا في اللغة والمدين وأمهموا في الحياة الثقافية الإسلامية بمنصب كبير .

وإذا كان هناك أدب شعوبى حقيقى وجب أن يلتمس في شعر عربي أو فارسي نظم في المناطق الثانية من فارس كخراسان وطبرستان : غير أنا لا نعرف شيئاً عن مثل هذا الأدب ، ولعله اندرس فلم يرو لنا .

فترزعة الشعوبية وإن انتهت بنتائج خطيرة أوضحتها إعادة تأسيس الدولة الفارسية فيما وراء البحرين ، والسيطرة على التغوز والسلطان في مهد الخلافة ، لم يكن لها من المظاهر العلنية ما يسوغ مثل تلك النتائج : بل كانت أشبه بحركات سياسية سرية اخْتَلَتْ فيها بعد الطابع العسكري .

فإذا شئنا البرهنة على أن هذه التزعة لم تكن إلا صراعاً بين العربية والفارسية وجب الاستئناس بكتاب الحافظ البیان والتبيین ، وبالكتب الأخرى التي أشارت إلى الشعوبية ككتاب « العرب » لابن قتيبة : وكتاب العقد الفريد

لابن عبد ربه . ويعده كاتب الملاحظ أسبق هذه الكتب وأوفها ذكرًا للشورية وسرد حوارتها . ذلك لأن الملاحظ عاش كل حياته يشهد مأسى الشورية ، بل لقد شهد مولد الدولة الفارسية ، على يدي الطاهرين في خراسان ، واستطاع من أجل ذلك أن يتبنّى بالمصير الذي انتهت إليه تلك التزعة الانفصالية بين قوم اتخذوا دينا ، وأصبحوا بعد الإسلام إخواناً في الدين . ولتكن اتصال اللغتين العربية والفارسية قد ولد الاختكاك بين الفريقين ، فقد وجد الموالى من الفرس ، كما أشرنا آنفًا ، أنفسهم عاجزين عن السيطرة على الأداء العربي والنطق العربي ، فأصابتهم عقدة التقص ، كما تبين للعرب تفرقهم في هذا فأصابتهم عقدة التفرق . فانعزل هؤلاء عن هؤلاء ولم يشفع لهم إزاء تلك العقدة اللغوية ما كانوا عليه من وحدة دينية إسلامية . واتجه كل فريق إلى الطعن في لغة الفريق الآخر ورميها بسهام مسمومة ، أو على الأقل النيل من مزاياها وخصائصها .

ويروى لنا الملاحظ وهو من نصب نفسه مدافعاً عن لغة العرب ضد هجمات الشعويين طرفاً من تلك المشاحنات التي قامت بين هؤلاء وذئلاء . وللحظ مما روى أن الفريقين قد وجهوا كل عنابتهم إلى النواحي الوثيقة الصالحة باللغة . ففي حديث الملاحظ عن البلاغة والبيان يشدد بفصاحة العرب وينفي العي والمحض عنهم ، ويثبت الالكتة والرطانة للأعاجم مستدلاً على ذلك بأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين . وكذلك يصف الملاحظ العرب بقوله : (إن العرب أطلق ، ولغتها أوسع ، وامقظها أدل ، وأمثالها أجود وأسيرة ، والبديبة مقصورة عليهم ، والارتفاع خاص بهم) . ثم يرازن بين الشعر العربي وما يسميه الفرس شعرًا في لغتهم فيقول : (إن العرب تقطع الألحان الموزونة ، على الأشعار الموزونة ، فتضع وزوناً على موزون ، والمعجم يعطى الألفاظ فتقبض وتبيسط حتى تدخل في وزن اللحن موزوناً على غير موزون) .

ومنا وصف به الملاحظ كلام العرب قوله : (ليس في الأرض كلام هو أمنع ، ولا أفع ، ولا آنق ، ولا أندَّ في الأسماع ، ولا أشد اتصالاً بالعقل السليمة ،

ولا أفق لسان ، ولا أجود تقوياً للبيان ، من طول سباع حديث الأعراب
العقلاء الفصحاء)^(١) .

ألا يصور لنا كلام الملاحظ هنا شعور قوم سيطرت عليهم عقدة التفوق
اللغوي ؟

وكان لأصحاب النزعة الشعوبية ردود على ما يفخر به العرب ، فإذا فخر
العرب بالخطابة وجودة النطق ، أجب أصحاب الشعوبية (ليست الخطابة ميزة
امتنم بها وحدكم ، فهي شيء في جميع الأمم ، حتى إن النزج مع غباوتها
وفساد مزاجها لتعليل الخطب ، وأنخطب الناس الفرس لا العرب ، فهم فوق
خطبهم التاليف في صناعة البلاغة ومعرفة الغريب مثل كتاب كازوفند). ثم يصفون
النطق العربي بقولهم : (وأين كلامكم الجاف ، وأصواتكم الغليظة من طول اعتيادكم
مخاطبة الإبل ، مما للفرس من معنى دقيق ولفظ روسي وصوت روسي) .

ويرؤكد لنا حقيقة أن الشعوبية صراع بين اللغتين العربية والفارسية المرحوم
أحمد أمين بقوله في ضحي الإسلام^(٢) : (إن من أهم أهداف الشعوبين
التبليغ من آداب العرب . بذلك بالعمل على إفساد الأدب العربي وإضاعة
معناه بالنسبة الشيء إلى غير قائله . كالذى قام به أبو عبيدة الذى كان أوسع
علمًا وأكثر ثقافة ، فقد عرف تاريخ الفرس لفارساته ، والثقافة اليهودية اليهودية
آياته . ولكنه لم يكن يحسن التعبير كالأصمعى . فالأخصمعى يمثل العربية
ويتعصب لها ، وأبو عبيدة يمثل فكرة الشعوبية ، والبحث عن معائب العرب
والتشهير بهم) .

ومن أدلة الصراع بين اللغتين ما يقال من أن الشعوبية قد دفعت بمحمد
الراوية وخالف الأحمر ليتحلماً أشعاراً على العرب القدماء رغبة في إفساد آدابهم
والانقضاض من لغتهم .

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٦ .

(٢) ضحي الإسلام ج ١ ص ٤٩ .

وبلغ الشأن بهؤلاء وهؤلاء في نهاية الأمر أن تورط كل من الفريقين في وضع بعض الأحاديث التي اختلفوا ونسبوها إلى النبي . فقد زعم الفرس أن النبي يقول : (إن الله تعالى إذا غضب أنزل الوحي بالعربية ، وإذا رضي أنزل الوحي بالفارسية) . . . فيرد عليهم العرب قائلين إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول (أحبوا العرب لثلاث ، لأنى عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي) . . .

فزععة الشعوبية ليست في حقيقة أمرها سوى صراع بين اللغتين العربية والفارسية . وقد عني الباحث بوصف نطق الأعجم للأصوات العربية ، وكان مما قرره في هذا الشأن أن الأعجمي لا يقدر على إتقان النطق بهذه الأصوات العربية (ولو أقام في عليا ثمّ ، وفي سقلى قيس ، وبين عجز هوازن حسين عاماً) .

وأنهى أمر تلك التزععة الشعوبية بأن استُهانت فارس ، وأُنْسِت فيها أولاً الدولة الصفوية ، ثم الساسانية على النحو المعروف في كتب التاريخ .

وحينئذ فقط شاعت تلك التسمية التي خلّعها العرب على لغتهم وهي «لغة الصدّاد» .

فقد تبيّن لنا في بحث أقيمه بمؤتمر مجمع اللغة العربية (فبراير سنة ١٩٦٧) أن تسمية العربية بلغة الصدّاد قد شاعت في القرن الرابع الهجري للتمييز بين العرب وغيرهم من الفرس والأترالك . وأن نشأة هذه التسمية قد بدأت في بغداد ومنها انتقلت إلى بعض البلاد العربية الأخرى ، وأصبحت الآن قضية مسلمة دون تفكير في أصل نشأتها . ودون اهتمام إلى المسئول الأول عنها .

ومنما جاء في هذا البحث لمحاولة الوقوف على أصل هذه التسمية «لغة الصدّاد» ما نصه : (ولكن سيبويه لم يشر مطلقاً إلى أن الصدّاد وحدها مما تميّزت به اللغة العربية . أو أن هذه اللغة تسمى بلغة الصدّاد . وقد يدهش بعضنا لصمت سيبويه عن هذه التسمية «لغة الصدّاد» إذا تذكر ذلك الحديث المروي في كتب النحو والأصوليين من المتأخرين : وهو «أنا أفعّل من نطق بالصاد» . ولو قد

صحح هذا الحديث لا يقتضي ذلك أن تتصور أن النطق بالضاد الخديعة صفة تميّز بها النطق العربي أيام النبي صلى الله عليه وسلم؛ بل وقبل ذلك، وأن تلك الصفة كانت قد شاعت وذاعت، وأنه قد أصبح من المألوف المعهود حينئذ تميّز العربي بوساطة النطق بهذا الصوت، مما يسوع أن يطلق على اللغة العربية «لغة الضاد». ولكن هذا الحديث كما يقرر معظم الثقات من المعمّاء لم يثبت ولم يصح وليس له سند. فيروي القاضي عياض في كتابه الشفاء هنا الحديث في صورة «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش... إلخ»، ويعلق على هذه الرواية شراح الشفاء فيقول شهاب الدين الخفاجي في كتابه نسيم الرياحين: «أما ما اشتهر من «أنا أفصح من نطق بالضاد» فقالوا إنه لم يثبت، وإن ذكر في كتب التحو والأصول. ويقول «على القاري» في شرح الشفاء أيضاً: «وأما حديث أنا أفصح من نطق بالضاد» فنقله الحلباني عن ابن هشام، لكن لا أصل له كما صرّح به جماعة من المحققين.

إلى أن قلتُ في البحث (وهكذا فرى أن علماء اللغة حتى أواخر القرن الثاني من الأذىجرة لم يشيروا إلى صوت الضاد على أنه مما تميّز به العربية وسدها، ولم يطلقوا على هذه اللغة ذلك القول المأثور «لغة الضاد»، وكل ما أشاروا إليه في كتبهم أن كان هناك أنواع من النطق غير مستحبة وقعت في بعض الأصوات ومن بينها الضاد. ثم جاء الملاحظ وتوقّنا أن نرى في كتبه ما يرضع هذا الغدوض، فهو الذي على عناية كبيرة بلغة العرب ونطاق العرب وموقف الأعلام من أصوات العرب. فقد تحدث عن كثير من عيوب النطق بين المتكلمين؛ كما تحدث عن نطق النبطي والترماساني والأهوازي والزنجي والسندى والجاشى. وكان مما فرقه أن السندى يجعل الجسم العربية زاياً، ولا يقدر على غير هذا ولو أقام في عليا تميم وفي سفل قيس وبين عجز هوازن خمسين عاماً... كذلك تحدث الملاحظ عن أولئك الذين كانوا ينطقون بالحاء هاء، وبالعين هزة، وبالقاف كافاً، وغير ذلك مما جاء في البيان والتبيين.

ومع هذا أو ب رغم هذا لا نكاد نغير في كلام الملاحظ على إشارة لصوت

الضاد وموقف العرب أو الأعاجم منها إلا قوله : « قال الأصمى ليس للروم ضاد » .
أى أن نطق العرب للضاد في صدر الإسلام والعصر الأموي لم يكن يسرّع انتباه أحد من العلماء ، ولم يشر إليه على أنه مما تميزت به العربية حتى أواخر القرن الثاني من الهجرة . فلم يقل أحد منهم حتى ذلك الحين إن بعض المتكلمين بالعربية قد تعرّف في النطق بهذا الصوت وحده ، وإن العربية سميت لغة الضاد من أجل ذلك .

أما إشارة الملاحظ إلى أن الأصمى كان يقول « ليس للروم ضاد » ، فهي إشارة مقتضبة وملاحظة لغيره وليس مستولاً عنها ، فليست من ملاحظاته المباشرة التي مارسها بنفسه . وأفاض في شرحها كلما وجد انحرافاً في النطق بالأصوات العربية .

ثم بدأ بعد الملاحظ في سرعة عجيبة اضطراب الألسنة في النطق بالضاد العربية ، وظهور الخلط بينها وبين الظاء في المشرق بصفة خاصة بعد أن تغلل الفرس والأتراك في البيئة العربية . وكلنا نعرف موقف الفرس والأتراك من الضاد إذ نسمعها منهم ظاء كائني في نطق العامة لكتمة « مضبوط» فيقولون « مضبوط» وفي « ضابط » يقولون « ظابط » . ويقول الفرس والأتراك في « حضرتنا » « حظرتنا » .

ولما استفحلا الأمر في القرن الرابع الهجري شهدنا من علماء العربية من يؤلفون كتيبات يتصوّن فيها على الكلمات التي تكتب بالضاد والتي تكتب بالظاء ، مثل ذلك الكتب الذي ألفه الصاحب بن عياد وسياد « الفرق بين الضاد والظاء » .

وهذا أى في المشرق . وحيثند أى في القرن الرابع الهجري ، بدأنا ولأول مرّة نسمع عن اختصاص العربية وحدها بالضاد ، وعن تسميتها بلغة الضاد فيقول المتنبي في قصيدة التي مطلعها :

كم قتيل كما قُتلت شهيد لياض الطئي وورد الخدود

لا بقوى شرفتُ بل شرقوا بي
وبنفسى فخرتُ لا يجلودى
وهمُ فخر كلَّ من نطق الصدا
دَّ عودُ البحانى وغوث الطربيد

* * *

ويقول ابن جنی في «سر الصناعة» حين يتحدث عن الصاد «واعلم أن الصاد للعرب خاصة ولا يوجد من كلام العجم إلا القليل». ثم استمر علماء اللغة بعد هذا القرن في جهادهم للتمييز بين الصاد والظاء، رغبة في التمييز بين العربي والفارسي أو الأعجمي الذي تمثل لهم في الفرس والأتراب حبذا.

وهكذا نلحظ أن التمييز بين القوميتين العربية والفارسية كان أساسه لغويًا، وجاءنا بتلك التسمية المشهورة «لغة الصاد».

أما في الشام ومصر وببلاد المغرب فكانت اللغة العربية أوفر حظاً، وأكثر استقراراً، واستقرت معها القومية العربية دون منازع، إذ لم نسمع عن حركة شعبوية هناك كذلك التي كانت بالشرق.

وأما ما يقال لنا من أن «ابن غرسيمة» في الأندلس ألف كتاباً في شعبوبة الأندلس، وأن بعض العلماء ردوا عليه، فكل ذلك يحتاج إلى تحقيق. فنشرت كتب الأدب والتاريخ إلى رسالة قصيرة كتبها من يدعى «ابن غرسيمة» الذي عاش في الأندلس بمدينة «دانية» في أوائل عهد دولة المرابطين، وتعد هذه الرسالة في رأي أصحاب هذه الكتب حلقة من حلقات الشعوبية في تلك البلاد. وقد وجه «ابن غرسيمة» هذا رسالته إلى صديق له، وفيها يتৎقص من قدر العرب، ويشيد بفضل الأعاجم. ويروى ابن بسام في المذكرة نصاً لهذه الرسالة، كما عثر على نص آخر لها في مكتبة «الاسكوريا» وحقق هذا النص أحد الدارسين ونشره المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريـد سنة ١٩٥٣.

ولما أتيحت لنا فرصة الاطلاع على هذه الرسالة تبين لنا أن أسلوبها مليء بالسجع المتكلف، والعبارات المشوهة الغامضة، مما جعل مفسريها من أمثال الناشر المشار إليه آنفاً، وكذلك المستشرق «جلد نسبر» يضطربون بعض

الاضطراب في تحديد مدلولاتها. ولا غرابة في هذا فابن عروسية نفسه كما يُروى لنا يتمنى إلى البوشكنس من الصقالبة الذين كان لهم تفؤذ كبير في أواخر عهد الخلافة بالأندلس.

والذي يستدعي الانتباه فيها جاء بهذه الرسالة أنها لا تكاد تحدد المقصود من الأعاجم الذين فضلهم صاحبها على العرب. فمعانى العبارات فيها عامة، والإشارات فيها غير محددة، بل لأنكاد نظفر فيها بما يشير إلى أعاجم الأندلس؛ بل قد تصادف في هذه الرسالة إشارات تنطبق على الفرس أكثر من انطباقها على أي شعب آخر، مثل قوله يصف الأعاجم (الأساوية الأكاسرة)؛ وقوله (الخرسان) التي فسرها لنا عحقق الرسالة على أنها «الخرسان» أي أهال خراسان... وكذلك قول صاحب الرسالة: (واليد الطولى إذ تخلصوك من أكف الجشان)؛ وقوله: (أما علمتم أن الدولة النوشوانية... والمملكة الأردشيرية بقروا أجوفكم وخلعوا أكتافكم ثم عطفوا ورأفوا وملكونكم الحيرة)... وكل هذه إشارات تتجه إلى الفرس أكثر من اتجاهها إلى أي شعب آخر.

هذا إلى أن قوله: (فأصبح بعد جر الذيل مدوياً بأنفاس القبول) يدل دلالة واضحة على أن الأعاجم المشار إليه من كانوا يتحدثون الأفعال في حروفهم... وهؤلاء هم الفرس لانزعاع في هذا. فلست أعرف أن بلاد الأندلس كانت مسرحاً للأفعال.

وأخيراً قول صاحب الرسالة (والعمومة الإساعيلية) وهؤلاء هم شيعة فارس. فلم يكن بالأندلس فيها أعلم مذهب شيعي؛ بل كان أهلها حرفاً على الشيعة والمتشييعين. أما قول صاحب الرسالة: (وقد رسخت في المجد أصولنا وفروعنا) فيوحى بأن المراد هم الفرس الذين كانوا يفخرون دائمًا بأحاسيسهم وحضارتهم.

لم يبق إلا أن تقرر أن قول صاحب الرسالة في آخرها: (معز الدولة ذي الرياسة الساسانية) يجعلنا نتصور أن الرسالة تشير إلى حكام الدوليات الفارسية في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس من المجرة. فهم الذين لقبوا أنفسهم بشمس الدولة وعز الدولة ونحو ذلك من الألقاب.

ويتحيل إلىَّ بعد الذي تقدم أن صاحب هذه الرسالة شخص حاذق على

العرب موتور منهم ، فأراد — إن صحت رواية هذه الرسالة — أن ينفس عن حمده الشخصى . وكان فيها يبدو قد سمع بما يقوله أهل الشعوبية فى المشرق فقلد هر فى أقوالهم ، وردد بعض ما شاع بينهم . فلما وصلت إليه أبناء الحركة الشعبية فى المشرق وصادفت هوى فى نفسه وهو المotor شخصياً من بعض العرب كتب هذه الرسالة التي لا تمثل في رأي حركة شعبية ، ولا ما يشبه الشعبية . ولو لا أن بعض كتب التاريخ أشارت إلى هذه الرسالة . ولو لا أن بعض أدباء العرب حاولوا الرد عليها ، لما كان للشعوبية أى ذكر في حياة أهل الأندلس . فالشعوبية بالمعنى الذى عرفت به في المشرق لم تصل إلى الأندلس ^(١) ولم يكن هناك مسوغ لوجودها في تلك المنطقة ، لا سيما وأن كل المؤرخين يؤكدون لنا أن هذه الرسالة هي الأثر الوحيد الذى يشار فيه إلى شعوبية الأندلس . والشأن في الأندلس أن العداء كان سافراً بين فريقين اختلفا في كل شيء ديناً ولغة وعادات ، بل وأزياء ، فاتهى أمر العرب في الأندلس إلى ما نعرف . في حين أن الشعوبية في المشرق كانت بين قوم اتحدوا ديناً ، واتفقوا في كل المظاهر الاجتماعية ، ولكنهم اختلفوا لغة : ولم تستطع إحدى اللغتين أن تفهر الأخرى أو تفضي إليها . فكان ذلك الصراع اللغوى الذى يلقب بالشعوبية في التاريخ الإسلامي . ذلك هو الدور الخطير الذى تقوم به عقدة اللغة في معظم التبارات الانفصالية . فهي قوة كامنة ولكنها متربصة ومتحفزة تسيطر على قلوب الناس وعواطفهم ، وطأ أثراها الفعال في كل منطقة أثبتت ظروفها تلك الظروف التي شهدتها التاريخ الإسلامي في أوائل عهد العباسين . فالصراع اللغوى الذى زراه الآن في بلجيكا يعدّ من وجهة نظر المتكلمين بالفرنسية حركة شعبية ولكنه من وجهة نظر المتكلمين باللغة القلمنكية يعد حركة قومية . والصراع اللغوى الذى تحدثنا عنه الصحف الآن في جزيرة سيلان يعد حركة شعبية من جانب المتكلمين باللغة السنالية ، ولكنه لدى المتكلمين بلغة « التامل » يعد حركة قومية . وكذلك الشأن في منطقة « مدراس » بالهند شعبية في رأي أبناء اللغة الهندستانية ، وقومية في رأي المتحدثين بلغة « التامل » .

(١) راجع الصفالة في إسبانيا، بقلم أحمد عمار عبد الفتاح العبادي.

أطوار تاريخية للعروبة :

دعنا من قبيل الإيجاز نخلع على القومية العربية كلمة واحدة هي العروبة ، لا تزيد بها جنساً خاصاً ولا نسبة معيناً ، وإنما تقصرها على تلك الروح التي دعت العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام إلى أن يتجلب بعضهم إلى بعض . ويلتف بعضهم حول بعض ، في كيان متميز وشعور موحد ، رغبة في التعاون لتحقيق الاستقرار والأمن والرخاء فيها بضمهم ، وذلك هي القومية العربية التي تشمل في اللغة العربية وحدتها .

وقد أشرنا آنفًا إلى اللغة العربية المشتركة وكيف نشأت ونمّت وازدهرت قبل الإسلام ، وانتظمت كل أنحاء شبه الجزيرة ، وأصبحت في الأشعار والخطب ثم كومها الله سبحانه وتعالى فأنزل القرآن الكريم بها .

والتف العرب قبل الإسلام حول هذه اللغة يتنافسون في إجادتها ، ويستمتعون بمحاسها وموسيقاها ، مع ما عبرت عنه من روائع الصور والأحلام ومقاييس الحكم والأفكار ، فكان لهم بها وحدتها لقب العروبة .

فلما كان العصر الأموي والتقيّ العرب بأقوام آخرين : وأحرزوا أن ذؤلاء لغة تباين لغتهم اشتد اعتزازهم باللغة واستمساكهم بها . ووجدوا في البصرة والكوفة ميدانًا جديدًا لعقد الندوات الأدبية التي ألفوها في جزيرتهم . وقد بدأت البصرة والكوفة في صورة مسكونيين جيوش الفاتحين ، ثم لم يكدر بعضى نصف قرن حتى أصبحتا مدینتين عظيمتين بغير إليهما من كل أنحاء الجزيرة ، ويطلق عليهما وما حولهما اسم العراق . وقد نشأ وتربى في هاتين المدینتين الإسلاميةين أنبيغ شعراء بي أمية وأفصح خطاباً لهم . وعاشوا فيما مع من وفد إليهما من الجزيرة من فصحاء العرب . ثم نظرنا فإذا يسوق « المربد » تأسس في البصرة ، وهي التي تشبه سوق عكاظ في عصر ما قبل الإسلام ، كما تأسس بالكوفة سوق أدبية أخرى هي « الكناة » وإن كانت أصغر من « المربد » شأنًا وأقل شهرة . وهكذا انتقل تيار الحركة الأدبية من الحجاز إلى العراق ممثلًا في هاتين المدینتين .

ولدهش دارسو الأدب إذ يرون « دمشق » عاصمة الأمويين لا تقوم فيها تلك الحركة الأدبية ، ولا ترس في ربوتها أندية للأدب أو أسواق كالتي عرقوها قبل الإسلام من عكاظ وفتحة وذى المجاز ، وإنما يقوم مثل هذا فيما سمي حينئذ بالعراق مثلاً في البصرة والكوفة ، ويحاول هؤلاء الدارسون أن يسوغوا هذه الظاهرة بأن دمشق أيام بنى أمية شغلت بالسياسة والملك ، وتخلت عن الأدب للحجاج والعراق . وفي رأي أن السبب الحقيقي هو أن بيته الشام لم تكن قد استقرت بها اللغة العربية . بل كانت لا تزال في صراع مع اللغات التي كانت سائدة هناك من يونانية ورومانية وأرامية . ولذلك أنس الفاكحون مديني البصرة والكوفة على حدود جزيرتهم لاستقبلا الموجة الأدبية التي فرحت من الجزيرة ؛ ولكنها امتداداً لي THEM إلى أقصها . فلم يكن حضر الشام مستعداً حتى ذلك الحين لإقليمهم به ، ويعيشهم على نحو ما تعودوا في جزيرتهم ، وكذلك الشأن مع أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، فقد كره هؤلاء العرب في أوائل عهد الإسلام أن يحول بينهم وبين جزيرتهم ماء . ولذلك انحصرت الحركة الأدبية أيام بنى أمية فيما سمود بالعراق مثلاً في البصرة والكوفة . ولم تكن رحلتهم إلى دمشق حينئذ إلا في صورة زيارات سريعة يشنلون فيها الخلقاء الأشعار والقصائد وبشهادة مجتمعهم الأدبي الذي تعقد ثم تنقض ، ليعودوا بعدها إلى بيته التي أثبتت شاعرיהם وأنطقت ألسنتهم ، ونشأتهم على الفصاحة وحسن البيان وذلة اللسان ، وتلك هي بيته البصرة والكوفة .

وحيث نطلع على أخبار « المربي » وما كان يدور فيها من مساجلات ومناظرات وتهاج ، وعلى أخبار إنجليس والندوات التي كان يعقدها خلقاء بنى أمية ، لانشك لحظة في أن المؤمن كانوا يعيشون في لغتهم ولغتهم ، فكانوا لم يكن لهم من شاغل إلا أدبها وما تتجه الفرائح وتنطلق به الألسنة من روائع القول . ففي « المربي » تقوم المنافسة بين الشعراء وتألف من قصائدهم ما يسمى بالتفاوض التي كان أشهرها بين الفحيل الثلاثة الأخطل وجويري والمرزدق .

وتعد هذه التفاوض هجواً أو نهاجاً في رأي معظم الدارسين ، أريد بها نيل

المهاجرون بعضهم من بعض ، والانتهاص من شأن أهليهم وقبائلهم ، والخط من قدرها في أقذع ألوان الشتائم والسباب . ولكنها في الحقيقة لم تكن كذلك ، بل هي تمثل في رأي نوعاً من أدب الفكاهة والمسامة ، أو إن شئت قلت كانت كالمسرح الكوميدي في أيامنا ؛ فلا يهدف الشاعر فيها إلى سباب أو قذف ونحو ذلك مما يدخل في نطاق المخالفنة القانونية أو الأخلاقية ، وإلا لعاقبهم الخلقاء عليه وآذوهم عند سماعه . بل كان الخلقاء يستمتعون به كما يستمتع السامعون له حين ينشد في سوق المريد . كانت تلك المهاجراة مناسبة مشروعة في ذلك الحين ، لا يعني بها الشعراء إلا إظهار الفتوة والمهارة في نظم الكلام ، والبراعة في الأخذ بعواطف السامعين والتأثير فيهم . وكان أولئك الذين يشهدون محافل المريد ويستمتعون لإنشاد الشعر فيها يطربون غاية الطرف ويهترؤن لاعجاباً ، ويضحكون منه أفواههم ، ويهالون لهذا الشاعر ولنافسه ، ثم يغضى كل ذلك دون أن يخلف حقداً حقيقياً أو ضغينة بين المنافسين . فجرير والفرزدق كانوا يتميzan إلى قبيلة واحدة هي تميم ، ومع هذا تعرض كل منهما لأهل الآخر وعشيرته ليتال لعجب السامعين ، وليدخل السرور على قلوبهم : ولتنافل أقواله في المجالس كصور من النكتة أو الدعاية . لم يكن الأمر إذن أمر بذاعة أوساب تقصد لذاتها ، أو يتلفظ بها في ساعة غضب ، أو تم عن حقد وضغينة ، وإنما هي صور من الأدب الذي تأدبوا به ، واتخروا منه سلوكهم والترويجه عن أنفسهم .

كذلك حين نطلع على ما كان يدور في مجالس بعض الخلقاء الأمويين ، ولا سيما مجالس عبد الملك بن مروان ، نوقن أن القوم حينئذ لم يروا أحب إلى نفوسهم وقلوبهم من الاستماع إلى لغتهم وما أنتجه الأدباء بهذه اللغة ، وينخيل إلينا أن عبد الملك لم يكن يشغله من مهام الدولة إلا المطارحة بالأشعار ، والاستماع بالاسماع إلى إنشاد القصائد في حضرته ، ونقده بعض أبياتها . وإجازة الشعراء على ما ينظمون . وقد أحسن استقبال هؤلاء الشعراء وهش لهم ، وتبسط معهم في الحديث ، فيقول لأحدهم مثلاً أنشدنا قصيدةك في كذا ، أو

الى مطلعها كذا^(١). حتى الشاعر من النساء كان يستقبلهن ويعازجهن ، مثل لقاءه للليل الأخيلية في رواية لابن قتيبة قال (بلغني أن ليل الأخيلية دخلت على عبد الملك بن مروان وقد أنسنت وعجزت ، فقال لها : ما رأى «توبه» فيك حتى هو يراك ؟ قالت ما رأاه الناس فيك حتى ولوك . فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفى).

وكان عبد الملك يسائل الشاهدين بجلسه عن معنى بيت وعن قائله ليختبرهم ويشجعهم على رواية الأشعار : بل حتى وهم على موائفه كان يداعبهم ويسائلهم ، مثل تلك القصة الطريفة التي يرويها صاحب الأغافى : والتي تشير هنا أن نروى معناها .

فقال إن رجلا من أهل العراق جاء ليشارك في موائد عبد الملك ، فلما رأه الخادم لم يعجبه مظهره ، وأخذ يضايقه ويسخر منه ، ثم دخل عبد الملك وسأل الحاضرين عن معنى بيت أنشده أمامهم وعن قائله ، فهمس العراق في أذن الخادم مضلا له بأن قائل البيت هو عدي بن زيد يصف به البطيخ . فأنيرى الخادم في غباء وأجاب كما علمه العراق ، فضحك عبد الملك وسأله من لقتك هذا ؟ فأشار إلى العراق . فالتفت إلى العراق وقال له أنت لقنته هذا ؟ قال نعم . فقال عبد الملك أخطأ لقنته أم صوابا ؟ قال العراق خطأ طبعاً . وقد لقنته هذا مضلا له ، لأنه حاول منعي عن موائفك . فأردت أن أجعله أضحوكة . قال عبد الملك فكيف الصوب ؟

فأجاب العراق في ثقة أن البيت «للشمامخ» يصف به البقر الوحشية . قال عبد الملك صدقت وأجازه . ثم قال له ما حاجتك ؟ قال العراق : تتحى هذا الخادم عن بابل فإنه يشينه .

بل ربما أقطع عبد الملك أحد شعراته ضيحة من الضياع مثل صنائعه مع «كثير» عزة وإقطاعه له . وكان عبد الملك مع هذا شجاعاً لا يهاب الوعى فقد حاولت عانكة منه عن الخروج لخرب «مصعب» وحضرته وتولست إلى

(١) الأغافى - ٤ ص ٢٥٨ - ٦ ص ١١ - ٢٦٩، ٢٤٠، ٢٦٩ - ٩ ص ٩ - ١٠، ٢١، ٢٢، ٢٣ - ١٧٠.

باكية فأبي وتمثل بقول الشاعر :

إذا ما أراد الغز ولم تُنْهَ حصان عليها عقد درّ يزيّنها
نهيًّه فلما لم تر النهي عاشه بكت فبكي مما شجاها قطّينها

وسواء صحت تلك القصة التي تروى عن بنت عبد الملك ونطّلعلها إلى غزل «عمر بن أبي ربيعة»، أم لم تصح في كل تفاصيلها، فروايتها في كتب الأدب على كل حال تربينا كيف كان العرب حتى النساء منهم يستمتعون بأدابهم، ويجدون فيها المتعة كل المتعة. فيقال إن بنت عبد الملك خرجت للحج وتوقعت أن يقول فيها ابن أبي ربيعة شعراً، وغضبت حين ظنت أنه لم يتغزل فيها. ثم ابتهجت حين تبيّنت أنه نظم فيها قصيدة مطلعها :

راغ الفؤاد تفرق الأحباب يوم الرحيل فهاج لـ أطراقي

وفيها يقول :

اقتلي قلا سريعاً مريحاً لا تكرني على سوط عذاب

لا غرابة إذن أن يقال إن أدب الأمويين كان امتداداً لأدب ما قبل الإسلام، فالمربد في البصرة حلت محل عكاظ. ولليلي الأنجلية أعادت للأمويين عهده النساء. واتسم جو الأدب على عهد الأمويين بالسماحة وسعة الصدر من حيث الدين، فلم تحمل نصرانية الأختطل أو القطاوي دون شهريهما، أو رواية شعرهما، بل كما رأينا آنفاً كان عبد الملك يلقب الأختطل بأمير الشعراء، وبشاعر الخليفة وغير ذلك من التعوت. أى أن أوضاع ما يؤهل الشاعر لدى الأمويين عروبة لا دينه، وحسن بيانه لا عقيدته.

وهكذا نرى أن زمام الشعر على عهد بنى أمية قد انتقل من الحجاز إلى العراق مثلاً في البصرة والكوفة، تاركاً للحجاز شعراء الغزل ^{لـ} من أمثال جميل بشيّة، وأبن قيس الرقيات، وعمر بن أبي ربيعة، وكثير عزة، « والأحوض » وهو أكثرهم إنتاجاً، و« ذو الرمة » وغيرهم.

ولعل أهم ما يتصف به أدب الأمويين وأدب ما قبل الإسلام أنه أدب

منطوق، يعتمد على ذلالة اللسان والأذان المرهقة، ويتمثل في إنشاد الشعر وفي الخطابة . فلما كان عهد العباسين ، وأمست بغداد ظهر نوع جديد من الأدب ، وهو الذي نحب أن نطلق عليه اسم الأدب المكتوب الذي عاش مع الأدب المنطوق جنباً إلى جنب فترة من الزمن في أوائل عهد العباسين . غير أن المنطرق كانت له السيادة قرابة نصف قرن ، وأنه ظلل على ما يشبه الصورة التي ألقاها في عهد الأمويين . فشعراء العباسين في القرن الثاني من الهجرة حتى المولى منهم نشأوا جميعاً في البصرة والكوفة ، وتربيوا بهما ، واستقروا من مراهقهما الفصاحة وجودة النظم ، وإن حاولوا الترويج على تقاليد شعرائهما في بعض الأحيان ، كالذى كان من ثورة أبي نواس على الوقف بالأطلال والتشبيب بهند أو « دعد » ، وغير ذلك من الأساليب الشعرية التي ألقاها القديماء وتنافسوا فيها .

فبشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧ هـ نشأ في البصرة ، وتروج أعرابية وعاش في عهد بي أمية نحو ثلاثين عاماً . أى أن البيئة التي أطلقت لسانه بقول الشعر ، والتي أثبتت شاعريته وصدقها هي نفس البيئة التي نشأ فيها شعراء بي أمية . فقد عاش حتى سن السبعين أو الثائرين في بعض الروايات . وفاز الشعر وهو ابن عشر سنين . بل يروى أنه حاول أن يهجو جريراً فاستحشف به جريراً . وهو القائل :

بَنِي أَمْيَةَ هَبُوا طَالْ نُومَكُمْ إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبَ بْنَ دَاؤِدَ
فَإِذَا تَذَكَّرْنَا أَنَّهُ كَمِيْفَاً أَمْكَنْ أَنْ تَصُورْ أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْأَدَبِ
الْمَنْطُوقِ لَا يَعْنِي غَيْرَهُ .

وأبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ هـ نشأ في البصرة منذ الثانية من عمره : وعاش بها وتربي في أحضانها ونمث شاعريته في ربوعها ، فلم يذهب إلى بغداد قبل سن الثلاثين .

وأبو العاتية المتوفى سنة ٢١١ هـ نشأ في الكوفة وتربي ، وكانت بيته وبين حماد عجراً مهاجة على نحو ما ألقاها من التهاجي بين جريراً والقرزدق .

وليس من الإسراف أن نقرر أن كل شعراء القرن الثاني على عهد العباسين كانوا من تأثروا بأدب البصرة والكوفة ، ونهجوا نهجه . ذلك لأن بغداد لم تكن حتى ذلك الحين مهدًا ينبع الشاعرية ويشحذ قرائح الشعراء على النحو الذي ألقاه في بيئة البصرة والكوفة . فالعربية وإن كانت قد استقرت في ربوعها بعض الاستقرار كانت لا تزال في صراع مع الفارسية . ولكن بغداد مع ذلك كانت مهد الخلفاء الأوائل الذين كانوا عرباً أو على الأقل يحسنون العربية ويغتررون بأدبيها وشجعون على روایته . ويكون أن ذكر أن علماءها هم الذين أرسوا قواعد العربية ، وقعدوا أساليبها ، وثبتوا نظامها فيها جاء في كتبهم من وصف دقيق وتحليل رائع على يدي سيبويه ومعاصريه من اللغويين .

على أن الدارسين للأدب العربي يأتون إلا أن يجعلوا من شعر القرن الثاني على عهد العباسين صورة مبادنة كل التباين لما كان سائداً في البصرة والكوفة أيام الأمويين ، ويضربون أمثلة بشورة أبي نواس على طريقة من سبقوه حين يقول :

لا تلث هندا ولا تطرب للي دعد واشرب على الورد من حمراء كالورد

ويقول :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم
ولكيهم يتسمون أن الخليفة قد سجنها لأشهاره بالخمر . ثم عفا عنه وأخذ
عليه المواريث لا يذكرها . ودعاه إلى النظم على طريقة القدماء فقال :

أعر شعرك الأطلال والمترى الفغرا فقد طالما أزري به فعتك الخمرا
دعاني إلى فتح الطلول مسلط تضيق ذراعي أن أرد له أمرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشتني مركباً وعرا

أي أن من الخلفاء من دعوا إلى الأخذ بمقاييس القدماء من الشعراء وشجعوا عليه .

ولستنا ننكر أن شعر القرن الثاني على عهد العباسين قد اتسم ببعض الصفات

الجديدة كالمبالغة في المدح ووصف الخمر والغلمان والشعر الجوفي ووصف الرياض والأزهار ، ولكنه مع هذا يعد امتداداً لشعر البصرة والكوفة أيام الأمويين . أى أن شعراء القرن الثاني على عهد العباسين تعلموا الشعر وأجادوا نظمه في بيئة البصرة والكوفة ، ثم رحلوا إلى بغداد فتأثر خيالهم وتنوعت فنونهم في البيئة الجديدة . ولكنهم ظلوا من أصحاب الأدب المنطوق ، وهذا هو ما يعنينا هنا .

أما الأدب المكتوب الذي نشأ ونمأ في هذا العصر فيتمثل في الإنشاء ، أو ما يسمى بالثر الفنى الذى يقال لنا إنه بدأ بعد الحميد وانتهى بابن العميد . وخير مثل لهذا الأدب المكتوب في القرن الثاني كتابات ابن المفعع ، وأثار آنفة المذاهب الإسلامية كأبي حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، والشافعى ، وابن حتبيل ، وما دونه المقلدون من مؤرخى العرب في السيرة النبوية وغير ذلك .

وحل الأدب المكتوب محل الخطابة التي اشتهر أمرها في أدب الأمويين وأدب ما قبل الإسلام ، فقد ضعف شأن الخطابة في عهد العباسين ، أو لم يعد لها من الحواجز ما كان أيام بني أمية وفي أسواق الماجاهلة . إذ اعتمد الأدب المنطوق حيث ذكر على دعامتين أساستين ، أو فئتين أساسين : هما إنشاد الشعر والخطابة . فلما كان العصر العباسي ختم ذكر الخطابة أو كاد ، وأصبحت تقتصر على خطب الجمعة والعيددين وما أشبه ذلك من مناسبات ، وحلت الكتابة محلها .

ولعل من خير ما وصف به الدارسون للأدب ، عصر العباسين في القرن الثاني من الهجرة أنه عصر التلوين ، فقد ظهر فيه ما نسميه بالأدب المكتوب الذي دعت ظروف وحواجز إلى نشاته ، منها أن البيئة الحضارية الجديدة قد ورثت عن حضارات من سبقوا من الأمم الاعتماد على القلم والقسطاس أكثر من الاعتماد على الذاكرة والحافظة ، وأصبحت الأممية التي كانت من قبل أمراً مألفاً لا يغض من شأن صاحبه ، شيئاً معيلاً لا يليق بأصحاب الحضارة . فأقبل الناس على تعلم القراءة والكتابة وشاع أمرها وظهرت الحاجة إليها في كل الشؤون .

ولما تبين للقوم حيثند أن الرثاث العربي قد أخذ يتضخم وأصبحت الذاكرة والحافظة تعian به ، حرصوا على تدوينه وتسجيجه خشية من ضياعه كله أو بعضه . وربما كان لهم حافز كبير في كلمة أبي عمر بن العلاء المشهورة التي يقول فيها: (ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقوله ولو قد جاءكم كله بلاءكم علم وأدب كثير) .

أما أهم مادعا إلى نشأة الأدب المكتوب في هذا العصر وجعله بمثابة الضرورة الملحة فيتمثل في أمرين : أحدهما حركة الترجمة لعلوم الأمم الأخرى وأدابها تلك الحركة التي شجع عليها المؤمنون واحتار لها خير المترجمين ، والآخر أن بعض الموالى من حسن إسلامهم وحاولوا عل泰山 السيطرة على اللغة العربية نطقاً وأداء ، قد شق عليهم بعض أصواتها فتفنعوا بالكتابة الصامتة وأحسنوا التعبير بالقلم حين أعيتهم التعبير باللسان ، وكان هذا من فضل الله على الرثاث العربي الإسلامي الذي درسوه وألقوا فيه ، فخلقو لنا جهوداً علمية ممتازة .

انتشار العربية في الأمصار :

تلت الفتوحات الإسلامية خلال فترة تاريخية وجديدة نسبياً لا نعرف لها مثيلاً في تاريخ الأمم الأخرى . وانتشر الإسلام في هذه الأمصار ، في العراق وفي الشام وفي مصر وفي المغرب ، ودخلت اللغة العربية هذه المناطق مصاحبة للدين الحنيف ومؤدية له . ثم كان أن دخل الناس في دين الله أتواها . وسر على الناس اعتناق الإسلام أن تعاليمه لا تطالبهم بأكثر من إعلان الشهادتين ليصبح المرء مسلماً ، ولا تكلفه ترك لغته . بل تقنع منه بحفظ بعض آيات من القرآن الكريم يقيم بها صلاته ويتعبد بها . ولذلك كان انتشار الإسلام في الأمصار أسرع من انتشار لغته في بادئ الأمر . فقد يقى كثير من أسلموا في الأمصار على لغة آبائهم في القرن الأول من الهجرة . ثم كان الصراع الحتمي بين العربية واللغات الأخرى في هذه الأمصار . فكان ما كان مما شهدناه أثره في بلاد فارس ، وأشارنا إليه آثاراً من ظهور الشعوبية نتيجة لهذا الصراع بين العربية والمفارسية . فلما اخسر تيار اللغة العربية عن بلاد فارس أخذ يتتدفق بقوة نحو الشام ومصر وببلاد المغرب حيث كان الصراع أخف وطأة وأقل عنفاً .

وفي خلال ما يقرب من قرنين نظرنا فإذا بالعربية تسود في كل هذه المناطق ، ولم يبق من آثار اللغات التي كانت بها إلا فلول صغيرة هنا وهناك قضت عليها العربية مع مرور الزمن ، فلم يكُن يبدأ القرن الخامس الهجري حتى كانت هذه اللغات في خبر كان . فاندثرت اليونانية والرومانية والأرامية من بلاد الشام ، واندثرت القبطية من مصر ، وانحسرت البربرية إلى مناطق منعزلة في صحراء المغرب .

أما العراق فكان مهد الدولة الإسلامية العربية ، فيه عاصمتها وخلفاؤها ، وهو محطة أنظار العرب الفصحاء الذين نزحوا إليه واتخذوه دار إقامة . ولذلك سادت فيه العربية برغم الحركة الشعوبية التي حالت دون تغلغل العربية في بلاد فارس .

وانتهى الصراع اللغوي بين العربية واللغات الأخرى ، وإن لم تحدثنا كتب التاريخ عن تفاصيله ، إلى أن أصبحت بيضة اللغة العربية تتحدى من العراق إلى الشام إلى مصر إلى بلاد المغرب ثم إلى الأندلس . وباستقرار العربية في كل هذه المناطق استقرت معهاعروبة أو القومية العربية ، ونسى الناس ما كان عليه أجدادهم وأصبحوا لا يذكرون إلا أنهم عرب تجمعهم لغة واحدة ؛ يفكرون بها ويكتبون ما ورثوه من تراثها ، وتوحد شعورهم وتلم شتاتهم . وبذلك أصبحت تلك البيشات مؤهلة لإنتاج الأدب العربي في كل صوره وفنونه ؛ تبت الشعراء ويتخرج فيها الكتاب ، وتحفل بالدارسين لآثار من سبقوهم من العرب . ونظر الناس في هذه الأمصار فإذا بالساحة الإسلامية ترك لهم دياناتهم وعقائدهم بعد أن استقرت الفتوحات ، فأبطنوا تيار الإسلام قليلاً ، في حين أن تيار اللغة أخذ يسرع الخطأ ويزداد انتشاراً . فقد تبين للناس أن الوصول إلى بعض أغراضهم الدينيّة لا يتحقق إلا بتعلم العربية والسيطرة عليها ، كاشتراكيهم في الحكم والوظائف والإدارة . وترك الإسلام يشق طريقه في هدوء وفي ساحة مستمدًا قوته من تعاليمه وحدتها ، فانتشر في مناطق أخرى من الأرض في الهند والملایر وأندونيسيا وقلب أفريقيا ؛ تاركاً البلاد التي انتشرت فيها اللغة العربية

لتكون منها منطقةً موحدةً القومية ، إذ يصطنع الجميع هذه اللغة الشريفة ، وإن بُنيَ بينهم خلقٌ كثيرٌ من ظلوا على مسيحيتهم ، ولا يزال منهم في البلاد العربية قدرٌ كبيرٌ .

وهكذا يمكن أن يقال إن الطور الأول في تاريخ القومية العربية إنما كان حين سادت اللغة العربية في الأمسكار أي في القرن الثالث من الهجرة حين أصبح الناس فيها يتطلعون إلى هذه اللغة ويعترفون بها ; ويرون فيها وحدتها ما يجذب بعضهم إلى بعض ، وما يميزهم عن غيرهم من الأمم وما يدعم كيانهم واستقلالهم . وكان من الممكن هنا أن تنشأ حيئاً حركة أدبية ناهضة في أي من هذه الأمسكار ، غير أن العراق وهو مهد الحلاقة كان أسبقها إلى هذا . وبوغم ما كانت عليه بغداد من تدهور سيامي خلال القرن الثالث من الهجرة نتيجة تقوّذ الأتراك سلطانهم قامت بها حركة أدبية علمية جليلة الشأن ، فأتيت بغداد ولأول مرة شعراء وكتاباً وعلماء نشأوا بها ، أو تربوا في ربوعها ، بعد أن كان اعتماد الأدب على من نشأوا وتربوا في بيته البصرة والكوفة من قبل . فانتقل زمام الأدب إلى بغداد ، وأصبح أربابه يتمسون إلى بغداد ووحدتها سواء منهم من ولد فيها ونشأ ، أو من نشأ في مصر آخر قضى فيه طفولته ولكن لم تتضح ملكته ، ولم تعرف شاعريته إلا في ربوعها كأبي تمام والبحترى . فهما في رأي من أتيتهم بغداد . ومن الغريب أن بعض الدارسين للأدب العربي يعدون أبي تمام والبحترى من شعراء الشام . لا لشيء سوى أنهما ولدا في قرية بالقرب من دمشق وقضيا بعض طفولتهما في الشام أو مصر .

فتجمع الروايات على أن أبي تمام توفى سنة ٢٣٢ هـ . أي مع وفاة الخليفة الراشق ، وتکاد تجمع على أنه ولد سنة ١٨٨ هـ ، وأنه كان وقت وفاته في حدود الأربعين من عمره ، وتحدثنا كتب التراجم أن أبي تمام ولد في قرية بالشام قرب دمشق ، ثم رحل منها إلى مصر وهو غلام يافع وظل بها خمس سنين . ويبدو من أرجح الأقوال أن أبي تمام ترك مصر إلى بغداد في أوائل عهد المأمون أي في حدود سنة ١٩٨ هـ ، وظل هناك يرتقي في مدارج الشهرة حتى أواخر عهد

ال الخليفة الراشد ، وإن كان في أثناء إقامته بالعراق قد تجول في أمكنته متعددة معظمها في المشرق . ولذلك نرى أن الكثرة الغالبة من مدحه شخصيات عراقية .

كذلك يبدو أنه لم يكدر بضع سنين على وفوده إلى بغداد حتى لمع نجمه وعظم شأنه شاعرًا يمدح الخليفة والوزراء والكتاب . فيقال إنه مدح المؤمن بقصيدتين ، ومدح من وزرائه الحسن بن سهل ، وأحمد بن أبي داود كما مدح قائدته عبد الله بن طاهر وعدداً من كتاب هذا القائد .

ولكن تاريخ أبي تمام في السنتين العشرين الأولى من حياته غامض كل الفموض ، وتضطرب فيه الروايات^(١) . على أن ما يروى من شعره في هذه الفترة كدحه أو هجاته «لعياش بن طبيعة » وغيرها : قليل لا يُؤلف قدرًا ذات قيمة في ديوانه ، ولا يكشف بشكل واضح عن بيته مصر أو الشام ، وحياته فيها أو تأثره بهما .

ولذلك بعد معظم شعره وأروع قصائده قد نظمت في أواخر عهد المؤمن وفي خلافة المعتصم والراشد . فقد مدح المعتصم وبعض وزرائه كمحمد بن عبد الملك ثرييات . ومدح الراشد وزيره الحسن بن وهب .

في ربع بغداد وقبل اتصاله بالمعتصم نظم شعراً كثيراً ذاع شأنه بين أهلها بما قربه إلى الخليفة وجعله شاعره المفضل . فبيته بغداد هي التي أثبتت شاعرية أبي تمام وأنضجتها . ولا أثر فيها لبيته أخرى . فهو لذلك شاعر بغدادي : وبيته بغداد هي وحدتها مصدر نبوغه والسر في قرينه وشاعريته التي فاقت كل معاصريه .

أما البحترى فقد ولد أيضاً في «منبع» مسقط رأس أبي تمام سنة ٢٠٦هـ ، ونشأ كما نشأ أبو تمام في البادية بين قبائل طيء وغيرها فغلبت عليه الفصاحة . وتخالف كتب التراجم في الحديث عن مكان اتصاله بأبي تمام ، فتها ما يروى

(١) انظر كتاب الدكتور نجيب الهميسي (أبو تمام الطافى : حياته وحياة شعره) دار الكتب

أن البحري لقى أبا تمام في «حمص» وعرض عليه شعره في جملة من كان يأتيه لهذا الغرض^(١)، ومنها ما يؤكد لنا أن البحري خرج إلى بغداد فلقى أبا تمام ولزمه حتى تخرج عليه^(٢)، ويبدو أن هذا هو الأرجح . والعبارة على كل حال بالمكان الذي أنسج شاعريته وتغنى بياته ، وكان ذلك ولا شك في ربوع بغداد . فهو لذلك شاعر بغدادي كأبي تمام . فقد عاش معظم حياته في بغداد، ونظم أكثر شعره في مدح المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ، فلما قتلا رجع إلى منيعب مسقط رأسه ، ولكنه ظل مختلف إلى سراة بغداد ، واسر من رأى ، فيصلح لهم حتى مات سنة ٢٨٤ هـ .

ولا رجعنا إلى ديوان البحري تبين لنا أن كل شعره نظم في مدح المتوكل ووزيره ابن خاقان مع شخصيات أخرى من المشرق أيضاً ، فيها عدا قصيدة واحدة مدح بها أحمد بن طولون وأخرى هجاء بها ، وفيها عدا بعض أبيات يقول لنا شراح الديوان إنه يذكر بها طفولته وقومه في «منيعب» مسقط رأسه .

ليس إذن من المبالغة أن نعد البحري شاعراً بعدادياً أيضاً . وقد عاصر البحري شاعر بغدادي آخر توقف في نفس السنة التي ترقى فيها البحري ، وهو ابن زرور الذي تقول عنه كتب التراجم إنه ولد في بغداد وفيها نشأ وتأدب حتى شعر وبلغ في نظم الشعر .

وآخر شعراء بغداد المشهورين في القرن الثالث من الهجرة هو ابن المعذري متوفي سنة ٢٩٦ هـ .

وهكذا فرى أن هذا القرن قد شهد سيادة العربية من المحيط إلى الخليج، ومعها أو على أساسها سيادة القومية العربية في كل هذه المناطق ، غير أن بغداد كانت لها الرعامة الأدبية بوصفها مهد الحلفاء وعاصمة الدولة الإسلامية ، وفيها ترکرت مع الحركة الأدبية حركة علمية رائعة تكثلت في أدب الحافظ وابن قتيبة وغيرهما ، وفي آثار علماء اللغة من أمثال المازق وتلميذه المبرد وأبي العباس

(١) جورج زيدان ج ٢ ص ١٨٥ تاريخ أدب اللغة العربية .

(٢) أحمد حسن الزيات ص ٢٩٥ تاريخ الأدب العربي .

شعب ، وفيها دونه المؤرخون من أمثال ابن عبد الحكم والبلاذري وأبن جرير الطبرى ، وفي آثار الأئمة من أصحاب الحديث كالبخارى ومسلم وأبن ماجة والرمذى وغيرهم ، وفي تفسير الطبرى ، وفي علوم الفلسفة والرياضيات والطب .

وكل هذا من الأدب المكتوب الذى ربما كانت له السيادة والتغلق على الأدب المنطوق فى هذا العصر ، والذى خلد اللغة العربية ، وأصبح لها بثابة السجل الذى يضم ألفاظها وتراثها ، بل ويصف أصواتها . وكان هنا الأدب المكتوب محل الدراسة والعناية فى كل العصور إلى ثلت هذا ، يذكر الخلف بمجد السلف ، ويصون اللغة من الضياع أو الاندثار ، ويصون بصورها القومية العربية ، ويدرك العرب فى عصور الأخلاقيات بعظمة أجدادهم ، ويحفزهم على التوضىh كلما أصابتهم كبوة ، أو عدت عليهم عوادى الزمن .

ثم شاعت أحداث التاريخ أن قوم دولتان سلمتان إحداهما فى المشرق والأخرى فى مصر تدعوان إلى مذهب دينى معين هما دولة آل بوه سنة ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ فى بغداد ، والفاطميين فى مصر سنة ٣٦٢ - ٥٩٧ هـ .

وهنا يكاد يختفى الأدب المنطوق ، بل يكاد يختفى أدب العروبة ليصبح أدباً مكتوباً فى أغلب صوره . وأدباً إسلامياً محضاً ، وتتصبح معه القومية العربية فى شبه سبات ، أو تأخذها سنة من النوم . غير أن بيتة الشام لا تكاد تتأثر بهذين التيارين الدينيين ، ولذلك التقط الشام زمام الشعر من بغداد خلال القرنين الرابع والخامس من الهجرة ، ونهض الأدب المنطوق فى ربوع الشام على أيدي أبي فراس والشبي وأبي العلاء ، وظل الشعور بالقومية العربية على عتفوانه فى عهد حكام الشام وأمرائه من العرب الخالص الذين يعتزون بعروبتهم وأدابها ولغتها . فكانت تلك النهضة الأدبية التى بدأت بشاعر يسمى « ديك الجن » المتوفى سنة ٣٣٥ هـ الذى لم يرخ الشام ولم يشهد بغداد ، ثم الشبي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ ، وأبى فراس المتوفى سنة ٣٥٧ هـ ، وكشاجم المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، والسرى الرفاء المتوفى سنة ٣٦٢ هـ والأوازاء المشمشى المتوفى سنة ٣٩٠ هـ وأخيراً وليس آخرأ أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ هـ .

في حين أنا لا نعرف شاعراً يستحق الذكر ظهر في مصر على عهد الفاطميين سوى «ابن قلاقيس» المتوفى سنة ٥٦٧ هـ ولا يصح أن يقارن بمن ذكرناه من شعراء الشام . وكذلك الثان في بغداد يرغم أن الشريف الرضي المتوفى سنة ٦٤٠ هـ ظهر بها خلال هذه الفترة . ولكننا نرجح أن بيته الخاصة ونسبه وحياته وما رُبِّيَ عليه بين قومه الأقربيين ، كل ذلك أهله لنظم الشعر ورواية سُجَّع البلاغة ، فبيته الخاصة وليس بيته بغداد . هي السر الحقيق في أدبه وشعره . ثم ظهر بعده مهياجر الديلمي المتوفى سنة ٤٢٨ هـ الذي أسلم على يدي الشريف الرضي وتلهمه عليه وتأثر بيته . أما الطغراقي المتوفى سنة ٥١٤ هـ فلم يشهر بين الشعراء إلا بلاميته التي تسمى لا مية العجم والتي مطلعها :

أصالة الرأى صافى عن المخطل وحلية الفضل زانتى لدى العطل
هؤلاء هم أشهر الشعراء الذين ظهروا في بغداد خلال حكم آل بويه وما
بعدة بقليل . وهم مع كثرة ما نظموا لم يستطيعوا أن يتزعموا زمام الشعر من الشام ،
ولا أن يعيدهم إلى بغداد . فالظروف السياسية التي عاشوا فيها ، والداعمة الدينية
التي تركت في حكم آل بويه جعلت أدبهم يصطدم بالصيغة الدينية أكثر من
اصطدامه بالعروبة والقومية العربية .

ثم كانت تلك آخر بوب التي يدعوها مؤرخو العرب وبخت حروب الفرنجية .
ويسمى الأوربيون بالخروب الصليبية . وتركرت في الشام من ٤٩٢ - ٥٨٢ هـ
فأطاحت الشعور بال القوميَّة العربية . فليس هناك ما يقوى الشعور بال القوميَّة ويشعل
أجيجها أكثر من شعور أصحابها أنهم يواجهون عدوًّا مشتركاً يحاول التخلص من
كرامتهم والاعتداء على وطنهم . وتعلمت البلاد الإسلامية إلى مصر على عهد
صلاح الدين الذي يرغم أنه كان كردي الأصل آمن بالعروبة والإسلام معاً .
فتشهر الفرنجية الأوربيَّين ، وأعاد للعروبة والإسلام الجد والعزَّة والكرامة .

لا غرابة إذن أن ينتقل زمام الشعر والأدب في عهده وعهده من جاءوا بعده
من الممالِك ، إلى مصر . وتمثل ذلك في ظهور عدد من الشعراء أشهرهم : ابن
سته الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ وابن الديبه المتوفى سنة ٦١٩ هـ وابن القاضي المتوفى

سنة ٦٣٢ هـ وابن مطروح سنة ٦٤٩ هـ وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ، والبصيري المتوفى سنة ٦٩٥ هـ وابن نباتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨ هـ، بل ربما نعد من شعراء مصر في تلك الحقبة صني الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ برمض أنه نشأ في بغداد . ولكننا مع هذا لا ندعى أن هؤلاء الشعراء قد استطاعوا أن يعيدوا عهد شعراء العراق أو الشام ، وإنما كانوا مظهراً لحقيقة أو انتفاضة دبت في جسد القومية العربية ؛ وأعادت لها بعض ما كان من شأنها فيما مضى .

ثم كان ذلك السبات العميق الذي أصيّبته القومية العربية بمثابة في روانع أدبها ومشهوري شعرائها بعد نكبة المغول في المشرق وخلال حكم العثمانيين في مصر والشام ، حتى ظهرت بوادر النهضة العربية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر من الميلاد . أما الشأن مع الأندلس وببلاد المغرب فيمكن أن يقال إن النهضة الأدبية التي وُلِّيَ العلامة ، أو ربما عاشت قليلاً بعدها ثم أصابها نفس السبات المتبقي وأبى العلامة ، الذي حل بكل المناطق العربية . فابن هانئ الأندلسي توفي سنة ٣٦٣ هـ . وابن زيدون توفي سنة ٤٦٢ هـ ، وابن خفاجة توفي سنة ٥٣٢ هـ . وابن عبدون

توفي سنة ٥٢٠ هـ . وابن حمديس الصقلي توفي سنة ٥٢٧ هـ . وبينما كانت العربية تثبت أقدامها وتعشق جذورها في الأمصار في القرنين الثاني والثالث من الهجرة اصطدمت بظاهرة خطيرة هي ظاهرة اللحن الذي ظهرت بوادره منذ اتصال العرب بغيرهم من الأمم واحتلاطهم بهم . أو إن شئت قلت منذ لقاء العربية باللغات الأخرى . ومصدر هذا اللحن الذي فشا واستشرى فيما بعد : أمران : الأول منها بعض الصفات الخاصة للهجات القبائل التي نزحت إلى الأمصار ، من عنعنة وعجمجة وفتح حركة وكشكشة . ونحو ذلك مما ورد ذكره في الكتب والروايات التي أشارت إلى لهجات العرب القدماء . غير أن الخاصة من العرب في صدر الإسلام وعهد بيبي أمية كانوا ينظرون إلى هذه اللهجات على أنها أدنى منزلة . وأقل فصاحة . فتناهوا عنها وتحاوشوها في آدابهم الحديثة . فانبعث بتلك اللغة المشتركة الشودجية الأدبية التينظم بها

الشعراء وخطب بها الخطباء قبل الإسلام ، والتي فوق هذا كله نزل بها القرآن الكريم ، ويدل على هذه النظرة تلك الروايات التي منها ما يقال فيها (سأل معاوية يوماً : من أفضح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن تخلخانة الفرات ، وتياموا عن كشكشة تميم ، وتياسروا عن ككسنة بكر ، لست لهم عجيبة فضاعة ولا طمطمانية (حمير) . قال معاوية من هم ؟ ، قال المتكلّم هم قريش) . قريش هنا في رأي رمز للبيئة الحجازية التي نمت فيها اللغة الأدبية المشتركة ، ومنها انتشرت في جميع أنحاء شبه الجزيرة .

على أنه لم يكدر ينقضى القرن الرابع من الهجرة حتى ظهر من علماء اللغة من يشيد بهذه اللهجات ويراماها جميعاً حجة ، وإن كان بعضها أشهر وأفضح من البعض الآخر ، مثل ابن جن في الخصائص حين عقد فصلاً سهلاً ، « اختلاف اللغات وكلها حجة » ، وأشار فيه إلى هذه اللهجات ، واختتم كلامه بقوله : (إلا أن إنساناً لو استعملها لم يكن خطئاً لكلام العرب ، لكنه يكون خطئاً لأجدد اللغتين) . فاما إن الحاج إلى ذلك في شعر أو سجع فإنه مقبول منه غير منع عليه) .

وهذه اللهجات العربية القديمة هي التي وفدت مع قبائلها إلى الأنصار بعد الفتح الإسلامي . مشكلة إن حدها كلام كل مصر وبها بشكل خاص وتركت على ألسنة الناس بعض آثار اللحن والانحراف عن أساليب اللغة الأدبية المشتركة . وربما ساعد على انتشار هذه اللهجات في الأنصار وعدم تحاشي الناس لها نظرة بعض المغويين من أمثال ابن جن في القرن الرابع من الهجرة .

أما الأمر الثاني فهو أخطر أثراً وأعمق جذراً ، وهو ما تأثرت به اللغة العربية في الأنصار من اللغات التي كانت سائدة فيها . فربغم أن العربية قد خرجت ظافرة متصرفة من صراعها مع هذه اللغات لم تسلم من بعض الجروح والتلوب التي تتمثل في انحرافات أصوات بعض أصوات اللغة وصيغها وتراتيبها ، وحيث على ألسنة الناس : وعدها المغويون أمثلة من اللحن .

ويبدو أن العلماء والأدباء لم يقدروا خطورة هذا اللحن في بادئ الأمر .

ولم يتصوروا أنه من الممكن أن ينشأ عنه ، كما حدث فعلاً بعد ذلك ، ما يشبه الثنائية أو الازدواجية في اللغة ، لغة للخاصة وأخرى لل العامة . يدل على هذا بعض كلام الحافظ حين يشير إلى لغة العامة بقوله : (وإذا سمعت بنادرة من توادر العام وملحة من ملح المحسنة والطغام فربماك أن تستعمل الإعراب ، أو تخرج لها لفظاً حسناً أو تخرجها من فيك مخرجاً سوياً ، فإن ذلك بفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها)^(١) .

غير أن بعض الغيورين على اللغة والتحسينين لصحة الكلام قد بدأوا منذ القرن الثالث من الهجرة يمحارون ذلك اللحن ويعملون جاهدين على وقف تياره . ويتمثل ذلك في مثل كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت : وآدب الكاتب لا بن قتيبة .

ويبدو أن الهبة الأدبية التي سادت في بغداد خلال القرن الثالث من الهجرة وفي الشام خلال القرن الرابع قد أهلت الأدباء عن ظاهرة اللحن ، فلم يعودوا اهتماماً . واعتقدوا أن أمثلته مهما كثرت ، ومهما جرت على السنة العامة ، لن تزال من العربية الفصيحة ، ولن تصبح لها منافساً ، وأن الشعور بالقوية العربية خلال هذين القرنين والاعتزاز بلغتها وآدابها . كل ذلك كفيل بإصلاح الخطأ والقضاء على اللحن مع مرور الزمن . فأهملت الألسنة تحري كما تشاء وبما تشاء ، وقع أصحاب الأدب بكلام الخاصة والمشقين من الناس .

أما اللغويون فقد هالهم الأمر ، فشمروا عن ساعد الجده ، وبدأوا تلك الحركة التي يمكن أن تدعى حركة التطهير أو التنقية في اللغة ، وظهرت لهم مؤلفات بعنوان (إصلاح النطق ، أو تقويم اللسان ، أو تنقية اللسان وتلقيح البخان ، أو المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ، أو تصحيح التصحيف وتحريز التحريف ، أو الحمام في إزالة الرطانة) ، مع تلك الكتب التي عنونت بلحن العامة أو لحن الخاصة .

ونحن مع الذين تشککوا في الرسالة الصغيرة المنسوبة للكسائي وعنوانها

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٥ .

لحن العام ، بل نرجع أن حركة الترقية في اللغة بدأت بدءاً حقيقياً بكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ ، ثم جاءه بعده أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، ثم ظل التأليف في هذا الغرض مستمراً في كل عصور اللغة .

ومع الجهد المحمود لهؤلاء اللغويين نظرنا فإذا المعلمي الجغرافي الذي طاف بالبلاد العربية خلال القرن الرابع من الهجرة يحدثنا في كتابه « أحسن التقاسيم » عن الخصائص اللغوية لكل إقليم من الأقاليم العربية ، ونشر من حديثه أن ثمة ما يشبه الثانية أو الأزدواجية في اللغة قد نشأ فعلاً في البلاد العربية^(١) .

وقد كان من الممكن أن تتطور هذه اللهجات المحلية فتصبح لغات مستقلة كما حدث لللاتينية التي اندثرت أو كادت مخلفة لغات متقدمة هي التي تعرف الآن بالإيطالية والفرنسية والإسبانية والرومنية ، والتي على أساس كل منها نشأت قومية مستقلة في العصر الحديث . غير أن صلة العربية بالدين الإسلامي قد صانها ، وحالت دون مثل هذا المصير . فقد نزل القرآن الكريم بلسان عرب مبين . ووعدنا سبحانه بحفظه وصيانته في قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَرِدُّنَا الْمَذْكُورَ وَإِنَّا لَهُ لَخَافِظُونَ » . ولكن القرآن الكريم لا يتضمن كل ألفاظ اللغة ولا كل أساليبها وتراثها . وكان لا بد في صيانة اللغة أن تكون معه الأحاديث النبوية ، والمؤلفات الضخمة التي وضعت وفي كل العصور : في الدراسات الأدبية والإسلامية والتاريخية وغيرها . فهي التي كانت ولا تزال بمثابة سجل يحوى كل ألفاظ اللغة وتعابيرها وأساليبها . ويدرك بها الدارسين في كل عصر ، ويصونها من المصير الذي كان لللاتينية .

فحيى في عهد « آل بويه » وبعد أن دالت دولة الأدب في بغداد كان هناك نوع من الأدب الإسلامي المكتوب ممثلاً في الإنشاء والرسالة لا بن العميد وأبي إسحاق الصابي والصاحب بن عباد وبديع الزمان الحمداني . وفي آداب

(١) العربية تأليف يوسف نعيم ، ترجمة عبد الحليم التجار ص ١٦٦ .

أبي الفرج الأصبهاني وأبي هلال العسكري وأبي علي القالي ، وفي معاجم الجمهرة لابن دويذ ، والتهذيب للأزهري ، والمحمل والمقاييس لابن فارس ، والصحاح للجوهرى . وفي تاريخ المسعودى .

وربما كانت أكبر حركة تأليف عرفها العربية في كل تاريخها تلك التي تلت بعد نكبة المغول ، فكان الدارسين حينئذ أرادوا إنقاذ ما يمكن إنقاذه من التراث الفكرى الذى خلفه أجدادهم العرب ، بعد أن أحرق منه الكثير ، وغرق منه الكثير فى أثناء غارات المغول وتخريفهم لبغداد . وكانت الكثرة الغالبة من هؤلاء الدارسين في ديوان مصر والشام . في هذا العصر عُرف ابن مالك النحوى المشهور بمؤلفاته المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، وفيه وضع أضخم معجم عربي هو لسان العرب لابن منظور المصرى المتوفى سنة ٧١١ هـ ، ووضع ابن هشام المتوفى سنة ٧٦١ هـ مؤلفاته التحوية التي هي عماد هذه الدراسة حتى الآن . أما المؤرخون فنهم ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ وابن خلkan المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، وبنى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . وأبو الحسن بن تغري بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ صاحب التاجرم الزاهرة . وغيرهم كثيرون من أهل اللغة والتاريخ والعلوم الإسلامية أولئك الذين خلقو لنا مئات بلآلافاً من المؤلفات الخليلة الشأن .

وتشتم بعض مؤلفات هذا العصر بالجمع الشامل الكامل في استقصاء عجيب : أدى إلى نشأة ما يعرف بالموسوعات . فالنويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ أخرج لنا موسوعة بعنوان « نهاية الأرب في فنون الأدب » . وابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ألف الموسوعة التاريخية المسماة « مالك الأبصار في مالك الأمصار » . وجلال الدين السيوطي أخرج للناس أكبر مجموعة من المؤلفات التي يمكن أن تنسب لعالم واحد . والقلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ صاحب صحيح الأعشى .

وظل العلماء يمارسون الجمع والتأليف حتى في العصر العثماني . وقد كان موقف المتأدبين ودارسي تاريخ الأدب العربي إلى زمن قريب . أن هذا العصر

بعد عصر اضمحلال للأدب العربي ، وأن معظم ما ألف فيه لا يعدو أن يكون جمعاً لتراث السابقين وتفسيراً له أو تعليقاً عليه ، وأن الابتكار فيه قليل أو نادر . فأصحاب هذه المؤلفات الضخمة عالة على من سبقوهم ، وكل مالم من فضل أنهم جمعوا هنا تراث فصانوه من الفساد . على أن بعض المدارسين الآن يشيدون بإنجاح هذا العصر ، ويحاولون جاهدين أن يردوا له اعتباره . وليس يعنينا هنا ترجيح رأى هؤلاء أو هؤلاء ، ولكننا نقرر في حيدة واطمئنان أن نتاج هذا العصر قد خلد اللغة ، وجمع كل ألفاظها وتعابيرها وأساليبها ، فجمع بهذا كل أبناء العرب حولها ، وظل يذكرهم بها ، ويشعرهم أنها هي التي تلم شتاتهم وتحذب بعضهم إلى بعض ، وأنها الأساس الحقيقي لقوميتهم العربية ، برغم سباتها العميق خلال هذا العصر .

القومية العربية في العصر الحديث :

كان للتقدم الصناعي والعلمي في القرن التاسع عشر أثر كبير في الوعي العالمي : كما كان لسلسلة المواصلات وسرعتها أثر كبير أيضاً في نشر الأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين الشعوب والدول . فلما بدأت الحركات القومية في بعض مناطق أوروبا سري إلى المناطق الأخرى أثراها في بيروت وبيريفها . ونظرنا فإذا شعوب عديدة تطالب باستقلالها . وتحس بكيانها وتميزها . لا على أساس من الجنس أو الدين أو الوطن الجغرافي ، بل على أساس اللغة التي تجري على ألسنتهم جميعاً ، وتوحد عنفهم . وتحذب بعضهم إلى بعض لي تكون منهم مجتمع يسعى إلى الأمن والاستقرار والرخاء لكل أفراده . ولم يكدر ينتهي هذا القرن حتى تجل ماسمى بعد ذلك بحق تقرير المصير الذي نودى به في أثر الحرب العالمية الأولى ، وليس له معنى في حقيقة أمره سوى حق تقرير المصير بين أصحاب كل لغة . فتأسست بذلك قوميات أوروبا في هذا القرن ، أو بعبارة أخرى انعزلت كل لغة بأبنائها ، وإن كان حكام الدول الكبرى لم يوفقا التوفيق كله في تطبيق هذا المبدأ ، مما أدى إلى تلك المشاكل التي أشرنا إليها آنفاً .

ولم تكن القومية العربية الحديثة بداعياً في يقظتها وانتفاضتها في أواخر هذا القرن ، كأثر من آثار الحركات القومية في أوروبا ، أو اقتداء بها . فالقومية العربية الحديثة امتداد لاحركات القومية في أوروبا، تأسست على ما تأسست عليه تلك القوميات ونهجت نهجها ، وإن تأخرت عنها قليلاً .

بدأت إذن الانتفاضة العربية في أواخر القرن التاسع عشر ، ولا أسميهما بعثاً أو إحياءً كما يعبر بعض الدارسين . ذلك لأن البعث أو الإحياء إنما يكون بعد موت ، والقومية العربية لم تمت أبداً ، بل كانت قد أصابتها سنة من النوم خلال حكم العثمانيين ، إذ تفرقت مناطقها إلى وحدات شبه مستقلة ، يحكم كل منها حاكم له طموح شخصي ، وكل ما يفكر فيه هو أن ينفرد بالحكم في نطاق معين ، يسوسه كيف يشاء . وعلى ما يهوى . وربما ساعد على هذه العزلة بين البلاد العربية خلال حكم العثمانيين بطيء المواصلات وصعوبتها ، مع ما لكل إقليم من لهجة خاصة في الخطاب ، تكونت خلال عدة قرون من إهمالها وتركها تجري على ألسنة العامة : وتطور إلى خصائص متميزة في كل إقليم .

فإنما كانت الصحوة العربية نظر أبناء هذه الأقاليم إلى ما يمكن أن يجمع بينهم فلم يجعلوا سوى تلك اللغة المكتوبة ذات التراث الفكري الضخم . فقد تلقاها أبناء العرب مكتوبة لا منطوفة ، إلا في نطاق ضيق بين القارئين للقرآن الكريم والمرتلين لآياته عن ظهر قلب ، وكانوا قلة في كل إقليم ، وربما معهم عدد قليل من الناس أتيحت لهم دراسة شفوية لبعض ^{الفنون} صوص اللغة وأدابها في المدارس الإسلامية التي ألحقت بالحواامع والمساجد المشهورة في البلاد العربية . ومع حرص قراء القرآن الكريم على حسن ترتيله ، وحرصهم على تلقيه مشافهة وتجريد أصواته ، وإجازة الشيوخ منهم للتلاميذهم من الحفاظ ودارسي القراءات ، مع كل هذا حدث تطور لبعض أصوات اللغة على الألسنة ، وتميز كل إقليم بصفات صوتية معينة . وأصبحنا فإذا لأبناء العراق حتى في

اللغة بين القومية والعالية

قراءتهم للقرآن الكريم بعض السمات الصوتية في نطق المحروف وفي نبر الكلام تختلف عما لأهل الشام ، ولهؤلاء سمات أخرى قد تختلف عما لأهل مصر ، كما للمصريين ما يميز نطاعتهم عن نطق أهل المغرب وهكذا . على أن هذه الفروق الصوتية كانت من الصالحة وعدم الأهمية في نظر معلمي القرآن وشيوخه . فلم يغيروها أهتماماً : أو إن شئت قلت أبعاهم أمرها بين التلاميذ بعد أن لمسوا تأصل جذورها في ألسنتهم ، فتعمدوا منهم في بعض الحالات بما قدروا عليه ، وأجازوهم على عرضها ، أو رغبة في التيسير على طلاب القراءة لتكثير عددهم ، ونشر الثقافة العربية الإسلامية بين أكبر قدر منهم .

وتطمع أبناء العرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى ذلك التراث الفكري النسخ الذي خلفه لهم أسلافهم مكتوباً باللغة العربية وبخطها العربي التميز : فتشبثوا به ، والتغروا حوله . ينهلون من حياضه ما استطاعوا ، فكانت النهضة القرمية العربية في صورة نهضة اللغة ، وإيقاظ لها من سباتها . وقد يخيل لبعض الدارسين أن الحركة القرمية العربية في أواخر القرن التاسع عشر كانت حركة إسلامية . وإنما كان ذلك لصعوبة الفصل بين الإسلام واللغة العربية . فهي لغة الروح . وهي التي نزل بها القرآن الكريم : وربما كان ذلك أيضاً لأن هؤلاء الدارسين قد اخْتَلَطَ الأمر عليهم بين الإسلامية التي هي دعوة عالمية ولناس كافة ، وبين العروبة التي هي دعوة للمتكلمين باللغة وحدهم . وبهذا الفصل بين الدعويين واضحًا جلياً لكثير من المسيحيين العرب في الشام وغيرها ، وعملوا جاهدين على التميز بين الدعويين : وأسهموا بجهود كبيرة في الحركة العربية . ودعم القرمية العربية . عن إيمان بها وثقة في نجاحها . كان المستشرقون من أبناء العرب يدركون تمام الإدراك أن الإسلام قد شق طريقه إلى مناطق متباينة لها لغاتها وقومياتها ، في الهند والملايو وأندونيسيا وقلب أفريقيا ، وليس من المعقول أن تتضمن القرمية العربية مثل هذه المناطق ، لا لشيء سوى أن الناس بها لهم ألسنتهم الخاصة : وربما خطفهم الخاص . وإن كانوا إخواننا لنا في الدين والعقيدة .

لا غرابة إذن في أن تطلعت القرميمية العربية أولاً وبالذات إلى اللغة التي تجمع أبناءها وتوحد تفكيرهم ، وإلى ما ورثه هؤلاء الأبناء من آثارها وأدابها ودراساتها فكانت المهمة في صورة ما يسمى من قبيل التجوز ببعث التراث أو إحيائه وإنما هو إيقاظه من سباته ، بتحقيقه وإعادة نشره ويسير تداوله بين الراغبين في دراسته . فأنشئت المطبع العربي ، وحمل الأزهر الشريف وأمثاله في بلاد العرب بالدارسين لعلوم اللغة وأدابها ، وبكل ما يمت إليها ، واحتفوا بها قبل احتفاؤهم بالعلوم الدينية الأخرى التي لا تميز قومية من أخرى ، والتي لا تعد طابعاً لقومية معينة ، بل هي تراث إنساني تشارك فيه كل القوميات وتسهم فيه بنصيتها . ثم حاول بعض أبناء العرب ترجمة هذا التراث الإنساني إلى لغتهم القومية وكتابته بخطها ، فساعد ذلك على أمرين : أحدهما تقوية الوعي بين الدارسين وتوسيع فهمهم وترقية الحياة العامة ، والآخر تعزيز الشعور بالقومية العربية بعد أن صورت العلوم الدينية بلغتها وبنطها ، وبعد أن عبرت عنها الألفاظ العربية والأساليب العربية ، وأصبح ممراً على كل أبناء العرب دراستها وفهمها في صورة موحدة لفظاً وخطاً .

وما أظن أن تلك الانتكاسة التي أصابت القرميمية العربية في أوائل عهد الاحتلال البريطاني حين جعلت لغة العلم والتعليم في المدارس اللغة الأجنبية قد أدت إلى إضعاف القرميمية العربية ، أو حالت دون تدفق تيارها . فقد مكثت تلك الحال عدداً قليلاً من السنين ، فلم يكن لها أثر يذكر ، إلا أن تكون قد ألمت الشعور بالقرميمية العربية ، وحثت المصلحين المخلصين على سرعة العودة إلى التدريس في المدارس باللغة القومية .

إذا اتسمت المهمة القرميمية بترجمة العلوم الحديثة ، فإنما كان ذلك ، أو من أهم أهدافه ، إثراء لغتنا العربية وتوسيع آفاقها . وإذا أنشئت المطبع العربي وأمست دور الصحف والنشر ، فإنما كان ذلك للنهوض بأساليب اللغة : وتطورها لمسايرة ركب الحضارة . وإذا أنشئت المدارس والمكتبات في البلاد العربية ، فإن ذلك قد خدم اللغة قبل خدمه أي شيء آخر .

ونحن فؤثر في التاريخ ليواذر القومية العربية أن نبدأ بعهد «إسماعيل» الذي كان مفتوزاً بالحضارة الأوربية ويسعى إلى جعل مصر قطعة من أوروبا، وإن أراد بهذا أن يهيء لنفسه جوًّا من الرفاهية الأوربية؛ وأن يوهم الناس بأنه حاكم متحضر. ومع هذا فرب ضارة نافعة؛ فقد ترتب على سياسة إسماعيل أن تيار القوميات الأوربية وصل مصر متذفراً؛ وأن فكرة القومية التي سادت في أوروبا حينئذ وجدت طريقها في البلاد العربية مثلثة في مصر التي كانت محطة أنظار العرب في ذلك الحين. فأخذ الوعي العربي ينتمي؛ وساعد على هذه اليقظة مظاهر أبرزها: الثقافة الديجوية الحديثة والتطلع لها، فأرسلتبعثات التعليمية لأوروبا، وفتحت المدارس. واستغل رفاعة الطهطاوى وتلميذه على مبارك تلك الفرصة فعملاً على إعادة مدرسة الألسن وتأسيس مدرسة الإدارة التي صارت بعد ذلك مدرسة الحقوق، وعلى كثرة المدارس الابتدائية والثانوية؛ وافتتاح أول مدرسة للبنات، ودعم الدراسة اللغوية العربية بإنشاء دار العلوم، فكان لكل ذلك أثر واضح في التهوض باللغة مع إنماء الوعي بين المثقفين.

أما المظهر الثاني لليقظة العربية وبواذرها في أواخر القرن التاسع عشر فهو ما يسمى بإحياء التراث العربي الذي عبر عنه أحد المارسین الحديثين بقوله^(١): (أحس كثير من المثقفين بوجوب إبراز عظمته بلادهم وإشراق تاريخهم . . . فلأرادوا أن يواجهوا الثقافة الأوربية الوافدة بشفافية عربية أصيلة . . . ومن هنا انجحهم إلى التراث العربي القديم وإن انتقاء جمهورة من روائعه لإحيائها ونشرها للاتكاء عليها في إرضاء الوعي النامي المتلهف إلى ثقافة عربية جيدة تقف أمام الثقافة الأوربية الوافدة . وكانت نواة هذه الحركة «جمعية المعارف» التي ألفت سنة ١٨٦٨، وما لبثت أن نمت سريعاً، وعُنيت بإحياء عدد كبير من الكتب التاريخية والأدبية العربية، كما عُنيت بنشر طائفة من الدواوين الشعرية التي أنتجتها العصور العربية الزاهرة في المشرق والأندلس).

وأما المظهر الثالث فيتمثل في الصحافة ودور النشر والمكتبات وكان لها

(١) تطور الأدب الحديث في مصر للدكتور أحمد عبد المنصور ديكار من ٣٧.

ولا شك أثر كبير في ترقية اللغة ، وتنمية ألفاظها ، وتجويد أساليبها ، فوق ما كان لها من أثر عظيم في الوعي الثقافي العام .

ولكن القومية العربية والحق يقال ، لم تأخذ طابعاً سياسياً إلا في أوائل القرن العشرين ، وإن عبر عنها « الكواكب » في بعض كتاباته في أواخر القرن التاسع عشر .

وكان الطابع السياسي للقومية العربية في إثر ما أصاب الدولة العثمانية من الهزائم ، وما لحق بها من الانسحاح بعد سلسلة مؤسفة من تآمر الدول الأوروبية الكبرى عليها ، حتى أصبحت العربية في أيدي الساسة الأوروبيين وأضحوكة بين الدول ، وهي الدولة الإسلامية التي كانت البلاد العربية تتطلع إليها ، وتقنع بحكمها . فلما فشلت تركيا في حماية البلاد العربية الإسلامية ظهرت بين أبناء العرب فكرة الامبراطورية التي هي دعوة إلى اقصاد البلاد العربية لسكنى منها دولة مسلمة ذات كيان عربي متميز تقف في وجه المستعمرات المعتدين الذين تمثلوا لأبناء العرب حيث نذ في بريطانيا وفرنسا . ونظر أبناء العرب فرأوا أن هناك ما يجمع بينهم ويتم شتاهم ويزحد من شعورهم وتفكيرهم ، وذلك هو اللغة العربية التي ورثوها عن أجدادهم مع ما لها من آداب سامية . وتراث فكري رائع كانوا يتدارسوه في حور العلم ويتشبعون بأهدابه . فدعوة الامبراطورية هي في الحقيقة دعوة إلى القومية العربية التي بدأت تستيقظ من سباتها . ووجد أبناء العرب كذلك أن تيار القوميات الأوروبية التي أساسها وحدة اللغة قد جاوز حدوده إلى تركيا نفسها ، فنشأت بها تلك الحركة التي تدعو إلى « التريلك » : وصبح كل البلاد التابعة لتركيا بالصيغة التركية من حيث اللغة والثقافة ، إيماناً من أصحابها بأن وحدة الدولة وعاسكتها وقوتها لا يتم كل هذا إلا على أساس الوحدة اللغوية والثقافية كما هو الشأن في دول أوروبا . لذلك شن أصحاب فكرة « التريلك » حرباً شعراً على اللغة العربية والثقافة العربية : وبلغت ذروة هذه الحركة فيما قام به بعد ذلك كمال أتاتورك الزعيم التركي المشهور . وكان من الطبيعي أن يكون لحركة التريلك صداتها بين أبناء العرب ، ورد فعل عنيف في داخل

العالم العربي^(١). فنشط المصلحون والمفكرون في العمل على إحياء التراث العربي ونشره ، لأن السجل الخالد الذي حفظ لهم لغتهم ، فصان لهم عروبتهم . فكانت النهضة الفكرية العربية التي تهافت في نشر أمهات الكتب في اللغة وأدابها ، ذلك لأن مطاردة اللغة العربية والثقافة العربية على إثر حركة الترسيخ في المدارس والمحاكم وكافة المحاكم والأوساط الرسمية ، كانت بمثابة كارثة لدى أبناء العربية الذين زاد استمساكهم بلغتهم ، واستند تعصبيهم لها واعتزازهم بها .

وبدا هنا واضحاً جلياً في البحوث التي أقيمت في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٣ ، وهي البحوث التي اتسمت بالفهم المتكامل للقومية العربية والتي اختفت منها النزعة الدينية ، فأصبح لدى المثقفين من العربوعي كامل وإحساس بالكيان العربي .

ويبدو أن بعض المفكرين في أوائل عهد الانفلاحة العربية قد فهموها أو فسروها بحسن نية طبعاً على أنها حركة إسلامية ، واحتلّت الأمر عليهم بسبب تلك الرابطة الرقيقة بين الإسلام واللغة العربية . ولكن الأمر تكشف واتضح قبيل الحرب العالمية الأولى . فلما نشبت الحرب وقامت ثورة الشريف « حسين » على الأتراك . نظر إليها على أنها تهدف إلى تحويل البلاد العربية من الحكم العثماني وتكون دولة عربية مستقلة تضم كل المناطق التي تسود فيها اللغة العربية . ثم كانت النكسة للقومية العربية بعد هذه الحرب ، وظهرت بين البلاد العربية حركة التفتت أو التشتت التي عمل لها الاستعمار جاهداً ، وحيث ثمارها حتى قبيل الحرب العالمية الثانية . وأصبحنا فإذا بالبلاد العربية مناطق يستقل بعضها عن بعض ، وقد قسمت إلى وحدات سياسية صغيرة لا مسوغ لها سوى أطماع الاستعمار ودسائسه ومؤامراته . وأصبح العربي الذي كان يتنقل بين هذه المناطق في حرية تامة ، ويجد في أي منها مستقرًا وموطنًا . بعد أجيالاً إذا انتقل من بلد عربي إلى آخر . فاقبضت الحواجز الحمراء بين هذه الوحدات السياسية ،

(١) دراسات في المجتمع العربي .قسم الخاص بالدكتور محمد آنис من ١٩٢ - ١٩٦ .

وخصوصاً لنظم مالية واقتصادية متباينة . فظهرت لذلك خلال الثلاثينيات نزاعات إقليمية كالنزعات الفرعونية في مصر ، والفينيقية في لبنان ، والقومية في سوريا ، ونحو ذلك .

ويعنينا هنا اختلاف اللهجات بين المناطق العربية ، فقد استغل الاستعمار أسوأ استغلال في حركة التفتت التي قام بها .

ذلك لأن اللهجات الكلامية قد تطور أمرها منذ قرون ، وأهل شأنها في المناطق العربية ، وترك نجوى على الألسنة في الأسواق وفي تعامل العامة بعضهم مع بعض ، وأدى هذا إلى انحراف في نطق بعض الأصوات العربية ، وإلى تغير في بعض صيغها وتراكيبها ، وأصبحت هذه بصبغة محلية لازال تلمس أثراً حتى الآن . وكان المثقفون والناحية من أبناء العرب قد فنعوا فيها مرضى بما ورثوه عن آجدادهم من تراث فكري مكتوب ، ورأوا أن العمل على سعة انتشاره بين أبناء العرب وحسن مدارسهم له ، كفيل بتحويم الألسنة والقضاء على تلك الفروق الطقية التي عزلت المناطق العربية بعضها عن بعض .

ونحن إذ دعو الآن إلى دراسة هذه اللهجات المحلية فإنما ندعو إلى علاجها وننظر إليها على أنها أمراض ابتليت بها الألسنة العربية ، ولا سبيل لعلاجها إلا بتشخيصها التشخيص العلمي الصحيح . ولا يتحقق ذلك إلا بدراساتها من حيث الأصوات والصيغ والتراكيب وما قد تتضمن من الفاظ أجنبية .

فالقومية العربية الآن قد أصبحت حقيقة ثابتة بما حققته من إنشاء جامعة عربية ، وتأسيس للمجامع اللغوية في مصر وبغداد ودمشق ، وبما نشر من مئات الكتب العربية التي ألفها المثلث ، وبالتبادل الثقافي بين البلاد العربية على نطاق واسع ، وأنهرياً وليس آخرها بما واجهه من تحديات الاستعمار وعمله على وادها . ولكنها مع هذا لا تزال بحاجة إلى دعم ، وإلى جهود متضافرة لصيانتها والحفاظ عليها . وقد يكون من وسائل هذا الدعم القضاء على كل المتافقات التي شهدتها الآن بين البلاد العربية من أنظمة مختلفة في الحكم وفي النواحي الاقتصادية ، ومن تخلف في المستوى الثقافي في بعض مناطقها .

ولكن الدعم المحقق في رأي إنما يكون عن طريق اللغة ووحدتها نطقاً وأداءً بين البلاد العربية . ولعلني لا أكون مسراً حين أقرر أنه إذا تحققت لنا وحدة لغوية حقيقة كذلك إلى ألفت بين الأлан وبعثت فيهم القومية الألمانية ، أو كالي وحدت إيطاليا وخلقت فيها القومية الإيطالية ، إذا تحقق لنا هنا فقد تحقق كل شيء .

ذلك لأن اللغة العربية المشاركة التي يلتف حولها العرب الآن لا تزال في أغلب صورها لغة مكتوبة لا منطقية ، بل لا تزال تقيد في هذه اللغة المكتوبة وحدة كاملة شاملة . فلا تزال مصطلحات الحكم والإدارة تختلف بعض الاختلاف في البلاد العربية ، ولا تزال بعض الاستعمالات العامة التي تقرؤها في الصحف والمكتب والمجلات تسم بالصيغة المحلية ، به المصلحة العلمية في القانون والطب والهندسة والزراعة وسائر العلوم الحديثة . وتعمل المجتمع اللغوية في البلاد العربية جاهدة على علاج هذه الظاهرة المؤسفة ، غير أن جهودها لم تتكلل بكل النجاح ، لا لتصدير فيها تبدل من جهد ، بل لضعف التشجيع ، وافتقاد النظرة الجدية المخلصة إلى عملها بين بعض من يديهم مقاييس الأمور في البلاد العربية . فليس لها من النفوذ والسلطان ما تفرض به جهودها أو ما يساعدها على نشرها وشيوخها بين الناس . ولكن الخطر هنا هيئ على كل حال ، فجهود المجتمع اللغوية على بطئها ، والصلات الثقافية التي تتوطد يوماً بعد يوم بين البلاد العربية ، كل ذلك كفيل بوحدة شاملة في المصطلحات والأساليب وطرق التعبير ، ونحن ولا شك واصلون إلينا في المستقبل القريب . أما الخطر الأكبر فينحصر في الأدب المنطوق وفي لهجات الكلام والتخطاطب^(١) ولست أنتطاع إلى المستحيل أو ما يشبه المستحيل بأن نتصور أنه من الممكن أن يتوحد النطق في كل البلاد العربية ، أو أن يتمايل تمايلاً دائماً ، بحيث إذا سمعنا العراقي مثلًا يقرأ نصًا أدبيًا وسمعنا المغربي يقرأ نفس النص لانلحظ أي فارق

(١) انظر للمؤلف مستقبل اللغة العربية المشاركة - نشر معهد الدراسات المتقدمة بجامعة الدول العربية .

صري، حتى ولو كانت آذاننا مدربة على التقاط الأصوات والتمييز بينها ، مرهفة لا تغفل عن نبرة أو جرس . ففشل هذه الدرجة من المماثلة لا يتصور وحده حتى في الأمرة الواحدة . كذلك لا ينطلي إلى أن تصبح لهجات الكلام في البلاد العربية موحدة أو مماثلة في كل شيء ، فهذا أيضاً حال لم تصل إليها أرق اللغات في العالم ، وليس من الضروري أن تبلغ هذا المدى لتحقيق القويمية المتسامكة التي فيها تكتمل جاذبية الأفراد بعضهم إلى بعض ، وشعورهم جميعاً بتميزهم وكيانهم ، وتعاونهم على ما فيه الاستمرار والأمن والرخاء .

في إنجلترا مثلاً لا تزال للحظ دون عناء أو خبرة خاصة : بعض تلك الفروق النطقية التي تميز سكان لندن من سكان إسكتلندا ومن سكان «ويلز» حين يقوم أحدهم خطيباً في حفل أو ندوة ، ويحاول جاهداً أن يتحدث بذلك الإنجليزية الموزجية المشتركة التي استقر شأنها منذ سنين ، والتي حدد مستواها ومعالمها وسماتها في الدراسات الصوتية الحديثة على أيدي أشهر الدارسين من اللغويين . وقعت الفرميّة الإنجليزية بهذا القدر من الوحدة اللغوية : وتركَت تلك الفروق النطقية الطافية للزمن ، وأصبح المصطلحون والقيادة يرون ويتحقق أن الإمكانيات الإذاعية الحديثة كافية بتنزيه هذه الفروق من حدود اللغة المشتركة ، وأنه ليس من بعيد في المستقبل أن تلتقي معها أو تتطابق ، فلا تكون هناك أي شبهة أو مسحة للهيجات محلية .

إذا نظرنا إلى الواقع اللغوي في معظم البلاد العربية الآن وجدنا نهضة كبيرة في دراسة اللغة العربية وأدابها ، في الشعر و المقال وفي التصريحات والمسرحيات ، غير أن معظم هذه الآثار الأدبية لا يزال في صورة الأدب المكتوب نثر و الأعين قراءة واحدة ، ولكن لا تكاد تنتطلق به الألسنة في شكل موحد ، أو شبه موحد : فالعربي ينشد الشعر العربي في نبر وايقاع متميز عن إنشاد المصري له ، والشامي تميز بعض أصواته حتى في قراءة القرآن الكريم عن أصوات المغربي . فيرغم أن لنا لغة أدبية موزجية مشتركة انحدرت إلينا عن أجدادنا العرب ، وسُجلت لنا في تراث فكري ضخم نعمل الآن على نشره وتحقيقه ، لكننا ورثناها مكتوبة لامنظورة ، ونحن

بحاجة الآن إلى أن نُنْسِقُها ، وأن نخرجها من صمتها الذي طال أمهه ، وأن نجعلها ككل اللغات المشاركة الحديثة لغة كتابة ولغة أداء ونطق ، بحيث إذا تحدث بها العربي مع أخيه العربي في مجلس أو ندوة لا يشعر بعد قليل بالملل والسام ، ولا يحس بالإرهاق الذهني ، ولا يوصف بالتكلف أو التفسيق كما هو شأن الآن . ذلك لأن سلطتنا على هذه اللغة قد كادت تبلغ الذروة حين نكتب بها ونسجل أفكارنا بتعابيرها وأساليبها ونتبادل كل هذا في سهولة ويسر ، غير أنها حين نعمد إلى النطق تتغير الألسنة لدى معظم الناس حتى المثقفين منهم ، وبظهور اللحن في أشنع صوره . فدرجة سيطرتنا على النطق بهذه اللغة وأدائها لا تقارن بمستوانا العظيم في الكتابة بها ، فنطقتنا بها أدنى كثيراً جداً من كتابتنا بها . ولا غرو لذلك أن تعد لغتنا المشاركة التي نعتمد عليها في وحدتنا نحن أبناء العرب ، لغة مكتوبة لم تصل في النطق بها إلى مستوى اللغات المشاركة الأخرى .

أما من حيث لهجات الخطاب فالموقف أشنع وأبشع على المرأة والمسنة . فقد يذهب المصري إلى أسواق العراق أو المغرب فيجد التماهم مستحيلاً : أو شبهه مستحيل . ولا يكاد يقضى حاجته في بيع وشراء إلا بشق الأنفس . فالألفاظ مختلفة والتراكيب مختلفة والأصوات مختلفة . فإذا جئنا إلى اللغة المشاركة الفصيحة أصاب المتكلم والسامع دوار . أو يرهق بعد فتره وجيزه ، ثم قد ينتهي الأمر مع الأسف أن يتخاطباً بلغة أجنبية كالإنجليزية أو الفرنسية التي يتصادف أن كلاً منها يحسن الخطاب بها . فالكمترى في مصر هي العمروط في بغداد . والبروق في مصر هو الخوخ في الأردن ، والخوخ في مصر هو الإجاص في الشام . وكلمة « البرطة » التي لها دلالة رديئة في مصر ، لها دلالة طيبة في لبنان والأردن ، فهي هناك نوع من المثلجات التي تشتهيها النفس في الجو الحار . ولا يتسع المجال هنا لسرد أمثلة من تلك المفارقات المضحكة أحياناً ، والمأسفة في أحيان أخرى . ويدرك كل من طاف بالبلاد العربية عمق الدرك الذي هو إله لهجات الخطاب في البلاد العربية ، وبين أبناء العرب الذين يتطلعون إلى وحدة قومية مهascaة .

ويبدو أن قوميتنا العربية التي تقوم أساساً على وحدة اللغة تتطلب دعماً أقوى يتحقق الارتباط الوثيق والتماسك الوطيد بين أبنائها.

ولست أزعم أن تحقيق هذا المستوى أمر هين يسير ، بل هو في رأي يتطلب زمناً طويلاً وجهوداً متضادرة بين القادة والزعماء في البلاد العربية ، ويتطلب دراسة تخطيطية دقيقة ، وفرق ذلك كله إخلاصاً حقيقاً لقضية القومية العربية .

وفي رأي أنه لو وجّهت كل جهود البلاد العربية إلى هذا الغرض وحده وأنفقت عليه مئات الملايين من الجنيهات بلجنيينا ثماراً له لا تقدر بمال ، ولشهدنا قومية عربية حقيقة متساكة لا تنفك عراها ، منيعة عزيزة لا تنال منها أحداث الزمن ، وذلك خير لنا من أن نؤسس قوميتنا على شعارات أقرب إلى الخيال والوهم ، كتوحيد النظم الاقتصادية ، أو المذهب السياسي ، ونجو ذلك مما لا يليث أن يصطدم بالأعمال الشخصية ، ويُكشف بالشكوك والريب في العلاقات بين البلاد العربية .

ولدينا في العصر الحديث من الإمكانيات الإذاعية ، ووسائل النشر والإعلام ما إذا أحسن استخدامه . وخلصت النية في توجيهه . حقق لنا لغة عربية مشتركة : تسود ككل البلاد العربية ويحسّبها قومها كتابة ونطقاً وأداء . وتشد أبناءها بعضهم إلى بعض ، فتولف منهم مجتمعاً عربياً حريصاً على عزته وكرامته ، يشعر في شعور واحد ، ويفكر في عقل واحد . فلا منازعات ولا خصومات ، بل سلام وحسن تفاهم . وتعاون على الاستقرار والأمن في أرضهم ، وتأزر في التصدى لأعدائهم الطامعين في خيراتهم . وعمل على الرخاء الذي يكفل لهم حياة كريمة ذات مستوى من العيش رفيع ، وحيثند تفخر بقوميتنا العربية ، وزداد بها اعتزاً واستسماكاً .

فالقومية العربية فيها مضى أيام ازدهارها في عهد الأمويين والعباسيين وأمراء الشام وخلفاء الأندلس والأيوبيين في مصر لم تعتمد أساساً إلا على اللغة وأدابها وهي في العصر الحديث كذلك لا تستلزم وجودها إلا عن طريق هذه اللغة

ولا يتحقق دعهما إلا على أساس ذلك اللسان العربي المبين .

وأود أن أختتم هذا الفصل بما كتبه أدبية عربية كبيرة في الصحف ^(١) بعد أن زارت الجزائر عدة مرات أولها سنة ١٩٦٣ وآخرها سنة ١٩٦٨ ، تحت عنوان « معركة التعرّيب على أرض البطولات » وكان مما جاء في مقالها قوله :

(يسمونها في أرض البطولات معركة تحرير اللسان أو معركة الأصالة ، وينطق بسيط يقولون إن الثورة المسلحة حررت التراب الجزائري ، وبقى أن تخوض الجزائر معركتها لتحرير لسانها : وتحرير اللسان يعني تحرير الفكر والوجدان والضمير ، وبغير هذه الحرية يكون الاستهلال وهمًا والنصر عقيمًا). ثم تقول : (وحين كان التعرّيب قضية مطروحة علينا في مؤتمر المعلمين العرب بالجزائر بدت لنا نحن الأعضاء الوفدين من أقطار الوطن العربي هيئة بسيرة سهلة ، يمكن لها أن تجمع الأمة على تحرير لسانها فيكون لها ما أرادت ، ومثل الشعب الجزائري لا يشق عليه أن يفرض إرادته الحرة على أبنائه ، وقد فرضها على المستعمر في عنفوان جبروته . ولكنها أعمق غوراً وأعقد مسلكاً في حساب من يواجهونها في دوامة الصراع . فالمحروم فيها ضحايا في الوقت نفسه ، ضحايا عهد طويل من الاستعمار امتد قرناً وبعض قرن . فرض فيه لسانه وثقافته وسيطر على التعليم المدرسي نظاماً وخططاً ومنهجاً ولغة ومادة ومناخاً) . ثم تقول : (ولدى أجيال تخرجت أفواج من هذه المدارس لا يملكون التعامل أو التفاهم بغير لغة المستعمر ، ولا يجدون سبيلاً إلى زاد فكري أو وجداني إلا في مكتبه ! ! واستطاع الضمير الشعبي مع ذلك أن يشد أكثرهم إلى قضية وطنهم فشاركوا في النضال قدر ما استطاعوا . وجلا المستعمر فإذا بهم يسمعون فجأة دعوة إلى التعرّيب تشجّوب بها آفاق الجزائر . وكان من الطبيعي أن يتصدوا لمقاومة لا عن خيانة للوطن في تقديرهم ، ولا عن جهل منهم بشرعية حق الأمة في تحرير لسانها ، ولكن دفاعاً عن كيانهم وجودهم . وقد روا أن دعوة التعرّيب تحرير لن يطول بها الزمن ، ثم تذهب مع الربيع . وفاتهم حس الوعي الشوري لأمة تزيد

(١) بنت الشاطئ ، ملحق الأهرام في ٢٢/٨/١٩٦٨ .

تخرير لسانها واسترجاع مقومات شخصيتها الوطنية بكل ملامح عراقتها. ففأتم كل ذلك أن فداحة التضحيات التي اقتصادها الكفاح المسلح لم تستند طاقة الشعب ، وإنما أعمتها رصيداً ثورياً يخوض به معركة الأصالة في إصرار ، كيلا يتتحول النصر إلى ذريعة . وكان أن صارت دعوة التعريب إعلان ثورة وشعار مرحلة ونداء معركة . وتحدد عام ١٩٧٠ لوضع نهاية هذه الجولة منها بمحض قرار جمهوري صدر في شهر أبريل من عامنا هذا معلن إصرار الأمة على استكمال تعريب لسانها في موعد أقصاه أول عام ١٩٧٠ . . معطياً مهلة عامين اثنين لمن فاتهم دخول المدارس الشعبية لحو الأمية ، أو استكروا وأن يدخلوها ، وعفوا إرادة الأمة في أن تخرج حركة التعريب من مجال الجدل الخطابي والخوار الكلامي إلى مجال التنفيذ .

(وأتصور مع ذلك أن قرار عام ١٩٦٨ ليذان باقتراب الأزمة من ذروتها العنيفة . وإن أخذت إجراءات التعريب طريقها إلى التنفيذ :

فالدؤوبين توشك أن تستكمل تعريبها ، والأسماء الفرنسية للشوارع والطرقات والأرقى قد رتفعت واستبدل بها أسماء جزائرية وعربية صميمية . ولافتات المتاجر تترجم كثيرة إلى العربية . واكتفى في بعضها بتغيير الحروف اللاتينية إلى حروف عربية . ولتدرس العربية لحو الأمية تنتشر على امتداد الأرض الجزائرية ، وتکاد تختفي على سعها بمن يحرضون على محظيهم العربية قبل عام ١٩٧٠ والمصحف اليومية تخصص صفحات كاملة لنشر دروس العربية . ومعاهد المعلمين تتضع في حسابها تخریج أكبر عدد من المدرسين لمواجهة أعباء المرحلة) ، ثم تنهى كلامها قائلة : (إلى ذلك المدى تتعقد معركة التعريب وتمتد أبعادها في العمق الغائر من الكيان الجزائري : وتأخذ وضعها الصعب في دوامة الصراع بين متناقض التيارات . وهكذا تخدم معركة تحرير اللسان القومي امتداداً لحرب التحرير . . وما كنت أدرى أنها بلغت ذاك المدى من التعقد والعنف حتى كانت رحلتي إلى الجزائر هذا الصيف) .

الفصل السابع

العالمية واللغة

يتمثل تاريخ الإنسانية فوق سطح البسيطة في سلسلة من المآسي الدامية ولا فرق في هذا بين عهود الحمجزة وعصور المدنية والحضارة . ويبدو أن الإنسان لم يوفق حتى الآن في الاهتداء إلى نظام اجتماعي يكفل لبني جنسه حياة يسودها السلام والاستقرار والأمن والرخاء . ولم يُجد معه شرائع ساوية أو وضعية ، فكلما تخيلنا أنه قد آن الأوان مثل هذه الحياة ، وتصورنا أن روح الخير في طريقها إلى السيادة ، نظرنا فإذا بالشروع تتغلب ، والحرروب تستظم الأرض ومن عليها . وقد تبدو هذه النظرة متشائمة إلى أبعد حدود الشفاف ، ولكنها مع الأسف الشديد ، واقعية تؤيدها أحداث التاريخ قديمه وحديثه .

بدأ الإنسان نظامه الاجتماعي في صورة قبلية اتسمت بشن الغارات و بالاعتداءات على الأرواح والأعراض والممتلكات . وانتهى هذا النظام إلى ما نشهده الآن من صور مريرة لقسوة الإنسان على أخيه الإنسان .

وانتقل الإنسان من الحياة القبلية إلى تأسيس المدن والقرى ، فبدأ بهذا مرحلة جديدة في نظامه الاجتماعي ، وبدأ معها ما عرف بعد ذلك بالقومية التي هي في أوضح تعریفاتها لا تعني أكثر من أن جماعة من الناس يحسون في قرابة نفسهم بقوة قاهرة تجذب بعضهم إلى بعض ، وتوحد بين شعورهم وعواطفهم وأعمالهم : فيتعاونون معاً على تحقيق أكبر قدر من السلام والاستقرار والرخاء فيها بينهم .

وقد تبين لنا فيما عرضناه آنفاً أن السر الحقيق في مثل هذا الشعور الموحد هو الاشتراك في لغة واحدة ولا شيء غير هذا ، وأنه إذا كان للقومية مفهوم محدد ، يجب أن تلتمسه في الاشتراك اللغوي بين أفراد بيته من البيئات .

فإذا سلمنا بهذا المنطق أمكن أن نتصور أن القومية على هذا مستويات : أصغرها الأسرة إلى ندرك جميعاً أن اشتراك أفرادها في اللغة يأخذ عادة أتم صورة من صور التماثل في الأصوات والتعابير وفي ألفاظ كثيرة تختص بها الأسرة وحدها . ولا تكاد تُعرف في أسرة أخرى . وإذا تجاوزنا عن الغرائز الفطرية التي تربط بين الأب وأبنائه والأم وما تلد ، والتي تصل بين الإخوة والأقارب من أعمام وأخوان وعمات وحالات : وجدنا أن هناك رابطة أخرى خلقها الإنسان أو اصطنعها وقوى بها تلك الرابطة الطبيعية الغرزية ، وهذه هي اللغة التي يتكلم بها أفراد الأسرة ويتفاهم بها بعضهم مع بعض في صورة هي غاية في المماطلة والوحدة .

وإذا تصورنا مجرد القرض أن أسرة قضت تعاليلها أن الوليد فيها يُربى منذ طفولته بعيداً عن أبيه وأهله وأقاربه في بيته أجنبية لها لغة أخرى غير لغة أبيه ، وتتصورنا مع هذا أن أبناء هذه الأسرة قد شاءت ظروف خاصة أن تجمع شملهم بعد حين في صعيد واحد ، وهم كبار راشدون ، فوجدوا أنفسهم ينطرون بالسنة متباعدة : فهل يمكن مع هذا أن ندعى أن الصلة بينهم تكون كالتي بين أسرة أخرى يتكلم أفرادها لغة واحدة ؟ هل يشعرون بذلك الشعور الموحد الذي يحفزهم إلى التعاون والتآزر ويجعل منهم أسرة متّسكة ؟ هل يمكن أن يتحقق هذا حتى مع معرفة الآباء أن أباًه فلان ، وأن أمّه فلانة ، ومع تعرّفه على إخوهه وأعمامه وأقاربه ، وإحساسه بالصلة الطبيعية الغرزية التي تربطه بهم ؟

من هنا ندرك قدر الاشتراك في اللغة بين أفراد الأسرة ، وأنه دعامة كبرى في تقوية الصلة بينهم ، بل ربما يكون أقوى وأمن في الربط بينهم من تلك الصلة التي أساسها الفطرة والغرizia . وهكذا نجد أن القومية في أصغر صورها ، ولكن في أحكمها وأوثقها من ناحية أخرى ، تتمثل في نظام الأسرة .

فإذا صرنا إلى نظام القبيلة تبين لنا أيضاً أن المماطلة في اللهجة وأداء الكلام أقوى رباط بين أفرادها ، إذ يجعل لهم كياناً متميزاً ، ويحفزهم إلى نصرة بعضهم بعضاً ، ويدركهم دائماً بأنهم مختلفون عن غيرهم من القبائل ،

وإن اشتركوا معهم في بعض الصفات والعادات . فالشعور الموحد بين أفراد القبيلة صورة أخرى من صور القومية في تاريخ الإنسانية ، تشبه ما بين أفراد الأسرة الواحدة شبهًا كبيراً ، وإن كانت أوسع دائرة أو نطاقاً .

ثم اتسعت دائرة القومية حين أسس الإنسان المدن والقرى ، وتكونت الدول التي يضم كل منها عدداً من تلك المدن والقرى . وأصبحنا فإذا بذلك الشعور الموحد الذي ندعوه بالقومية يتحقق في القرية كما يتحقق في المدينة ، ولكنه في الأولى أقوى وأوثق ، غير أن مبعثه في الحالين الاشتراك في اللغة ، والتشابه الذي يوشك أن يكون تماثلاً في لهجة الكلام ووسائل التعبير .

فالقومية بمعناها الحديث قد عرفت طريقها إلى النظام الاجتماعي للإنسانية في عصور التاريخ : وكان هذا منذ تأسيس المدن والقرى أو الدول . ولكنها لم تأخذ الطابع السياسي الذي نألفه الآن إلا فيما بعد ، بل ظلت كامنة متربصة في حالات ، ثائرة ملتهبة في حالات أخرى . ولكن الناس في العصور التاريخية وتحت ظروف القهر والإذعان لم يعنوا بالربط بين قومية الحاكم وقومية المحكومين ، ولم يجدوا في أحيان كثيرة غصاضاً في أن تحكمهم قوة أجنبية عنهم : لا تشركهم في قوميتهم أو في شعورهم الموحد : طالما حفقت لهم النظام والاستقرار والرخاء . ومن هنا كانت الدول الكبيرة والإمبراطوريات العظيمة التي حدثنا عنها التاريخ ، ثم التي أصبحت في خبر كان .

وهكذا تصور أن الإنسانية قد شهدت في تاريخها أعداداً من القوميات يقدر ما كان لها في كل عصر من لغات مختلفة متباينة ..

ثم كان بعض الديانات السماوية التي دعت إلى العالمية : وربطت بين الإنسان وأخيه الإنسان برباط روحي : كال المسيحية والإسلامية . إذ يدعو الإسلام إلى العالمية ، ولا يكاد يحمل بال القوميَّة بمعناها السياسي الذي يتطلع إليه كل شعب من الشعوب ، بل ينظر إلى الناس جميعاً على أنهم أبناء آب واحد هو آدم : وأم واحدة هي حواء ، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بمقدار جنوحه إلى الخير ، وتفواه وروحانيته ، وتمسكه بما جاءت به الكتب السماوية

وشعوره العميق بروبية خالقه فاطر السماوات والأرض . ولدخلت العالمية على يدي الإسلام والمسيحية صورة روحية لم يقنع بها الإنسان في توجيه حياته في الدنيا ، وتدخلت تلك القوى الكامنة التي تفصل بين الجماعات . ونقم بينهم حصوناً وقلاءً ، والتي كانت على الوحدة الإنسانية مصدر بلاه وشر في كل العصور ، وتلك هي اللغات المتباينة التي ميزت شعباً من شعب أو قوماً من قوم ، وأصبحت أكبر حافز على ما نسميه بالقومية . فانختلف اللغات أو بللة الألسنة ، كما تصورها الديانات السماوية مظاهر تامة من ازرب على عدده ، أريد به ابتلاء الناس في دنياهم .

ولست من يدعون إلى الاستشهاد بالنصوص المقدسة في مجال العلم ، فلليبحث العلمي تطوراته أو زلاه ، ولا يصحّ لهذا أن ترتبط به العقيدة . فليس يتم البحث العلمي بالصحة المطلقة ، بل إن نظرياته ونتائجها قد تتعرض للتغير والتبدل عصراً بعد عصر أو جيلاً بعد جيل . فبعض ماعدهـ « نيوتن » صحيحـاً في وقت ما ، « برهنـ » و « أينشتـ » وأمثاله على خطـه . وبعض ماعدهـ به ابن سينا مرضـاه يسخر منه أطباؤنا في العصر الحديث . وذلك لأن النظريات العلمية مهما سـها قدرها لا تـعدـو أن تكون جهـودـاً إنسـانية اهـتمـى إـليـهـ بـحـثـونـ على قدر ما سـمحـتـ به عـقولـهمـ وـتجـارـبـهمـ . فليس خـاصـةـ الدـوـامـ وـخـلوـدـ . في حين أن العقيدة عند المؤمنين بها عاطفة روحية سـماـوية يـترـهـا أصحابـ عن تلك المـزـاراتـ التي قد تـعرـضـ لـمسـائلـ الـعـلـمـ الـدـينـيـ . وليس دـوـامـ صـحـبـةـ محلـ خـلافـ أوـشـكـ . عندـ المؤـمـنـينـ ، بل توـصفـ دائـماً بـأـنـهاـ لاـ يـائـيـهاـ البـاطـلـ منـ بـيـنـ يـديـهاـ وـلـاـ مـنـ خـلـفـهاـ . وـرـبـطـهاـ مـنـ أـجـلـ هـذـاـ بـجهـودـ إـلـاـنـسانـ . وـلـصـحـاتـهـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ الـأـحـيـانـ : يـهـبطـ يـاـ منـ عـلـيـاهـاـ : وـقـدـ يـجـعـلـ تـعـانـيـهاـ عـرـضـةـ نـسـغـيرـ وـالـبـطـلـانـ عـلـىـ توـالـيـ الـعـصـورـ .

ومع هذا فلست أدرى كيف وجدتني أنساق إلى الحديث عن موقف الديانات من اختلاف اللغات البشرية ، وأنا بقصد البحث في دور هذه اللغات في الحياة الاجتماعية للإنسان ؟ ربما لأنـيـ وقدـ قـرـأتـ الكـثـيرـ عنـ دورـ اللـغـةـ فيـ تـارـيخـ

البشرية ، أحسست أن انطباعاتي من تلك القراءة تنسق إلى حد كبير مع فهمي للنصوص المقدمة ، أو ما أستوحى منها حين عرضت تلك النصوص لاختلاف اللغات وتبنيها بعد أن كانت لغة واحدة .

فتحدى التوراة في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين أن الأرض كانت كلها لساناً واحداً ولغة واحدة . ثم إن الناس قال بعضهم لبعض هلموا بنن لأنفسنا مدينة فيها برج يطأول السماء ، وهلموا نخلع على أنفسنا شعاراً يوحد بيننا ، ويحول دون تباعدنا وتشتتنا فوق ظهر البسيطة . فلما رأى الرب ما هموا به ، وتبين حكمته سبحانه أن وحدة اللغة متدفعهم إلى الطغيان والجبروت فلا يختنع عليهم أن يعملا ما ينون عمله ، بلبل السائهم فلم يعدْ يفهم بعضهم بعضاً ، وبدد وحدتهم على وجه الأرض ، فكانت لغات مختلفة لبني الإنسان ، برغم أنهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، وتلك هي لعنة بابل التي كثيراً ما يشار إليها في كلام المفكرين من علماء أوروبا .

فتصوّر التوراة ولا رب تجعل اختلاف اللغات بين البشر مظهراً من مظاهر ابتلاء الرب لعباده في الحياة الدنيا : حين بدا حكمته أن توحدهم في لغة واحدة قد استغل في تحدي ربوبيته .

فوحدة اللغة كانت في بدء الخليقة خيراً، أو أريد بها أن تكون خيراً للإنسان ولكنه أساء استغلالها ، وتحدى عن طريقها خالقه . فلولا لعنة بابل لكان الناس أمة واحدة أصحاب لسان واحد ، وقومية واحدة : يتفاهمون بعضهم بعض في سهولة ويسر ، ويقضون مصالحهم في الدنيا دون نزاع أو شقاق .

هذا هو ملخص فهمي لموقف التوراة من اختلاف اللغات ، فما موقف القرآن الكريم ؟ جاء النص على اختلاف الألسنة مرة واحدة في القرآن الكريم وبين آيات من سورة الروم ، تلك السورة التي تتضمن آياتها صورة رائعة لقصة الحياة البشرية فوق الأرض . ففيها ست آيات متواترات تبدأ بالآية التاسعة عشرة وتحكي في إيجاز قصة البشرية منذ الخليقة إلىبعث وهي :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تُنَشَّرُونَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ

أَن خلقَ لِكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْواجاً لتسكُنوا إلَيْها وجعلَ بَيْنَكُمْ مُودةً ورَحْمةً
إِن فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخَلْفَافِ
أَسْتَكْمُ وَالْأَوَانِكُمْ إِن فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ مِنْ أَنْكُمْ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ
وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِن فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرَقَ
خَوْفًا وَطَمْعًا وَيَرْتَلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فِيهِي بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْهِبَتِهِ إِن فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَهُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذْ دُعَاكُمْ دُعْيَةً
مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَتَمْ تَخْرِجُونَ) .

وَهَكُنَا نَرَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ الْسَّتَّةُ تُلْخُصُ لَنَا فِي إِيمَانِ رَائِعٍ قَصْةَ الْحَيَاةِ
الْبَشَرِيَّةِ فَوْقَ الْأَرْضِ ، وَتَبَدَّأُ كُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ بِعِبَارَةٍ « وَمِنْ آيَاتِهِ » ، أَيْ مِنْ
عَلَامَاتِهِ وَمِنْ دَلَائِلِ قَدْرَتِهِ وَرِبوبِيَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ ، لَعَلَّ الْإِنْسَانُ يَتَنَكَّرُ ، لَعَلَّهُ
يَسْمَعُ وَيَفْهَمُ ، لَعَلَّهُ يَعْقُلُ . فَكَلِمَةُ الْآيَةِ فِي الْأَسْلُوبِ الْقُرْآنِيَّ تَعْنِي الْعَلَمَةَ ، وَهُوَ
الْمَعْنَى الْأَسَاسِيُّ فِي أَكْثَرِ مَا اسْتَعْمَلَتْ فِيهِ ، وَعَنْهُ يَتَفَرَّعُ مَعْنَى الْمَعْجزَةِ أَوِ
الْحِكْمَةِ أَوِ الْمُشَيَّةِ وَنَحْوُهَا .

ثُمَّ إِنَّ كَلِمَةَ الْآيَةِ بِمَعْنَى الْعَلَمَةِ قَدْ تَوْحِي بِتَفْعُلِ مُبَاشِرِ الْإِنْسَانِ ، مِثْلَ
« وَآيَةً لِهِمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حِبَا » : وَقَدْ تَدَلُّ فِي بَعْضِ النَّصوصِ
الْقُرْآنِيَّةِ عَلَى الْفَضْرِ الْمُبَاشِرِ : وَذَلِكَ حِينَ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَسْتَلِي الْإِنْسَانُ فِي دِنْيَاهُ
لِيُظْهِرَهُ مِنْ شَرُورِهِ وَطَغْيَانِهِ . وَأَوْضَعَ مَثَلُ هَذَا قَوْلَهُ تَعَالَى فِي آلِ فِرْعَوْنَ : (فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ الطَّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقَمَلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مَغْصَلَاتٍ) ، فَكُلُّ هَذِهِ
الْمَخْنَ أَصْاحَابِهِمْ وَكَانَتْ بِعِثَابِهِمْ آيَاتٍ بِيَنَاتٍ مِنْ عَنْدِ اللَّهِ :

وَلَكِنَّ كَلِمَةَ الْآيَةِ فِي الْأَسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ ، وَفِي مَعْظِمِ حَالَاتِهَا ، لَا تَوْحِي
بِأَكْثَرِ مِنْ أَنَّهَا عَلَمَةٌ عَلَى قَدْرَةِ الْخَالِقِ :

وَنَسْأَلُ بَعْدَ هَذَا هُلْ كَانَ اخْتِلَافُ الْأَلْسُنِ وَالْأَلْوَانِ مِنْ مَظَاهِرِ نَعْمَانِ
الْإِنْسَانِ فَوْقَ الْأَرْضِ كَمَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ بَعْضِ الْمُفْسِرِينَ ، أَوْ هُوَ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ
لَخْلُقَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؟

أَمَا مِنْ حِيثِ اخْتِلَافِ الْأَلْوَانِ فَمَا نَرَاهُ إِلَّا فِي بَعْضِ الشَّعُوبِ مِنْ تَعَصُّبٍ

الإنسان وكراهيته لأخيه الإنسان بسبب اللون ، وما نسمع عنه من مأسى التفرقة العنصرية ، لا يكفي دليلاً على أن اختلاف الألوان مظاهر ابتلاء للإنسان في الحياة الدنيا .

وكذلك الثان في اختلاف الألسنة ، حين نتذكر المأسى الذي كانت في كل عصور التاريخ بسبب اختلاف اللغات ، من حروب وثورات ليس لها من سبب حقيقي سوى أن المجتمعات البشرية قد عجزت عن فهم بعضها البعض حين افقدت وسيلة موحدة للتفاهم تنتظمهم جميعاً .

اختلاف الألسنة إذن ككل المصائب التي يبتلي بها الإنسان ، شاءت حكمته تعالى أن تكون فكانت ، ولكن الذي صنعها بعقله ولسانه هو الإنسان ، فهو المسئول عنها ، وعليه تحمل شرورها وويلاتها ، وإن اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون. ومن هنا ترجع القول الذي ينادي به معظم اللغويين من أن اللغة اصطلاحية أي من صنع الإنسان ، بدأها ونماها وطورها ، ثم أصبحت على الإنسانية مصدر شر كبير .

فالعالمية التي دعت إليها الديانات السماوية قد حال دون تحقيقها ما صنعه الإنسان لنفسه ، وما جلبه على نفسه من تباين في اللغات فوق الأرض .

فلما كانت العصور الحديثة تمحض التباين في اللغة عن تباين فيما يسمى بالقومية ، وتحذى أصحاب كل لغة ، قومية خاصة لأنفسهم تغizهم عن غيرهم ، وتفصل بينهم وبين الشعوب الأخرى . وقد تغزهم إلى الكراهة والاعتداء على الآخرين من إخواتهم في الإنسانية . من أجل ذلك ظهر بعض المفكرين المصلحين الذين سموا بعقولهم على المحلية ، وطهروا أنفوسهم من تعصب القومية، وبدأوا يدعون إلى العالمية ، ويدركون بنفعها للإنسانية .

وأتجه بعض المناذن بالعالمية في العصر الحديث : لا إلى تلك العالمية الروحية التي دعت إليها الديانات ، بل إلى نوع من العالمية المادية الواقعية .

فعلم الاقتصاد « تيسون » دعا إلى نوع من العالمية في صورة مبدأ التجارة

الحرة ، ومن قبله دعت الثورة الفرنسية إلى مبادئها الإنسانية السامية من حرية وإنماء ومساوة ، ثم أخيراً جاءت الماركسية تنشد نوعاً جديداً من العالمية على أساس مادي واقتصادي .

وقد شارك معظم الإنجليز في الإيمان بذلك الحلم الذي نادى به عالمهم الاقتصادي «تيسون» في القرن التاسع عشر من إنشاء اتحاد للتجارة بين الشعوب يضم مصالحها جميعاً ، ويقود إلى ما يشبه «برلين» للبشرية أولى اتحاد عالمي . وتحقق حرية التجارة في رأي «تيسون» هذا الأمل ، إذ معها تستطيع كل منطقة أن تنتج خيراً ما تصلح له ، وأن تكرس جهودها لذلك ، ثم يكون التبادل الحرّ بين هذه المناطق في السلم و مختلف الإنتاج .

ولم يكُن يتتصف القرن التاسع عشر حتى تُخرِج حلم «تيسون» ، وأصبح نوعاً من الوهم والخيال . فقد ظهرت القومية الألمانية ، وبذلت حياتها بتأسيس نظام للجمارك والتعرية الجمركية التي قصد بها منافسة البضائع البريطانية والخليولة دون تسرّبها إلى نطاق القومية الألمانية^(١) .

أما الدعوة العالمية التي نادى بها «ماركس» فقد ظهرت في روسيا في صورة ما يسمى بالكتشوفزم الذي لم يثبت أن حُلُّ . وما يخص على تأسيسه نصف قرن . فقد بدأت الثورة الروسية على أساس فكرة الوحدة بين العمال في العالم ، واعتقد زعماء هذه الثورة في بادئ الأمر أن الوحدة العالمية لا يمكن أن تتحقق إلا على أساس هذه العقيدة . ولكنها بدأنا الآن نشمّ في الاشتراكية السوفيتية رائحة القومية الروسية القديمة : ولا ينقض على ثورة روسيا أكثر من خمسين عاماً . وقد تبدلت الروح القومية الروسية في أجيال مظاهرها وعنتفوانها في دفاعهم المجيد عن أرضهم في الحرب العالمية الثانية . وأصبحت شيوعية روسيا الآن صورة من صور القومية ، تشبه إلى حد ماً ما كانت عليه التزعنة السلافية أيام القياصرة . وحتى في أمريكا التي تمت الهجرة إليها من جميع أنحاء العالم على أنها مهد لحرية الإنسان أياً كانت قوميته ، والتي كرست حكومتها في بادئ الأمر كل

جهودها لقضية إنسانية نبيلة هي أن الناس جميعاً متساوون ، وأن المهاجرين إليها إنما هاجروا لا ليصبحوا أمريكيين ، بل لينشدوا الحرية والأمن والرخاء ، أصبحت أمريكا الآن وبعد قرن ونصف قرن من تاريخها ، وقد اصطبغت بالصبغة القومية ، وأصبحنا نسمع عن القومية الأمريكية كما نسمع عن القومية الألمانية أو الفرنسية ، وأصبح أولئك المهاجرين الذين وفدو إليها من يقانع مختلفة وقوميات متباينة وقد صهروا في المجتمع الجديد ، واتخذوا لأنفسهم شعار القومية الأمريكية .

وهكذا فرى انتصار القومية في العصر الحديث حتى في أمريكا وروسيا ، مما يؤكد لنا أن الغلبة لا تزال للترفة القومية بين الشعوب . ولكن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن القومية قد بدأت في جهات أخرى فقد قوتها ، وتشهد اتجاهها آخر نحو التجمع والتكتل ، وللحظ هنا بوضوح في غرب أوروبا مهد القومية الصناعية . فالحروب الأوروبية الفظيعة التي قامت في أوروبا ، والتي هي أشبه في روحها بحروب الهمجية القبلية ، قد أثارت التقدمة على تلك القومية التي عرفت في غرب أوروبا ، وقد اتفق شعيب الوجه الذي كان يسود قلوب بعض السياسيين وعقلهم بعد ما لمسه من رد فعل شنيع لتلك القومية الخحومية ومن نتائجها المؤسفة : فبدأوا الآن يحاولون تأسيس مجتمع أكبر . فيه يتم التنازل عن الشعور بمجتمع فرنسي ومجتمع إيطالي ومجتمع ألماني ومجتمع هولندي ومجتمع بلجيكي ، إلى مجتمع أكبر يضمهم جميعاً ويケفل لهم البقاء جميعاً . ولكن مثل هذا المجتمع الأوروبي الحديث الذي يراد تأسيسه على مظاهر اقتصادية وسياسية ، لا يزال مجرد أحطال ، ومن العسير التنبؤ بعصره . ولا تزال للفكرة القومية السيادة والغلبة في العالم .

وال القومية سلاح ذو حدين ، ساعدت الشعوب على النهوض ، من ناحية ، ولكنها أثارت الشحناء والبغضاء بينها من ناحية أخرى . فللقومية صفات نبيلة لا شك في هذا ، إذ تعلم أصحابها الإيثار والشجاعة والتصديقة في سبيل صلاح المجتمع وأمنه ورخائه . ومعها يحس جميع الأفراد بشعور واحد ، ويفكرون

بعقلية واحدة فيسود بينهم الوئام ، ويتعاونون معاً على مأ فيه خيرهم جمِيماً . وقد تغنى الشعراء ، وأشاد الخطباء ، وأفاض الكتاب في الحديث عن القومية والوطنية جيلاً بعد جيل ، حتى أُوشك أن يكون حب الوطن من الإيمان . فالقومية كما تصورها وسائل الدعاية والإعلام مبعث الكراهة والعزة بشعيرها ، وهي مصدر التحير والرخاء لأبنائها ، تكفل لهم السعادة والسلام ، وتذود عنهم ، وتدفع كيد الكائدين وشر المعتدين . ففي كنفها يسعد الناس يانتاج وفير ، ويسر ورخاء : وبأضخم المشروعات وأعظمها شأناً ، وبكل ما تطلع إليه الشعوب من أسباب الحضارة والمدنية وارتفاع مستوى المعيشة .

وقد يكون من تحصيل الحاصل أن نحاول هنا تعداد مآثر القومية ، فلم تدع وسائل الإعلام والنشر مجالاً لمزيد من القول في هذا الصدد . فهذه المآثر تردد على الآذان في كل يوم وفي كل ساعة ، وتلقن للأبناء في المدارس ، ويدوي بها في المحافل والأندية . وقد استغلها القادة والزعماء لجمع الناس حولهم ، وضيّان تأييدهم : وصوروها في شعارات براقة جذابة تأسر القلوب والأفهام ، وإن كانت في بعض الأحيان تسم بالغلو والإسراف ، وفي أحيان أخرى بالاعتدال والأمامة والشرف .

إذا تجاوزنا في حديثنا عن القومية وفضلها على الشعوب ذلك الأدب الإنشائي الراهن الذي قيل فيها صورت به ، وشتنا أن نلتمس مثلاً محدداً نتبين منه مآثر القومية في نهضة الشعوب ، وجدنا في تاريخ الصين واليابان خير مثل يوضح لنا قيمة إيجابية لل القوميَّة ، وتمثل هذه القيمة في تعبئة الجنود وحشدتها لتحقيق أهداف اجتماعية جليلة الشأن . وإذا قارنا بين تاريخ الصين وتاريخ اليابان وجدنا أن كلاً منها في وقت ما قد خضع لضغط التجار الأجانب الذين كانوا يحاولون فتح أسواق جديدة لبضائع أوروبا . فيبيها أغلقت اليابان أبوابها أمام العالم الخارجي ، وظلت قرنيْن منذ القرن السادس عشر تحافظ على قوميَّتها ، وتبهج سياسة العزلة عن كل تأثير أجنبي ، وكانت الصين مرتعًا خصباً للاستغلال الأجنبي . وذلك لضعفها السياسي وتحكم الأسر الحاكمة وسوء

سياسها ، مما تخل فيها إلى حين ، الشعور بالقومية وكل أسباب العزة والكرامة ، ولذلك استغل التجار الأجانب بلاد الصين وتحرياتها أسوأ استغلال في القرن التاسع عشر .

وكان لهذا الوضع المختلف في الصين واليابان أثره وصداه في النهضة الأخيرة لكلِّ منها . فحين أحسَت اليابان في منتصف القرن التاسع عشر أن الانعزال عن العالم الخارجي غير مجدٍ بدأت تأخذ بكلِّ الوسائل الحديثة ؛ ورأت في هذه السياسة الجديدة الطريق الوحيد لمنع تغلغل الأجانب في نظامها الاقتصادي والاجتماعي . وشرع المصلحون من قادة اليابان وساستها منذ سنة ١٨٧٠ يعملون جاهدين على إصلاح النظام الاقتصادي والسياسي ، ويعيدون تشكيل اليابان على أساس صناعي حديث كالذى شهدوه في أوروبا . ويُجح اليابانيون في نهضتهم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، لأن فتره الانعزال الطويلة التي مرّوا بها قبل ذلك جعلتهم يحسنون بخصائصهم وبكتابتهم وبقوميتهم ، وجعلت منهم شعباً مهساً ذا قومية متميزة يسوده السلام . في حين أن الصين كانت حينئذ تشبه مركباً تدفعه العاصفة يميناً مرة ويميناً أخرى . ودون أن يكون له شراع يوجهه . أو دفة تهديه . إذ كانت تعانى فرقه داخلية وانقساماً على نفسها ، وكانت تجارتها واقتصادياتها في أيدي الأجانب يعيشون بها ويسطرون عليها . ولم تكن بها جهود قومية يمكن أن تعبأ ، بل لم يكن هناك شعور بوحدة أو قيادة حكيمة ؛ وظلت هكذا قرناً من الزمان إلى أن كانت ثورتها الشيوعية .

ومع كل ما تقدم يشعر كثير من المفكرين في العصر الحديث أن الوجه الآخر للقومية وجه قبيح شنيع يحمل على الآيس من مستقبلها . مع مالها من مظاهر النهضة بين الشعوب . فقد تصرف القومية كلَّ الجهود وألوان النشاط في طلب الحرية ، فلا يلتفت إلى صوت مصلح ولا فيلسوف ولا واعظ قبل نيل هذه الحرية ، كما يعبر برنارد شو^(١) في بعض أقواله . وقد تؤدي القومية والتعصب لها إلى نوع من العدوان الأنافي الغشوم على شعوب أخرى ، وإلى

الشعور بالتفوق والغطرسة ، والانتهاص من حقوق الآخرين أو هضمها ، لا سيما حين يبالغ فيها ، وقسر في الدعوة لها وسائل الدعاية والإعلام في الصحف والكتب والإذاعات والمدارس والمحافل والأندية وفي الأغاني والآنسيد . فلم تختلف القومية الهاطورية لأهلها إلا الحرب والدمار ، وكذلك الشأن في قومية موسوليني . وكان هنا ببرغم ما بهر العالم من مشروعات قام بها هتلر وموسوليني ، وبرغم الأنظمة الاقتصادية والمعمارية التي أذهلت العالم في أثناء حكمهما . فالغالاة في الدعوة أو الدعاية للقومية الألمانية جعلتها يتعاثب البالون الذي يظل المرء ينفع فيه ويترف في تعنته حتى يتضجر بين أصابعه . ولاشك أن القومية الألمانية قد وصلت أبناءها بالغطرسة والكبرياء ، وبالشعور بالتفوق والسمو على كل الشعوب ، ومحقرتهم إلى العدوان البغيض . ثم قذفت بالعالم كله في أتون الحرب العالمية الثانية التي لم يسلم من ولائها وما سببها شعب من الشعوب .

ولقد تبين لنا آنفًا أن القوميات في غرب أوروبا قد نشأت على أساس اللغة المشتركة التي وحدت الشعور في مجتمع بعينه . وجعلت أبناءها يشعرون بشعور واحد . ويفكررون بعقلية واحدة . ويتعاونون على ما فيه خيرهم جميعاً . بل لقد ظهر لنا مما سبق أن أساس الأساس في تشكيل أي قومية إنما هو اللغة الموحدة المشتركة . وقد ترتب على هذه الحقيقة صعوبات عملية بعد الحرب العالمية الأولى . في شرق أوروبا ترتب على الأخذ ببدأ حق تقرير المصير أن انفصلت أجزاء إمبراطورية النمسا وال مجر إلى قوميات مختلفة . وصعب على الخلقاء وضع حدود جغرافية متميزة بين هذه القوميات ذات اللغات المتباينة . فرومانيا لم يمكن تكوينها دون أن تضم أقلية من المجر ، وكذلك دخلت أجزاء من ألمانيا في حدود قوميات أخرى . أي أن القوميات الحديثة في بعض مناطق أوروبا كما قررتها معاهدة فرساي قد خلقت مشكلة الأقليات وحقوقهم ، وعدم إخلاصهم للدولة ، أو الشك في ولائهم ، وسوء المعاملة التي يلقونها من الأغلبية ، وغير ذلك من مشاكل تحدثنا عنها آنفًا بالتفصيل في فصل «فشل عن اللغة » . ولعل أخطر ما ترتب على شيوع فكرة القومية في العالم الحديث ذلك العدد

الكثير من الدول الصغيرة التي تكونت خلال السينين الأخيرة في جنوب شرق آسيا، والتي تأسست على التقسيمات الإدارية التي قام بها الاستعمار ، ودون أن يكون لها حدود متميزة أو لغة مشتركة ، مما أشعل المذايقات والاضطرابات بين البيئات المتباورة . في « سيلان » مثلاً تلك الجزرية التي عاشت زمناً طويلاً في سلام وهدوء برغم الاستعمار ؛ فرى أنها لم تكن تستغل حتى بدأ المتكلمون فيها بلغة « التامل » وهي الأقلية يخافون على أنفسهم ويشررون الزراع والشقاق مع الأغلبية من سكانها الذين يتكلمون اللغة السنسكريتية . ذلك لأن سكان الجزرية في عهد الاستعمار قد اتجهوا جميعاً بكل فواهم وجهودهم نحو هدف واحد هو طرد المستعمر ، فلما تحقق لهم ذلك بدأت القومية اللغوية تلعب دوراً خطيراً في حياة السكان بهذه الجزرية الوداعة .

وكذلك الشأن في غرب أفريقيا إذ قسمت إنجلترا وفرنسا تلك المنطقة إلى دول مصنوعة ، لا تقوم على أساس حقيقي من القومية الموحدة المنسجمة ، وترتبط على هذا أن أبناء اللغة الواحدة وجدوا بعضًا منهم يتضمن إلى دولة معينة والبعض الآخر يتضمن إلى دولة أخرى . ولم يوجد بين هذه الدول الأفريقية إلا الرغبة في التخلص من المستعمر ؛ فليس بين شرائح في اللغة أو التراث الفكري . ويعلم الله وحده مصير هذه الدول بعد أن ينتهي تماماً ظل الاستعمار .

أى أن أسوأ ما في القومية الحديثة أنها عملية تفتت وتشتت للبشرية ؛ وأنها في أغلب حالاتها تتسم بضيق الأفق والتطرف . وأن المرء في كتفها لا يحس بواجبات عليه إلا في حدود دولته . فأصبحت خرق وواجبات لا تكاد تجاوز نطاق الدولة .

ولكنا نعيش الآن في عالم قهر الفضاء وتحرك بأسرع من نسبيت . ولا يصح هذا أن تقصر رغباتنا ومسؤولياتنا في حدودنا الضيقة ؛ فإن ذلك يؤدي حتى إلى الانتحار لكل الدول صغيرها وكبیرها ؛ ولا سيل إلى نجاة من مثل هذا المصير إلا بالأخذ بعيداً العالمية والإيمان به إيماناً قوياً . وإن يكون هذا مدعماً ،

٢٥١

بل هو في الحقيقة امتداد طبيعي لمبدأ القومية . فقد تبين لنا آنفًا أن القومية في أصغر صورها تمثل أولاً في الأسرة التي يتكلم أفرادها لساناً واحداً ، ويؤدونه أداء مماثلاً تمام المماثلة ، ثم تمثلت في القبيلة ذات اللهجة الموحدة ، ثم كانت القومية بمفهومها الحديث في المدن والقرى وهي امتداد طبيعي للنظام القبلي .

فإذا سلمنا أن المسئولة في نشأة القوميات الحديثة تقع أولاً وبالذات على ظاهرة الاشتراك في اللغة ، تصورنا كيف أن مجال اللغة يمتد ، ونطاقها يتسع ، من الأسرة إلى القبيلة . إلى القرية والمدينة ، ثم إلى عدة مدن يطلق عليها اسم الدولة . فإذا امتد نطاق اللغة إلى عدة دول بدأ بهذا ما تطلع إليه الإنسانية من سيادة العالمية . ونشأت القومية الإنسانية . أي أن ما يسمى بالعالمية ليس في حقيقة أمره إلا نوعاً من القومية قد اتسع نطاقها اتساعاً كبيراً فشمل مناطق متباينة من العالم . ومن هنا بدأ تفكير بعض المصلحين في اللغة العالمية والدعوة لها . وهذه الدعوة الحديثة نسبياً أخذ بعض رواد الفكر ينادون بها منذ القرن السابع عشر . ولكن الحماس الكبير لفكرة القومية في حدودها الضيقة قد طغى على فكرة العالمية وأخفقت الأصوات التي تدعوا إليها . وظل معظم الناس يرونها حتى الآن نوعاً من الوهم والخيال .

وتحدثنا حقائق التاريخ أن لغات أشباه بال العالمية قد نشأت في بعض العصور وانتشرت معظمها مناطق العالم القديم . ولو قدر لإحداها أن تبقى حتى الآن وأن يمتد نفوذها إلىسائر المناطق ، لكان لنا بها تلك اللغة العالمية التي تطلع إليها هؤلاء المفكرون المصلحون . ويجدر هنا هنا أن نشير بشيء من التفصيل إلى أشهر تلك اللغات العالمية التي عرفها التاريخ .

وقبل أن أعرض لتلك اللغات العالمية في التاريخ وهي التي مهدت السبيل للفكرة العالمية في العصر الحديث ، أود أن أشير إلى بعض ما جاء في الماحضرة الرايعة التي ألقاها باللغة الإنجليزية الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين في الأمم المتحدة بنيويورك سنة ١٩٦٥ وجعل عنوانها (التعاون العالمي والسلام) .

ذلك لأنّ الدكتور محمد كامل حسين من أبرز رواد الفكر في العصر الحديث الذين سموا بتفكيرهم على محلية ، وأمنوا إيماناً عميقاً بالفطرة الإنسانية وبالسلام العالمي ، ورأوا أن العصر الحديث لما توفر له من إمكانيات مادية وعلمية قادر على تحقيق هذا السلام عن طريق التعاون بين الشعوب . فيبدأ محاضرته قائلاً: (بعدَ التعاون العالمي أعظم ما اهتدى إليه العصر الحديث ، لم يكن من الممكن أن تهياً هذه الدعوة لعصر آخر من عصور التاريخ ، فلم يكن لدى العالم في أي عصر مضى من المصادر المادية والعلمية ما يكفل تحقيق تلك الفكرة الرائعة ، ولم تكن الشعوب في أي وقت مضى أكثر استعداداً من الناحية الخلقية والنفسية لــ المعاونة بعضها إلى بعض ويمثل هذه الصخامة : بعد أن قضت تلك الشعوب فيها مضى قرولاً لا يسيطر عليها إلا الصراع فيها بيتها ، نظراً أحدها إلى الآخر على أنه المنافس الغيض أو العدو المنتظر) .

ثم يحدثنا في أسباب بعض مظاهر التعاون العالمي في العصر الحديث فاصراً حديثه على ثلاثة منها هي : أولاً بناء المخطبات العظيمة للقوى . وثانياً العون التكنولوجي لمن هم بحاجة إليه . وثالثاً الغوث الذي تمد به المناطق ذات الإنتاج الضعيف .

ويشير في متصرف محاضرته إلى نقطة ذات أهمية خاصة في التهوض باللغة لدى بعض الشعوب النامية فيقول إن بعض هذه الشعوب لم تبلغ في تطوير الدراسات الإنسانية بها الحد الذي تتميز به ويكون طابعاً لها ، في الوقت الذي يرى فيه بعض الموهوبين من أبناء هذه الشعوب بريق هذه الثقافة في أوروبا فيؤخذون بها ، وينهلون من تلك الثقافة المستوردة . بل منهم من استطاع أن يكتب باللغات الأوروبية إنتاجاً أدبياً مرموقاً . ثم يتساءل ولكن هل مثل تلك الآداب الأجنبية يمكن أن تساعد على تكوين أدب قوى ؟ وهل الترجمة تحقق هذا ؟ أو هل الأنفع والأصلح أن نترك الشعب وشأنه ليعمل على التهوض بلغته حتى تصبح أداة صالحة للتغيير عن الجديد من المعلومات وذوافي المعرفة ؟

وهنا يعرض بجهود تلك المنظمة الثقافية العالمية «يونسكو» نحو تنمية القيم الجمالية والروحية ، والأخذ من الطابع المادي الذي يتميز به العصر الحديث . ويرى أن في التقدم العلمي الضمان الكفيل بأمن الإنسانية ورحتها واستقرارها . ويعارض في قوة وإيمان رأى بعض السياسيين المتشائين الذين يرون أن التقدم العلمي قد يؤدي إلى القضاء على الإنسانية جمعاء . وذلك حين تصور أن السلاح النووي الرهيب يقع في أيدي شعب أحق فيستخدمه في دمار العالم . ويعزو هؤلاء السياسيون شرور العالم إلى الغريزة الحيوانية التي في الإنسان . غير أن الدكتور كامل حسين لما اتسم به من التفاؤل يرى أن الفطرة الإنسانية بخير ، وأن السر الممكّن في شرور العالم هو الانقسام الذي تشهده الآن بين خلق الفرد وخلق الجماعة . فالناس يحكمهم في تصرفاتهم سلوكهم مجتمع من الالتزامات ، بعضها مستمد من العقائد والديانات أو أقوال الحكماء المصلحين الذين عاشوا عبر التاريخ ، والبعض الآخر فرضته المجتمعات لحماية نفسها . أما الأولى فتدعونا إلى السمو بأنفسنا فوق مستوى الغرائز الحيوانية ، وأما الأخرى فلا تكاد تتعي بالمستوى الأخلاقى أو نداء الضمير . وتلحظ أنه حين تعارض المجموعة الأولى مع المجموعة الأخرى يؤثر الناس عادة الميل نحو التزامات المجتمع . ومن هنا يجيء سلوك الجماعات التي لا يهم إلا بمصالحها . ويؤدي ذلك مع الأسف إلى حدوث تلك الجرائم الجماعية التي قد لا يفكّر الفرد في ارتكابها لو ترك شأنه غير مقيد بالتزامات المجتمع . لیست المشكلة إذن كيف نسمو بالفطرة الإنسانية أو نتحكم في غرائزنا ، ولكنها تتحضر في كيف نظفر بنظام سياسي اجتماعي يحول دون اندفاع المجتمعات نحو التوران أو الغضب .

ثم يحدثنا الدكتور كامل حسين عن تلك الحلول السياسية التي تؤدي بها في القرنين الحديثة أملا في القضاء على الحروب ، مثل توازن القوى ، والأمن الجماعي ، ونزع السلاح ، ثم التعايش السلمي . ويرى أنها فشلت جميعاً ، وأن الصراع بين الشعوب لا يزال على حده . فنزع السلاح مثلاً يؤدي إلى

معادلة يعسر حلها هي : إذا كان هناك ثقة بين الشعوب فلا حاجة للتفكير في نزع السلاح ، أما إذا لم تكن هناك ثقة فمن العبرة التفكير في نزع السلاح .

ليس يجلد إذن العمل على منع المخرب بوسائل سياسية : وخير للإنسانية البحث عن خطة جديدة تهدف إلى تنمية السلام ، لا منع المخرب . فهناك فرق كبير بين أن نقنع بمنع المخرب وبين أن نبني السلام . ولا سبيل إلى تنمية السلام إلا عن طريق التعاون العالمي بين الشعوب .

ولكن الدكتور كامل حسين قد تجاهل في الدعوة إلى التعاون العالمي ، الوسيلة أو الأداة التي تصطنع في كل تعاون فردي أو جماعي وهي اللغة . فكيف يمكن التعاون بين قوم يختلفون لغة ، بعد أن تغلغلت اللغة في كل أنشطة المجتمع ، وبعد أن أصبح لها ذلك الدور الهام في الصناعة والمعاملات والسياسة ، بل وفي المخرب أيضاً . فإذا كانت هذه هي الحال على المستوى الشعبي فكيف بها على المستوى العالمي ؟ ومن هناك تبرز أهمية اللغة العالمية وضرورتها الملحة في أمن العالم ورخائه واستقراره .

الفصل الثامن

لغات عالمية في التاريخ

١

اللغة الأكادية

يحدثنا المؤرخون أن شعباً من الجنس الآري عاش في وادي دجلة والفرات في القرن الأربعين قبل الميلاد ، ويدعى أبناء هذا الشعب بالسومريين . ووفد عليه في حدود القرن الثلاثين قبل الميلاد شعب آخر من الجنس السامي ، فكان صراع بينهما أنتهى من النهاية اللغوية على الأقل ، بانتصار الشعب السامي الذي عرف في التاريخ بالأكاديين . وسادت اللغة الأكادية السامية في تلك الأحقاب التاريخية ، ولكنها خرجت من ذلك الصراع اللغوي مبشرة بالنجاح ؛ فقد تغيرت بعض ملامحها السامية . كأصوات الحلق وبعض الصيغ والتراكيب التي تميز بها اللغات السامية يوجه عام . ومع هذا فقد احتفظت ببعض الصفات السامية الأصلية التي نتفقدها في كثير من الساميات الأخرى ، كظاهرة الإعراب مثلاً .

وقدّمت لهذا الشعب فيما بعد حضارة تعد من أقدم الحضارات الإنسانية . ثم تعمّلت تلك الحضارة وازدهرت حتى كان القرن العشرون قبل الميلاد حين تأسست دولة بابل القديمة ، وasher أمرها في عهد « حوراني » الذي خلف لنا آثاراً ونقوشاً تدل على رفٍ عقلي واجتماعي غير مألف في تلك العهود السحرية . ولعل أهم ما ينسب إلى حوراني تلك المجموعة من القوانين والنظم التي أدهشت الباحثين في العصر الحديث ، فقد تضمنت مسائل الزواج والطلاق والميراث ، كما تضمنت نظام القصاص في الجرائم . في صورة تشبه إلى حد كبير ما جاء بعد ذلك في بعض أسفار التوراة .

وتعرف اللغة الأكادية باسم «البابلية الأشورية» أيضاً؛ ذلك لأنها مادت خلال حضارة بابل وأشور، فقد كانت لغة حمورابي في الدولة البابلية القديمة التي ظل أثراها قروناً عدّة حتى كانت الإمبراطورية الأشورية في القرن الثامن قبل الميلاد، وهي التي أسسها «سرجون» وظلت قائمة قرناً من الزمان؛ اخضعت خلاله شعوباً متعددة في آسيا الصغرى، بل وصل الأمر بهؤلاء الأشوريين أن قاموا بغزو مصر، ولكنهم لم يعمروا فيها طويلاً. ثم عاد السلطان إلى «بابل» وأسس الدولة البابلية الحديثة ٦٢٥ ق.م. واستمر سلطانها نحو قرن من الزمان؛ اخضعت خلاله كل شعوب آسيا الصغرى، وقامت بعملية الأسر البابلي المشهورة في التاريخ، حين هاجرت العبرانيين وساقتآلافاً من اليهود أسرى إلى بابل، فأقاموا هناك رحماً من الدهر؛ وخربت فلسطين وهدم المعبد الكبير في ٥٨٧ ق.م.

أى أن كلاً من بابل وأشور قد تناوب السلطان فرة من الزمن، خلالها لم يتغير غير الحكم وأصحاب السلطة؛ أما من حيث الثقافة والدين واللغة، فلم يطرأ عليها أى تغيير؛ فكانت الإمبراطورية الأشورية بختابة امتداد طبيعى لدولة بابل الحمورابية. كما كانت الدولة البابلية الحديثة امتداداً وتطوراً لإمبراطورية أشور. لا غرابة إذن أن تدعى اللغة الأكادية باللغة البابلية الأشورية أيضاً. وقد عمرت هذه اللغة نحو ألفين من السنين، وأصطنعها خلال هذه المقدمة الطويلة شعوب عدّة؛ فكانت بين الحيثيين والأشوريين والمصريين بختابة اللغة الدبلوماسية، فالرسائل المتبادلة بين هذه الشعوب كانت تكتب بهذه اللغة العربية، وكان الخطاب في الحالات الرسمية بهذه اللغة أيضاً. بل إن نقوذ بابل وأشور قد امتد إلى كل شعوب آسيا الصغرى، حين عمل حمورابي على توحيد كل شعوب تلك المنطقة في دين واحد ولغة واحدة. فوحدت الآلهة، وانتشرت الأكادية انتشاراً كبيراً، وخضع لنقوذها الحيثيون والآيديون والميديون والفينيقيون وال عبرانيون؛ وغيرهم من شعوب آسيا الصغرى. فكانت اللغة الأكادية معروفة مدرسة بين كل هذه الشعوب

يصطمعونها مع لغاتهم المحلية . أى أن اللغة الأكادية لم يقتصر شأنها على بيته الدولتين بابل وأشور ، بل امتد نفوذها في مناطق شاسعة خارج حدود هاتين الدولتين ، وتلك من أهم ما تسم به اللغة العالمية .

وقد ساعد على انتشار هذه اللغة أن البابليين قد أتوا قوافل للتجارة في الأنهار وفي الصحراء ، تنقلت في مدن الشعوب الأخرى : واتصلت بأهلها اتصالاً وثيقاً، وكان من الطبيعي من أجل هذا أن تنشأ بين هؤلاء وهؤلاء أداة للتفاهم مشتركة ، حتى يتيسر تبادل المنافع الدنيوية ، وانحذت اللغة الأكادية أداة لهذا التفاهم .

أما حضارة هذا الشعب العريق فلم نكن نعرف عنها شيئاً قبل أوائل هذا القرن . ولما عثر على تلك النقوش المسارية التي خلدت جزءاً من تاريخهم وثقافتهم ، تبيّن للدارسين عظمتهم . وقد استطاع طائفة من المستشرقين حل رموز هذه النقوش الكثيرة في صبر وآناة ، وحدثونا بما يشير إلى اعجاب والدهشة من شأن هؤلاء القوم . فقد نظموا مياه دجلة والفرات ، وبنوا القنطرة عليهم : وعملوا على ترقية الزراعة في ذلك الوادي الخصيب . وأسسوا أنظمة الاجتماعية التي تكفل صلاح الأسرة ، ووضعوا القوانين التي تنظم المجتمع والعلاقات بين الناس . بل وبين الشعوب بعضها البعض . فكان المتفعون من أهل هذه اللغة وزرجال الدين بصفة خاصة ، يعدون أساتذة العالم القديم في القانون الدولي . وبين هؤلاء البابليون المباني العظيمة والأبراج العالية ليراقبوا منها أعدائهم : وليرصدوا من فوقها النجوم والكواكب ، فهم المشهورون في التاريخ القديم بعلمهم الشامل . وقد قسموا الشهر القمري إلى أربعة أيام : كل أسبوع جعلوه سبعة أيام . وقسموا اليوم إلى أربع وعشرين ساعة : وجعلوا كل ساعة تتكون من ستين دقيقة ، وكل دقيقة من ستين ثانية . ذلك لأن البابليين كانوا يعتدون إلى الرقم ستين فقط ، كما نعد نحن الآن إلى المائة . فهم أول الشعوب في اختراع التقاويم ، وتحديد الفصول السنوية . ورصد حركات الكواكب والنجوم .

ولما لم تيسر لهم الأحجار التي كانت في مصر اعتمدوا في مبانيهم وأثارهم على الطين المجفف في الشمس ، فاستخدموه في مبانيهم وأبراجهم ، بل اخترعوا منه أيضاً الواحًا لتسجيل تاريخهم : وتخليد أعمالهم المجيدة ، فكان خيراً من البردي والرَّق والورق وغيرها مما عرفته الأمم الأخرى . لأن تلك الألواح الطينية المحففة لم يصبها البلى ، ولم يعُد عليها الزمن ، بل ظلت حتى الآن في حالة جيدة ، وظلت نقوشها واضحة ، لم تتأكل ولم تطمس معالمها . فكانوا ينفثون على الطين قبل جفافه بقطعة من البوص تشبه الوتد أو الإسفين رمزاً تعبر عن كل ما أرادوا تخليده ، وتلك هي الكتابة التي عرفت بين الدارسين بالكتابة المسمارية .

هم إذن ، مما عُرف عنهم حتى الآن ، أهل حضارة راقية في الفلك والهندسة والفن ، بل والفلسفة والآداب أيضاً . ويتميز أدبهم بأنه ديني تضمن تاريخ الإنسان فوق الأرض ، وما أصابه في مختلف الأزمان . فقد وصفوا قصة الخلق أو الكون ، وكيف بدأ الإنسان حياته فوق ظهر البسيطة ، كما وصفوا لنا قصة الطوفان وصفاً يشبه ما جاء بعد ذلك في نصوص التوراة إلى حد كبير .

وكان هؤلاء البابليين مكتبات ومتاحف ضمت مسجلاتهم وأثارهم . وقد جمع في إحداها أحد ملوك آشور بمجموعة كبيرة من الألواح الطينية مسجلة عليها تاريخ قومه وثقافتهم وأدابهم في عاصمته « تينوي » .

ثم لحقت لعنة بابل التي ورد ذكرها في التوراة لغة هؤلاء القوم بعد أن اضحل ملوكهم . وبعد أن كانت هزيمتهم على يد الفرس الذين أسروا دولتهم في أواخر القرن السادس قبل الميلاد . وكان الفرس أكثر تساهلاً وأملاً إلى حرية الناس في لغتهم وديانتهم ، فلم يتبعصوا لغة معينة ، ولا للدين معين بل تركوا الناس أحراجاً حين امتد نفوذهم في جميع أنحاء آسيا الصغرى ، ولم يعمل الفرس عن عمد على تغيير ديانة البابليين أو لغتهم ، بل لقد اصططعوا اللغة البابلية في بعض الأحيان جنباً إلى جنب مع لغتهم الفارسية القديمة ، ومع لغة أخرى ذاع أمرها وانتشر نفوذها في أواخر الحكم البابلي ، وزاد نفوذها وسلطانها خلال الحكم الفارسي . وهي اللغة الآرامية التي ستحدث

عنها فيما بعد . أى أن الفرس لتساعهم كانوا يصطنعون لغات ثلاثة ، البابلية والفارسية القديمة والأرامية . والأرامية هي اللغة العالمية التي كانت تنافس البابلية منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد آثرها الفرس على البابلية لمسؤوله هجاؤها ، وأن أهلها لم تكن لهم أطماع سياسية في تلك المنطقة . فقد احترم الفرس الدين البابلي واللغة البابلية لعدمها وعراقتها ، ولكنهم آثروا الأرامية عليها . ذلك لأن الفرس قد رأوا أن لغتهم الفارسية القديمة لغة محلية لم تتح لها فرص النبوغ والانتشار كاللغتين البابلية والأرامية ، ووجدوا أن فتوحاتهم وانتصاراتهم تتطلب اصطنانع لغة عالمية بجانب لغتهم الفارسية ، فأثروا الأرامية ، وساعدوا على استقرارها ، وتمكنها في ألسنة كثير من شعوب هذه المنطقة الشاسعة : ونجح الفرس فيما لم ينجح فيه أهل بابل من قبل ، إذ استولوا على مصر في عهد « قمبيز » ، وغزوا ملوكيهم بعد ذلك مقدونيا في بلاد اليونان ، وتم لهم بذلك تأسيس إمبراطورية عظيمة ظلت قائمة حتى قضى عليها الإسكندر الأكبر بفتحه ٣٣٣ ق.م . وهكذا انتهى أمر اللغة الأكادية العالمية دون أن تختلف لنا أبناء أو أحفاداً .

٢

اللغة الآرامية

هذه لغة قوم من الساميين وردت إشارات عنهم في العهد القديم وكتب التاريخ . وقد شغل البابليون عنهم فانتشروا في بقاع كثيرة من آسيا الصغرى ، وأسسوا لهم مدنًا مستقلة أشهرها في سوريا ، مثل مملكة آرام دمشق ، وآرام صوبوا ، وآرام بيت رحوب . وقد استطاع هؤلاء الآراميون أن يؤمنوا لأنفسهم دولة في شمال سوريا ، كما كانت لهم دولة أخرى في العراق احتفظوا بها زمناً أطول ، مما ساعدتهم على التدخل في شؤون بابل وأشور ثم الفرس بعدهم ، بل ظل لهم نفوذ كبير حتى في عهود اليونان والرومانيين : برغم أن دولتهم في سوريا

سقطت على أيدي الأشوريين ٧٣٨ ق. م. ونحدثنا كتب التاريخ أنه كان للأراميين حروب أو مناوشات مع الحبيشيين ، وأنه في عهد الملك داود كانت هناك دوليات آرامية في سوريا وحدود العبرانيين.

ولستا نعرف الموطن الأصلي للأراميين : بل لا ندرى كيف تيسر لهذا الشعب العجيب أن يتغلغل في كل مدن آسيا الصغرى : وأن يكون لغتهم كل هذا التفود الذى يحدثنا عنه التاريخ : فلم يكن شعباً محارباً عُرف بالغزو والفتحات ; ولم يُؤسس لنفسه دولة موحدة كذلك الذى كانت بابل وأشور أو الفرس ، بل كان أهلها قوماً عميلاً ، لم يتطلعوا إلى تأسيس إمبراطورية ، ولم يشغلوا أنفسهم بمحروب ، بل قطعوا بالتسلاى إلى معظم المدن ، وأسروا لأنفسهم بمهارتهم العملية تفوذاً كبيراً في كل الأتجاه ; وهكذا تمت لهم السيطرة أو التفود دون أن يريقوا دماء ، فكان غزوهם للمدن غزواً سلبياً .

كان هؤلاء الآراميون أهل تجارة ، وكان مظهراً لهم البرىء وعزوفهم عن الغزو والسلح وعدم تطلعهم إلى تأسيس دولة كبيرة أو إمبراطورية ، من أكبر العوامل التي جعلت شعوب آسيا الصغرى تتضمن إليهم : وتشيع لهم فرص التغلغل في مناطقهم . وساعدت على هذا ما انتسب به لغتهم الآرامية عن المساعدة في أسرتها وصيغتها وتراتيبها . فقد تطور فيها كل هذا . ولم تخفظ من السمات السامية القديمة إلا بالقليل . كما كانت كتابتهم هجائية ، اصطمعوا فيها رمزاً لكل صوت لغوى : ولم تكن مقطعة كالى كانت لدى الصينيين واقتبسها منهم اليونان فيما بعد ، أو كالي كانت لدى المصريين في عهودهم المتأخرة : ولم تكون معقدة كالي كانت في الكتابة المسارية كتابة بابل وأشور . هذا إلى مساعدة الفرس لهذه اللغة وإيثارهم لها ، مما زادها انتشاراً في العهد الفارسي .

لم يكن الآراميون أهل أدب خالد ، ولذلك اندرت كل آدابهم ولم يبق منها ما يتردد على الألسنة إلا كلمات المسيح في الإنجيل ؛ وهي التي ترجمت بعد ذلك إلى الإغريقية ثم إلى اللغات الحديثة .

ومن طريق النقش الآرامية والكتابات الآرامية التي عبر عليها في العصور

ال الحديثة ، ومعها تلك النصوص الدينية التي نقرؤها في الترجمة^(١)، استطاع الدارسون من المستشرقين أن يلهموا صورة غير متكاملة للمعلم للشعب الآرامي واللغة الآرامية . وقد امتدت النقوش الآرامية إلى أبعد من حدود الآراميين برغم ذهاب استقلالهم السياسي ، وذلك بفضل ساطة كتابتها . فشملت جميع أنحاء «ميروبو تاميا» . وأصبحت اللغة الآرامية لغة السياسة والتجارة في كل أنحاء غرب آسيا الصغرى بل وفي مصر ؛ واستحقت بهذا أن تدعى لغة عالمية .

فيحدثنا العهد القديم أن مندوبي الملك «حزقيا» ملك العبرانيين حين كانوا يتحدثون مع البعثة الأشورية في أثناء حصار أورشليم ، طلبوا من الأشوريين أن يتكلموا باللغة الآرامية حتى لا يفهم الناس^(٢) . أى أن أشراف اليهود قد تعلموا الآرامية ليستطعوا التعامل مع الأشوريين .

وقد عثر في سنة ١٩٤٨ على أوراق من البردي تتضمن رسالة من أمير فينيق إلى فرعون مصر ترجع إلى ٦٠٥ ق . م . وتوضح هذه الرسالة مقدار شيوخ اللغة الآرامية في المكاتب الدبلوماسية .

ومنذ القرن السادس إلى القرن الرابع قبل الميلاد بلغت اللغة الآرامية ذروة مجدها كأغذية عالمية . وذلك بسبب تسامح الفرس وإيثارهم خدمة اللغة على غيرها . فأصبحت الآرامية خلال هذين القرنين اللغة الرسمية للعالم السامي الخاضع لنفوذ الفرس فيما بين مصر والفرات : وحلت الآرامية في تلك المناطق محل العبرية والفينيقية والساميات الأخرى .

وليس صحيحاً أن اليهود قد جلبوا هذه اللغة الآرامية معهم بعد عودتهم من الأسر البabilي . بل الصحيح أن اليهود حين عادوا من المنفى كان معظم الناس قد نسوا العبرية لغتهم الأصلية . ولم يكدر بيدأ القرن الرابع قبل الميلاد ،

(١) الترجمة : كتاب يحوي ترجمة أو تفسيراً لبعض أسفار العهد القديم باللغة الآرامية ، قام بوضعه أحبار من اليهود قبل ظهور المسيحية ، وبعد أن أصبح يجهل الناس لغتهم النصوص العبرية الأصلية .

(٢) سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٨ الآية ٢٦ ، وكذلك سفر «أشيا» الإصحاح ٣٦ الآية ١١ .

حتى كانت العربية قد اخفت كلغة كلام ، وحلت الآرامية محلها ، واقتصر أمر العربية على الأجرار ورجال الدين بوصفها لغة كتابة فقط .

وفي العصر الفارسي كانت اللغة الآرامية اللغة الرسمية للمقاطعات التي في غرب الفرات ؛ إذ نجد أن عمدة الحكام وأمراء العشائر في آسيا الصغرى تلك التي صنعوا مهراً الإغريق ، كانت تحمل نقوشاً آرامية بجانب اللغة الإغريقية ، وكذلك كان الشأن في أختام هؤلاء الأمراء والحكام . وقد وصلتنا نقوش وكتابات آرامية عبر عليها في جزيرة القبلة بأسوان وترجع إلى العصر الفارسي ، أي فيها بين القرنين السادس والرابع ق . م . وقد كتبت على أوراق البردي ، وتحضمن عقود زواج ومعاملات مالية ، مما يؤكد لنا أنه كان في «أسوان» جالية سامية كبيرة من الآراميين والفينيقيين والعرباتين الذين اصطنعوا اللغة الآرامية في تعاملهم ، وأنهم كانوا يتورون استعمال تلك اللغة الآرامية السهلة ، خشية أن يقعوا في صعوبات الخط المبرد وغلبي .

وقد تأثرت بعض أسفار العهد القديم باللغة الآرامية ؛ مثل بعض أجزاء في سفر «دانیال» و«عزراء» كُتُبَت بلغة آرامية شبه شبيها قويًا لغة تلك النصوص التي عبر عليها في أسوان .

وهكذا نرى أن اللغة الآرامية بفضل السامح الفارسي قد انتشرت انتشاراً كبيراً في كل أنحاء آسيا الصغرى وفي مصر .

ولما كان الغزو اليوناني على يد الإسكندر الأكبر ضعف شأن الآرامية قليلاً، ولكنها ظلت لغة الخطاب لعامة الناس في كل البقاع ، في حين أن الإغريقية اصطنعت في مجالات الثقافة والعلم . ويدل على هذا تلك النقوش التدميرية والتبطية التي عبر عليها في شمال شبه الجزيرة العربية ؛ وأن الآرامية كانت لغة المسيح نفسه فقد أمل بها على حواريه تعاليه ، وكتب بها بعض أسفار الإنجيل في أول الأمر ، ثم ترجحت إلى اليونانية بعد ذلك .

ولما كان العهد الروماني وانتشرت المسيحية في بلاد الرومان ، ساعده ذلك على إيهام الآرامية من كبوتها في عهد اليونان ، لأنها لغة المسيح ، ولأنها كانت

منتشرة في نواحٍ متعددة . ولذا ظلت الآرامية اللغة الرسمية للكنيسة السوريانية وكتبت بها مؤلفات دينية كثيرة ، بل لقد انتشرت الآرامية عن طريق التجار والعيدي في بعض نواحي الدولة الرومانية .

ورأى أحبار اليهود قبيل ظهور المسيحية أن الناس لم يعودوا يفهمون النصوص العبرية للتوراة فاضطروا إلى ترجمتها إلى اللغة الآرامية تلك اللغة التي سادت في كل البقاع ، وعلى ألسنة كل الناس : ومن ترجمة النصوص العبرية وتفسيراتها تكون ما يسمى في الأدب الديني للعراقيين « بالترجمة » و « التلمردة » .
ولما ظهرت المسيحية كانت اللغة الآرامية قد اشترطت إلى شطرين متباينين إلى حد كبير : أحدهما ما يعرف بين الدارسين بالأramaic الغربية وتمثله النصوص الآرامية في العهد القديم ، ونصوص أوراق البردى التي عثر عليها في أسوان ، كما تمثله أيضاً اللغة التلمودية واللغة النبطية ، وكثير من الكتب الدينية التي كتبها أحبار اليهود في العصور المسيحية ، ومنها ما يسمى بتلמוד فلسطين . أما الشطر الآخر فهو ما يعرف بالأramaic الشرقية وهي التي سادت في بلاد العراق ، وسماها أهلها في العصر المسيحي باللغة السوريانية : وأخذت لغة كنيسة « أودسا » وبها كتبت آداب دينية كثيرة فيما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين . ومن بين نصوصها ما يعرف بالتلמוד البابلي .

وظلت اللغة الآرامية سائدة في كل تلك البقاع حتى جاء الإسلام وحلت العربية محلها . ولا نكاد نجد لها الآن أثراً إلا ما يقال لنا من أن بعض القرى النازية في سوريا لا يزال أهلها يتكلمون باللغة الآرامية . أى أن نهاية اللغة الآرامية السامية كانت على يد لغة سامية أخرى هي العربية . فلم يتحققها لغة بابل أيضاً بعد أن ظلت قرونًا كثيرة محبوبة مأنوسية بين شعوب العالم القديم : يصطنعوها في خطابهم ، وفي معاملاتهم ومكاتباتهم الرسمية الدبلوماسية ، فكانت بحق لغة الشعوب ، لغة الناس بكل طبقاتهم ، فلم يقتصر أمرها على طبقة خاصة أو بيئة محددة ، واستحققت من أجل هذا أن تعد لغة عالمية ديمقراطية : فلن أهم سمات اللغة العالمية أن تكون لغة الناس بكل طبقاتهم .

ومن أن اللغة الآرامية قد اندثرت وأنحت العربية مكانها لا أشك لحظة في أن هذه اللغة قد خلقت في هيجات كثيرة من البلاد العربية آثاراً ، بعضها صوفي وبعضاً يرجع إلى صيغ الكلمات وتركيب الجمل ، ولعل بحوث المستقبل تكفل للباحثين والدارسين الكشف عن تلك الآثار وتوضيح معالمها .

٣

اللغة الإغريقية

في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد كانت الثقافة الإغريقية قد بلغت الذروة على يد طائفة من العلماء والفنانين وال فلاسفة الذين عاشوا في أثينا ، وجعلوا لها المركز المرموق في تاريخ الحضارة الإنسانية . بينهم شعراء عظام من أصحاب الدراما الخالدة مثل « أشيلوس » و « سفوكليس » و « بوريفيديس » و « أرستوفانيس » ، وبينهم أساتذة العالم في الفلسفة مثل سocrates وأفلاطون وأرسطو وأتباعهم . وبينهم نوابغ في فن البناء والتحت مثل « أكينفوس » و « فيليبياس » وغيرهما . وهكذا تحقق لهذه الحضارة العظيمة أن تراث الإنسانية خير ما أنتجته العقول في كل عصور التاريخ . وكانت لغة أثينا في ذلك العهد هي اللغة الإغريقية القديمة التي سميت « الأنيκيّة » ، والتي تميزت بجمال أصواتها وانسجام صيتها ودقة تراكيبها وتحديد دلالاتها :

ثم كان الغزو التاريخي المشهور على يد الإسكندر الأكبر ، الذي يرغم أن حكمه لم يدم أكثر من ثلاثة عشر عاماً . استطاع أن يغزو كل دول شرق البحر الأبيض ، وأن يُؤسس إمبراطورية عظيمة شملت مصر وسوريا وبلاد العراق وبلغت حدود الهند ، أي أنه استولى على العالم المتقدم القديم في تلك الفترة الوجيزه . وكانت سياسة الإسكندر على قصر حكمه تعود إلى تأسيس المدن العظيمة في آسيا الصغرى . ف تكون في أنحاء تلك المنطقة مدنان مزدهرة عاصمة بالسكان : وسط شعوب عريقة في حضارتها وثقافتها ، غنية بخيراتها

وآدابها وعلومها ؟ وكان لهذه الشعوب من المباني العظيمة والأبراج الشائعة ما ربما تمناه الإغريق في بلادهم . ومن الإنصاف أن تعد هذه الشعوب أساندة للإغريق في الفلك والهندسة والفن ، بل وفي الفلسفة أيضاً ، ولكن الإغريق امتازوا عنهم بلغة لم يكن لها نظير في تلك الأيام . وبفضل هذه اللغة نشر الإسكندر ثقافة اليونان ، ونظمهم الاجتماعية بين هذه الشعوب العربية .

غزا الإسكندر آسيا الصغرى فوجد الأشوريين والبابليين في حالة من الضعف العسكري والفساد الاجتماعي ، ما مكنته من قهرهم ، و وبعد الفرس يُثسرون دولة قامت على التسامح الديني واللغوي ، لا يدعون إلى دين معين ، ولا إلى لغة واحدة ، يتكون جيشهم من أجناس متعددة ولغات متباينة ، وعقائد متنايرة ، فيسر كل هذا على الإسكندر قهرهم والانتصار عليهم ، وتشتت جيشهم في أول معركة ، إذ لم يكن بينهم رابطة وثيقة من دين أو لغة أو جنس تلم شتاهم أو توحد بينهم . على حين أن جيش الإسكندر كان يتكون من جنس واحد ، وثقافة موحدة ، وعقيدة واحدة ، وأنهرياً وليس آخرأً من لغة واحدة . ولذلك دام أثر هذا التزرو الإسكندرى حتى بعد الإسكندر وظل سائداً إلى عصر الرومان . ونشأ بسبب هذا التزرو الإغريقي فيما بعد ما يمكن أن يسمى بالروح الإغريقية ، أو بالطابع الإغريقي في كل مظاهر الحياة . ساد هذا الطابع الإغريقي كل أنحاء المنطقة المغروبة ، وأصبح أهلها إغريقياً من حيث اللغة والثقافة ، وإن لم يكونوا من حيث الجنس أو النسب .

وحكم الدين ورثوا الإسكندر ، كل هذه البلاد في شكل دول صغيرة بدأت كأنها مستقلة بعضها عن بعض ، ولكنها اجتمعت في الروح الإغريقية واللغة الإغريقية ، وتعاونت على استقرار سلطانها . ويكتفى أن نذكر منها دولة البطالمة التي حكمت مصر زمناً طويلاً أمست خلاله مدرسة الإسكندرية المشهورة في العلم والفن والفلسفة ، ومكتبهما التي عمرت شهرتها الآفاق .

قاد الطابع الإغريقي مصر وكل مدن آسيا الصغرى . وقد الناس الإغريق في العابهم وأعيادهم وعاداتهم وملابسهم ونظمهم الديمقراطية في الحكم وساعد على ذلك طائفة من تجار الإغريق ، جاءوا كل هذه البلاد ، واستقروا فيها ، ونشروا لغتهم بين الناس ، وعملوا على تغيير كثير من مظاهر الحياة

الاجماعية . فأمست الحمامات الإغريقية ، وشيدت المباني العظيمة ، وأقيمت المسارح ، بل أخذ حتى بنظام المخارى الذى عرفه الإغريق في بلادهم .

ويرغم أن لغة أثينا «الأتيكية» قد خلدت لنا قدرأً كبيراً من علم الإغريق وثقافتهم قبل غزو الإسكندر؛ فإنها بعد اتساع الإمبراطورية الإغريقية كانت أرق وأسمى من أن تصلح لغة مشتركة لكل هذه الشعوب. فهى حتى في مهدها الأصلي، كانت لغة الحكماء والعلماء وال فلاسفة، يصطمعونها في أرق الآثار الأدبية والفنية، ويستخدمها الفلاسفة والخطباء أدلة لمناقشة المسائل الجديدة في أرق الأوساط العلمية. ثم طرأ على هذه اللغة، وفي السنة العامة من الناس بعض الصفات الصوتية الجديدة، والانحرافات في الصيغ والبراكيبي، تلك التي نفر منها حكماء أثينا وتحاشوها، ولكنها برغم هذا تبلورت فيها بعد واقتصرت حصصون لغة الإغريق، وساعدت على نشأة تلك اللغة الإغريقية المشتركة التي عرفت في التاريخ باسم «الكونية».

فاللغة « الكوبينية » تتصف بكل صفات اللغة العالمية ، ذلك لأنها انتظمت شعوباً كثيرة ، ووحدت بينها مع اختلاف هذه الشعوب في الجنس والعقيدة . وكانت كذلك لغة ديمقراطية . أي للناس بكافة طبقاتهم ، لا يقتصر شأنها على طبقة خاصة أو بيضة محرودة ، كما هُرُبت أو سقطت أصواتها وصيغها وتراكمتها فأصبحت في متناول الناس جميعا .

وهكذا تعمّت اللغة الإغريقية المشتركة المسماة بالكونية السيادة في كل أنحاء العالم القديم ، يصطبّعها الناس في خطابهم ومعاملاتهم وتبادل المصالح فيما بينهم . واتسع صدر الإغريق في بيئتهم الجديدة لذلك الحشد الوافد من الكلمات الأجنبية ، فرحبوا بها وصبّغوها بصبغتهم الإغريقية ، وأصبحت تكون عنصراً أساسياً من لغتهم المشتركة «الكونية»، وهذا أيضاً من صفات اللغة العالمية . فاللغة التي تكتنّ بعناصرها ، وتنعزل عن اللغات الأخرى ، أو تتطوّر على نفسها : لا يتأتّح لها أبداً أن تصبح من اللغات العالمية .

أصبحت «الكونية» إذن لغة شعوب متعددة . وصارت ملكا للإغريق

وغير الإغريق ، تجري على ألسنة الكثيرين من لا ينتهي إلى الجنس الإغريقي . وكان من الطبيعي لذلك أن يصيغها انحرافات أو تغيرات لم تكن في «الأنيκή» ، فانتهت أصواتها وصيغها وتراكيبها بالبساطة والمرونة ، وإن فقدت شيئاً من خصائصها الأصلية . فتغيرت بعض أصوات الإغريق القدماء ولا سيما أصوات اللين أو *Vowels* أما الأصوات الساكنة أو *Consonants* فالنغير فيها كان في نطاق محدود جداً ، مثل تعطيش الجيم الذي طرأ أخيراً على نطق الإغريق ، ولم يكونوا يعرفونه في الأنيكية . كما طرأ على كلام الإغريق انحرافات في صيغ الأسماء واشتقاقاتها ، انتهت بفقدان المثنى ، والصيغة الخاصة بزمن المستقبل ، وغير ذلك من ظواهر ساعدت على تبسيط قواعد اللغة ، وجعلتها في متناول الناس جميعاً .

وإذا ذكرت اللغة الإغريقية في عصور التاريخ لا ينصرف هذا إلا إلى «الكونية» اللغة المشتركة ، فهي التي ترجم إليها العهد القديم أيام البطالمة ، تلك الترجمة التي عرفت بالترجمة السبعينية ، وهي التي ترجم إليها الإنجيل في أوائل العصر المسيحي عن الأصل الآرامي ، ولا سيما إنجيل لوقا وإنجيل بطرس فكلامها بعد خير نموذج للغة «الكونية» .

فإذا ذكرت اللغة الإغريقية في التاريخ لا يكاد ينصرف هذا إلى لغة مشهورين من حكماء الإغريق وفلاسفتهم وفنانيهم من أمثال أفلاطون أو أرسطو وغيرهما من كتبوا «بالأنيكية» وخلدوا آثارهم بها ، بل إن اللغة الإغريقية في التاريخ هي «الكونية» اللغة المشتركة العالمية الديمقراطية ، لغة الخطاب والمعاملات والتجارة كما هي لغة العلم أيضاً .

وحلت «الكونية» ثقافة الإغريق وعلومهم ونشرها في جميع أنحاء الإمبراطورية الإغريقية ، فنظم بها الشعراء ، وتأمل بها الفلاسفة ، وكتب بها العلماء والفنانون في مدرسة الإسكندرية وسوريا ، وغيرهما من مناطق هذه الإمبراطورية . وكانت الإسكندرية أول مدينة تستلم قيادة المهمة الإغريقية أيام البطالمة ، فحافظت على النطق الصحيح للغة «الكونية» وكان أهلها

الذين هم من أجناس مختلفة ، بين مصريين وسوريان ويهود وأحباش ، يعتزون بهذه اللغة ، فاحتفظوا بها كلغة مشتركة جمعت بينهم عدة قرون . ذلك لأن التعليم في مدارس الإسكندرية كان أساسه لغويًا ، يبدأ الطفل بتعلم القراءة والكتابة ، ثم يمرن على حفظ كثير من النصوص الأدبية وإن شادها بصوت عال ، رغبة في ذلاقة اللسان وحسن البيان ، فكان الطفل يحاول أداء هذا أداءً جيداً مع عنابة بحسن النطق وجودته .

بل إن التاريخ يحدثنا عن كثير من القادة والحكام الذين نشأوا بعيداً عن أثينا ، حين وفدو عليها في شبابهم راغبين في إتقان هذه اللغة « الكوبينية » والسيطرة عليها نطقاً وإنشاداً وأداء . ذلك لأن المركز الاجتماعي للمرء في تلك الأيام كان يقاس بحسن نطقه : وقدرته على الخطابة ، وانفاقه في أسلوب أخاذ جذاب . بل حتى حين تعلم هؤلاء الوافدون على أثينا الفلسفة واللغزافي والفالك وغيرها ، لم يتم لهم ذلك إلا بعد السيطرة على اللغة الإغريقية ، كما يحدثنا التاريخ أن بعضـاً من قادة الرومان وعظامهم قد نشأوا من التاحية التعليمية في أحضان الثقافة الإغريقية .

تطورت إذن لغة الإغريق إلى تلك اللغة المشتركة « الكوبينية » التي بسطت أصواتها وصيغتها وتراثها . وتحميت كلماتها بفيض من الألفاظ الأجنبية : افترضها الإغريق من اللغات الأخرى ، ولم يجدوا في هذا غضاضة ، فقد أصبحت لهم بكتابية ثروة لغوية . كما نجت لغتهم عن طريق الاستنفار باستخدام ألفاظ كثيرة أحسوا بحاجتهم إليها خلال أطوارهم التاريخية ، ويمكن التأكيد كثير من هذه الكلمات المستحدثة في نصوص الإنجيل باللغة الإغريقية .

وقد قضت اللغة الإغريقية المشتركة على معظم اللغات في مناطق الإمبراطورية الإغريقية ، وحلت محلها ، فيما عدا اللغة الآرامية التي تقهقرت إلى مملكة « تدمر » والأبياط في شمال شبه الجزيرة . ولكنها ظلت مع هذا على ألسنة الناس في معظم مناطق الإمبراطورية ، لأنها كانت لغة مساملة . لم يطمح أهلها إلى سلطان

ديوي ، ولم يعتبرها الإغريق منافسة للغتهم ، فتركوها وشأنها كلغة ثانية لكثير من عامة الناس ، وقنعوا بأن تكون لغتهم الإغريقية لغة العلم والحضارة والثقافة ، واللغة الرسمية لإمبراطوريتهم الإغريقية .

وقبيل ظهور المسيحية كانت فلسطين من حيث الثقافة إغريقية اللغة ، فنصوص الإنجيل التي كتبت أولاً بالأرامية ، لم تثبت أن ترجمت إلى الإغريقية . وليس من الإسراف أن نقرر أن المسيحية نمت وانتشرت تعانيمها في أحضان العقلية الإغريقية . فن الصعب أن نتصور انتشار المسيحية ما لم تكن تعانيمها قد تأثرت بالثقافة الإغريقية والعقلية الإغريقية . ولم يكن من السهل على الرومان قبول المسيحية ، إلا لأنها جاءتهم متأثرة بثقافة أساتذتهم الإغريق ، والفضل في هذا للقديس بطرس ، ومدرسة الإسكندرية ، واللغة « الكوبينية » العالمية المشتركة . أى أن الرومان قبلوا المسيحية لأنها جاءتهم عن طريق العقل الإغريق . ثم لحقت لعنة بابل اللغة الإغريقية أيضاً فتغلص نفوذها منذ القرن السابع الميلادي ، ولم تختلف لنا سوى الإغريقية الحديثة التي يقتصر أمرها الآن على بلاد اليونان .

٤

اللغة اللاتينية

لم تكدد تظهر المسيحية في الشرق حتى كان قد تأسست دولة عظيمة ذات تقاليد حربية مشهورة في التاريخ القديم ، تلك هي الدولة الرومانية التي اتسعت رقعتها من حول روما شرقاً ، ووضمت إلى سلطانها معظم ممتلكات الإمبراطورية الإغريقية في مصر والشام وبعض مدن آسيا الصغرى . وامتد نفوذها غرباً فشمل ما يعرف الآن بفرنسا وإسبانيا ، بل وإنجلترا . أى أن الدولة الرومانية في العصور المسيحية كانت تسيطر على وسط وجنوب أوروبا كما تسيطر على إنجلترا .

ولغة هذه الدولة العظيمة هي التي تعرف بين الدارسين باللغة اللاتينية . ولم تكن اللاتينية في بلده نشأتها سوى إحدى لهجات إيطاليا ، وقد كتبت لها السيادة على اللهجات الأخرى ، وأصبحت وحدها في العصر المسيحي تسود كل مناطق هذه الدولة الرومانية .

وألا اتسعت رقعة الدولة الرومانية شرقاً وجدت لغتها اللاتينية هناك منافساً قوياً هو اللغة الإغريقية وتلك هي لغة أستاذة الرومان في العلم والفن . فهادنت اللاتينية الإغريقية في الشرق ، لأن حضارة الرومان وثقافتهم قد أُسْتَعْنِتَتْ على حضارة الإغريق وثقافتهم . فقد قلد علماء الرومان وأدباؤهم وفنانوهم وفلاسفتهم الآثار الخالدة التي خلفها الإغريق ، وحنوا حذوهم وسلكوا مسلكهم . ولذا يقال دائماً لمن غزا الرومان الإغريق بالسيف ، لقد غزا الإغريق الرومان في نفس الوقت بالعلم والثقافة والأدب والفن .

ولم يكن لللاتينية في بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط ، ولا في مصر الأثر الكبير الذي كان للإغريقية ، ولذا لم تكن تختلف هناك أثراً لغويّاً ملحوظاً ، على حين أنها في الغرب كان لها آثاراً خالدة ، فقد خلفت هناك أحفاداً هي التي تعرف الآن بالإيطالية والفرنسية والإسبانية وغيرها .

وزرتب على اتساع رقعة الدولة الرومانية شرقاً وغرباً أن انتشرت اللاتينية في الشرق إلى حد ما ، وفي الغرب إلى حد كبير ، وأصبحت لغة دولة عظيمة تضم شعوباً متباينة : فكان من الطبيعي أن تتطور اللاتينية على ألسنة هذه الشعوب ، وفي بيئاتها الجديدة ، فمالت إلى التيسير في أصواتها وصيغها وبعض تراكيبها ، كما افترضت من تلك اللغات المغزوة ألفاظاً كثيرة أحست بال الحاجة إليها ، وأخيراً وليس آخرأً نحت دلالات ألفاظها عن طريق المجاز . فاللاتينية التي كانت لغة قوم من الفلاحين المغاربيين قد عبرت بعض ألفاظ الفلاحة فيها عن كثير من مظاهر الحضارة للدولة الرومانية في أوج عظمتها .

لم تأنف اللاتينية إذن من أن تفترض من الإغريق أحرف الهجاء ، وألفاظهم الخاصة بالصناعات والمهن والفنون والشعر : بل إن كثيراً من كتاب الرومان

وعلمائهم قد رُبوا في أحضان أثينا، وليس من المغالاة أن بعدوا بإغريقةً أكثر منهم رومانيين.

وقد اعتمدت اللاتينية على الإغريقية في نماذج الفن والأدب والفلسفة، وترتب على هذا أن الآثار التي خلفها كتاب الرومان قد جاءت بلغة لاتينية أستقراطية غير مألوفة إلا في الأوساط الثقافية الراقية، وتلك هي اللاتينية الأدبية التي اصطنعها خطباء «الستاتو» من أمثال «شيشرون»، ورجال السياسة والقانون. وكتب بها آثار أدبية في أوائل عهد الدولة الرومانية، وظلت هذه الآثار نماذج تختذل بعد ذلك. ولم تلبث هذه اللغة المزوجة أن انعزلت عن مستوى العامة من الناس. ولا منها بين الشعوب التي سيطر عليها الرومان. فاعتزل المفكرين والملقين من الرومان بهذا المستوى السامي للغة الرومانية أو كما سماها الدارسون اللاتينية الكلاسيكية، قد أدى في نهاية الأمر إلى تحجرها، فأصبحت شبه لغة مصنوعة، لا تصطنع في الخطاب أو التعامل، بل يحتفظ بها الحالات جدية راقية من التفكير، فاقتصرت على الفلسفة والقانون والأداب التي فوق مستوى جهور الناس. أما اللغة التي اخْتَذلت للتّفاهم في المعاملات والتجارة وبين الجنود الغازين الفاسحين. فكانت نوعاً من اللاتينية المبسطة في أصواتها وصيغتها وتراكيبها. وهي التي يمكن أن تسمى باللاتينية العامة. وهكذا قدر اللغة اللاتينية في عهد الدولة الرومانية أن يكون لها مسويان: أحدهما هو المستوى الأصيل الذي يحتفظ بكل أصوات اللاتينية وصيغها الكثيرة المعقدة وتراكيبها الموروثة، والآخر هو المستوى العامي المبسط الذي جرى على كل الألسنة: وفي كل أنحاء الإمبراطورية العظيمة، ومن هذا المستوى العامي انحدرت بعض اللغات الأوروبية الحديثة كالفرنسية والإسبانية، بل والإيطالية.

وقد تميز هذا المستوى العامي باشماليه على كلمات كثيرة افترضت من الشعوب الأخرى، وباتجاهه نحو النظام التحليلي، واستعمال الأدوات والأفعال المساعدة، بدلاً من النظام التركبي للصيغ، والتعقيد في استفهاماتها. فصادف

ذلك هو في نفس جهود الناس الذين نظروا إلى المستوى الآخر على أنه نوع من التغافل والتغاضح .

وقد ساعد على نمو اللاتينية العامة ميل الرومان إلى الامتزاج والاختلاط بالشعوب الأخرى التي كانت تحت سيطرتهم ، وهي الشعوب التي آثرت اللغة البسيطة المبسطة ، وبلغ هذا الامتزاج في أواخر عهد الدولة الرومانية أن يصبح الإمبراطور الروماني من أصل إسباني ، وأن يصبح بعض القواد وأعضاء السénato من غير الرومانين .

لذلك لم تكن اللاتينية الكلاسيكية بين الشعوب التي سيطر عليها الرومان مثل « الكوبينية » أيام الإغريق أو في مستواها . فلم تنتشر هذه اللاتينية عن طريق درamas خالدة تمثل في المدن العظيمة أمام حشود حافلة كما كان شأن أيام الإغريق ، بل حل محل هذه الدرamas استعراضات صامتة لألعاب القوى والرياضة البدنية . ولم تنتشر هذه اللاتينية عن طريق محاضرات ومناقشات فلسفية كذلك التي كانت في عهد الإغريق . فاقتصر الأدب اللاتيني الكلاسيكي على الأغنياء الأرستقراطيين .

وزادت الفجوة بين اللاتينية الكلاسيكية واللاتينية العامة منذ القرن الثاني الميلادي ، فأدى هذا فيما بعد إلى فقدان الوحدة اللغوية التي تربط بين شعوب هذه الإمبراطورية العظيمة ، مما كان من أقوى الأسباب لاضمحلالها تدريجياً .

ثم كانت القرن الوسطى التي شهدت الفُرقة السياسية بين شعوب أوروبا ، ولكنها شهدت أيضاً ما يشبه الوحدة الدينية حين انتظمت المسيحية معظم أخايتها . وهنا أخذت القيادة الدينية في روما الزمام ، وحاولت جمع شتات هذه الشعوب الأوروبية تحت رايها . ولم تكن تفتقد سوى قيادة دينية تتمثل في قائد عظيم يُؤسس دولة أوروبية عظيمة تضم هذه الشعوب المتفرقة ، وتترشد بهدى تعاليم المسيحية ، فكانت دولة « شارلمان » في القرن الثامن الميلادي .

وقد رأى « شارلمان » أن خير رباط يمكن أن يوجد بين الشعوب التي خضعت

له هو اللغة ، فعمل جاهداً على نشر اللغة اللاتينية وجعلها لغة الكنيسة ، برغم أنه هو نفسه لم يكن يحسن الكلام بها . فسادت الروح الرومانية والطابع الروماني القديم بين شعوب أوروبا مرة ثانية . ولكن السلطان الإقطاعي كان أقوى من سلطان روما الديني ، فلم يكدر ينفعى عدد من السنين بعد « شارلمازن » حتى عادت شعوب أوروبا إلى الفرقة . وكان من أقوى العوامل التي ساعدت على هذا فقدان الوحدة اللغوية بينها ، إذ عجزت اللاتينية الكلاسيكية عن توحيد هذه الشعوب بجهل معظم الناس بها ، ونظرهم إليها على أنها فوق مستواهم ، وغربيّة عليهم . ذلك لأن اللاتينية العامية كانت قد تحملت من التسخيم ، وأخذت صوراً محلية في بيئات أوروبا المختلفة . فقد بدأت تنشأ في إيطاليا لغة محلية متطورة عن تلك اللاتينية العامية ، كما نشأت في فرنسا لغة أخرى محلية متطورة أيضاً عن تلك اللاتينية ، وكذلك كان الشأن في إسبانيا . أي أن اللغات المحلية في أوروبا كانت قد بدأت في الظهور ، وبذا الخلاف بينها وأصواتها ، مما كان له الأثر الكبير فيما بعد حين شعرت هذه الشعوب بكينها وذاتها ، وبدأت تستقل بعضها عن بعض .

وعن هنا ظلت لاتينية الكنيسة يصطدّعها طائفة من المفكرين في كتاباتهم الأدبية والفلسفية والدينية حتى القرن السادس عشر الميلادي . يتضح هذا من المكتبات الدينية والدبلوماسية والقانونية . بل والتجارية التي رويناها عن ذلك العهد . ومنذ ذلك القرن أصبح للمفكرين والكتاب لغتان إحداهما محلية والأخرى هي لاتينية الكنيسة . وقد اصطدّع كثير من هؤلاء كلّها اللغتين في كتاباتهم . غير أنهم في القرن السابع عشر وما بعده قد انصرفوا عن الكتابة باللاتينية . وتعد معااهدة « راستات »^(١) ١٧١٤ م أولى المعاهدات الأوروبية التي لم تكتب باللاتينية .

(١) معااهدة راستات Rastatt هي التي انتهت بها حروب النورانة الإسبانية ، بين فرنسا وإسبانيا من جهة وإنكلترا وإنجلترا وبرولندا من جهة أخرى . وتعد هذه المعااهدة تكملة لمعاهدة أوترخت Utrecht المشهورة سنة ١٧١٣ م .

وهكذا كانت نهاية اللغة اللاتينية التي خلفت أحفاداً تعرف بينما الآن بالفرنسية والإسبانية والإيطالية، غير أن هذه الأحفاد من اللغات لم تأخذ صورتها المحلية المسفلة إلا بعد أن أصحاب أوربا من جرائها ويلات وما مارس ، في شكل حروب دينية ، هي في الحقيقة حروب لغوية ، أشعلاها التغرة اللغوية بين أصحاب هذه اللغات ، أو كما يعبر أحد المعاصرين من الكتاب بقوله: (ولما بزغت اللغات الجديدة من بعض المدن الرئيسية اتخذها الناس في كل بيته محلية أداة التعبير عن آدابهم ، ف تكونت القوميات المحلية التي تبانت في تفكيرها ووجهة نظرها . وهكذا كانت الحروب الدينية في حقيقة أمرها حروباً لغوية ، لأنها أثيرة لتحقيق ما لكل بيته من حق في التعبير عن أفكار أهلها وطائفتهم بين تلك الطبقات المفكرة التي ولدت حدتها . فقد عبرت تلك اللغات المحلية عن الفروق التي كانت بين هذه الشعوب . وإنه من أقسى مأسى التاريخ أن تلك الفروق اللغوية قد أيقظت العصبيات الجنسية ، وانحدرت من التبادل الفكري في نفسية أبناء هذه الشعوب أساساً للمعارك الدامية التي انتهت بالقضاء على الوحدة الروحية في أوربا)^(١) .

لاتينية الكنيسة هي اللغة العالمية التي عاصرت لغة عالمية أخرى نهضت وزادت شرق البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا ، وتلك هي لغتنا العربية . ومع أن عهد اللاتينية قد انقضى ، لا يزال بعض رجال الدين في القاتيكان يحاولون بعثها من جديد ولكن هيبات . ومن أطرف ما نشر في الصحف منذ ستين ذلك القرار الذي اتخذه المجلس البابوى يجعل اللغة اللاتينية لغة التخاطب الرسمية خلال اجتماعاته . وقد علقت الصحيفة على هذا القرار بأن قالت إن الصعوبة الحقيقة التي ستواجه الاجتماع هو إيجاد مصيطة لتسجيل كل كلمة من كلمات المتحدثين الذين يستمرون إلى بلاد مختلفة ، ومن ثم تتفاوت طريقة نطقهم للغة اللاتينية تفاوتاً كبيراً . فالألماني سينطق الكلمات اللاتينية بلكتة ألمانية ، وكذلك الإسباني والفرنسي والإنجليزي : وغيرهم من أعضاء

(١)

الجلس . وسيتعذر على كاتب الاختزال مهما كانت إجادته للغة اللاتينية فهم كلام كل متحدث ما لم يكن على دراية تامة بلغته الأصلية .

يضاف إلى ذلك أن هناك كلمات لاتينية كثيرة إذا حرفت أقل تحريف أصبحت كلمات أخرى تعني أشياء مختلفة تماماً . فثلا الكلمة اللاتينية التي تعني « صادق » أو « أمين » إذا نطقت بلسان المانية تحولت إلى كلمة أخرى معناها « مفترس » أو « متواش » ، وكذلك فإن الإسبان ينطقون الكلمة اللاتينية التي تعني « يعيش » نطقاً يحرفها إلى كلمة أخرى معناها « يسكر » أو « يشرب الخمر » . ويقول الأب « ليون ديرون » وهو فرنسي : إن الإنجليز ينطقون اللغة اللاتينية بطريقة غير معقولة ، وإن الألمان ينطقونها بعنف غريب ويفشلون في نطق الجيم المعطشة ، ومن ثم يحار الإنسان عند سماع كل كلمة منهم في الاستدلال إلى الكلمة الحقيقة التي يعنيها . أما أهالي « المجر » فإن الواحد منهم يبدو حين يتكلم اللاتينية وكأنه « يتغرغر »^(١) .

٥

اللغة العربية

لما جاء الإسلام كانت اللغة العربية مزدهرة مكتملة النمو تتضم كل أبناء شبه الجزيرة العربية ، وتصطنع في آداب يعتز بها أهلها ، ويتنافسون في إتقانها وإجادتها . وكان المركز الاجتماعي في هذه البيئة العربية يقاس بقدرة المرأة على حسن البيان ، سواء كان شاعراً أو خطيباً أو كاتباً . وكان للعرب قبل الإسلام أسواق مشهورة تقام في أشهر مختلفة من العام : لا للبيع والشراء فحسب ، بل أيضاً لعقد المساجلات والمناظرات بين كبار الشعراء ، وقصصاء الخطباء ، أولئك الذين كرسوا حياتهم للهوى بهذه اللغة والسمو بآدابها . وهؤلاء هم الذين تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بسورة من مثله . أى أن تلك الأسواق

(١) صحيفة الأهرام في خريف سنة ١٩٦٣ .

كانت بثابة مؤتمرات ثقافية ، فيها ينشد الشعراء ما تجود به فرائضهم ، وفيها يبرز الخطباء داعين إلى مذهب سياسي أو ديني بين القبائل المختلفة .

وكانت هذه اللغة الأدبية بثابة لغة مشتركة بين العرب جميعاً ، يتحذّل عنها أداة التعبير عن آدابهم ، ويعتزون بها كل الاعتزاز . ولذا نزل القرآن الكريم بها ؛ فلم تكن لغة قريش وحدها أو لغة مكة وحدها ، بل كانت اللغة المشتركة للعرب جميعاً . غير أن نزول القرآن بها قد زادها ازدهاراً فوق ازدهار ، وثبتت أركانها ودعائمها .

ثم كانت الفتوح الإسلامية في الأمسكار وما وراء الأمسكار ، فلم يكدر ينفسي على ظهور الإسلام قرن ونصف من الزمان ، حتى كانت الدولة الإسلامية تضم العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا ، أو كما يعبر أحياناً ، شملت مناطق شاسعة من المحيط إلى خليج العرب . وأقبل الناس في كل هذه المناطق على الدين الحنيف ودخلوا فيه أفواجاً ، عن طواعية لا عن كره . ونظروا فإذا اللغة العربية ترتبط بهذا الدين الحنيف ارتباطاً وثيقاً ، فقد جاءت بها المعجزة الكبرى للإسلام وهو القرآن الكريم . فأقبل الناس في الأمسكار على اللغة العربية أيضاً . بل لأنغالي حين تقرر أن إقبالهم على اللغة في بعض هذه المناطق كان أسرع من إقبالهم على الدين . وبحكمها أصبحت اللغة العربية خلال قرنين من الزمان لغة عالمية ، تنتظم جهات من بلاد فارس ، وكل العراق ، ومعظم مدن آسيا الصغرى ، كما تنتظم مصر وشمال أفريقيا ، كما سادت في بلاد الأندلس عدة قرون . وحرص العلماء والدارسون منذ القرن الثاني المجري على تعزيز قواعدها وثبتت دعائمها في الأمسكار ، فلم يكدر يشهي هذا القرن حتى كان لها آثار جليلة في شئ الدراسات الدينية واللغوية .

وأصطبّدت اللغة العربية بعد الفتح باللغات التي كانت سائدة في البلاد المحتوحة ، فقضت بعد صراع طويلاً على الإغريقية العالمية في كل بلاد الشام والعراق ، وخرجت من هذا الصراع سالمة لم تكدر تتأثر بشيء من خصائص هذه اللغة الإغريقية : اللهم إلا عدداً محدوداً من الكلمات الإغريقية التي

اقترضها لغتنا للتعبير عما لم يكن في بيتهم العربية ، ولا سيما حين زاد الاهتمام بالترجمة عن الإغريقية في القرنين الثالث والرابع من المجرة ، فاستمدت العربية بعض المصطلحات العلمية في الفلسفة والطب ، وغيرهما من مجالات العلم الإغريقي .

تفهفت إذن الإغريقية أمام العربية دون أن تخلف أثراً صوتيّاً في نطق الناس ، ودون أن ترك شوائب في صيغ العربية أو تراكيبيها على ألسنة المتكلمين . ولا غرو فالإغريقية تتبع إلى فصيلة أخرى : ولا تكاد تشرك مع العربية في ظواهر لغوية واضحة .

اصطدمت العربية أيضاً بلغة عالمية أخرى كانت على ألسنة الناس في العراق والشام ، بل وفي بعض جهات مصر أيضاً : وهي اللغة الآرامية ، تلك اللغة التي تحكمت من ألسنة الكثيرين في هذه المناطق ، وعاشت مع الإغريقية قروناً في تعايش سلمي . غير أن الآرامية كانت من اللغات السامية شقيقات اللغة العربية : وكانت من أجل هذا تشرك مع العربية في ظواهر لغوية كثيرة . ولا تشک لحظة في أن الآرامية حين خلت مكانها للعربية قد تركت في لهجات الخطاب وعلى ألسنة الناس في هذه المناطق آثاراً بعضها يتصل بالنطق وأصوات اللغة ، وبعضها يتصل بالصيغ والتراكيب ، وواجب الباحثين والمدارسين توسيع هذه الآثار ، وتفصيل معالمها في بحوث المستقبل .

ذلك لأن الصراع اللغوي حين ينتهي بتنغلب لغة على أخرى تختلف نتائجه حين تكون اللantan من فصيلة واحدة عن نتائجه حين تكونان من فصيلتين مختلفتين .

أما اللغة الرومانية أو اللاتينية فلم يكن لها وقت اتساع الفتوح الإسلامية قدم ثابتة في الشام أو مصر ، بل كانت لغة الحاكم الروماني ومن حوله ، وسرعان ما تفهمت أمام العربية دون صراع لغوی أو شبه صراع .

ولما دخلت العربية مصر وبدأت تنشر في ربوعها كان معظم المصريين

يتكلمون القبطية التي هي من فصيلة أخرى غير فصيلة العربية . ولذلك يفتقد الدارسون تلك الآثار اللغوية التي يمكن أن تكون قد خلقتها القبطية في ألسنة المصريين . ويبدو أن انتشار العربية بين المصريين كان أسرع من انتشار الإسلام بينهم : فلم يكُن يتفضى عدة قرون على حكم العرب لمصر حتى اندثرت القبطية أو انعزلت في الأديرة والكنائس وبين رجال الدين كلغة ثانية لهم مع العربية ، على حين أن كثيرين من المصريين قد ظلوا يدينون بال المسيحية حتى الآن .

وكذلك الشأن حين اصطدمت العربية بالبربرية في شمال أفريقيا ، تقهقرت البربرية أمام العربية ، وانعزلت في بعض مناطق الصحراء ، ولم تكُن تترك البربرية في ألسنة المتكلمين بالعربية في هذه المناطق إلا آثاراً ضئيلة يدركها الدارسون للغتين . أما موقف الفارسية من العربية في بلاد فارس فكان عكس ذلك ، إذ أقبل الفرس على الإسلام أكثر وأسرع مما أقبلوا على العربية ، ولذلك ظلت الفارسية سائدة في الجهات الثانية من بلاد الفرس ، بل كانت سائدة أيضاً في بعض مناطق الدولة العربية كلغة ثانية للعلم والحضارة ، مما ساعد على نشأة الشعوبية فيها بعد (١) .

وبرغم أن اللغة الأدبية المشتركة في شبه الجزيرة قبل الإسلام قد عاشت معها جنباً إلى جنب بعض اللهجات المحلية للقبائل المختلفة ، فإن اتساع رقعة الدولة العربية في الأمصار وحرص العلماء في العصر الإسلامي على تنقية ظواهر اللغة قد حمل رواة اللغة في أول الأمر على تحاشي ما يتصل بهجات القبائل والاقتصار في تعبيدهم للقواعد على الصحيح المروي من نصوص اللغة الأدبية . ولكنهم فيما بعد ولهن الحظ قد خلطوا ظواهر اللهجات بظواهر اللغة الأدبية ، مما أدى إلى بلبلة بعض القواعد واضطراها في آثار المتأخرین من العلماء .

ولما استقر أمر الدولة العربية في عهد بنى أمية ، وفي قرن ونصف من حكم الدولة العباسية ، شهدنا للغة العربية آداباً راقية سامية تمثلت فيها بروز عن

(١) اذظر صفحة ١٨٤ .

فحول الشعراء والخطباء والكتاب ، وكان يحافب هذه الآداب آثار علمية جليلة في التفسير وأخريات والفقه واللغة والتاريخ وغيرها ..

ثم بدأت الدولة العربية تتشعب إلى دولات استقل بعضها عن بعض : منها ما كان في فرس .. ومنها ما كان بالشام ، ومنها ما كان بعصر ، ولكنها جميعاً كانت تدين بالولاء ل الخليفة العباسي في بغداد ، أى أن العصبة الروحية ظلت تربط بين هذه الدولات الإسلامية .

وهنا نتساءل هل كان الإسلام وحده سبباً في الربط بين هذه الدولات ؟ يبدو لي أن ارتباط الإسلام باللغة العربية ذلك الارتباط الوثيق الذي يتمثل في القرآن الكريم وأحاديث النبوة قد جعل اللغة العربية مكانة تسمو على غيرها من اللغات حتى عرفها التاريخ . ذلك لأن من تحمس بالدين الحنيف تحمس أيضاً بلغته . يصطنعها في العبادة كما يصطنعها في المعاملات ، فأبقيت هذه الدولات على اللغة العربية واعتزت بها . بل وتنافس ولاتها في العمل على ترقية أدابها وآدابها . فوحدة اللغة بين هذه الدولات تعدّ عاملأً قوياً في الربط بينها لا ينكر عن الوحدة الدينية . فقد حدثنا التاريخ القديم والحديث عن دول تحملت دين وتحفظت لغة . وعما كان بينها من تزاع وتنافر وانعزال بسبب الاختلاف في لغة .

ظلت إذن اللغة العربية في هضبها الأدبية حتى بعد انتقال تلك الدولات الإسلامية . فلما كان القرن الرابع الهجري شهدنا شعراء وكتاباً للآداب العربية لا يقلون قدرأً عن كانوا في القرن الأول أو الثاني من المиграة ، إن لم يتتفوقوا عليهم .

وانتسمت العربية منذ تلك النهاية الأدبية بسبات اللغة العالمية ، فهي لغة ديمقراطية لا تحظى بكثير خطاب والصغر يخطاب آخر ، ولا تخلط بين ضمير المفرد وضمير الجمع . فيقول سبحانه وتعالى : «أنا ربكم الأعلى» ويقول الرسول : «إنما أنت بشر مشكم» ويقول له الناس «ما أنت إلا بشر مثلنا» ،

إلى غير ذلك، فمن أساليب أصلية في العربية سوت بين الناس في الخطاب والغيبة والتكلم.

ومن سمات العالمية فيها كذلك سعة انتشارها واصطدامها بشعوب متعددة لها ، منذ أن استقرت الدولة العربية في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث من الهجرة . فقد مر حينئذ على انتشار العربية في أقطار عدّة وشعوب مختلفة زمن كاف لاصبح تلك الشعوب بالاصبعية العربية ، فأخذت بالطابع العربي ديناً ولغة وثقافة وحضارة . وقد صهرت كل تلك الشعوب التي كانت في آسيا الصغرى ومصر وشمال أفريقيا في البوتفقة العربية ، وتألف منها في نهاية الأمر شعب عربي واحد ، يدين بدين واحد ، ويصطمع لغة واحدة . هذا إلى أن العربية دخلت أيضاً مناطق نائية مع الدين الإسلامي ، وأصبحت هناك لغة الثقافة الدينية ، كما هو شأن في بعض جهات الهند ، وفي باكستان وأفغانستان والملايو وأندونيسيا ، وغيرها من دول الشرق التي انتشر فيها الإسلام وانتشرت بانتشاره اللغة العربية . ودخلت العربية كذلك جهات من أفريقيا اعتنقت الإسلام وأصبحت الآن تعرف بالدول الإسلامية صوب العربية تستمد منها الثقافة الدينية والحضارة العربية ، مثل موريتانيا ونيجيريا والصومال . وهكذا نرى أن العربية قد ذاعت في مناطق متعددة الأطراف ، وأصبحت بين أوضح اللغات انتشاراً في العالم . ويعدها المحدثون من اللغويين ثلاثة لغات العالم الحديث من حيث انتشارها وسعة مناطقها .

أما السمة الثالثة لعالمية العربية فهي أنها وهي في أوج نهضتها قد راحت بكثير من الألفاظ التي افترضتها من اللغات الأخرى ، واستعملتها في المصطلحات العلمية ولغة الكلام ، ولكنها لم تسمح لها إلا في النادر باقتحام حصنون الأدب العربي .

وصعدت العربية في كل تاريخها فلم يصيروا ما أصاب اللاتينية من تفتت إلى لغات متعددة ، غير أن بعض المشائخ من الدارسين يحاولون عقد المقارنة

بين ما أصحاب اللاتينية على مر الأجيال من تشتتها إلى عدة لغات استقل بعضها عن بعض ، وبين ما يمكن أن يصيب العربية من استقلال لهجات الكلام في البيئات العربية وأحوال تطورها إلى لغات مستقلة أيضاً . وقد فزع كثير منهم مثل هذا الخاطر فرعاً شديداً ، وحق لهم أن يفزعوا ، ولكنهم نسوا أن ظروف اللاتينية مختلف عن ظروف العربية ، فليست اللاتينية باللغة الأصلية لل المسيحية ، ولا ترتبط بها ذلك الرباط المقدس الذي نلحظه بين الإسلام والعربية . فلن تتتطور لهجات الكلام في البلاد العربية إلى أسوأ مما وصلت إليه في القرن التاسع عشر وما قبله . فقد كانت لهجات الكلام خلال عدة قرون في شبه عزلة بعضها عن بعض ، تباين في نطق عدد من أصوات اللغة ، وتباين في بعض صيغ اللغة وأبياتها ، كما تباين في مجموعة كبيرة من الألفاظ والأساليب ، مما جعل التفاهم بين أهل هذه اللهجات عسيراً ، إلا حين يلتجأون إلى العربية الكلاسيكية التي أحسن تعلمها طوائف من المثقفين في كل العصور . وبعزى الفضل في هذا إلى ارتباط هذه اللغة الكلاسيكية بالدين الإسلامي ذلك الارتباط الوثيق .

فالمقارنة المتصفة بين تاريخ اللغة العربية واللغة اللاتينية ترينا بوضوح أن القرن الثامن الميلادي قد شهد لغتين عالميتين متعارضتين هما : العربية في الشرق أيام الرشيد والمأمون ، ولاتينية الكنيسة في الغرب أيام شارلمان . وترى هنا كذلك أن العربية كانت حبيبة في ذرورة مجدها تصطبغ في إنتاج الآداب الحالية وتحذ أداة التعبير في المجالات الدينية والعلمية ، ويقبل على تعلمها وإتقانها أبناء الدولة العربية العظيمة في جميع مناطقها . وكذلك كان الشأن في الغرب بالنسبة لللاتينية الكنيسة التي حاول شارلمان أن يجعل منها رباطاً وثيقاً لكل شعوب أوروبا التي خضعت لسلطانه في الوسط والجنوب والغرب : بل وفي بريطانيا . وساعدته على هذا البابا في روما وقساوسته الذين كان يعينهم في مثل هذه المناطق المترامية الأطراف .

وبرغم هذا لم يكدر ينقضى عدة قرون ، أو لم يكدر يجيء القرن السادس عشر

الميلادي حتى شهدنا في أوروبا لغات محلية مستقلة منها الإيطالية والفرنسية والإسبانية وغيرها . وظهر لهذه اللغات رواد من الأدباء الكبار الذين عملوا جاهدين على تثبيت دعائم هذه اللغات المحلية ، ولم يشفع سلطان الكتبسة المسيحية في الحدّ من تلك الفرق الملغوية .

أما في الشرق فعما أصاب الدولة العربية من مآسٍ واضمحلال مماثل خلال هذه القرون ظلت اللغة العربية صامدة تقويها الروح الإسلامية وتشد أزرها . غير أن لهجات الكلام في المناطق العربية قد أخذت أشكالاً محلية ، وانختلفت في نطق بعض أصوات اللغة وتشكيل صيغها وأساليبها ودلالات كبير من الألفاظ ، ولكنها لم تصل أبداً إلى ما يشبه اللغات المستقلة ، وإن كان الalon بين لغة الكتابة ولغة الخطاب في هذه المناطق المحلية قد زاد واتسع بسبب الجهل الذي خيم على الناس في معظم الأ أنحاء .

وظلت الحال هكذا حتى كان القرن العشرين ، وقوى الشعور بالقومية العربية ، وكانت البقعة العربية التي اتجهت نحو تدعيم القومية العربية ، ووُجدت أن أقوى رباط يتوثق بين العرب ويجمع شتاهم هو اللغة أو الوحدة الملغوية .

الفصل التاسع

لغات عالمية في العصر الحديث

١

اللغة الفرنسية

جاءت الهبة الأوروبية فنبهت الأذهان وأيقظت العقول من سباتها الطويل خلال القرون الوسطى . وفُيّض للعالم الأوروبي طائفة من المفكرين والمصلحين الذين حلوا لواء هذه الهبة ، منهم الفلاسفة أصحاب النظريات الفلسفية الحديثة التي لم تكن تخطر للعقل الإنساني من قبل ، ومنهم الأدباء الذين أتّجروا آداباً سامية خالدة في صورة مقطوعات شعرية ; وقصص ومسرحيات ، ونهم الفنانون الذين أبدعوا في تصوير الطبيعة ; وخلعوا للناس رسومات ونماذيل تعدّ من أروع ما في التراث الإنساني . ومنهم العلماء في الفلك والطبيعة والجغرافيا ، ومنهم المستكشفون الذين جابوا البحار والمحيطات وفتحوا عيون الناس على عوالم جديدة كانت مجهولة .

وبدأت آثار هؤلاء المفكرين والمصلحين تلتصق طريقها وتأيداً بين جمورو الناس ، منهم من ينكرها أشد الإنكار . ومنهم من يأنس لها ويطهّئ إليها . ولم يكدر ينقضى قرن أو قرنان من الزمان على مولد تلك الهبة الأوروبية حتى شهدنا نتائجها في كل أنحاء أوروبا : نور بعد ظلام . وينتهي بعده سبات ، وعقل يتفتح ، وتقبل على تلك الحياة الجديدة في نعم .

ونظر الناس في كل بيت من بيوت أوروبا فإذا لكل بيت كيان مستقل ، وإذا الوحدة الأوروبية التي سعي لها «شارلزان» من قبل قد تبدلت ، وتكون على انقسامها دوليات بعضها في نطاق كبير . وأخرى في نطاق صغير . وأقبل أهل كل دولة بعضهم على بعض عاملين معاً على تأمين حدود هذه الدولة ،

وعلى استقرار الحياة فيها وازدهارها ورواج أسواقها.

تم كل هذا في القرن السادس عشر الميلادي برغم ما كان بين أهل أوروبا من وحدة في الدين المسيحي؛ وبرغم ما كان بينهم من تشابه في ألوان الوجوه والعيون والشعر والملامع. لم يشفع كل هذا في الإبقاء على تلك الوحدة الأوروبية، لأن عامل جديداً ذا سلطان قوى قد ولد مع مولد النهضة؛ هو اللغات المحلية.

أحسّ جمهور الناس خلال القرن السادس عشر الميلادي وفي كل بيته من بيوت أوروبا أن لهم لساناً متميزاً، وأنهم يتفاهمون فيما بينهم بأصوات مختلف احتمالاً بينما عن تلك التي في البيوت الأخرى، وأن المرأة في بيته من تلك البيوت حين يصادف آخر من بيته أخرى لا يستطيع التفاهم معه؛ ولا يرى في أصوات أخيه الإنسان إلا نوعاً من الرطانة والعجمة التي تأباهما أذنه وينفر منها ذوقه، فكان التباعد والفرق بين أهل هذه الدولات الناشئة.

وهذا ولدت القومية في أوروبا، حين أحسّ أهل كل بيته بكيان مستقل متميز، وكان مولد القومية مرهوناً بتحول اللغات المحلية. فالسر الحقيقي في نشأة القوميات في أوروبا هو نشأة تلك اللغات الأوروبية الجديدة في مناطقها المختلفة.

ولذا قصرنا النظر على اللغات الجديدة في جنوب أوروبا رأينا أن أشهرها هي الإيطالية والفرنسية والإسبانية؛ وكلها مما انحدر عن لاتينية الكنيسة التي سادت في القرون الوسطى. أى أن هذه اللاتينية قد تطورت على ألسنة الناس خلال عدة قرون. دون شعور منهم بهذا التطور حتى انتهت في آخر الأمر إلى تلك الصور المتباينة التي تألفها الآن وندعوها باللغات الإيطالية والفرنسية والإسبانية.

وتطور اللغة في بيته الأصلية، حتى وإن لم تتدخل عوامل خارجية، أمر مسلم به بين علماء اللغات. ذلك لأن عملية الكلام ككل عملية عضوية لا يمكن أن تؤدي في كل مرة بصورة واحدة، فلا يستطيع المرء بكلامه في الظروف المختلفة بنفس الصورة، ولا ينطق الناس بكلامهم في التخاطب والتذاهم بعضهم

مع بعض بنفس الصورة ، بل تلحظ الأذن المدرية ، وتسجل آلات التسجيل فرقاً صوتية لا يكاد يدركها إلا المخبير المتخصص ؛ وينجاهل الناس في خطابهم العام مثل هذه الفروق لضمالها أو تفاهتها . فإذا انتقلت اللغة إلى الجيل الناشئ وقدرها أبناءه زادت تلك الفروق ، حتى إذا مرت عدة أجيال تبلورت وأخذت تتميز بصفات لم تكن في لغة الأجداد . وتبداً تلك الانحرافات في أصوات اللغة ، ثم في دلالات ألفاظها وبنية كلماتها ، وأخيراً قد تطراً على تراكيب جملها ونظام أساليبها .

وحيطى من مثل هذا التطور التدريجي أو يحول دونه ، أن يسود أهل اللغة نوع من التعصب للغتهم أو التعلق بتراث قديم لهم يعتزون به كل الاعتزاز ويحملون فيه المثل الأعلى والقلدة الحسنة . كذلك مما يحظى من هذا التطور أو يحول دونه ، أن ترتبط اللغة بدين أو عقيدة ارتباطاً وثيقاً يشعر المرء معه أن أي تغيير في اللغة سيؤدي سهاماً إلى تغيير وإنحراف في تلك العقيدة .

وأخيراً وليس آخرآ مما يحظى من هذا التطور أو يحول دونه ، أن تسود الكتابة بين أهل هذه اللغة ، وأن يصبح للكلمة صورتان إحداهما منطقية والأخرى مكتوبة . فتحذر الصورة المكتوبة من تطور الكلمة أو تغيرها على مر الأجيال . لأن الكتابة بعثابة سلاسل تقييد ظواهر اللغة وتعمل على استقرارها . فالكتابة عملية بطيئة التطور أو التغير ، وقد تمر قرون وقرون وهي على حالها كما سجلها أسلافنا القدماء .

ولم يتوفّر لللاتينية الكنيسة التي سادت في القرون الوسطى إلا قدر ضئيل من تلك العوامل التي تبطئ من التطور اللغوي أو تحول دونه . فبرغم الوحيدة الدينية لم تربط المسيحية باللاتينية ارتباطاً وثيقاً ، لأن اللغة الأصلية للمسيحية هي الآرامية أو الإغريقية . أما التراث القديم الذي تطلع إليه أهل أوروبا ووجدوا فيه مثلهم العليا فلم يكن باللاتينية ، وإنما كان بالإغريقية . ثم بعد هذا وفوق هذا ، لم تكن الكتابة من الشروع بين الناس بحيث تحدّ من التطور اللغوي أو تحول دونه .

لهذا كله تطورت اللاتينية في بيئتها الأصلية «روما» وما حوطها ، ونشأ عن هذا التطور ما يسمى الآن باللغة الإيطالية الحديثة التي تعدّ الورثة الشرعى للغة اللاتينية القديمة .

وحين نتساءل لماذا اتّخذ تطور اللاتينية صوراً مختلفة في المناطق الأخرى ، لأنّكاد نجد تفسيراً لهذا إلا حين نأخذ في الاعتبار الصراع اللغوى الذى كان بين اللاتينية واللغات التى مادت في تلك المناطق قبل دخول اللاتينية .

دخلت اللاتينية بلاد «الغال» أو ما يسمى بفرنسا الحديثة فوجدت أهلها يتكلّمون باللغة «الكلتية» ودخلت في إسبانيا فوجدت أهلها يتكلّمون «بالقوطية» و«الكلتية» أيضاً مع لغات أخرى . فكان الصراع اللغوي الذى انتهى بتنغلب اللاتينية ، وحلّوها محل هذه اللغات في البيئات الجديدة . غير أن اللاتينية قد خرّجت من هذا الصراع مشحونة بالجراح ، أي متأثرة ببعض خصائص هذه اللغات المهزومة من حيث الأصوات والصيغ والتركيب ودلّالات الألفاظ .

ويقول المؤرخون من اللغويين إن اللاتينية قد دخلت إسبانيا بعد هزيمة قرطاجنة ، وقبل أن يصبح هذه اللاتينية أي تطور في بيئتها الأصلية . ويعطّلون بهذا قرب الكثير من صيغ الإسبانية إلى اللاتينية الكلاسيكية . الأمر الذي نتفقده في الفرنسية الحديثة . وسواء كان هذا هو السر الحقيقى ، أم أن الصراع اللغوي بين اللاتينية واللغات التى كانت سائدة في إسبانيا لم يكن من القوة بحيث يترك آثاراً كبيرة في اللغة الغازية ، سواء كان هذا أو ذاك فالذى يجمع عليه علماء المقارنات اللغوية أن لغة إسبانيا الحديثة أقرب إلى اللاتينية من اللغة الفرنسية .

هذا لا يدهش اللغويون حين يرون الآن صوراً مختلفة لللاتينية القديمة في البلاد المعروفة ببلاد إيطاليا وفرنسا وإسبانيا .

اجتمعت إذن عوامل التطور والتغيير على لغات جنوب أوروبا في القرون التي سبقت عصر الهمزة الأوربية ، وعملت على تغييرها تغييرًا بطريقها تدريجيًا . فلما كان القرن السادس عشر الميلادى ، كان قد اكتمل الكيان الخاص

لكل لغة من هذه اللغات الجديدة ، وشعر الناس باستقلال لغاتهم دون أن يفطنوا إلى الصلة التي كانت بين هذه اللغات ، وإلى أنها تنحدر من أصل واحد ، بل لم يكدر يفطن اللغويون إلى مثل هذه الصلة إلا فيما بعد .

فلما كان القرن السابع عشر الميلادي بلغت اللغة الفرنسية الحديثة ذروة مجدها . وتعدّ الفترة التي بدأت بحكم لويس الرابع عشر وخلفائه الفترة الرئيسية لسلطان فرنسا في أوروبا . فقد فشلت إيطاليا حينئذ في تأسيس وحدة إيطالية ، بل فشلت حتى في الاحتفاظ باستقلالها السياسي ، واضمحلت إسبانيا بسبب الفساد في نظام الحكم ، وهزمت ألمانيا في حرب الثلاثين عاماً ، وانصرفت إنجلترا إلى الخلافات الاجتماعية والمدنية أيام حكم أميرة إستيورث . ترك كل هذا ميدان الحياة ممهداً معييناً لسيطرة فرنسا ، لا في النواحي السياسية فحسب بل في النواحي الاجتماعية واللغوية أيضاً . وهكذا قدر للغة الفرنسية أن تصبح اللغة العالمية الأولى في ذلك الحين . وقد أعمدلت اللغة الفرنسية حينئذ لتكون أداة التعبير إعداداً يتسم بحسن التدبير والتفكير ، فساعد هذا على قبولها في أنحاء متفرقة من العالم الأوروبي . وكان لجهود عظماء المثقفين والكتاب من الفرنسيين أثر كبير في هذا الشروع . بل ومعهم جهود كبيرة من مجتمع مثقف تحمس للغة وتعاون على التهوض بها .

ولم يكدر يستحق القرن السابع عشر الميلادي حتى شهدنا طائفة من عباقرة الأدباء أمثال « كورن » : « دراسين » : « موليلر » : « لاوفونين » : « ويسكار » وغيرهم وغيرهم .

وقد سيطرت لغة الفكر أيام لويس العظيم ، على مجالات الفكر والمثقفين في كل أوروبا . وصارت اللغة الفرنسية بين أهل الفكر والعلم في أوروبا أداة للتعبير الواضح المنطقي ، فقد سعى هؤلاء الكتاب الفرنسيون جاهدين لجعل اللغة الفرنسية نقية مبسطة منطقية كي تصبح بين اللغات ، اللغة الفوذجية التي تصلح وسيلة لنقل الفكر الحديث .

ولقد أطلت الثقافة الفرنسية خلال القرن الثامن عشر كلها بلاط الحكم وصوتات الأمراء في العالم المتقدم . ونُظر إلى اللغة الفرنسية على أنها اللغة

الأول للثقافة والفكر ، في روسيا ، وبولندا ، وبروسيا ، كانت هذه اللغة بمثابة نور بدد الظلمة والجهل والطغيان الذي كان سائداً هناك . كانت هذه اللغة تسمع في مسارح أوروبا أكثر مما كانت تسمع اللغات المحلية ، وكانت الأستراتيجية الروسية تصطنعها لغة للحديث والخطاب بين أبنائهم .

ولما كان القرن التاسع عشر كانت معظم دول أوروبا تدين للغة الفرنسية والفكر الفرنسي بالولاء ، وتعدّ الفرنسيين أساتذتهم في كل المجالات الثقافية . فاتخذت اللغة الفرنسية أداة التعبير في المكابيات الدبلوماسية ، وسجلت بها المعاهدات الدولية ، وتعدّ « معاهدة راستات » ١٧١٤ م أول معاهدة أوروبية تكتب باللغة الفرنسية بدلاً من اللاتينية التي كانت تصطنع في كل المعاهدات الدولية قبل ذلك .

ومنذ ذلك الحين حتى أيامنا الحاضرة ظلت اللغة الفرنسية اللغة العالمية الأولى في المسائل الدبلوماسية ، بل وفي القصص والمسرحيات والفلسفة في معظم أنحاء العالم المتقدمين . فأقبل عليها الناس في كل البيئات ، وألف بها كثير من علماء تلك الدول الأوروبيين ، نذكر منهم الفيلسوف الألماني « ليتر » والرياضي الفلكي الهولندي « هيجنز » .

وساعدت غزوات نابليون وفتحاته على نشر الفرنسية واستقرارها في بقاع كثيرة من أوروبا ، ولا سيما عن طريق تلك القوانين والدساتير الجديدة التي أخذت بها هذه البقاع ، والتي تصطنع بالصيغة الفرنسية ، وتنسم بالطابع الفرنسي .

ولما استيقظت بلاد البلقان وأخذت دوله تطالب بمحريها ، ونشر مظاهر الحضارة والمدنية فيها ، كانت اللغة الفرنسية والعقل الفرنسي الوسط الذي عن طريقه انتقلت إلى هذه الدول روح الحرية وطابع الحضارة الحديثة . فالأوري الحق هو الذي كان يستطيع الكلام بالفرنسية ويستطيع الكتابة والقراءة بها . وأصبحت السيطرة على هذه اللغة أكبر دليل على الانتهاء إلى العالم المتحضر ،

فقد ترتب عليها أسلوب جديد في الحياة يتسم بالهذب والرقابة والكمال . غير أن الثورة الفرنسية قد أدت إلى أن يسيطر على المجتمع الفرنسي طائفة كبيرة من كانوا ينتسبون إلى الطبقة الوسطى أو الطبقة الدنيا من الناس ، أولئك الذين لم تتح لهم فرص الثقافة اللغوية ف تكون لهم عادات لغوية دون المستوى المأمول بين المتعلمين والمفكرين . فقضت الثورة على جماعة المحافظين الذين تعلموا وأتقنوا اللغة نطقاً وكتابية وقراءة ، وكان كلامهم يمثل تمام المماطلة لغة الكتابة في الصحف والكتب والأدب ، برغم ما بذله الأكاديمية الفرنسية التي أست في متصف القرن السابع عشر من جهود في المحافظة على الأساليب الكلاسيكية . وترتب على ظهور هذه الطبقات الجديدة أن أصبحت لغة التخاطب الفنية عرضة لأنحرافات وتغيرات على ألسنة المتكلمين . وأوضح مظاهر هذه الانحرافات ما أصحاب الكلمات من اختزال أو سقوط بعض أصواتها في أثناء النطق ، ولا سيما في المقاطع غير المنبورة من هذه الكلمات

وزادت تلك الانحرافات مع الأيام ، فرأينا اللغة الفرنسية في القرن العشرين تتعدد صورتين : صورة لغة التخاطب وأخرى لغة الكتابة ، مما جعل عالماً كبيراً مثل فندريس يقول^(١) : (إن اليون بين لغة الكتابة ولغة الخطاب لدى الفرنسيين يتسع مع توازن الأيام ، فاصبحتا مختلفان في تركيب الجمل ونظمها كما مختلفان في المفردات وبنائها ، غير أن الخلاف في المفردات أوضح وأظهر . ويمثل الفرنسيون الآن لغة شبه ميتة ترجع إلى زمن الأدباء والكتاب في القرن السابع عشر ، ويتخاطبون بعضهم مع بعض في لغة مختلفة عن تلك التي يكتبون بها . وإن المرء العادي ليتردد كثيراً في أن يستعمل معظم ألفاظ الكتابة في أثناء حديثه فإذا خاطب الناس يمثل ما يُكتب في الصحف والأدب وصفوه بالتكلف والتعمير . وبقل هذا الصنف من المتكلمين في البيئة الفرنسية كل يوم . وقد ظلت الطبقات العليا من المجتمع تحافظ على تقاليد اللغة الكلاسيكية مستعينة في هذا باللغة المكتوبة ، على حين أن الطبقات الدنيا وحدها هي التي عملت

على بعث الحياة في العناصر التعبيرية للغة . وقد انزوت الآن لغة هذه الطبقة المحافظة وتركت الميدان لغة جهور الناس من الطبقة الأخرى . وبأسف المترمرون مثل هذه الحال ويدعون لغة الخطاب باللهجة العامية ، ولكن دون جلوى ، فقد أصبحت الصحف اليومية تلك التي تحرر على عجل وبساطة جماعة من أنصاف المثقفين نصطنع هذه العامية في تحريرها يوماً بعد يوم ، وتتخلد من الأساليب والتعابير العامية معظم مادة التحرير . فلم تعد لغة الكتابة لغة سليمة للناس : بل أصبحت تكتب بالقراءة والاطلاع ، واتسع البرن فيها بين لهجات الخطاب والحديث العام ، وأصبحت السيطرة على تلك اللغة الكلاسيكية تتطلب جهوداً شاقة ومراناً طويلاً للوصول إليها .

ومن اليسير على الدارسين الآن أن يتباوا بأن مصير اللغة الفرنسية الأدبية سيكون في المستقبل كilmiş اللاتينية في الماضي ، أي أنها ستصبح لغة خالية من الحياة قد تمحجرت أساليبها وكلماتها ولم تعد صالحة لأى تطور) .

هذا هو الوصف الراuch الذى نقرؤه لأحد التغريين المحدثين من الفرنسيين : ونضيف إليه أن كل الدلائل فى الوقت الحالى تدل على أن المستقبل للغة المنطقية بعد انتشار الإذاعة فى كأن أنحاء العالم ولا عياد عليها فى معظم نواحي الثقافة والإعلام . وإذا كان المحافظون المستمدون بأهداف اللغة الأدبية قد خُيّل إليهم خلال القرن التاسع عشر أن نشر الكتابة ومحو الأمية بين الناس سيعيدهم إلى تلك اللغة الأدبية ، فلا محل الآن لمثل هذا الخيال بعد شیوع الإذاعة ومنافسة الكلمة المنطقية للكلمة المكتوبة . هذا لملى أن الكثرة الغالبة من اقتصر تعلمهم للقراءة والكتابة على سن الإلزام قد نسوا أو كادوا ينسون ما تعلموا ، أو على الأقل لم يستشعروا بهذه الوسيلة فى مستقبل حياتهم الافتتاح الكافى حتى يمكن أن تتصور أن الكتابة والقراءة مستحافظ على الأساليب اللغوية الكلاسيكية .

فالعصر الحالى عصر الديمقراطيات ، عصر الشعوب والجماهير ، يتوجه نحو لغة الكلام الذى يفهمها الجميع ويتدوتها الجميع ، ولا يكاد المرء العادى مع ظروف الحياة الحديثة ، يجد من الوقت ما يسمح بإتقان تلك اللغة

المنقة ، أو التراث في اختيار الأساليب . فالتعليم آلى ، وكل مظاهر الحياة الآن تسم بالسرعة ، ولا غرابة أن تصبح الفرنسية في المستقبل أقرب إلى لهجة الخطاب الحالية ، وأبعد عن لغة «كرنيي» و«راسين» و«فولتر» وغيرهم من وضعوا أسس اللغة الفرنسية الكلامية .

فاللغة الفرنسية التي سادت في كل الأوساط الثقافية بأوروبا في أواخر القرن التاسع عشر والتي يتكلّم بها ما يقرب من ثلث سكان «كندا» وكل سكان الهند الصينية ، وببلاد متعددة في أفريقيا ، والتي اصطبعت في كل المعاهدات الدولية والمراسلات الدبلوماسية قد استحقت عن جدارة أن تُعدَّ هيمنة اللغة العالمية الأولى ، وأهلتها لهذا اللقب اتجاهها نحو لهجة الخطاب التي يألفها جهور الناس ، ويقبلون عليها كل الإقبال ، لأنها تعبّر بصدق عن أحاسيسهم وعواطفهم وأحلامهم ، ولأنها أقرب إلى قوسيهم وقلوبهم .

غير أن هذه الفرنسيّة العالميّة قد وجدت منذ أوائل القرن العشرين منافساً قوياً لها في الميدان العالمي وهو اللغة الإنجليزية التي اشتراك مع الفرنسية لأول مرة في معاهدة فرساي بعد الحرب العالمية الأولى .

٢

اللغة الإنجليزية

لا يتردد أحد الآن في أن بعد اللغة الإنجليزية اللغة العالمية الأولى . فهي اللغة الأم لعشرات ملايين البشر ، وهي اللغة الثانية لملفين آخرين في العالم ، وليس من المبالغة أن تقرر أن عدد المتكلمين بهذه اللغة في العالم الآن يتجاوز مجموع المتكلمين بالفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية ، هذا برغم أن انتشارها خارج حدود الجزر البريطانية لم يبدأ إلا سنة ١٦٢٠ حين هاجر جماعة من الإنجليز المغامرين إلى أمريكا الجديدة واستقروا في «فرجينيا» .

وحيث نحاول تلخيص التاريخ اللغوي في الجزر البريطانية نجد أنه في

القرون المسيحية الأولى كان يتضمن هذه الجزر اللغة « الكلتية » ، وكان لها ثلاثة فروع متميزة : أحدها في إسكتلندا والثاني في ويلز والثالث في أيرلندا ، ولا تزال بقايا هذه الفروع قائمة حتى الآن في هذه المناطق بوصفها لغة ثانية لكل منها .

ثم غزا الرومان هذه الجزر البريطانية ، واستقرت حامياتهم هناك عدة قرون ، ثم تركوها في أوائل القرن الخامس الميلادي دون أن يختلفوا في لغتها أثراً يذكر ، واقتصرت آثارهم هناك على طرق رومانية وجسور ومحابن وبعض القوانيين التي نشروها في تلك البلاد .

وفي أواخر القرن الخامس وأوائل السادس من الميلاد غزا هذه الجزر جماعات من الجنس الجرماني يسمون بالإنجليز السكسون ، وفروا من غرب أوروبا وأسسوا دولتهم شرق الجزر البريطانية وفي الشمال منها . فشهدت هذه الجزر للمرة الأولى صراعاً لغوياً بين لغة الغزاة الجرمانية وبين اللغة الكلتية التي كانت قائمة هناك . وانهارت اللغة الغازية أو بعبارة أدق تقهقرت اللغة الكلتية أمامها ، وانحنت لها ملحاً في شمال إسكتلندا وفي ويلز من أقصى الغرب وفي أيرلندا كذلك . ولا تزال بقاياها هناك حتى الآن .

هذا هو البدء الحقيقي للتاريخ اللغة الإنجليزية التي تطورت ثم تطورت ومررت بها مراحل متعددة حتى صارت على الصورة المألوفة لنا الآن .

ومنذ القرن الثامن الميلادي شهدت الجزر البريطانية غزوات سريعة قام بها قوم من المغاربة الموحدين وفروا من شمال الدنمارك ومن بلاد السويد والدنمارك وعرفوا في التاريخ باسم « فيكتنج » . ولم يكن لهم هدف من تلك الغزوات سوى السلب والنهب والعودة إلى بلادهم في أغلب الأحوال . ولما كانت لغتهم تنتمي إلى المجموعة الجرمانية ، أي مثل لغة الإنجليز السكسون ، لم يحدث خلال تلك الغزوات ما يشبه الصراع اللغوي ، وإنما كان بمثابة تبادل في العناصر اللغوية ، فأخذ هؤلاء من هؤلاء ، ومنح هؤلاء هؤلاء كلمات وعناصر لغوية أخرى يشير إليها المارسون المتخصصون بالتفصيل .

ثم كان العام ١٠٦٦ م حين غزا جماعة من هؤلاء « الفيكتنج » عرضاً في

التاريخ بالنورمانديين ، لأنهم جاءوا من مقاطعة « نورمانديا » في أقصى الغرب من فرنسا ، وبعد أن أقاموا هناك قرناً من الزمان وأصبحت لغتهم اللغة الفرنسية .

وهذا شهدنا صراعاً حقيقياً بين لغة الإنجليز السكون وبين اللغة الفرنسية التي جاء بها هؤلاء النورمانديون ، واستمر هذا الصراع زهاء قرنين انتصرت بعدهما الإنجليزية . وكانت غزوات النورمانديين آخر الغزوات التي وقفت على الحزر البريطانية . فلما تخلصت الإنجليزية من سلطان الفرنسية عليهما ، بدأت نحوها المستقل وقد تأثرت بكل ما وقفت عليها من غزوة قبل ذلك .

ويحدثنا مؤرخو اللغات عن أثر الغزو النورماندي فيقولون إن الإنجليزية قد فقدت بسبب هذا الغزو وما نشأ عنه من صراع لغوياً ، نحو ثلث الكلمات التي كانت تجري على ألسنة الإنجليز السكونيين ، بل لم تعد الإنجليزية خلال هذا الصراع لغة الأدب والثقافة ، وإن ظلت لغة الكتابة في مدارس بعض المناطق . وقد أصبحت الفرنسية لغة الطبقة العليا والحكام في الحزر البريطانية ، غير أن بعضَّا منهم أنحدروا يصطادون الإنجليزية أيضاً ، يوصفها لغة ثانية كلما اضطروا إلى التعامل مع الطبقات الأخرى .

وهكذا لم يapse غير زمن قليل على الغزو النورماندي حتى أصبحت معظم كلمات المهن والحرف فرنسية . وأصبحت الكلمات الخاصة بمواعيد الطعام وأصنافه فرنسية ، وأصبحت معظم المدارس في أيدي من يعلمون بالفرنسية . بل لقد ترتب على الغزو النورماندي تغيرات في بنية اللغة وتركيبها .

ومع كل هذا لم يكُد يبدأ العام ١٣٦٢ م حتى كانت اللغة الإنجليزية قد خرجت من هذه الحلة ، وأصبح لها كيان جديد مستقل ، فاعترف بها أولاً في المحاكم ، ثم بعد قليل أصبحت اللغة الرسمية في البرلمان . وأنخذت الإنجليزية منذ ذلك الحين تعتمد في أدابها على ترجمة الآثار الأدبية من اللغات الأخرى ، ولا سيما الفرنسية . وترتب على هذا أن دخلت مئات من الكلمات الفرنسية اللغة الإنجليزية ، وأن صبغت بالصبغة الإنجليزية . وهذا تصور أن الإنجليزية قد أصبحت كلماتها مزيجاً من كلمات بعضها من الأصل الجرماني والبعض

الآخر من الأصل اللاتيني ، وتلك هي اللغة التي وجدتها الشاعر الإنجليزي المشهور «تشوسن» والتي كتب بها آثاره ، والتي كتب بها بعد ذلك بقليل «وكليف» آثاره الدينية الروحية التي مهدت للنهضة الدينية في عهد الإصلاح بإإنجلترا . ولم يكدر ينتهي القرن الخامس عشر الميلادي حتى كانت الإنجليزية قد أصبحت مرة أخرى لغة الثقافة والأدب :

مهد «وكليف» لحركة الإصلاح الذي سادت إنجلترا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . ولم تكن حركة الإصلاح في حقيقة أمرها إلا حركة لغوية تدعو إلى أن يتبع الناس بلغتهم المحلية أي الإنجليزية ، وأن يعظهم القس والرهبان في الكنائس والمعابد بهذه اللغة التي يفهمها الجميع ويتعتر بها الجميع . لم تكن حركة الإصلاح إلا صراعاً بين لغة الكنيسة أي اللاتينية ، وبين لغة الشعب أي الإنجليزية . فكلما حاول بعض المصلحين ترجمة الكتاب المقدس إلى الإنجليزية صودرت الترجمة ، فزاد الناس تعلقاً بها وإقبالاً عليها . فقد أحست الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا بكلائهم اللغوي واستمسكوا بلغتهم الإنجليزية التي عبرت في صدق وأمانة عن أحاسيسهم وعواطفهم وأمامتهم ، والتي اصطاغوها في الآداب والتعامل ، فأصبحت الصورة الحقيقة لعقولهم وتفكيرهم .

وقد تُرجم العهد القديم عدة ترجمات في النصف الأول من القرن السادس عشر ، ثم كان ذلك المؤتمر الذي عقد في «هامتون كورت» وانتهى بوضع تلك النسخة المحققة المعتمدة من الكتاب المقدس سنة ١٦١١ م ، التي لازم تقرأ ويتعبد بالفاظها حتى الآن . وضفت هذه النسخة المعتمدة في وقت كانت الإنجليزية فيه قد بلغت ذروة مجدها البياني ، فقد ألف فيه شكسبير آثاره الخالدة .

ومنذ ذلك الحين أصبح الكتاب المقدس في لغته الجديدة محل الإجلال والتقدس من الناس جمعاً ، يقرأه الغني والفقير صباحاً ومساءً ، في القصور والمنازل والأكواخ ، في السهول وفي الجبال ، في السفن وفوق متن البحار :

وفي أمكنة العبادة على اختلاف أنواعها . وشرع الداوسون في تفهم كل سطر من سطوره ، وكل كلمة من كلماته ، يتناولوها بالتفسير والشرح ، ويجدون فيها المهل العذب والاطمئنان الروحي على اختلاف مذاهبهم . كان الكتاب المقدس بالنسبة للناس بمثابة مدرسة يستمدون منها معرفتهم ، ويشع نوره على عقولهم . فلم ينزل منه مر الأيام والعصور ، ولم يتطرق إلى أساليبه إهان أو نسيان ، بل خلت كلماته على كل لسان ، وقد نقشت في الصدور والأذهان . هو الكتاب الذي صان الإنجيلية على مر الأجيال ، ليس فيه كلمة لا يعرف معناها الإنجيلي المثقف سوى بعض كلمات من أصل عربى . وكل أساليبه تعد في النروءة من البيان الإنجيلي . هو التردد الأدبي الذي يتطلع إليه المتكلمون باللغة الإنجيلية ، وسيظل الناس في إنجلترا وأمريكا واستراليا يصطنعون لغة واحدة ، طلما ثابروا على قراءته والاسماع لنصوصه . وفي مثل هذا ضمان لاستمرار الوحدة اللغوية بين هذه الشعوب .

وهكذا نرى أن نصوص النسخة المعتمدة من الكتاب المقدس قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بعقيدة الإنجيل ، فأصبحوا ينظرون إليها كأنها هي من الروح الإلهي .

ومع استقرار اللغة الإنجيلية وازدهارها خلال القرن السابع عشر . حذر الصراع الداخلي في الجزر البريطانية دون انتشارها خارج حدود هذه الجزر . فلم يكن يشعر بتتجها الأدبي أو الثقافي من أهل أوروبا إلا القليلون من أتيحت لهم الرحلة إلى هذه البلاد . فقد ظل الإنجيليون يجاهدون خلال هذا القرن لتحقيق سلطان الشعب ضد الملكية التي آمنت حينئذ بعبدالتفويض الإلهي . وتحدى ممثلو الشعب سلطة الملائكة ، فكان صراع وقتال بين أنصار الملائكة وأعضاء البروتستانتيين عملوا جاهدين على الحد من طغيان الملكية . وانتهى القرن السابع عشر بانتصار الشعب ، وببدأت الطبقة الوسطى والدنيا تشعر بكيانها ، وتساهم في الحياة الثقافية والأدبية بجهود موفقة .

فلما كان القرن الثامن عشر بدأت أوروبا تحس بالأدب الإنجيلي .

فرجت بعض آثاره إلى لغات أوربا ، وبدأت الإنجليزية تطلع إلى أن تبوا مقعداً عالياً بين اللغات .

شهد القرن الثامن عشر هبة كبيرة بين الطبقة الوسطى من الإنجليز فتشأ بينهم أدباء من الشعراء والكتاب وال فلاسفة ، وأصبح أبناؤها يرون أن السيطرة على اللغة حق لهم جميعاً . وكان أول من عرفتهم أوربا من كتاب الإنجليز « بوب » ، « أديسون » ، « استيل » ، « دفو » ، « سويفت » وغيرهم من ترجمت آثارهم إلى اللغة الفرنسية . وتلا هذه الحركة الأدبية ظهور قصة « روبنسن كروزو » التي ترجمت سنة ١٧١٩ إلى الفرنسية والمولندية والألمانية وغيرها . ثم استمر الإنتاج الأدبي للغة الإنجليزية يتلتف على ربوع أوربا ، ويقبل عليه الدارمون هناك في شغف ، ولكن العجيب أن آثار « شكسبير » لم تسفر انتباه الأدباء في أوربا إلا في أواخر ذلك القرن ، فقد بدأت حينئذ ترجمة آثاره إلى لغات أوربا ، لغة بعد أخرى . ومن العسير أن تدرك السر في أن أدباء أوربا قد أحسوا بالآثار الأدبية لأدباء من أمثال « نومسن » ، « ينچ » ، قبل أن يحسوا بآثار « شكسبير » بتحو نصف قرن من الزمان . ولعل من أنجح أدباء الإنجليز لدى القاريء الأوروبي « سكوت » ، (بيرتون) .

فلما كان القرن التاسع عشر كانت اللغة الإنجليزية قد أصبحت من أعظم اللغات الأدبية . وقد استطاع كتاب القصة في هذا القرن أن ينقلوا إلى الميدان الأوروبي صورة مشرقة عن الحياة الإنجليزية ، وأن يجذبوا القاريء الأوروبي الذي أقبل على آثارهم في شغف وشوق : ولا سيما آثار « ديكتر » .

وساعدت الهمزة السياسية الاجتماعية في الخزر البريطانية بعد ذلك على أن تتوجه كل أوربا نحوها ، تستمد منها نموذج الحياة الحرة النبيلة ، وتطلع إلى نظام من الحكم كالذي ساد إنجلترا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فقد كان القرن التاسع عشر عهد ثورات واضطرابات في معظم أنحاء أوربا وعهد استقرار واطمئنان في إنجلترا . فأقبلت شعوب أوربا على آداب الإنجليز وثقافتهم واقررت مثاث من كلماتهم ، ولا سيما في المجال

السياسي والاقتصادي والاجتماعي والرياضي . فلما كانت الحرب العالمية الأولى نظر جنود الحلفاء إلى جنود الإنجليز فرأوهم مثلاً أعلى في الأناقة ورغد العيش : فلم تكدر تنقضى الحرب بالهدنة حتى أخذ بعض قادة هذه الشعوب الأوروبية يعنون قومهم بمثل الرخاء الذي شهدوه لدى الإنجليز . فكانت تلك المركبات الفاشستية التي بليت بها أوروبا بعد الحرب ، والتي دفعت بالإنسانية إلى الحرب العالمية الثانية .

ولا تزال اللغة الإنجليزية في الوقت الحاضر اللغة العالمية الأولى . فقد انتشرت في بقاع متباينة من الكورة الأرضية ، وبين شعوب متعددة من شعوب العالم ، طوراً تصطنع كلغة الأم ، وأخرى كلغة ثانية بين هذه الشعوب ؛ بل لا تكاد تخلو مدينة في العالم من قوم يحسنون الكلام بالإنجليزية . هذا إلى أنها تسم بالمرونة والسامحة فلا تأبى الاقراض من كلمات اللغات الأخرى كلما أعزها هذا ، وقد أصبح الآن نصف كلماتها من أصول أجنبية ، وكثير من أسمائها ترجع إلى مصادر غير إنجليزية . وقد أقيمت على كل هذه العناصر دون أن يشعر أهلها بغضاضة ؛ أو مركب شخص ، فهو ضئلاً وصغيراً بضيقها . وأصبحت تكون جزءاً أساسياً فيها .

وهي فوق هذا لغة ديمقراطية لا تميز بين طبقات وأخرى من الناس ؛ تكتب بأساليب قريبة الشبه جداً من لهجات الخطاب والحديث . فهي للناس كافة يحيطون بها في الكتابة والخطاب ، ويتأدون بآدابها ؛ ويجدون المتعة والثقافة في كل آثارها . من أجل هذا كله استحقت عن جدارة أن تعد لغة عالمية ؛ وأن تصطنع في المعاهدات الدولية ، فشاركت الفرنسية في معاهدة فرساي سنة ١٩١٨ ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي اتخذت فيها الإنجليزية لغة المعاهدات الدولية . ولا أحس أهلها خلال الحرب العالمية الثانية بهذه المكانة للغتهم عملوا جاهدين على الاستمساك بها ؛ ووضع بعض علمائهم من اللغويين مشروعًا مبسطاً لنوع من اللغة الإنجليزية سموه الإنجليزية الأساسية Basic English رغبة في تيسير تعلمها ، وزربادة نشرها في العالم .

الفصل العاشر

لغة واحدة للعالم

هل كُتب على الإنسان أن يظل فوق سطح اليسريطة أسير تلك اللغات التي تتعدد وتبينت حتى أصبح عددها في حدود ثلاثة آلاف من الألسنة ، تفرق بين الجنس البشري ، وتقسم بين الإنسان وأخيه الإنسان حصوناً لم تستطع حتى المدنية الحديثة، مع ما لها من إمكانيات ضخمة ، اقتحامها أو التغلب على مناعتها ؟ !

دعنا نبدأ بالتساؤل : هل يرغب الناس الآن في لغة عالمية واحدة أو موحدة ؟ لقد يرهن الاستفتاء الذي قامت به مؤسسة « جالوب »^(١) على أن ٨٠٪ من أدلوا بآرائهم قد تحسوا لفكرة اللغة العالمية . ولم يقتصر هذا على أمريكا ، بل يدت هذه الرغبة واضحة جلية في مناطق أخرى من العالم . وظفر الاستفتاء بهذه النسبة الكبيرة برغم انشغال الناس بمشاكل الحياة الملحّة ، وانغماسهم في شؤونهم الخاصة . ذلك لأنهم رأوا أن الفكرة تكفل لأبنائهم وأحفادهم مستقبلاً سعيداً ، وهو ما يتطلع إليه كل منا . وأحسوا أن اللغات في تشتتها الحالى تقىم حواجز وحوائل بين الناس ، وتحول دون تعارفهم وهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، ودون تعاونهم في صورة أكمل على حل مشاكل الحياة الدنيا فوق الأرض التي ورثها سبحانه لبني الإنسان ، وجعلها لهم مستقرًا وموطنًا . إذ يتذارع العالم في الوقت الحالى نحو ٢٧٩٦ لغة ، أضخمها من حيث عدد المتكلمين بها اللغة الصينية ، إذ بها وحدتها يتكلّم ما يجاوز ٦٠٠ مليون نسمة ، ولكن العبرة بسعة انتشار اللغة في مناطق متباينة : لا يكُرّة المتكلمين بها . فالإنجليزية الآن تعد أوسع اللغات انتشاراً في العالم ، برغم أن المتكلمين بها

(١) One Language for the World, and how to achieve it, by Mario Pei. P. 196.

لا يكادون يجاوزون ٢٨٠ مليوناً . وتعد اللغة العربية من حيث سعة انتشارها اللغة الثالثة ، فلا تسبقها في هذا سوى الإنجليزية والفرنسية ، إذ تسود العربية في شمال أفريقيا وفي السعودية واليمن وسوريا والأردن ولبنان والعراق ، فوق ما لها من تفوز في العالم الإسلامي ، أى أنها تتوفر في ثقافة ما يقرب من ٣٠٠ مليون من سكان العالم .

فإذا اقتصرنا على عدد المتكلمين بكل لغة أصبح ترتيب أشهر اللغات في العالم على النحو التالي : الصينية ثم الإنجليزية ثم الهندية (بقسمها الهندية والأردية) ثم الروسية ثم الإسبانية ثم الألمانية ثم اليابانية ثم لغة الملابو ، ثم الفرنسية ثم البرتغالية ثم الإيطالية ثم العربية^(١) .

والمسافر في أوروبا وحدها قد لا تسعه إحدى هذه اللغات المشهورة ويجد أنه من الضروري لتحقيق أهدافه من السفر ، أو حتى لمجرد الاستمتاع ببرحة سياحية أن يكون على معرفة بلغات أخرى متعددة . وقد تصادفه متاعب وصعوبات وظروف من سوء التفاهم تسبب له الخرج أو العنف والمشقة ، كالذى حدث لي فى أثناء سفري إلى ألمانيا أيام هتلر . فقد كنت أطلب العلم في إنجلترا وخطرت لي أن أقوم ببرحة سياحية في ألمانيا ، وكان على أن أعلن في حدود ألمانيا عما معى من نقود أجنبية . إذا أردت السائح في بالخروج بها ثانية . وفي القطار وبعد متتصف الليل وأنا في شبه غفوة من النوم ، صعد إلى القطار الحرس المتهنرى على حدود ألمانيا ، وسألني بالألمانية التي لم يكن لي علم بها علة أسئلة حررت منها الحواب ، ولم تسعفي معرفتي بالإنجليزية ولا الفرنسية ، وترتبط على هذا أن شاك الحرس في أمري ، ولم ينتقدنى حينئذ إلا صديق مصرى كان ينتظرنى في محطة برلين .

إذا كان السفر إلى مناطق أخرى من العالم كان الخرج أشد ، والمضايقات لا حصر لها . بل قد يؤدي الجهل باللغة إلى مصير أشنع ، ككتاب الحادثة

(١) وضع ترتيب اللغة العربية هنا على أساس إحصاءات السكان في حدود عام ١٩٥٠ ، ومن المؤكد أنها الآن تسبق هذا الترتيب .

الى عُرفت بعد الحرب العالمية الأولى عن جماعة من الجنود الأمريكيون دفعوا أيديهم مسلمين للألمان ، ولا صاح فهم الألمان بالألمانية يأمر وهم بشيء معين لم يفهم الجنود الأمريكيون ، وتساءلوا فيها بفهم عما يريده الألمان ، ثم كانت الكارثة حين قال أحد الأمريكيون لعلهم يريدون منا أن نلقي بحسباتنا . ولم تكن أيديهم تتحرك صوب مسلسلاتهم حتى أرداهم الألمان صرعى سوء التفاهم والجهل باللغة . وقد تكرر أمثال هذه المأساة في أثناء الحرب ، بل في السلم أيضاً .

وليست تقتصر أمثل هذه الحوادث على الجهل باللغة . بل مجرد الضعف فيها ، وسوء فهم أساليبها قد يؤدي إلى ما هو أشنع ، كتلك الكارثة التي وقعت لإحدى الطائرات منذ شهور وحدثتنا عنها الصحف فيما يلي :

كارثة الطائرة الأفغانية (يناير ١٩٦٩) سبباً سوء فهم الطيار :

لندن في ٦ - وكالات الأنباء - قال المحققون في كارثة طائرة « البوينج » الأفغانية التي تحطمت أمس جنوب لندن : وقتل في الحادث ٥٠ راكباً، إنه يبدو أن قائد الطائرة ، وهو أفغاني، أساء فهم التعليمات التي صدرت إليه بشأن الروبة .

وقال المحققون إنه قرر الهبوط في مطار جاتويك، على الرغم من أن البرج أبلغه أن مدى الرؤية لا يزيد على مائة متر .

وأدرك السياسيون والمؤمنون في المناسبات الدولية ضرورة اصطناع لغة واحدة تكتب بها نصوص المعاهدات بعد الحرب ، ويتم عن طريقها التفاوض في الشؤون الدولية ، فاصطنعت اللاتينية أولاً حتى القرن الثامن عشر، ثم الفرنسية التي عرفت خلال القرن التاسع عشر بأنها وحدتها لغة السياسة والمعاهدات ، ثم اشتركت معها الإنجليزية ولأول مرة في معاهدة فرساي .

وقد أدت اللغات العالمية في التاريخ دورها الهام كما أشرنا آنفاً . وكانت بكتابة وسائل تجميع الناس ، يتنظم كل منها مناطق متعددة فترة من الزمن ، ثم

٣٠١

كان من شأنها ماقد عرفنا . ولم تقتصر المحاولات على تلك اللغات التي أشرنا إليها ، بل تمت أيضًا نشأة تلك اللغة التي عرفت خلال القرون الوسطى باسم Lingua-Franca . وُسيِّرَ هذا الاسم مصطلحًا لكل لغة تسود في مناطق كثيرة ، ويتكلّم بها عدة شعوب متّحاورة . وقد نشأ هذا المصطلح بعد أن جاء العرب إلى حوض البحر الأبيض وروجذوا هناك لغات مختلفة منها الفرنسي والإسبانية والإيطالية واليونانية . وتنبّلت الحال حيث تزداد لغة عامة تشمل كل هذه المناطق ؛ وهي التي سادها العرب بلغة الفرنجة . وقد استعملت هذه اللغة في التجارة ، والتفاهم في المسائل العامة . وأسست قواعدها وأصولها على اللغة الإيطالية السليل المباشر لللاتينية ؛ وتحلّت أغلب كلماتها من العربية . وقد ظلت هذه اللغة تستعمل حتى القرن السابع عشر . بل كان لها بعض الآداب الجيدة . وأشار إليها مولير في رواياته : ولا تزال بقاراتها آثار هذه اللغة في « مالطا » حتى الآن ^(١) .

وهكذا نرى أنّ شعور بال الحاجة إلى لغة عالمية له جذوره التاريخية ، وأنّ الحاجة إلى هذه اللغة قد بدت للناس فيما مضى شبه ضرورة ملحة ، ولكنها الآن وفي العصر حيث أصبحت أشد إلحاحًا . بل هي في نظر بعض المفكرين واجب إلزام . هي الملاذ الوحيد لإنتشار الإنسانية من كثير من المأساة والويلات . فهي في أبهى شعّب خروب العالمية . أو على الأقل تحد من نطاقها وتقتصرها على تلك ثوميات التي تشبه ما كان بين القبائل في قديم الزمان . فتلك القوميات الخمسة التي نشأت في العصر الحديث ولم يكن هناك سبب حقيقي لنشأتها سوى خلاف اللغة ، لا تبّلت في كثير من الحالات أن تثير النعرة بين أبنائها . ونـ تغفر لهم إلى الاعتداء الأناني على جيرانها ؛ وتصور لأبنائها أنهم أرق من غيرهم . وأحق بغيرات الدنيا وأشرف من سواهم ، ومن هنا قد تبدأ المنافسة البعيدة عن كل أمانة وشرف وتحكم في القوميات أصناف من الأطماع وأبعد من الطموح ، ثم تكون المأسى والنكوارث .

ويقرّ أصحاب هذه الرأي أنه لو لم يكن للغة العالمية من شعّ سوى من

الحروب أو المحن منها لكنه بهذا غرضاً نبيلاً، وهدفاً ساماً لحياة الناس في العالم. أما في أوقات السلم فلغة العالمية أفضال أخرى على المجتمع الإنساني، إذ يصبح السفر معها إلى البلدان الأخرى عملية ممتعة حقاً، حتى مع بقاء نظام الدول واحتياطات كل منها بعنفقة محددة. فستلاشى فيها ظاهرة الأقليات أو تتحمى نهائياً بمشاكلها وما سيها التي أشرنا إلى طرف منها من قبل.

أما من حيث التجارة الدولية فسيصبح أمرها أيسر وأسرع، ونقل فيها المنازعات وأسباب الخلاف التي تشير كثيراً من التصايا القانونية حول مدلول الكلمة في اللغة، ومدلول ما يناظرها في لغة أخرى^(١)، كذلك القضية التي أقامها أحد المصريين في لندن ضد أعضاء اللجنة التنفيذية للنادي المصري، لأنهم قرروا إحالته إلى مجلس تأديب، لتطاوله على نظم النادي وأعضائه، وعلى حسب ما تنص لأنجنه. وقد فسر هذا العضو الكلمة «تأديبي» على أنها تناظر الكلمة الإنجليزية Punitive، وأنها تتضمن قدفاً وتشهيراً أضر بمكره الاجتماعي، ويعمله كاجر اشتهر بالأمانة وحسن السمعة. وفسرها من ناحية أخرى الذين تولوا الدفاع عن النادي، بأن الكلمة «تأديبي» لا تعدو أن تكون مرادفة للكلمة الإنجليزية Disciplinary، وأنها لا تتضمن تشهيراً ولا قدفاً. وحار القضاء الإنجليزي في هذا الخلاف فترة من الزمن، ثم أنهت القضية بالصالحة، دون أن يهتم المتخاصمون إلى التفسير الصحيح الأمين لتلك الكلمة.

ومع اللغة العالمية ستختال من مشاكل الترجمة، وما تشيره في كثير من الأحوال من سوء التفاهم والشقاق، ولا سيما في المجالات الدولية، وستختال كذلك من تلك الجهود التي تبذل في الترجمة، والمناقشات الباهظة التي تتفق عليها. ففي منظمة الأمم المتحدة جهاز ضخم للترجمة يتكون من مئات المترجمين، وأدوات واتصالات كهربائية معقدة للإرسال والاستقبال، يقوم على صيانتها عدد من المهندسين المهرة الذين يمكن الارتفاع بهم في وجوه أخرى. ومع

(١) انظر دلالة الألفاظ من ١١٤.

مهارة المترجمين في هذه المنظمة ودقتهم لم يخل الأمر من أخطاء أو انحرافات في التعبير لا يمكن معها أن يتم التفاهم بين المؤمنين. وقد عرضنا لمشاكل الترجمة بالتفصيل في مكان آخر ، وكان مما قلناه في هذا الصدد أن بعض الباحثين قد عرضوا للترجمة وقصورها في تصور كل ما يتضمنه النص المترجم من أفكار وأخيلة وحال في اللفظ . وقد حس الفائزون بعملية الترجمة في كل العصور بتلك الصعوبات التي كانت تصادفهم . ولكنهم مع هذا لم ينصرفوا عن الترجمة بل ظلوا يتبعون جهودهم جيلاً بعد جيل . ونهرأً بعد نهر ، فيوفقون حيناً ، ويخفقون أحياناً . ذلك لأن الأمم والشعوب قد رأت منذ القدم حاجتها الملحة في اتصال بعضهم البعض ، وفي تبادل الثقافة كما تبادل السلع . وقد تبين للمفكرين في تلك الأمم أن تبادل الثقافة يحول دونه حصون منيعة فصلت بين بني الإنسان ، وتلك هي التي نسميها باللغات . فأداة التفكير مختلف من أمة إلى أخرى ، وقد تسع مسافة الخلف حتى ليغدو إلينا أن الاتصال غير أو مستحيل ، وقد تقارب فيراها الباحث هينة بسيرة .

وأولئك الذين حاولوا التطلع إلى ما وراء تلك الحصون نفر قليل من الناس في كل أمة وفي كل عصر . وهم الذين قربوا بين الشعوب . ووصلوا إلى الإنسان بأنجيه الإنسان : رغبة في تبادل المذاق ونعرف : عسى أن يكون من الناس جيحا مجتمع إنساني يسوده التعاون والتفاهم .

ولست في الحديث عن مشاكل الترجمة نفترض ضعف المترجم في أي من اللغتين ، إذ لا يستحق المترجم هذا اللقب إلا حين يسيطر عليهما كتابة وقراءة . وبرغم هذا فالترجمة مشاكل وصعوبات حتى مع إتقان المترجم للغتين ، وأمانته وإخلاصه في عمله . ومن تلك الصعوبات ما يسمى بهندسة الجملة والنظام الذي تجري عليه الجمل في ترتيب كلماتها . وقد يضطر المترجم إلى التقديم أو التأخير ، وإلى عملية تنظيمية خاصة : حتى تبدو ترجمته على النهج المأثور في اللغة المترجم إليها .

ومن صعوبات الترجمة ومشاكلها تلك الصفة التي تحصل بجمال الألفاظ

وموسيقاهما . ولكن لعل أعضل المشكلات في الترجمة تلك التي تتصل بدلالة الكلمات وظلال المعانى فيها . ذلك لأن الكلمات تكتسب دلالتها في كل لغة بعد تجارب كثيرة من الأحداث الاجتماعية التي يمر بها الناس ، وترتبط في أذهانهم بتلك الأحداث ارتباطاً وثيقاً ، فتتأثر الدلالة بالتجارب الخاصة في كل بيته . فإذا تغيرت الكلمة وخرجت من بيئتها الاجتماعية إلى بيئه أخرى أى إلى لغة أخرى ، تطلب جهداً كبيراً لاظفر بما يناظرها أو يوازفها ، لتؤدي في ذهن السامع المحدث في البيئة الجديدة ما تؤديه من دلالة في بيئتها الأصلية .

ولذلك يرى جهور كبير من المفكرين أن ترجمة النصوص أو نقلها من بيئتها أشبه بنقل الزهرة من منبتها ، قد يعرضها للجفاف ونضب العبر^(١) .

ويكفي أن نتصور هنا ما عليه الحال في منظمة الأمم المتحدة ، فبرغم الإمكانيات الصخمة والجهود الفنية التي تبذل ، ومهارة القائمين بترجمة المناقشات ودقّهم ، نلحظ أن المستمع حين يجهل لغة الخطيب يصيّب نوع من الفتور ، ولا يتتابع الكلام بنفس الحماس الذي يشعر به العارف بهذه اللغة ، فكان المستمع حينئذ يتلقى معلومات احرقت وقدت جذبها كما يعبر الصحافون ، فليس يتلقفها من فم المتكلم مباشرة . وليس يشركه في عاطفته وحماسه . وهذا لا تكون الاستجابة تامة بين المتكلم وأسماعه : ولا تكون بيئهما مشاركة وجاذبية مباشرة . بل من أعضاء المنظمة من قد ينصرف عن شهود الجلسة قاتعاً بقراءة النص فيها بعد ، ومنهم من قد تأخذه سنة من النوم . ولا يتصور مثل هذا الفتور وقلة الاهتمام فيها لو كانت لغة الكلام موحدة ، يسمعها الجميع فيفهمون معانها فيماً دقيقاً دون واسطة من ساعات ترهق الآذان ، وتصيب الرءوس بالصداع . فع اللغة الموحدة يقدر المؤمنون الدعاية في لحظتها وليس بعد فوات أوانها ، ويحسون بشعور المتكلم وأحساسه ، وهذا فقط يمكن أن يحقق الاجتماع أهدافه في سرعة ومشاركة وجاذبية كاملة .

أما متاعب الاختلاف في اللغة في حالة اضطراره فحدث عنها ولا حرج .

(١) دلالة الألفاظ من ١٦٨ - ١٨٦ .

فكثير من الأسر التي هاجرت من أوروبا إلى أمريكا قد صادفت عنتاً كبيراً، ومشقة ظلت تلازمها خلال جيل أو جيلين ، قبل أن يسيطر الأبناء أو الأحفاد على لغة البيئة الجديدة . فهم في يادى الأمر في شبه عزلة عن الناس ، لا تقضي حواجتهم في سهولة ، ولا يتيسر لهم الاندماج في المجتمع في بسرا ، وبلازمهم الشعور بأنهم أغرب أو أجنب زمنا طويلا . فلا يكت足ون يستمتعون بوسائل الرفاه في البيئة الجديدة من سيارات ومسارح وإذاعات وبرامح تليفزيونية ، وقد يتعرضون لأحداث من العش والتصب والخداع في تعاملهم مع بعض الناس ، كما قد تصادفهم أمثلة من السخرية والهزء بهم كلما حاولوا النطق فتعرّت أنفسهم بلغة البيئة الجديدة .

وفي حالات كثيرة قنع الكبار من أفراد هذه الأسر المهاجرة بحياة العزلة لأنفسهم ، ووجهوا كل جهودهم لتربيه أبنائهم أو أحدهم تربية تساعدهم على الاندماج والاختلاط ليتشاءوا كأطفال الآخرين ، ولا نصيّهم عقدة اللغة .

على أن بعض هؤلاء الأباء حين أرسلوا إلى الدارس الأمريكية ، وبدت بعض مظاهر اللائمة الأجنبية في نطقهم وعلى أنفسهم نظروا على أنفسهم ، وأحسوا بالمرارة والحرقة ، وكان لهذا أثر سلبي في كل جنده . لذلك كانت السياسة التي التزمها معظم الأسر المهاجرة هي تشجيع الكبار بأنفسهم ، وعزل أبنائهم عنهم كلما أمكن ذلك ، وتشجيعهم وتحفيزهم على الاندماج مع أطفال البيئة الجديدة ، حتى يمكن التغلب على رثّ عقبة الكثود ، عقبة اختلاف اللغة ، وحتى يكفلوا لهم مستقبلا سعيدا . وجدة رغدة في هذه البيئة .

أما ما يصادفه السائح بسبب اختلاف اللغة فربما يكون أمره هيناً ، ولكنه على كل حال من الأمور التي تصرف الكثيرين عن السفر ، وتخوم من يقدم عليه من الاستمتع الكامل برحلته، بل قد تغير من تكرار التجربة مرة ثانية . فـأى متعة يصادفها العالم حين يستمع إلى إذاعة واحدة ذات لغة موحدة ؟! وأى وحدة في الفكر والشعور تسود العالم حين يجد نفس أنفسهم في كل بقاع الأرض ينطقون بكلام موحد ، ويتفاهمون بلغة واحدة ؟

في الحق أن حاجة العالم إلى لغة واحدة قد أصبحت في العصر الحديث ضرورة ملحة ، بل واجباً تفرضه الطبيعة الإنسانية ، ولا يكاد مختلف في نفع هذا وجوده أحد ، سواء من أولئك الذين يرون إمكان الوصول إلى هذه اللغة ، أو أولئك الذين يشككون في إمكان وجودها .

فليس من الإسراف أو المغالاة أن تقرر أنه لو اهتدى العالم إلى تلك اللغة التي تستلزم الناس جميعاً فوق سطح الأرض فقد اهتدى إلى السلام والأمن والرخاء في كل مكان . ولا يكاد يشك في هذا أحد ، وإنما الذي ينصلب عليه شك بعض المفكرين وربهم هو ، هل يمكن هذا ؟

لكل ما تقدم أخذت الدعوة إلى اللغة العالمية أولى خطواتها الجدية منذ القرن السابع عشر ، وبدأ حيال النقاش والجدل بين المقتنيين بالفكرة وإمكان تحقيقها ، والتشككين في إمكانها الساخرين بالدعوة لها . وجدة أولئك الذين رأوا استحالة الوصول إلى لغة عالمية تكاد تنحصر في أساسها على التجارب التاريخية مع تلك اللغات التي كانت في يوم من الأيام أشبه باللغة العالمية ، يتكلّم بها في مناطق متباينة كثيرة ، ثم كان أن أصابها الاحلال إلى لهجات ، ثم تطورت اللهجات إلى لغات مستقلة ، كاللاتينية التي كانت في عهد الرومان تسود معظم مناطق العالم ، ثم انحلت وتشعبت إلى لهجات أصبحت الآن ما يعرف باللغة الإيطالية والفرنسية والإسبانية والرومنية . ومن هذه اللغات ما انذر ولم يعد له وجود إلا في نقوش فوق أحجار ، أو كتابات فوق الصحفائف كالأكديّة والآرامية ، منها ما انكمش نطاقها ، وتطورت أصواتها وصيغتها ، وأصبحت تختصر على دولة صغيرة في العصر الحديث كالإغريقية .

فلعنة بابل في رأيهم تلزم اللغات في تاريخها ، فلا تكاد اللغة توحد ويتباعد نطاقها ، حتى تفتت وتشعب إلى لهجات ، منها ما يندثر فلا يترك أثراً ، منها ما يتطور إلى لغة مستقلة جديدة لا يكاد يعرف أبناؤها أصل لغتهم ولا ما تسمى إليه ، أو تحدّر عنه ، من لغات العالم القديم .

ولكن المؤيدين المحسنين للفكرة لا يتصورون أن ما حدث في العصور

السابقة يتهم أن يحدث مثله في العصر الحديث الذي يتم بسواء الاتصال وسرعته بين الدول . فلدينا الآن من وسائل الاتصال السلكي واللاسلكي ما لم قد سمع به أجدادنا القدماء لعدوه نوعاً من المذيان والوهم ، ولامنوا بأن القائل به قد أصابه مس من الجن أو خجل عذلي . إذ نسمع الآن الإذاعات من جميع أنحاء العالم وأضحة جلية مدوية ، وتنتقل بين الدول المتقدمة أفواج من الطائرات في سرعة الصوت أو أسرع . فلم يعد مكان في العالم بمغزل عن سائر العالم ، ولم تعد الجبال ولا الأنهار ، بل ولا الصحراء والبحار بغازل منيع يحمى قوماً من قوم ، أو شعيراً من شعب . ولم يعد في الإمكان أن تعزل أمة عن أمة تجاورها ، أو تبتعد عنها ، فهناك شبكة معمدة محكمة تصل بين الشعوب في التبادل التجاري والثقافي ، ولا يستطيع شعب أن يعيش على مكان يسمى بالاكتفاء الثنائي في كل شئونه . ويكتفى أن تذكر ما يسود العالم الآن من اتفاقيات دولية تنظم البريد ووسائل المواصلات الأخرى بين الدول ، وتنظم التعامل التجاري والتبادل الثقافي وحفرق الشعوب وواجهتها بعضها نحو بعض وغير ذلك من وسائل القانون الدولي الذي التزم بنصوصه الشعوب والأمم ، أو على الأقل أخذت على نفسها هذا العهد .

وإذا كانت عصبة الأمم قد فشلت في تحقيق معظم أهدافها من قبل ، وإذا كانت منظمة الأمم المتحدة تتصرّر الآن في بعض الحالات ، ولا تقدر على حل كل المشاكل ، فليس يستلزم ذلك أن نؤمن من مستقبل الإنسانية ، بل يحدّر بنا أن نتفاءل وأن نعد أمثال هذه المنظمات بثبات علامات على الطريق للوحدة الإنسانية في المستقبل . فهي ومعها منظمة اليونسكو ومحكمة العدل الدولية معقد آمال الإنسانية ، وآيات لبروز غ فجر السلام في العالم ، ولتوحد الناس جميعاً وتعاونهم على ما فيه الاستقرار والأمن والرخاء لكل البشرية .

فلنستمع إلى أحد المتفائلين من اللغويين المحدثين يناقش فكرة اللغة العالمية ويقرر أننا الآن في بداية تحقيق ذلك الحلم القديم ، حلم لغة واحدة

يستطيع كل الناس أن ينتحلوا بها^(١)، وهو «لويس» في كتابه «اللغة في المجتمع». فيرى «لويس» [أنه ب رغم الفشل الذي منيت به المحاولات التي تمت في القرون الثلاثة الماضية لإنشاء لغة عالمية ونشرها بين الناس ، وب رغم ما نلحظه الآن من خفوت الأمل في مستقبل هذه اللغة ، يجب ألا ننسى أن لدينا الآن من الوسائل المادية وألات الاتصال ما يمكن معها أن تنشأ لغة عالمية وأن تبقى ، وأننا الآن نحس أكثر من ذى قبل ب الحاجة ملحة إلى إيجاد تلك اللغة] . ومع أن «لويس» يشير إلى أنه من المحتمل أن تصبح الإنجليزية هي اللغة العالمية التي تتطلع إليها ، يختتم كلامه ب قوله : (وفي هذه اللحظة قد يكون من الغباء أن نحاول التنبؤ بأن لغة ما ستكون هي اللغة العالمية في المستقبل ... ولكن لا شك في أن اللغة العالمية في طريقها إلى الوجود) :

ومن حدث الكتب التي عالجت فكرة اللغة العالمية ما ألفه «ماريو باي» تحت عنوان «لغة واحدة للعالم ، وكيف تتحقق» . وفيه يحدثنا المؤلف في إسهاب وتفصيل عن تاريخ نشأة هذه الفكرة ومرارها ، والمحاولات التي تمت بهذا الصدد خلال القرون الثلاثة الماضية ، وما يرجى لها في المستقبل .

ويرى «ماريو باي» أن الدعوة إلى لغة عالمية بدأت في القرن السابع عشر على أيدي جماعة من المفكرين الفلسفية الذين لمسوا القصور في اللغات القومية المحلية . ومن أسبقيهم في الدعوة إلى خلق لغة منطقية لا شواذ فيها «دسكارطس» ، الذي قنع بشرح فكرته وتجبيتها تاركًا التنفيذ لبعض معاصريه . وكان أسرعهم إلى العمل على تحقيقها «أورفالرت» ، العالم الإسكتلندي في مقال عنوانه «مقدمة اللغة العالمية» ، وصف فيه ظواهر هذه اللغة التي تتطلع إليها المفكرون في عصره ، وحدد معالمها وسماتها . ثم زاد «دبلجارنو» في تعميم الفكرة وتجسيدها سنة ١٦٦١ م .

وفي الحق أن معظم مفكري القرن السابع عشر لم يكونوا يطمعون في أكثر من الاهتمام إلى لغة نموذجية سموها باللغة الفلسفية أو المنطقية ، ولم يوجهوا

(١) Language in Society, by M. M. Lewis

ترجمة الدكتور عام حسان ص ٨٨ - ٩٤

عنائهم إلى اللغة العالمية بالمعنى المفهوم لدينا الآن ، بل كل الذي عنوا به هو خلق لغة للفكر تساير حدود المنطق العقلي ، وتعين الفلاسفة في تفكيرهم وتأملاتهم ، ولم يتطلعوا إلى أبعد من هذا . فلم يدر بخلدتهم السعي إلى إنشاء لغة عالمية تستخدم في الكلام ، وتصبح وسيلة للتواصل بين عامة الناس : فيما عدا « كومنيوس » الذي ربما يعد أول من فكر في تلك اللغة الكلامية التخاطبية التي تيسر الاتصال بين الناس في شؤونهم العامة .

ويبدو أن مفكري القرن السابع عشر قد خاقوا باللغات التي سادت على الألسنة في عهدهم ، وتبين لهم بعدُ كثير من ظواهرها عن المنطق العقلي ، فليس بين الألفاظ دلالاتها صلة طبيعية أو ذاتية ، وإنما هي صلة تحكمية أو عرفية . وكذلك الشأن في الظواهر التحوية التي تختلف باختلاف اللغات ولا تكاد تمت إلى المنطق العقلي بصلة وثيقة . ففكرة « الكم » أو ما يسمى في اللغات بالإفراد والثنية والجمع ، تبدو لنا في معظم اللغات ذات اتجاهات مختلفة ، وتتعدد طرائق شئ في تصوير « الكم » أو التعبير عنه . فبعض اللغات تعبر عن فكرة الكم بصيغة ثلاث : إحداها للمفرد وأخرى للثنية وثالثة للجمع ، ومن اللغات ما يجعل صيغة للمفرد . وأخرى للمبني وثالثة للمثلث الذي يعبر عن ثلاثة أفراد ، وأخيراً صيغة رابعة للجمع الذي هو في هذه اللغات ما زاد على ثلاثة ، بل إن بعض الألفاظ التي تعامل معاملة الفرد في لغة ما قد تعامل نظائرها في لغة أخرى معاملة الجمع . وكلنا نذكر أمثال الكلمات الإنجليزية الآتية :

Shoes, Scissors, Moustaches, Trouscers.

الجمع في حين أن نظائرها العربية تعامل معاملة المفرد .

أما من حيث « الجنس » أو ما يسمى بالذكر والأنثى ، فحين نستعرض اللغات لتتبين مسلكها في هذا ، نرى أنها طرائق شئ ، وأتها في هذه الظاهرة لا تكاد تسير وفق منهج عقلي أو منطقي . فتها ما لا ينظر إلى تأثير حقيق ، وبها ما يؤثر النظر إلى الحمد والمحى دون اعتبار المؤنث أو مذكر . ومنها ما يتدخل للأسماء أنواعاً ثلاثة : إحداها للذكر وأخرى للمؤنث وثالثة لما يسمى

بالمحايد . أما اللغات السامية ومنها العربية فقد قنعت في تصنيف الأسماء بما هو مذكر وما هو مؤنث ، وإن كان التذكير أو التأنيث في كثير من الأحوال أمراً مجازياً .

كذلك تباين اللغات في أساليب التعبير عن النفي ، وفي الفكرة الزمنية ومدى صلتها بالصيغ ، إلى غير ذلك من ظواهر يعيها بمحظتها أو تذكرها النارسون في العصر الحديث^(١) .

بل إن اللغة الواحدة لا تخلو من الشذوذ في بعض صيغها وتعابيرها ، ففي الإنجليزية مثلاً كلمات لا تجمع ، وأنخرى لها جمع خاص يخالف المألوف المعهود في الكثرة الغالبة من الأسماء . وفي العربية صيغ وتعابير لا تجرى على القاعدة العامة ، ويعدها اللغويون من الشواذ ، وإن جرأت على ألسنة العرب القدماء .

وأما من حيث دلالة الألفاظ فقد تبين للمفكرين وال فلاسفة منذ عهد طوبيل أنها في أحيان كثيرة قاصرة في التعبير عن كل ما يدور بخلدهم في دقة وإحكام وعندوا أو اخترعوا رموزاً أخرى أدق تعبيراً وأحكم تصويراً^(٢) .

ذلك هي بعض الصعوبات أو المتناقضات التي نلاحظها في كل اللغات ، والتي حللت مفكري القرن السابع عشر على السعي في إنشاء لغة منطقية نموذجية .

ثم استمرت الدعوة إلى خلق لغة عالمية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكثُرت المحاولات وتعددت حتى أصبحت في حدود ٣٢١ لغة اقترحها أصحابها أو مبتدئوها لتكون تلك اللغة العالمية التي تطاع إلها الإنسانية . غير أن معظم هذه المحاولات قد وثبتت في مهدها : فلم يكُد يتجاوز عدد الذي تعلموها أصحاب اليدين عدّاً ، واندثرت بذهاب الداعين لها ، ولم تختلف لنا إلا سلسلة من الفشل التربيع بعثت اليأس إلى قلوب كثير من المستهرين في هذين القرنين . ولعل شيوخ القرميات الحديثة وتكوينها على أساس اللغة كان من العوامل

(١) انظر للمؤلف كتابه من أسرار اللغة ص ١١٦ - ١٨١ .

(٢) انظر للمؤلف كتاب دلالة الألفاظ .

الى صرفت الناس عن فكرة اللغة العالمية أو زهدتهم فيها .

وحيث تتبع المحاولات الى تمت تخلق اللغة العالمية نرى أنها نوعان :

(أ) أولهما البحث عن لغة مصنوعة منطقية حالية من الشواذ وتلك هي التي تطلع إليها معظم مفكري القرن السابع عشر ، وظلت بعد ذلك حتى القرن العشرين تجد من يدعوا إليها وتشق طريقها على استحياء ، ودون أن تصادف قبولاً أو اقتناعاً في وسط من الأوساط . ومعظم أصحاب هذا الرأي من الفلاسفة الذين كثُر عددهم في القرن السابع عشر . ولعل أقدم محاولة لهذه اللغة المنطقية المصنوعة تلك التي قام بها «جان فنسوا سودر» سنة ١٨١٧ وسماها باللغة الموسيقية العالمية وأسسها على النوتة الموسيقية ، وأحدث محاولة من هذا النوع تلك التي حاولها اللغوي الأمريكي «راسل سوما» سنة ١٩٥٧ إذ اخترع لغة سماها بالعالمية تتألف من ألف كلمة ، ولا تمت هذه اللغة في جذورها وأصواتها لأى من اللغات المعروفة في العالم . فهي بمحايدة إلى أبعد حدود المحايدة ، وت تكون الكلمة فيها من مقطعين اثنين ، وتخلو من أداة للتعریف ، ومن صيغ للجمع بل تخلو من كل طرق الاشتغال والتصريف ، مما تبدو معه في صورة هي غاية في التبسيط والسهولة .

(ب) وثانيهما اصطناع لغة فيها بعض عناصر من اللغات الحية مثل «القولاپيك» التي معناها «كلام العالم» والتي اخترعها أحد رجال الدين في «بارفاريا» وهو «مارتن شلير» سنة ١٨٧٩ ؛ وقد تمحض خارجها البعض الدارسين حيث ، ولكن لم يكدد يعنى على إنشائها ثمان سنوات حتى هجرها أنصارها ، واتفقوا حول لغة أخرى هي «الإسبرانتو» التي اتسمت ولا شك بأنها أكثر اطراضاً ومرنة من «القولاپيك» . وقد استمد مخترع «القولاپيك» جذور الكلمات من الإنجليزية واللاتينية في معظم الحالات ، وتأثرت قواعدها وترافقها بلغة المخترع نفسه ، أى الألمانية .

ومن أشهر المحاولات التي من هذا النوع «الإسبرانتو» التي اعتمدت في تشكيلها على لغات أربع هي اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والألمانية . وقد وضعها

لغوي بولندي سنة ١٨٨٧ . وفي دعوته لها أخذ يتلمس طريقة على حلو ، فتذكر تحت اسم «الدكتور اسبرانتو» ، أي الدكتور المفائل ، حتى أقبل الكثيرون عليها ، وتكون لها أنصار ، وحيثند كشف عن اسمه الحقيقي وهو «لازاروس زمهوف». وتعهدَ الاسبرانتو أشهر اللغات العالمية المصنوعة ، فقد اختلفت أدلة التفاهم في عدة مؤشرات ، وشجعت عصبة الأمم على دراستها في المدارس والمعاهد في توصية لها سنة ١٩٢١ ، ولكنها لم تتفق موقفاً حاسماً في هذا الشأن ، بل كانت توصيتها مع شيء من التردد . أما اليونسكو تلك المنظمة الثقافية العالمية ، فقد دعت إلى دراسة الاسبرانتو وشجعت عليها في قوتها ولعلن منذ سنة ١٩٥٥ .

وأهم صفات هذه اللغة الاطراد ، فلكل وحدة نطقية «فونيم» رمز كتابي متميز ، أي أنها تكتب كما تنطق ، وليس كبعض اللغات الحية التي بعدها فيها الرابطة بين المقطوق والمكتوب ، وأعيا إملاؤها كثيراً من الدارسين ، إذ تكتب الكلمة برموز لا تكاد تنطبق على النطق بها ، مما جعل المحدثين من اللغويين يقررون أن الكتابة بوجه عام تصوير قاصر للغات ، ويدعون إلى العمل على إصلاحها . وانزالت هذه اللغة «الاسبرانتو» موضوعاً محدداً لنبر فهو يقع دائماً على المقطع الذي قبل الأخير من كل كلمة . وأدلة التمييز في هذه اللغة هي دائماً La أي الأداة الفرنسية للمؤثثة ، فنطقها واضح ، واستعملت في كل حالات الأسماء ، أي مع المذكر والمؤنث ومع المفرد والجمع . وخصصت هذه اللغة علامات تنتهي بها الكلمات وتدل كل علامة منها على الوظيفة التحوية للكلمة : فعلامة الاسمية هي O وكل اسم مفرد يجب أن ينتهي بها ، أما في حالة الجمع فالاسم ينتهي بالعلامة J التي ينطق بها ياء أي مثل ئ . وتنتهي الصفة بالعلامة A وتنتهي الظرف adverb بالعلامة B ، وتنتهي المصدر بالعلامة I ، وعلامة المفعولية هي N في آخر الكلمة . أما الأفعال فينتهي المuber منها عن الزمن الحاضر بالعلامة as ، وينتهي الفعل الماضي بالعلامة is ، والمستقبل بالعلامة ss ، وفعل الأمر ينتهي بالعلامة u .. إلخ . ويقال إن

عدد المتكلمين بهذه اللغة في العالم يبلغ الآن بضعة ملايين . ويؤكد لنا المتحمسون لهذه اللغة أنها تصلح لترجمة الأدب سواء منها الأدب الكلاسيكي أو الأدب الشعبي ، وأن التخاطب بها ميسّر حتى على متوسطي الذكاء والفهم . فهو إذن نجاح الوظيفتين الأساسيةتين لكل لغة ناجحة : الوظيفة العاملية أي استخدام اللغة أداة للتفاهم ، والتعامل بين أفراد المجتمع ، والوظيفة التنفيذية وهي استخدام اللغة مجرد التنفيذ عما تجيش به الصدور وما يدور في خلد كل منا من أفكار وتأملات لا يُهدّف بها إلى إرسال أو استقبال . وهذا هو ما اشرّطه «لويس» لنجاح اللغة العالمية إذ يعبّر عن ذلك بقوله: (وقد تعلمنا من اهتمام اللغوين الدائم بشكلة اللغة العالمية ، ومن دراستنا في عمومها دراسة أدق أن اللغة العالمية حتى في بدايتها لا يتزعم لها النجاح إلا إذا كانت لها طاقة تنفيذية بالنسبة لتكلّمها . ويجب في اللغة العالمية إذا أريد أن تكون لغة كاملة — أن تؤدي الوظائف التي تؤديها أية لغة للمجتمع الذي يستعملها ، أي أن اللغة العالمية يجب أن تستطيع تحقيق الحاجات العاملية والتنفيذية للإنسانية ، باعتبارها مجتمعاً عالمياً . فليس ثمة أمل في نجاح أي مشروع اللغة العالمية إلا إذا كان يعني بالإحسان والإرادة كما يعني بالتفكير والعمل عند هؤلاء الذين يصطمعونها) ^(١).

ويبرهن أنصار الاسبراتو على سهولة لغتهم ودقة نظامها ويسر النطق بأصواتها وتطابق الكتابة مع النطق فيها ، وبوضع نماذج من هذه اللغة يمكن للأوربي أن يقرأها دون جهد أو مشقة ، وأن يفهمها قور قراءتها . فثلا:

Homo رجل ، Bona = جيد ، Bone = بجودة ، Esti = وجود ، Estu = كن ،
Bonaj homej = رجال طيبون .

ولا يأس من أن نقتنس هنا تلك القطعة التي أوردها «ماريو باي» في كتابه ^(٢) للاستدلال بها على صحة ما يتباهى أنصار هذه اللغة للغتهم من

(١) اللغة في المجتمع تأليف م. لويس وترجمة الدكتور عام حسان ص ٨٩ .

(٢) The story of language, by Mario Pei. p. 442.

رسالة في قرامتها وفهمها على الأوربيين :

La inteligenta Persono lernas la interlingvon Esperanto rapide kaj facile. Esperanto estas la moderna, kultura lingvo Por la internacia mondo. simpla, fleksbla, praktika solvo de la problemo de universala interkompreneo, Esperanto meritas vian seriozan konsideron. Lernu la interlingvon Esperanto.

ويمكن أن ترجم هذه المقطعة إلى العربية على النحو الآتي :

الشخص الذكي يتعلم اللغة العالمية اسبرانتو بسرعة وسهولة . اسبرانتو هي اللغة الثقافية الحديثة لجميع العالم . فيها الحل البسيط المرن والعمل لمشكلة الاختلاط العالمي ، والاسبرانتو تستحق كثيراً من التقدير الجدي . تعلم اسبرانتو اللغة العالمية .

• • •

وقد اعترف بالاسبرانتو في المجالات الدولية ، فهي مع اللاتينية اللغة الوحيدة التي يقتضي اتفاقيات عالمية يجب قبولها في الرسائل التلغرافية في كل العالم ، وهي أيضاً تستخدم لدى الجمعيات الدولية للأطباء والمدرسين والمحامين والعلماء والموسيقيين وجامعي الطوابع والنقوود . وقد أصدرت بعض الشركات الكبيرة ، كالتوجات بالاسبرانتو للإعلان عن سلعها في التجارة الأجنبية ، بل إن بعض المحطات الإذاعية في العالم تخصص ببرامج يتحدث فيها بهذه اللغة . هنا إلى أن بعض الجمعيات السياحية تصدر نشرات إعلانية بالاسبرانتو ، وفي العالم الآن نحو مائة صحفة و مجلة تنشر بهذه اللغة . وقد أعلنت الجمعية البريطانية للتقدم العلمي سنة ١٩٢١ أن الاسبرانتو خير لغة للأغراض العالمية ، فهي في هذا المجال خير من كل اللغات ، ما انذر منها : وما لا يزال حيّاً .

ومع كل ما تعلم لم تستطع الاسبرانتو منافسة أقل اللغات الطبيعية انتشاراً، وتبين حتى لأنصارها أنه قد يكون من اليسير أن يتحدث بها الروسي مع الأمريكي في أمور السياحة والطعام والشراب والملابس ، فإذا تطرق إلى الحديث

في مسائل الدين أو العلم أو الفلسفة لم تكمل تلك اللغة تتحقق الهدف من الحديث .
والغريب أنه في حياة واضح لغة الاسبرانتو قام جماعة من أنصارها بإدخال
عدة تحسيفات عليها جعلتها في رأيهم أكثر دقة وإحكاماً ، وكانت بهذا ،
المحاولة الثالثة للغات المصنوعة ، وتلك هي التي سميت «إيدو» Ido ،
وتم ذلك سنة ١٩٠٧ . ويرمز المرقان الأولان من الاسم Ido إلى كلمتين
إنجليزيتين هما International delegation أي البعثة العالمية (١) .
أما الحرف الأخير من Ido فهو علامة الأساسية على حسب النظام الموضوع
في الاسبرانتو كما أشرنا آنفاً .

غير أن هذه التعديلات التي أدخلها هؤلاء العلماء على الاسبرانتو ، والتي
على أساسها أنشأوا ما سموه Ido ، لم يقنعوا بها معظم أنصار الاسبرانتو ،
ولم يرجعوا بها ، وعزّ عليهم أن ينظروا إلى كل تلك النصوص التي طبعت ونشرت
بالاسبرانتو على أنها أصبحت متخلقة أو غير صالحة للدراسة . وهكذا ظلت
الشهرة للاسبرانتو في صورتها الأولى . وليست اللغة Ido التي يُفترض أنها
تضمن تحسيفات كثيرة . وأصبحت الاسبرانتو الآن اللغة الأولى بين اللغات
المصنوعة في العالم ، فقد أثبتت صلاحيتها في عدة اجتماعات دولية .

وقد كثرت المحاولات وتعددت خلق تلك اللغة العالمية المصنوعة في القرن
العشرين ، ومن أشهرها ما ابتدعه «جيسيپ بيانو» Guiseppe Peano
اللغوي الإيطالي ، وسماه Latino sine flexione سنة ١٩٠٣ ، وما قام به
«أتو بچرسن» وسماه Novial سنة ١٩٢٨ ، وما تم على يد «هوجبن»
Hogben وسماه Interglossa سنة ١٩٤٣ .

وأهم ما يوجه من تقد لمثل هذه اللغات المصنوعة صحيح ثلاثة هي :

- ١ - أنها مصنوعة وليس طبيعية .
- ٢ - أنها غير معايدة إذ تعتمد على القليل من لغات العالم وهيمل سائر
اللغات الأخرى .

٣ - أنها حتى مع اصطناع الشعوب لها ستدى على ألسنة كل شعب في صورة خاصة ، وسينطق بها كل شعب على حسب ما تعود في نطق لغته الخلية من حيث طبيعة الأصوات ومواضع النبر ونغمة الكلام ، فلا تلبث بعد زمن قليل أن تتشعب إلى لغات جديدة مختلفة .

ويخلو بنا أن نناقش هذه النقاط الثلاث في حدوده وفي حيدة واعتدال :

فأما النقد الأول فلابعد في الحقيقة وصمة ، وإلا كان من الوجب علينا أن نهمل كل الوسائل الحديثة بحججة أنها غير طبيعية أو ليست بما ومهبه الطبيعة لنا . فالسيارة مثلاً وهي ولا شك شيء مصنوع يجب أن نتركها كوسيلة للركوب من أجل الحصان بوصفه الوسيلة الطبيعية لذلك . فليست المستحدثات في الدنيا إلا تعبيراً عن ذكاء الإنسان وثقافته ، وانتصاراً على الطبيعة ذاتها . لا عيب إذن في أن تكون اللغة مصنوعة .

وأما مسألة الحياد فع أنها قد تولد الحساسية بين الشعوب ، هي في الحقيقة حجة أسرف في تصويرها أولئك المعارضون للغة المصنوعة . فإذا يجدى أن تخثير من لغة « البانتو » مثلاً عدة كلمات تتحدثها في تلك اللغة المصنوعة ، وما أهمية هنا في الحفاظ على شعور شعب من الشعوب . بل إن الأخذ من كل لغات العالم بحسب معينة سيتتجز لنهاية الأمر مزيجاً عجيناً لا انجمام في عناصره ، ولذلك اقتصر أصحاب اللغات المصنوعة على الأخذ من أشهر اللغات الحية وأكثرها تحضراً . وقد أدت العناية بمبدأ الحياد وشدة الحرص عليه إلى ذلك الاقتراح المصلح الذي نادى به دكتور « ليون فرست » بأن تستمد أجرؤية اللغة العالمية من عشر لغات هي : الإنجليزية . الصينية . العربية . الروسية . الهندوسانية . المغاربية . الأندونيسية . الإسبانية . السواحلية . الموسية .

وأما النقد الثالث وهو احتمال تشعب هذه اللغة المصنوعة إلى لهجات ثم إلى لغات مستقلة ، فقد بناء أصحابه على الأمثلة التاريخية التي منها تشعب اللاتينية إلى عدة لغات مستقلة في العصر الحديث . وقد أشرنا آنفاً إلى وهن هذه الحجة وضعفها إزاء ما ثراه الآن من سهولة الاتصال بين الشعوب . بل

وضرورته الملحة ، وما نتوقعه في المستقبل من زيادة مطردة في هذا الاتصال ، بحيث لا يتصور في مستقبل الإنسانية انزالاً شعب عن المحيط اللسولي ، ولا حتى ما يشبه الانزال . فالعالم في كل شئونه صائر إلى نوع من الوحدة في كل مظاهر الحياة ، ومن بينها في أغلب الفنون اللغة ، وستصبح لعنة بابل حيث ذهاباً إلى مجرد أسطورة .

وقد اشتهر الجدل والتناوش حول الصورة التي يمكن أن تكون عليها اللغة العالمية ، وليس حول^٢ الضرورة الملحة في وجودها . فالكثرة الغالبة من المفكرين والمصلحين مقتنعون كل الاقتتاع بضرورة هذه اللغة ونفعها للإنسانية ، ولكنهم مختلفون في كيفية تكوينها وفي معاملتها وسبلها . ومن هنا يليق في هذا الصدد عدّة اقتراحات أشهرها :

١ - اقتراح ينادي بأن اللغة العالمية يجدر بنا أن نتمد عناصرها من أشهر اللغات الحية ، وأن نصنعها من تلك العناصر في حيادية، ودون ميل خاص إلى أي منها . ويحيث تتسنم بالمسؤولية في نطق أصواتها والاطراد في قواعدها وتراكيبيها . وليس من الضرورة أن تطابق المنطق العقلی العام يقدر ما هو من الضرورة الملحة أن تكون ميسرة نطقاً وأداء وتعبيرأً، على جمهور الناس ، وتلك هي اللغات المصنوعة التي أشرنا إلى أمثلة منها .

٢ - اختيار إحدى لغات العالم وفرضها على المتكلمين بوصفها لغة عالمية ، دون تغيير في صفاتها أو خصائصها . غير أن أصحاب هذا الاقتراح قد اختلفوا فيما بينهم حول أي اللغات تختار ، وهل تختار من اللغات القديمة أو الحديثة ؟ وظهر فيما بينهم من يريدون اختيار اللغة الإغريقية .. ومن يؤثرون اللاتينية ، ومن يفضلون الفرنسية ، وأخيراً وليس آخرأ من يميلون إلى اختيار الإنجليزية . ويبدو أن الإنجليزية هنا تظفر بأغلبية كبيرة دليلها ما حدث في مؤتمر « بندونج » ، حين أرغمت الصين الشعبية على اصطناع الإنجليزية في التفاوض بين المؤتمرين وفي صوغ قرارات المؤتمر .

٣ - اختيار إحدى اللغات الخمسة المشهورة بعد إجراء تغييرات فيها لتصبح

ملائمة بقدر الإمكان للناس جميعاً . غير أن هذا الاقتراح لم يظفر بمحاولات في تطبيقه إلا على يد العالمين اللغويين المشهورين «رشارد» و«أوجدن» . Basic English سنة ١٩٣٠ في مشروع سميه بالإنجليزية الأساسية . فقد اختصرت الكلمات الإنجليزية إلى نحو ٨٥٠ كلمة جعلت أساس كل تعبير بهذه اللغة ، واعتمد في اختيار هذه الكلمات على كثرة شيوخها . وقد كان هدف «رشارد» و«أوجدن» من مشروعهما أن ييسرنا تعلم الإنجليزية على الأجانب ، وأن يكون هذا المشروع بمثابة نواة اللغة العالمية . وقد أهتم «ترشيل» بهذا المشروع في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وشجع عليه . غير أن الشك في نجاح هذه الفكرة أخذ يخامر الأذهان بعد أن حاول بعض الدارسين صياغة إحدى خطب «ترشيل» في صورة تلك اللغة التي تسعي بالإنجليزية الأساسية ، وفشل التجربة فشلاً ذريعاً^(١) .

ولشهرة هذا المشروع وطراحته يجدر بنا أن نشير إلى بعض معالمه ومميزاته ، ثم إلى ما ورثه إليه من تقدّم في المجال العالمي .

فالاختصار كلمات اللغة الإنجليزية إلى ٨٥٠ كلمة يجعل من البسيط على المرء أن يسيطر عليها خلال ثلاثة أشهر ، هذا إذا قطع بتعلم اثنى عشرة كلمة في اليوم . ويرؤكد لنا المؤلفان أن أهم ما يساعد على نجاح هذا المشروع كلغة عالمية ، على الأقل في التخاطب والتعبيرات العامة ، ما تستسم به الإنجليزية نفسها من صفات وأوضاعها : بساطة قواعدها أو أجر ورميها ، ونحوها من اللواحق التي تعبّر عن الحالات الإعرابية ، وأنها أوسع اللغات انتشاراً في العالم .

وعدد الأفعال التي وقع عليها الاختيار لا يتجاوز ثمانية عشر فعلاً هي :

Come, get, give, go, keep, let, make, put, seem, take, be, do, have,
say, see, send, may, will.

ومن هذه الأفعال مع بعض الأدوات أو الأسماء يمكن تكوين مئات من

التعابير التي تغنى عن مثات من الكلمات الإنجليزية . فثلا : قد keep up قد تغنى عن sustain ، go through تغنى عن penetrate .

واختار المؤلفان مع هذه الأفعال ٤٠٠ اسم من الأسماء العامة مثل Government كا اختارا ٢٠٠ من الأسماء ذات الدلالة المحسنة مثل : Apple, Horse، Machine و ١٥٠ وصفاً مثل : full, important .

و حين نتساءل عن رأي الإنجليز أنفسهم في هذه اللغة نجد أن معظمهم لا يتحمسون لها ، لأنها تتطلب منهم أن يتسلوا ما تعلموه منذ الطفولة من مثات الكلمات التي يملؤها تحصيلها جهوداً كبيرة ، وأن يحملوا ذلك التراث الضخم من الألفاظ التي جرت على الألسنة عبر القرون .

وفي الحق أن النفع الذي يرجى من وراء هذا المشروع لا يساوى ما يصيب اللغة الإنجليزية الأصلية من تشويه ، ومن اضطراب في التفكير ، وفي الكلام ، بين أبنائهما . بل يصبح من الخطم على الإنجليزي نفسه أن يتعلم هذه اللغة كما يتعلم لغة أجنبية ، وأن يصادف في هذا من العنت والمشقة ما لا مسوغ له .

أما من حيث ما يدعوه أنصار هذا المشروع من أنه أمكن في سهولة ويسر ترجمة كثير من أجزاء العهد القديم إلى هذه اللغة ، فيجب أن نذكر أن اللغة الإنجليزية قد تعمت نمواً كبيراً في أساليبها وتعابيرها منذ عهد الملك جيمس ، بدليل تلك المحاولة الفاشلة حين حاول بعض الدارسين أن يترجموا إلى هذه اللغة خطبة « تشرشل » التي ططنن فيها بأهمية هذا المشروع .

وأما موقف الأجانب من هذا المشروع فيكتفى أن نذكر هنا أن معظم ممثلي الحكومات في الأمم المتحدة قد أعلنوا رفضهم له حين اقترح عليهم ليكون بمثابة لغة عالمية . وعارضه أيضاً الكتاب الأجانب في الأمم الأخرى ، وأخذت معارضتهم له إحدى صورتين : صورة جدية حين وصفه بعض منهم بأنه دعوة إلى التمييز العنصري وإلى الإمبريالية ، وصورة أخرى ساخرة حين وصفه البعض الآخر بأنه لا يبعد أن يكون حركة أريد بها إفساد لغة من أهم لغات

العالم ، وخلق سوق سوداء في «الأفعال» و«الصفات» !!

ومع هذا فقد حاول بعض اللغويين في البيئات الأخرى تقليل هذا المشروع في لغاتها . ولم ثبت أن سمعنا عن «الإسبانية الأساسية»، «الروسية الأساسية» بل «الصينية الأساسية» . فإذا كانت اللغة الإنجليزية قد فشلت في مثل هذا المشروع ، فأولى بفشل أكبر تلك اللغات ذات القواعد المعقّدة والأصوات الصعبة والتي أفالها ليست كمعظم الألفاظ الإنجليزية ذات طابع عالمي في أصواتها وبجالات استعمالها .

٤ - اختيار لغتين أو أكثر ، وتقسم الدنيا إلى مناطق ، في كل منطقة تستعمل اللغة المختلفة لها بوصفها لغة مشتركة تنتظم كل أنها ، ويتكلم بها جميع الناس فيها . وقد دعا «ستالين» لذلك غير أن هذا الاقتراح لا يكاد يتحقق وحدة الإنسانية ، ولا يعدو أن يكون الوضع القائم الآن في العالم . هنا إلى أنه يفرض على غير أصحاب هذه اللغات المختلفة عيناً ثقلياً ، ويجعلهم في وضع أدنى . وقد تصيبهم من أجل ذلك عقدة التقص الشعوي التي أشرنا آنفًا إلى أنها كثيراً ما تثير الشعوبية والانفصالية .

ومع كل ما تقدم من أمثلة الفشل في تحقيق اللغة العالمية التي تتطلع إليها الإنسانية نجد أن هناك عدلين هامين تزداد مع الزمن أهميتها وأثرها في تطوير المجتمع الإنساني وهما :

١ - اطراد السهولة في اتصال الشعوب بعضها ببعض ، وتحمية الزيادة المستمرة في هذا الاتصال على مرور الأيام .

٢ - شعور الناس في جميع بقاع الأرض بحاجتهم الملحة إلى وسيلة موحدة للتفاهم . سواء تم هذا عن طريق لغة مصنوعة أو لغة طبيعية ، قديمة أو حديثة لا بهم ، وإنما المهم وجود هذه اللغة والاتفاق عليها بين الناس جميعاً ، كلاماً ونطقاً ، بل كتابة وخطاً أيضاً .

العالم إذن في مستقبله في أشد الحاجة إلى لغة عالمية موحدة الأصوات موحدة الألفاظ موحدة التراكيب والأساليب ، وأنجيراً موحدة الرموز الخطية .

على أنها لا تحفل كثيراً بوحدة الخط أو الرموز الكتابية في العالم ، وتنبأ دائماً فيها ذهاباً من بحوث باندثار هذه الكتابة المجائية في مستقبل الأيام ليحل محلها التسجيل الصوتي ، أو الكتابة التي تقرأ بالأذن لا بالعين .. فمنذ ما يقرب من ثلاثة قرناً استقرت الكتابة المجائية على الوضع المأثور لنا الآن وهو تخصيص رمز كتابي لكل صوت من أصوات اللغة . ولم يكدر يصيبها خلال كل هذا الزمن الطويل تطور يذكر ، في حين أن نطق الألفاظ قد ناله تغير بعيد المدى ، مما أدى إلى تلك الحال التي شهدتها الآن في كثير من اللغات الحديثة حين نجد رمزاً تكتب ولا تنطق ، وأصواتاً تنطق ولا تكتب :

وفي العلم الآن أنواع خمسة أساسية للرموز الكتابية : لا تزال تصطبغ في بعض اللغات فتزيد الفرق بين الشعوب :

١ - الرموز اللاتينية وهي التي تكتب بها معظم لغات أوروبا مع لغات أخرى في العالم ، وأمرها معروف لنا .

٢ - الرموز « السيريلية » وهي التي وضعها اثنان من كبار رجال الدين في القرن التاسع الميلادي بالقسطنطينية وهما : « سيريل » و « ميثودياس » ونسبت بعد ذلك إلى الأول منها وسماه . وقد استمدت هذه الرموز من الكتابة الإغريقية القديمة مع بعض التعديل والتحوير لتناسب أصوات اللغات السلافية . وتشيع الآن هذه الكتابة بين معظم الشعوب السلافية التي تعتنق المسيحية الشرقية مثل روسيا : أوكرانيا : الصرب ، بلغاريا . في حين أن بولندا وتشيكوسلوفاكيا وكراتوفيا تستخدم الرموز اللاتينية برغم أن سكانها من « المسلمين » .

ووترتب على هذا أن اللغة السائدة في بوغوسلافيا وهي « الصربية - الكرواتية » التي تعدّ في الحقيقة لغة واحدة ، تكتب في هذه الدولة بطريقتين : اللاتينية والسيريلية . وقد ذكرنا بهذه الحال في « بلجراد » أسماء الشوارع التي تكتب بهاتين الطريقتين : وكذلك الإعلانات العامة : بل حتى بعض الصحف القومية .

٣ - الرموز العربية التي تستخدم الآن في كل البلاد العربية وجهات اللغة بين القومية والعاشرية

أخرى من العالم مثل لغة « الموسة » في غرب أفريقيا ، والسوahlيل في شرقها ، كما تستخدم في جاوة والملابو وإيران وباكستان وبعض جهات الفلبين .. إلخ .
٤ - الرموز الصينية التي تستخدم في جمهورية الصين وفي اليابان وكوريا وجهات أخرى من آسيا .

٥ - الرموز الديقانا جارية Devanagari وهي الرمز التي كانت اللغة السنسكريتية تكتب بها ، وظلت تستخدم حتى الآن في اللغة الهندستانية الحديثة . ومعنى الاسم « ديقانا جارية » : المنسوب إلى مدينة الآلة^(١) .

ويصف اللغويون المحدثون هذه الكتابة المجائية بأنها صورة فاقرة في تصوير اللغات كما ينطق بها أبناؤها . وقد دعت هذه الحال بعض المصلحين في كثير من الأمم إلى التفكير في إصلاح الهجاء أو الإملاء . غير أن كل تلك المركبات الإصلاحية لم تتوت ثمارها وباءت بالفشل . فقد أشتق حتى هؤلاء المصلحون من إعادة طبع تلك الآلاف من المجلدات التي هي تراث كل لغة بالإملاء الجديد . كذلك خشى أصحاب الدعوة إلى إصلاح الهجاء في اللغات الأوربية ، بصفة خاصة . من ابتعاد الألفاظ التي تسمى إلى أصل واحد بعضها عن بعض : فيبني ذلك الأصل . ويصل الدارسون في التعرف عليها . ويندو أن من الأسباب التي باعدت بين كتابة الألفاظ ونطقها في معظم اللغات الأوربية الحديثة أن هذه اللغات قد اتخذت الرموز اللاتينية . وطبقها على كلماتها ، فلم تصلح لها صلاحيتها للغة اللاتينية .

وهكذا نرى أن الكتابة المجائية في العالم كانت وما زالت وسيلة فاقعة للرمز إلى الألفاظ كما ينطق . وأنها جمدت فلم تتطور منذ قرون كثيرة . ولم تعد صالحة لحل كل المشاكل اللغوية بعد أن قطعت الإنسانية ذلك الشوط بعيد من الحضارة . فهي وإن خدمت الفكر الإنساني في العصور الماضية ، وهي وإن كانت في بدء نشأتها قد نسبت إلى الآلة وتُنظر إليها نظرة تقدير ، قد أصبحت الآن لا تلائم عصر الذرة والمذيع .

لذلك تنبأ بمستقبل فيه تسجيل اللغات تسجيلاً صوتياً يقرأ بالأذن لا بالعين. وإذا كان المثل الصيني القديم يقول : «إن الخبر مهما كان شاحناً فهو خير من أقوى ذاكرة» ، فذلك لأنه لم تكن هناك وسيلة أخرى لحفظ التراث الفكري زمناً طويلاً ، ولأن الاعتماد على العين في القراءة قد أضعف الذاكرة السمعية ، فلم تعد لها تلك القوة التي رويت لنا عن العرب القدماء أيام الأمية في شبه الجزيرة .

وليست الكتابة المجائية في حقيقة أمرها سوى رمز لما هو نفسه رمز .. فتحن نكتب رمزاً لتوضيح رموز أخرى هي الأصوات التي نسمعها في أثناء النطق. وأصوات اللغة ليست إلا رمزاً لما يدو في الأذهان من الدلالات والمعانى التي هي المدف الحقائقى من كل كلام . فلماذا تتحدى وسيلة إلى وسيلة أخرى إذا كان من المعكן تسجيل تلك الأصوات كما تنطق فوق الأشرطة والأسطوانات ؟

فالكتاب المجائية بعد اختراع «الراديو» وانتشار الإذاعة والفيلم الناطق بدأت تفقد كثيراً من أهميتها . وأصبحنا الآن تنبأ بمستقبل اللغة فيه يعود تسمع سلطانه . وفيه تمرن الأذن حتى تكون أكثر حساسية وإرهاقاً . فتشير بين الفروق الصوتية منها لطفت . وتنسى من الكلام ما تأبه الأذن ، وما يتبو في السمع ، وتصير اللغة إلى الموسيقى أو ما يشبه الغناء . وحيثذا يسود أدب الأذن . تلك الأداة الطبيعية التي نشأت اللغات معها . ونمت وازدهرت في ظلاماً آلاً من السنين في قديم الزمان . فصير الثقافة اللغوية العالمية مرهون كلها بالإذاعة وانتشارها : والتسجيل الصوتي وشروعه .

وفي الحديث عن اللغة العالمية تعرّض الباحثين مشكلة الكبار من أبناء الشعوب أولئك الذين استقرروا على لغة معينة لا يتكلّمون غيرها : ولا يقوون على تعلم لغة أخرى .

غير أنا ونحن بصدق مشروع عالمي يهدف إلى سعادة الإنسانية كلها في المستقبل ، ويكفل لكل الأجيال القادمة وثاماً وسلاماً وأمناً ورحماً : يحب إلا

تشغل أنفسنا بحيل واحد من الناس . فليكن هنا البديل هو الصحبية أو القريان التي تقدمه الإنسانية لسعادة الأحفاد ، وسعادة السلام والاطمئنان بينهم . وهكذا نرى أن الدعوة إلى لغة عالمية قد مرت في مراحل متعددة ، وقدّمت بتصديها مقترنات متعددة ؛ لعل أكثرها قبولا لدى الدارسين ما ينادي به معظم الباحثين من اختيار لغة عالمية يتعلّمها الناس جميعاً منذ طفولتهم مع لغتهم الخلية . أى أن يصبح المرء ثانئ اللغة له لغته التي لقّها منذ ولادته وبين أهله وذويه . ومعها جنباً إلى جانب لغة أخرى عامة يبدأ تعلّمها في دور رياض الأطفال والمدارس الابتدائية ، وسيطر عليها مع الزمن ، حتى إذا شب وأصبح بحاجة إلى التفاهم مع أبناء بيته أخرى وجد السبيل ممهدًا والاتصال بسيراً .

وتحتاج تجاذب المربين من المحدثين على أن تدرب الطفل على لغتين أمر ممكن ، بل هي ميسرة حتى مع متوسطي الذكاء من الأطفال . وكل الذي تحتاج إليه الشعوب لتحقيق هذا صدق العزيمة من جانب هيئات الحاكمة ومن بين يديهم مقاييس الأمور في الدول المختلفة^(١) .

ويجب لضمان نجاح الفكرة العالمية في اللغة أن تبدأ الدعوة خارجاً بين الشعوب لا على أساس لغة معينة . بل على أساس الاقتناع بالفكرة والتحمس لها . فإذا تم الاقتناع بها وتحمس كل الشعوب لها ، أمكن بعد ذلك التفكير في اللغة التي يضع عليها الاختيار .

فالاقتراحات مع تعددتها مدرروسة دراسة وافية ، ولا تتطلب مزيداً من البحث ، وليس على الشعوب إلا اجماع كلمتهم على تلك اللغة التي يختارونها : ثم تفرض الحكومات تعليمها على الجيل الناشئ من رعاياها على التحور الذي تشهده الآن في محو الأمية أو قل : مع عزيمة ألمضى وجهد أكبر وثقة بالمستقبل .

فإذا تم الاتفاق بين الدول بصرف النظر عن نظمها السياسية والاقتصادية

يمكن أن تؤلف اللجان ذات الصبغة العالمية ، وأن يوكل إليها اختيار تلك اللغة المنشودة ؛ وتنظيم الحطة التي تكفل تحقيق ذلك المدف الإنساني النبيل .

ويشهد العالم الحديث وسائل للاتصال بين الشعوب لم يكن يحلم بها من قبل حتى أكثر الناس تفاؤلا في مستقبل الإنسانية . فلم تعد البحار أو الجبال أو الصحاري تحول بين الشعوب ؛ ولم يعد من الممكن لأحد هذه الشعوب أن يعزل عن العالم ؛ أو أن يعيش على الاكتفاء الذاتي . فحتمية الاتصال من أوضح مظاهر العصر الحديث . ولدينا الآن من الطائرات ما يغوص سرعة الصوت ؛ بل لدينا الإذاعة والتليفزيون وسفن الفضاء وغيرها من وسائل جعلت قول : « الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبلاً أن يرتد إليك طرك » ، أمراً قريباً لا يحتمل غير بعيد المنال .

وتحاول الشعوب الآن جاهدة زيادة الصلة بينها ، ونجحت حتى الآن في لغة الموسيقى ورموزها العالمية ؛ فأصبح الموسيقيون في العالم الآن يفهم بعضهم بعضاً في سهولة ويسر . كما نجحت في كثير من مصطلحات العلوم ورموزها ولا سيما في الكيمياء والرياضية . ثم أخيراً تلك المنظمات العالمية كاليونسكو ومنظمة الأمم المتحدة .

ومع كل هذا لايزال الاتصال مقصوراً . والتفاهم غير نام . بسبب ما يعوز الإنسان فوق الأرض من وسيلة يخاطب بها الناس ؛ ويعبرون بها لا عن أفكارهم وأراءهم فحسب . بل عن أحاسيسهم وعواطفهم أيضاً . وتلك هي اللغة العالمية التي تتطلع إليها الإنسانية .

ولا يصح أن ننساق مع بعض المنشائين من المفكرين الذين يؤكدون لنا استحالة وجود هذه اللغة ، ويررون في أمثلة التاريخ ما يؤيد رأيهم ، وأن لعنة بابل ستظل تلاحق الإنسان في حياته الدنيا إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات . ففي رأيهم أن اللغة دورة حتمية تتلخص في أن لمحات اللغة ينشأ بها صراغ . ثم لا ثبات أن تتغلب إحداها وأن تكون على أساسها لغة مشتركة تضم شعوباً متعددة . ثم يصيب المرم أو الشيشوخة هذه اللغة المشتركة

بعد حين ، فتندثر أو تنحل إلى هيجات متباينة وتعود سيرها الأولى .

اللغات إذن في رأيهم تنازعها الوحدة ثم الفرقة أو الاندثار ، ولن يكتب لإحداها الخلود ، ولن تنتظم إحداها كل مناطق الأرض : وكل شعوب الأرض ، سواء منها اللغة الطبيعية أو اللغة المصنوعة .

ونحن مع هنا نشعر بميل إلى رأى المتفائلين من المفكرين ، وهم كثيرون منهم اللغوي و منهم الفيلسوف ومنهم المصلح الاجتماعي . ويرؤمن هؤلاء المتفائلون بإيماناً عميقاً بأن مصير العالم إلى الوحدة اللغوية ، وأن كل الدلائل في العصر الحديث تشير إلى هذا . أما ما يتحدث عنه المشائخون من انحلال اللغة إلى هيجات فيها مضى من عصور التاريخ ، فإنما كان ذلك بسبب انعزاز البيشات بعضها عن بعض ، وتلك حال لا يتصور تكرارها في العصر الحديث . فشبكة الاتصال بين شعوب العالم الآن محكمة العلاقات وثيقة العرى ، ولن يشهد عالم المستقبل ما كان يسمى في الماضي بالبيئة المنعزلة . إذ تلح الحاجة إلى مزيد من توثيق الصلات بين بني الإنسان يوماً بعد يوم . وكل الذي يتطلبه تحقيق ذلك الحلم السعيد المتمثل في لغة عالمية . هو صدق العزيمة من جانب الحاكمين في كل شعب .

فإذا اتفقت كلتهم في منظمة الأمم المتحدة مثلاً، وخلصت نواباً لهم . وأمنوا أن كثيراً من شرور الدنيا وما فيها مبعثه الحقيقي فقدان الوسيلة المشركة للتّفاهم بين الناس جميعاً ، أمكن تحقيق ما تصبو إليه الإنسانية .

وأيّاً كانت تلك اللغة العالمية التي ستستقر عليها إرادة الشعوب . صعبة أو سهلة ، طبيعية أو مصنوعة ، واسعة الانتشار الآن أو ضيقة ، فكل هذه تفاصيل يمكن أن تدرس وأن تكون محل البحث بين منطوري الشعوب في هذه المنظمة . والأمر الخامس في هذا هو أن يحس حكام الشعوب إحساساً صادقاً أن في اللغة العالمية تحير البشرية وسعادتها ورضاها .

ومع هذا فليس الأمل في تحقيق ذلك الحلم السعيد مقضياً عليه إذا لم تتفق

٣٢٧

الشعوب على أمر معين ، أو لم يهتدوا بإرادتهم إلى تلك اللغة المنشودة ، فسيكفل التاريخ تحقيق ذلك ، وإن كان في شكل أبطأ ، وفي زمن أطول .

ويتبناً بعض المحدثين من اللغويين بأن الصراع القائم الآن بين الكتلتين الشرقية والغربية سينتهي حتماً إلى انتصار إحداهما : وستفرض الكتلة المتقدمة لغتها على العالم لتصبح اللغة العالمية للناس جميعاً (١) .

ولكننا في تفاؤلنا لا نذهب إلى مثل هذا الرأي ، ولا نقتصر به . بل نتخد من التطور التاريخي للإنسانية ، فبراماً يهدينا إلى مستقبلها أو نستشف منه مصيرها .

ومني سلمنا بأن النظام القبلي في تاريخ البشرية لم يكن إلا امتداداً لنظام الأسرة ، وأن نشأة الدول لم تقم إلا على أساس ذلك النظام القبلي ، فليس من الشطط في التفكير أو الإسراف في التفاؤل أن تتصور أن الدائرة تتسع مع الزمن : وأن نظاماً عالمياً يقوم على أساس المدن والقرى ، ويكون امتداداً للدول ونظمها الحاضرة .

فإذا تحقق هذا وأصبح للعالم نظام سيامي واجتماعي موحد . نشأت تلك اللغة العالمية من حيث ندرى ولا ندرى . وببلغت الإنسانية أقصى ما تصبو إليه .

* * *





الفهرس

صفحة

المقدمة

٥

الفصل الأول : اللغة ٣٨ - ١١

١ - أوضح تعريف اللغة

٢ - المقومات الأربع في كيان اللغة :

أولاً : نظام اللغة : فلكل لغة نظام وقواعد تخضع لها . حتى
في أكثر اللغات بدائية . هل القدر المشترك بين نظم
اللغات مصدره الفطرة الإنسانية ؟ أمثلة من وجوه
التشبه بين اللغات في العالم .

ثانياً : عرفية اللغة ، وأدلة المحدثين على عرفية الظواهر في كل
لغة . تأصل العرف في اللغة وعمق جذوره ، وأكتسابه
ما يشبه القديمة . الفرق بين العرف في اللغة والعرف
في بعض المظاهر الاجتماعية الأخرى .

ثالثاً : الأصوات . عرض سريع للدور الأصوات في اللغة
الإنسانية .

رابعاً : المجتمع الإنساني . لا وجود للغة إلا في مجتمع إنساني .
هل كان ليطل قصة حتى بن يقطان لغة إنسانية ؟
وهل يمكن أن تنشأ للطفل الذي تربى القردة والغزلان
لغة ؟ وهل لأنواع الحيوان لغة كلغة الإنسان ؟ دور
المجتمع الحديث في الثورة اللغوية الحديثة .

الفصل الثاني : القومية

٨٧ - ٣٩

١ - صعوبة تعريف القومية .

٢ - موقف القدماء من فكرة القومية .

٣ - أطوار المجتمع الإنساني : نظام الأسرة ثم النظام القبلي ثم نظام
الدولة .

صفحة

- ٤ - التشخيص الصحيح للقومية يتم في ضوء التاريخ الحديث .
- ٥ - ظهور القوميات الحديثة في إفريقيا أولاً : وعوامل نشأتها .
- ٦ - انتشار تيار القومية في سائر أوروبا وموقف الدول الكبرى منها .
- ٧ - تسرّب فكرة القومية إلى إفريقيا ; واستقلال عدد كبير من دولها .
- ٨ - القرمية في آسيا .
- ٩ - مقارنة بين الظروف التي نشأت فيها القوميات بأوروبا ; وذلك التي نشأت فيها بإفريقيا وآسيا .

١١٢-٨٨

الفصل الثالث : اللغة والقومية

- ١ - موقف بعض السياسيين الساخطين من القومية .
- ٢ - اختلاف الباحثين في أمر الدعامة الأساسية للقومية ، هل هي مشيّة العيش المشتركة ؟ هل هي المصالح الاقتصادية المشتركة ؟ هل هي اللغة ؟
- ٣ - فكره الأجناس البشرية ، إلى أي مدى تسهم في تشخيص القومية ؟
- ٤ - الدين أو العقيدة وصلتها بال القوميّة .
- ٥ - الثقافة ومدى ثورتها في تشكيل القومية .
- ٦ - لغة أساس كل قومية : دور اللغة في الأسرة .
دورها في القبيلة : دورها في القرية والمدينة .
- ٧ - اللغة المشتركة تعيّر آخر لا يسعى بال القوميّة . المدرسة الألمانية وربطها الوثيق بين اللغة وال القوميّة .
- ٨ - دحض حجج الذين يسوقون « بلجيكتا » و « سويسرا » كأمثلة تبرهن على وهن الربط بين اللغة وال القوميّة .

١٤٧-١١٣

الفصل الرابع : فتش عن اللغة

- ١ - أمثلة حية لمشاكل الحدود بين الدول . ودور اللغة في هذه المشاكل .
- ٢ - مشاكل مصدرها اختلاف اللغة : في الهند :
 - (أ) بولنديه « بيهار » بين اللغة الأوردية واللغة الهندوسناتية .
 - (ب) مطالية « السيخ » بولنديه تسود فيها لغتهم « البنجابية » .

- (٤) الصراخ الدموي في منطقة ، مدراس ، زين اللغتين ،
المنسقانية ، و ، التامل ، .
- ٢ - مشاكل اللغة في أفريقيا ، وغرب ، وكندا ،
- ٣ - أشهر المشاكل بين دول أوروبا : دور اللغة فيها : -
الأراضي والآوربيين ، منطقة السار ، في لوكسمبورج ، على
حدود ألمانيا ، في بلجيكا ، في أيرلندا ، في فنلندا ، في بولندا ،
في تشيكوسلوفاكيا ، في المجر ، في النرويج ، في البلقان ، إلخ .

الفصل الخامس : أشهر اللغات القومية الحديثة

١٧٠-١٤٨

أولاً : في أوروبا :

- ١ - من المجموعة الجرمانية : الدنماركية ، السويدية ،
النوروبية ، الإسكندرية ، الألمانية ، البولندية ،
- ٢ - المجموعة البلطية - السلافية : التشيكية ، البولندية ،
السلوفينية ، الصربية الكرواتية ، البلغارية ،
التشيكوسلوفاكية ، البولندية ، الروسية بعضها ،
الأوكرانية .
- ٣ - من مجموعة اللغات الرومانية : الرومانية ، الإيطالية ،
الرومنية ، القطلونية ، الإسبانية ، البرتغالية .
- ٤ - اليونانية الحديثة .
- ٥ - اللغة الألبانية .
- ٦ - « الفنلدية » لغة فنلندا .
- ٧ - المجرية .

ثانياً : في آسيا :

- المنسقانية ، السهالية ، البنغالية ، المهرانية ، البنجابية ،
الفارسية ، الكردية ، الباشتو ، الأرمينية ، التركية ، التاميلية ،
الكتانية ، التلوجو ، لغة الملايو ، الصينية ، التبتية ، البرمية ،
البنانية الكورية .

ثالثاً : في أفريقيا :

- الأمهرية ، الصومالية ، المجموعة السودانية ، مجموعة البانتو .

صفحة

٤٧١ - ٤٣٧

الفصل السادس : القومية العربية

١ - مقوماتها في رأى بعض الدارسين . ومتناقضه هذا .

٢ - مدى صلتها بالإسلام .

٣ - القومية العربية قبل الإسلام ومتناقضها في اللغة .

٤ - القومية العربية في عصر الأمويين ومتناقضها في اللغة وأدابها .

٥ - انتشار الإسلام في فارس .

٦ - صراع العربية مع الفارسية .

٧ - الشعوبية صراع لغوي .

٨ - أطوار تاريخية للعروبة : انحدار قيام الأدب من شبه الجزيرة .

إلى البصرة والكوفة . ثم إلى بغداد . ثم إلى الشام . ثم إلى مصر .

٩ - استقرار القومية العربية في الأمصار باستقرار اللغة العربية فيها .

١٠ - القومية العربية في العصر الحديث ودور اللغة فيها .

٤٣٨ - ٤٥٤

الفصل السابع : العالمية واللغة

١ - فعل المجتمع الإنساني في تحقيق السلام خلال العصور التاريخية .

٢ - هل تمثل الأسرة قومية صغيرة ؟ وهل تمثل القبيلة قومية أكبر ؟

٣ - دور اللغة في الربط بين أفراد الأسرة وأفراد القبيلة .

٤ - نظام الدولة الحديثة امتداد لنظام القبيلي .

٥ - دعوة الإسلام والمسيحية إلى العالمية الروحية و موقفهما من اختلاف اللغات .

٦ - يوادر الشكراة العالمية في العصر الحديث .

٧ - القومية سلاح ذو حدين . ما ثرها ومثالها .

٨ - هل تنتصر العالمية على القومية في المستقبل ؟ وهل تصبح العالمية امتداداً لقومية الدولة كما أصبحت الدولة امتداداً لقبيلة ؟

صفحة

٢٨٢—٢٥٥

الفصل الثامن : لغات عالمية في التاريخ .

١ — اللغة الأكادية :

- (أ) صراعها مع اللغة السومرية . ونتيجة هذا الصراع .
 (ب) لغة الحضارة في عهد « حمورابي » ، ولغة البابليين
 والأشوريين .
 (ج) انتشارها بين عدّة شعوب في آسيا الصغرى .
 (د) اصطناع الدولة الفارسية لهذه اللغة .

٢ — اللغة الآرامية :

- (أ) انتشار الآراميين في مناطق آسيا الصغرى .
 (ب) أوضح صفات الشعب الآرامي المسألة والعزوف عن
 الغزوّات والمحروقات ، وإثمارهم للتجارة والتعايش السلمي
 مع الشعوب الأخرى .
 (ج) أسباب انتشار هذه اللغة : مسألة أهلها : وسهولة
 أصواتها وتراسيئها وهجائها ، وتشجيع الفرس لها .
 (د) روايات عن استعمالها يوصي بها لغة عالمية .
 (هـ) ما خلفته من نقش وكتابات في مناطق متعددة .
 (وـ) هل تركت الآرامية آثاراً في التهجّمات العربية الحديثة؟

٣ — اللغة الإغريقية :

- (أ) « الأتيكية » ، لغة الفنون والأداب والفلسفة في عصور
 الازدهار الثقافية الإغريقية .
 (ب) الإمبراطورية الإغريقية واسع رقعتها بعد الإسكندر .
 (ج) نشأة اللغة « الكورينة » كلغة مشتركة للإمبراطورية .
 وما ترسم به هذه اللغة ، وأشهر ما كتب بها .
 (د) كيف أصبحت لغة عالمية : والصفات التي أهلتها
 لذلك .

٤ — اللغة اللاتينية :

- (أ) لغة الإمبراطورية الرومانية . سعة انتشارها في الشرق
 والغرب .

مقدمة

(ب) اللاتينية الكلاسيكية ، واللاتينية العامة .

(ح) اللاتينية المسيحية في القرون الوسطى ، وتطورها في عصر النهضة إلى لغات أوربية حديثة . موقف المثقفين في أوروبا من اللاتينية في العصر الحديث .

٥ - اللغة العربية :

(ا) ازدهارها قبل الإسلام .

(ب) انتشارها مع الفتوحات الإسلامية . ثم استمرارها في مناطق متعددة من المحيط إلى الخليج .

(ح) تغلبها على اللغات في العراق والشام ومصر وبلاد المغرب .

(د) سمات العالمية في اللغة العربية .

(ذ) هل يمكن أن تتشعب العربية إلى لغات مسلمة كما حدث لللاتينية ؟

الفصل التاسع : لغات عالمية في العصر الحديث

١ - اللغة الفرنسية :

(ا) عصر النهضة الأوروبية .

(ب) نشأة اللغات الخمسة في أوروبا وبعها القويمات الخديوية .

(ح) تدهور شأن لاتينية الكلاسيكية وحمل اللغات المحلية محلها .

(د) بلغت الفرنسية ذروة مجدها في القرن السادس عشر . وظاهر عظمتها حينئذ .

(ذ) الفرنسية لغة عالمية مستخدمة منذ القرن الثامن عشر في المعاهدات الدولية .

(و) سعة انتشارها في مناطق متعددة من العالم . وأصطباعها في كل الطبقات .

٢ - اللغة الإنجليزية :

(ا) صراعها التاريخي مع الكلاسيك ، ثم مع « الفرنسية » .

(ب) الإنجليزية تستكمل كيانها المستقل في القرن الرابع عشر .

صفحة

- (ح) حركة الإصلاح الديني ، وأثرها في اللغة الإنجليزية .
 (د) اهتمام العالم الأوروبي بآداب الإنجليزية منذ القرن الثامن عشر .
 (ه) مشاركة الإنجليزية في المعاهدات الدولية منذ معاهدة فرساي .
 (و) الإنجليزية لغة عالمية ، والصفات التي أهلتها لهذا .

الفصل العاشر : لغة واحدة للعالم ٢٩٨-٢٢٧

- (ا) استفادة جالوب بهذا الصدد .
 (ب) آلاف من اللغات المختلفة تستلزم العالم ، وتسبب مشاكل متناعب للإنسانية لا حصر لها .
 (ح) مزايا الوحدة اللغوية في العالم .
 (د) بدء التفكير في اللغة العالمية واختلاف المفكرين في هذا الصدد .
 (ه) الجهود التي بذلت في وضع لغة عالمية : « الفولابيك » ، « الإسبرانتو » ، « الإيدو » ... إلخ .
 (و) أشهر الاقتراحات في وضع اللغة العالمية . والصورة التي تكون عليها .
 (ز) الإنجليزية الأساسية Basic English . وما وجه إليها من تقد .
 (ح) كيف تكتب اللغة العالمية ؟
 (ط) هل يتحقق وجود لغة عالمية تستلزم العالم كله في المستقبل ؟

